بدايات

فصلية ثقافية فكرية

العدد ١٥ ◆ خريف ٢٠١٦

العمارة والرواية

حوارية بيروت

الانتخابات الاميركية من اليسار◆ النيوليبرالية: المصطلحات واعادة البناء ◆ الثورات بشاباتها ◆ اليمن الجمهوري في الذاكرة ◆طريف خالدي يقرأ التراث العربي ◆ الامام محمود الطالقاني: الله والاشتراكية ◆سطوة النص الازهري؛ كتابة فلسطين؛ المسرح السوري ◆ الغرافيتي والشعراء؛ زكي ناصيف ٢

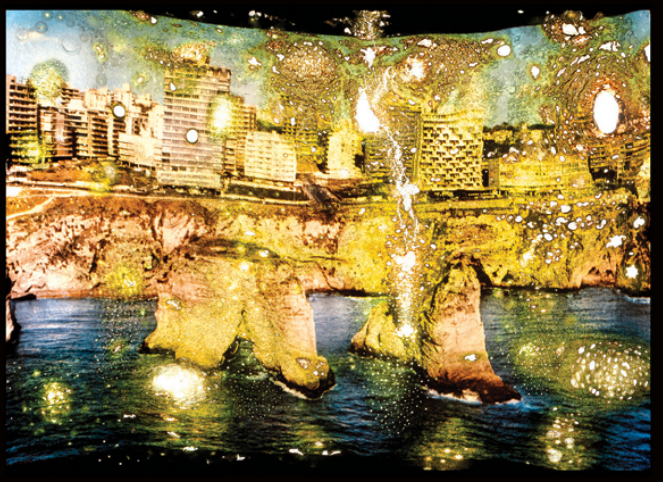

بدايات

لكلّ فصول التغيير

فصلية ثقافية فكرية

العدد ١٥ ◆ خريف ٢٠١٦

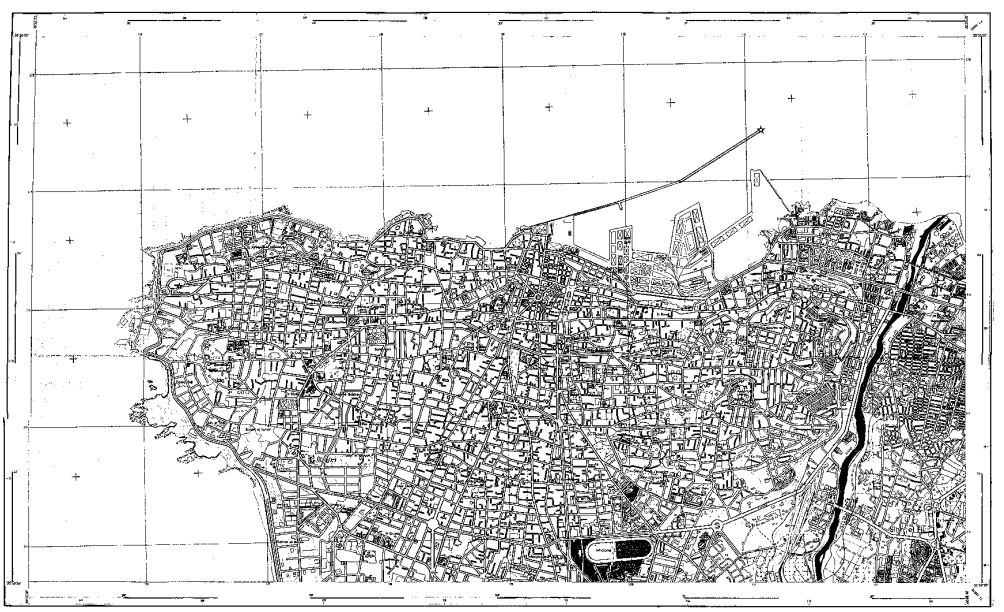

بدايات
رئيس التحرير: فواز طرابلسي
ادارة فنية: جنى طرابلسي
تصميم واخراج: لين الحوت
أبحاث الصور والرسومات: جمال صالح
تصميم صفحات الأقسام: عماد قعفراني
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: حسّان الزين

مجلس تحرير استشاري
آدم هنيه، الياس خوري، بشرى المقطري، زهير رحال، جلبير أشقر، رشا السلطي، فؤاد م. فؤاد، سحر مندور، سلامة كيلة، سليم تماري، سينثيا كريشاتي، صبحي حديدي، عساف كفوري، غسان عيسى، فاروق مردم بك، كامل مهدي، محمد العطار، ميسون سكرية.

تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد ١٣/٥٧٤٨
شوران، بيروت – لبنان
التوزيع: شركة «الناشرون»
لتوزيع الصحف والمطبوعات، ش.م.م.،
بيروت – لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

المحتويات

العدد ١٥ ◆ خريف ٢٠١٦

٤ **القتل من السماء**
تاريخ موجز للطيران الحربي
ضد المدنيّين
فواز طرابلسي

١٢ **رالف نادر «غير القنوع»**
عن حقوق المستهلكين
والانتخابات الرئاسية
حاورته ميسون سكّرية

٢٣ **حوار مع ادولف ريد**
جملة بيرني ساندرز
نجاحات وإمكانيات
حاوره دانييل زامورا

٣٠ **قصّتي مع الجنرال ميشال عون**
جويل بطرس

٣٦ **لا كرز بعد اليوم**
زينب سرور

٤٠ **عند حدود الـ٣١**
مريم حمود

٤٨ **إعادة البناء بعد النزاعات**
مثال فلسطين
توفيق حداد

٥٩ **مسرد موجز للحاضر**
النيوليبرالية والتلاعب بالدلالات
رشا السلطي

٦٤ **من مذكرات جارالله عمر**
الدفاع عن الجمهورية اليمنية
حاورته ليزا ودين

٧٦ **اليمن السعيد ١٩٦٦ – ١٩٦٧**
إعدام في عيد مولدي
رياض نجيب الريس

الأغلفة: بيروت العجيبة: قصة مصور مهووس بالحرائق، جوانا حاجي - توما وخليل جريج. بطاقات بريدية عن الحرب، تلكو. **الغلاف ١ و ٤:** #١٨\١٦ مقتبسة من: بيروت، ساحة الريفولي. **الغلاف ٢:** من اليمين للشمال، من الأعلى للأسفل. #١٨/٣ مقتبسة عن: بعلبك - أبواب مائية. #١٨/١٠ مقتبسة عن: بيروت - النزهة. #١٨/١٦ ساحة الشهداء. #١٨/٤ مقتبسة عن: بيروت - مغارة الحمام. #١٨/٥ مقتبسة عن: فندق السان جورج. #١٨/٧ مقتبسة عن: بيروت - نادي السبورتينغ. **الغلاف ٣:** من اليمين للشمال، من الأعلى للأسفل. #١٨/١٨ مقتبسة عن: شارع الفنادق. #١٨/٩ مقتبسة عن: بيروت - فندق الفينيسيا. #١٨/٨ مقتبسة عن: «لبنان، منظر عام لبعلبك وجمّاليها». #١٨/٢ بيروت - شارع ويغان. #١٨/١٥ مقتبسة عن: بيروت: ساحة الشهداء. #١٨/١٢ مقتبسة عن: «بيروت - منظر عام مع الجبال».

ملف

العمارة والرواية
حوارية بيروت

٨٦ **بيروت في حوارية الرواية والعمارة**
الياس خوري وجاد تابت

يا مين

١٢٤ **غرافيتي الشعراء**
محمد الحجيري

قيد النظر

١٣٦ **الإمام محمود الطالقاني**
أبو ذرّ زمانه

١٤٠ **مجتبى الطالقاني عن أبيه**
ثورة الدستور، السجن، معارضة
ولاية الفقيه
حاوره عبدالله عبدالله

١٤٥ **من مولفات الإمام طالقاني**
الإيمان بالله وبالاشتراكية

القلم

١٤٨ **ذهان الـ ٤٨،٤ لسارا كين**
أو مسرحة الانتحار
سارا كين

١٦٤ **محاولة في فهم المقاومة الثقافية**
السّورية
سينثيا كريشاتي

كتاب

١٧٠ **أنا القارئ وهذه كتبي**
طريف الخالدي

١٨٩ **السلطة والخطاب بين «الديني»**
و«السياسي»
«سطوة النص» لبسمة عبد العزيز
ضياء الدين محمد

١٩٧ **السماء ليست كاملة**
دفاتر سفر إلى فلسطين
إرمغارد إملهايننز

نوتة

٢٠٤ **العمل الإبداعي والبيئة الاجتماعيّة**
والجغرافيّة عند زكي ناصيف
أكرم الريس

٢١٦ **«الرفيق زكي»**
في الحزب السوري القومي الاجتماعي
أكرم الريّس

٢١٩ **شهادة عبد الحليم كركلا**
تطوير الألحان التراثيّة على
إيقاعات الجسد
عبد الحليم كركلا

القتل من السماء
تاريخ موجز للطيران الحربي ضد المدنيّين

فواز طرابلسي

كلّف المهندس السوري خالد ملص، بتجهيز الجناح السوري في «بينال البندقيّة الإيطاليّة للعمارة» صيف ٢٠١٤. شاركه في هذا العمل جنى طرابلسي وألفريد طرزي وسليم القاضي. اتخذت المجموعة اسم فريق «سجل» وعنونوا تجهيزهم «حفريات في السماء»[١].

انطلقوا من الطيران الميكانيكي الثقيل نموذجاً لتجربة حداثويّة للسيطرة على الأرض وتخصيصاً دور السماء في ما سمّوه «إنتاج الأرض». وقدّموا تجهيزهم عن دور السماء في انتاج الأرض بين تحت عناوين العناصر الأربعة.

الهواء: يروي قصّة أوّل عهد المشرق العربي بالطائرات.

في الأوّل من آذار / مارس ١٩١٤ حطّت في مرجة دمشق الخضراء (موقع معرض دمشق لاحقاً) أوّل طائرة حربيّة عثمانيّة يقودها الطيّار اليوزباشي أركان حرب محمد فتحي بك قائد ومعاونه الملازم أوّل المدفعي سليم صادق. أرادت السلطات العثمانيّة بتلك الرحلة استعراض قوّة وهيبة بعد هزائمها في ليبيا والبلقان. تجمّعت جماهير حاشدة للتفرّج على الطائرة (من صنع ألماني) وتبارى أعيان دمشق في تكريم الطيّارين وضيافتهما. بعد يومين، واصل الطائر الحديديّ رحلته إلى القاهرة، إلّا أنّ الطائرة سقطت بعد إقلاعها في قرية سمخ قرب بحيرة طبريّة بفلسطين، فقتل الطيّار ورفيقه سليم ونقلت رفاتهما إلى دمشق لتدفن، وسط تشييع شعبيّ مهيب، إلى جانب ضريح صلاح الدين الأيّوبي.

كان الشاعر اللبناني فوزي المعلوف في الخامسة عشرة حين وقعت الحادثة، فرثى فتحي بك بقصيدة عمرها في عمر ناظمها: يا من سموتَ إلى العلي عهادها / وسبقتَ أسراب الطيور طرادا / خفقتْ ضلوع الريح تحتك والتوتْ / فَرقاً وكم فطرتْ عليك فؤادا / حتى كَبَتْ أختُ النسور كليلةً فهويتَ لا جُبناً ولا إرعادا / لكنْ علاؤك ما ارتضى بطنَ الثرى / مثوىً فآثر في العلاء رقادا.

سوف تؤثر الحادثة أيّما تأثير في ذهن فوزي المعلوف، فبعد أن غادر الوطن بالطائرة إلى البرازيل ألّف مطوّلة عن الطائرة بعنوان «على بساط الريح».

النار: قصف الطيران الحربي الفرنسي لدمشق لقمع انتفاضة العام ١٩٢٥.

ومن آثاره حريق الحيّ السكني الدمشقي الذي لا يزال يعرف باسم «حريقة». والقصف غمضت ذكراه بعض الشيء وإن بقي له أثر في الشعر في قصيدة أحمد شوقي الشهيرة «نكبة دمشق» التي لحّنها وغنّاها محمد عبد الوهاب: سلام من صبا بردى أرقّ ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق / إذا عصفَ الحديدُ احمرّ أفقٌ على جنباته واسودّ أفقُ/ دمُ الثوار تعرفه فرنسا وتعلم أنّه نورٌ وحقّ / وللحرّيّة الحمراء بابٌ بكلّ يدٍ مضرّجة يُدَقُ.

وخاطب سعيد عقل دمشق يذكّرها بالحدث في قصيدة أنشدتها فيروز من ألحان الأخوين رحباني: ذكّرتكِ الخمسَ والعشرين ثورتها / ذاك النفير إلى الدّنيا أنْ اضَطربي / فُكّي الحديدَ يواعِدْكِ الألى جَبَهوا لدولة السيف سيفاً في القتال رَبِي.

التراب: نظرات من السماء على الأرض يلقيها رائد الفضاء السوري المقدّم محمد فارس المشارك في محطّة «مير» السوفييتيّة العام ١٩٨٧ وحديث من الفضاء للأرض مع الرئيس حافظ الأسد يصف المقدّم محمّد فارس لقائده سورية من الجوّ ويعبّر عن حبّه للوطن وولائه للقائد. جدير بالذّكر أن المقدّم محمّد فارس انشقّ من الجيش السوري لأسباب «جوّيّة»، احتجاجاً على قصف طيران النّظام لمدينة حلب في آب / أغسطس ٢٠١٣.

الماء: أخيراً روى كرّاس «تنقيب في السماء» قصّة رجل مُسنّ من بلدة سرمين ينتحب إثر تدمير برميل متفجّر

للمرحاض الخارجي لبيته ويرثي المرحاض في قصيدة برازية من وحي المناسبة.

شاركتُ بمداخلة في ندوة ضمن فعاليّات الجناح السوري في المعرض عن حروب السماء على الأرض. حاولت أن أتتبّع الوسائل المستجدّة في قتل المدنيّين من السماء التي بدأتها في مقال سابق «غيرنيكا لكلّ حروب العرب». ما سيلي ليس نصّ المداخلة وإنّما هو تجميع لملاحظات تحضيريّة للمداخلة التي ألقيت شفهيّاً. انطلقت ممّا ذكّرتني به حادثة قصف الطيران الفرنسي لدمشق العام ١٩٢٥ من ضرورة تصحيح معلوماتي التي تقول بأنّ قصف الطيران النازي الألماني لبلدة غيرنيكا الباسكية العام ١٩٣٧ هو أوّل حادثة إستخدام للطيران الحربي ضدّ مدنيّين. الصحيح أنّ قصف غيرنيكا شكّل تلك السابقة بالنسبة إلى العالم الغربي. حقيقة الأمر أنّ القوى الاستعماريّة جرّبت الحروبَ الجوّيّة ضدّ المدنيّين في منطقتنا قبل أنْ تصدّرها إلى بلادها.

الاختراع البريطاني

تشير الأدلّة التاريخيّة إلى أنّ الريادة في استخدام الطيران الحربي ضدّ المدنيّين في المنطقة العربيّة هي لبريطانيا. وأنّ ونستون تشرشل هو صاحب النظريّة عندما كان وزير الحرب والطيران في الحكومة البريطانيّة وهو مَن وضعها موضع التنفيذ بمساعدة هيو تُرنشارد، قائد «الطيران الملكي البريطاني». كان ذلك بُعيدَ الحرب العالميّة الأولى. ونقطة الانطلاق الدرس الذي استخرجه ترانشارد من تجربة الحرب العالميّة الأولى من أنّ «الطائرة سلاح هجوميّ وليست سلاحاً دفاعيّاً».

لعلّ أوّل مرّة استُخدم فيها الطيران الحربيّ البريطانيّ ضدّ المدنيّين هو خلال قمع انتفاضة العام ١٩٢٠ الوطنيّة في العراق وقد دارت أبرز حوادثها في جنوب البلاد. طلب تشرشل من ترنشارد استخدام الطيران للتخفيف من كلفة وجود المشاة على الأرض علماً أنّه كان يوجد على أرض العراق حينها لا أقلّ من ١٤ ألف جنديّ بريطانيّ نظاميّ يُضاف إليهم حوالى ٨٠ ألف جنديّ هنديّ، قدرت كلفتهم بـ ١٤ مليون جنيه إسترليني سنويّاً.

ولم يقتصر الأمر على قمع ثورة العشرين. على سبيل اختبار تأثير الطيران الحربي على المدنيّين، اجتهد تشرشل بأنّ الغازات السامّة في القصف الجوّي «أرحم على المدنيّين» من المتفجّرات. مع أنّه ليس واضحاً إطلاقاً ولا هو مقنع أبداً، لماذا الموت اختناقاً أرحم من الموت تشظّياً. لعلّ تشرشل كان يرى هنا أيضاً، وخصوصاً، أنّ «القتل الرحيم» للمدنيّين بالغازات السامّة أقلّ كلفة من قتلهم بالقنابل. فاقترح على ترانشارد اختبار غاز الخردل على أهالي جنوب العراق. وجدير بالذّكر أنّه تكريماً لدور الطيران الحربيّ الملكيّ البريطانيّ في إخماد ثورة العشرين، سلّمته سلطات الانتداب المسؤوليّة العسكريّة عن العراق.

عن فاعليّة القصف الجوّيّ ضدّ المدنيّين العراقيّين، في تلك الفترة، تباهى آرثر هاريس، الضابط الذي سوف يُشرف على تدمير المدن الألمانيّة في الحرب العالميّة الثانية، بأنّه كان بإمكان الطيران محو قرية كبيرة من الوجود في غضون ٤٥ دقيقة وتحويل جميع سكانها إلى قتلى أو جرحى[٢].

خلال تلك الفترة استخدم غاز الخردل ايضاً لقمع عرب المشرق والأكراد والأشوريّين في الشمال العراقي على حدّ سواء. وكان لسلاح الجوّ البريطاني استخدامات شتّى في المنطقة قبيل الحرب العالميّة الثانية وأثناءها وبعدها. فقد استخدم الطيران الملكي مثلاً للدفاع عن عرش عبد الله، أمير شرقيّ الأردن ضدّ غارات آل سعود، واستخدم تكراراً

في فلسطين منذ العام ١٩٢٤ ولعب دوراً أساسيّاً في قمع الثورة الفلسطينيّة الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩.

بعد العراق، وربّما في الوقت ذاته، استخدم البريطانيّون الطيران الحربيّ في مستعمرة عدن والمحميّات. أسّسوا مطاراً وقاعدة جويّة للطيران الملكي في ضاحية خور مكسر. وفي اليمن، نشأت فكرة «شرطة الجوّ» في العشرينيّات من القرن الماضي أيضاً. نظّم الطيران الملكيّ دوريّات جوّيّة لمراقبة القبائل وترهيبها وردعها عندما تقاتل ولقمعها وتأديبها عندما تتمرّد. والفكرة السائدة أنّ الطائر المعدنيّ الجبّار كفيل ببثّ الرّعب في السكّان المحلّيّين فيوقفوا الاحتراب فيما بينهم أو يتخلّوا عن العصيان على السلطات البريطانيّة[٣]. لاحقاً، استُخدِم الطيران البريطاني بكثافة ضدّ انتفاضة ردفان وحرب الاستقلال في جنوب اليمن في الستينيّات من القرن الماضي. لم ينجح القصف تماماً في قمع الانتفاضة الوطنيّة ضدّ الاحتلال، لكنّه مكّن البريطانيّين من تمديد بقائهم في مستعمرة عدن ومحميّات جنوب اليمن، لبضع سنوات إضافيّة، قبل أن يضطرّ الجيش البريطانيّ إلى الانسحاب في أعقاب خمس سنوات من الكفاح المسلّح بقيادة حركة التحرير الوطنيّ اليمنيّة (١٩٦٢-١٩٦٧).

حرب الاغتيال من السماء

هذا بعض ما تجمّع لديّ عن العقاب الجمعيّ على مستوى قبيلة أو قرية أو مدينة. غير أنّ الموت الذي يزخّ من السماء ما لبث أن بدأ يستهدف الأفراد بما هم أفراد.

متى بدأت الطائرات تقنص الأفراد؟

في حصار بيروت طاردت طائرات حربيّة إسرائيليّة ياسر عرفات، رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة، لقنصه بصاروخ جوّ-أرض. لم توفّق به مع أنها نجحت في تدمير بناية كان يستخدمها بقنبلة فراغية. وفي غزّة بدأت أولى الاغتيالات ضدّ الأفراد بواسطة صواريخ إفراديّة من طوّافة أو طيّارة بدون طيّار. من ضحاياها الشيخ أحمد ياسين، مؤسّس حركة حماس، وأبو علي مصطفى، الأمين العامّ للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين.

هنا تبدأ قصّة الطائرة بدون طيّار. الاسم بالإنكليزيّة في القاموس العسكريّ UAV- Unmaned Arial Vehicle أي «مركبة جوّيّة بلا طيّار» أو Drone والدرون بالإنكليزية هو ذَكَر النحل تأكيداً على دقّة اللسعة القاتلة المفترضة. بدأ عهد جديد في الحروب لم يقتصر على توفير ماديّ في كلفة الطائرة وفي كلفة الطيّار. افتتحت الطائرة بدون طيّار عهد الاغتيالات من السماء.

كانت أولى الطائرات بدون طيار طائرة توم كات Tom Cat التي استخدمها الجيش الأميركي لأغراض الاستطلاع خلال حربه على فيتنام. ثمّ خدمت لأغراض التجسّس على كوبا في العام ١٩٦٤. غير أنّ التطوّر الكبير جاء مع طائرة «المفترس» Predator، التي اخترعها المهندس العسكري إبراهيم كريم، الذي ولد في بغداد ابناً لتاجر يهوديّ، وهاجر إلى الولايات المتّحدة حيث ما لبث أن تخصّص في صناعة هذا النّوع من الطائرات[٤]. وقد طوّر كريم طائرة GNAT ٧٥ التي استخدمها سلاح الجو الأميركي لأغراض الاستطلاع فوق البوسنة ابتداء من شباط / فبراير ١٩٩٤. وفي السبعينيّات كان كريم قد باشر بناء طائرات بدون طيّار لسلاح الجوّ الإسرائيلي. وفي العام ١٩٨٠ حازت إسرائيل على أولى الطائرات وطوّرت من جانبها طائرة «الرائد» Pioneer التي استخدمتها في قتال القوّات السوريّة فوق سهل البقاع بلبنان العام ١٩٨٢.

في عام ٢٠٠١ تحوّلت طائرة «المفترس» Predator الأميركيّة إلى طائرة قاتلة. والطائرة من إنتاج وكالة الاستخبارات الأميركيّة الـ«سي آي إي». وفي أيلول / سبتمبر من ذلك العام، أجازت وزيرة الخارجيّة كوندوليسا رايس تسليح «المفترس» فزوّدت بصاروخ «نار الجحيم» Hell Fire. بناءً عليه، صارت الوكالة تضع على مكتب الرئيس بوش الابن لائحة بأهداف قتل ذات أولويّة لإجازة ضربها، وما لبثت أن استصدرت من الرئيس السماح لها بالقتل بواسطة الطائرة بدون طيّار دون موافقة مسبقة منه. ومن أولى ضربات «المفترس» اغتيال سنان الحارثي قائد تنظيم القاعدة في اليمن المتّهم بتفجير المدمّرة البحريّة الأميركيّة «يو.إس.إس كول» في ميناء عدن باليمن في ٤ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٢.

غير أنّ ازدهار القنص بواسطة الطائرة بدون طيّار ينتمي إلى ولاية باراك أوباما منذ ٢٠١٠. وأوباما هو الرئيس الأميركيّ المهووس بالطائرة بدون طيّار وقد وجد فيها ضالّته حيث شكّل استخدامها الحلّ الوسط بين التدخّل العسكريّ المباشر، الذي تعهّد بعدم اللجوء إليه، والثّبات على الأرض، كما كان الحال عند آل بوش، من جهة، واللاحركة على الأرض والاقتصار على الحركة في السماء، من جهة أخرى. وهكذا في كلّ يوم ثلاثاء يلتقي الرئيس كبار القادة العسكريّين في جلسة لتعيين الأهداف (البشريّة) التي يتعيّن تنفيذ الإعدام بحقّها بواسطة الطائرة بدون طيار.

ولقياس مدى الاهتمام بهذا السلاح الجديد، ارتفعت موازناته من خزينة الدّولة الأميركيّة ارتفاعاً شاهقاً من ٢٨٤ مليون دولار العام ٢٠٠٣ إلى ٣ مليارات دولار بحلول العام ٢٠١٦. وفي عهد أوباما قتلت طائرات الطائرة بدون طيار ٣٩٠٠ هدف بشري في ٤٢٢ ضربة في أفغانستان وحدها تنفيذاً لبرنامج تديره الـ«سي آي إي» منذ العام ٢٠٠٤.

ومنذ العام ٢٠١٣ ووزارة الدفاع الأميركيّة مجهّزة بـ٢٣٧ طائرة «مفترس» وبـ١١٢ زميلة لها أشدّ فتكاً ودمويّة هي طائرة «الحاصد» Reaper؛ وبنهاية ٢٠١٥ استخدمت طائرات بدون طيّار ٥٠٠ مرّة لمهمّات التعقّب والقتل وقتلت ٣،٩٢٢ هدفاً بشريّاً خارج ميادين القتال التقليديّة، معظمهم في باكستان واليمن.

باكراً استخدمت الطائرات بدون طيّار الأميركيّة لعمليّات ضدّ متّهمين بالانتماء إلى تنظيم القاعدة في اليمن. وباكراً أسقطت أعداداً لا يستهان بها من المدنيّين. تمّ الأمر بتسهيل من الحاكم علي عبد الله صالح لقاء مساعدات ماليّة وغضّ النظر الأميركيّ عن قمعه ضدّ شعبه وفساده، وخرقه كلّ بند من بنود حقوق الإنسان. وتقدّر منظّمة «هيومان رايتس ووتش» أنّ مناطق مختلفة من اليمن تعرّضت لنحو ٨٠ عمليّة قنص بواسطة الطائرات بدون طيّار منذ العام ٢٠٠٩. في واحدة من العمليّات المبكّرة في ١٧ كانون الأوّل / ديسمبر من ذلك العام، أطلقت الطائرات بدون طيّار صواريخها على مخيّم للبدو قتلت فيه ١٤ مشتبهاً بالانتماء إلى «تنظيم القاعدة في الجزيرة العربيّة»، ولكنّها قتلت معهم ٤١ مدنياً خلال النوم، معظمهم من النساء والأطفال.

وفي ١٢ كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٣، قصفت طائرات أميركيّة بدون طيّار قافلة سيّارات متوجّهة إلى عرس في منطقة رداع، تضمّ ٦٠ إلى ٧٠ شخصاً، فقتلت ١٢ منهم وجرحت ١٥ كلّهم مدنيّون[٥].

«إنّهم فقط يَقتُلون. إنّهم لا يعرفون ما الذي تسبّبه صواريخهم!». القول لوالد أحد ضحايا المدنيّين بضربة لطائرة بدون طيّار في حضرموت، بجنوب اليمن، في آب / أغسطس ٢٠١٣، نقلت حديثه رضيّة المتوكّل، رئيسة منظّمة «مواطنة لحقوق الإنسان» اليمنيّة، في شهادتها يوم ٣ تموز / يوليو، ٢٠١٦ أمام البرلمان الأوروبيّ عن أثر الطائرات بدون طيّار على السكّان المدنيّين في بلادها. أشارت المتوكّل إلى أنّ أغلب المناطق التي طاولتها الهجمات مناطق نائية وفقيرة حيث يقول السكّان بسخرية حزينة إنّ أحدث صواريخ العالم وصلتهم قبل أن تصلهم الكهرباء! ومن الحالات الّتي استمع إليها البرلمانيّون الأوروبّيون حالة صاروخين وجّهتهما طائرة بدون طيّار على سيّارة في مديريّة ولد دبيع بمحافظة البيضاء بوسط اليمن. كان ذلك، يوم ٢ أيلول / سبتمبر ٢٠١٢ والسّيّارة تسير في الشارع العام وفيها ١٤ شخصاً عائدين من السوق. قتلت الطائرة بدون طيار ١٢ شخصاً على بعد أمتار من حاجز للجيش. لقد قرّرت أميركا قتلهم من دون محاكمة، يقول أهل الضحايا. ودون ممارسة حقّهم في الدفاع. وتحدّثت المتوكّل عن أنّ الطائرات تزرع الرّعب فتسهم في هجرة الأهالي، واستطردت عن عدم الاعتراف الحكومي بالضّحايا المدنيّين وعدم التعويض عليهم في معظم الحالات، وختمت عن فشل القتل كوسيلة لمحاربة الإرهاب مشيرة إلى أنّ عناصر القاعدة و«داعش» في اليمن أكثر عدداً وأوسع انتشاراً من ذي قبل، ومن أسباب قوّتهم غضب النّاس على الطائرات بلا طيّار.

في ختام مداخلتها، لم تغفل رضيّة المتوكّل الإشارة إلى أنّ سماء اليمن منذ آذار / مارس ٢٠١٥ عرفت وسائط قتل أخرى ضدّ المدنيّين: الطائرات الحربيّة للتحالف العربيّ بقيادة السعوديّة، ومدافع وصواريخ أطراف الحروب المحليّة (قوّات الحوثيّين وعلي عبد الله صالح من جهة، والقوّات التابعة لحكومة عبد ربّه منصور هادي من جهة ثانية) وهذه وتلك مسؤولة عن آلاف القتلي بين المدنيّين.

قد تبدو أرقام الضحايا المدنيّين لصواريخ الطائرات بدون طيّار الأميركيّة متواضعة بالقياس إلى ما كان مسموحاً به في عهد بوش الابن. فبناءً على قواعد تشغيل تلك الطائرات، يجاز استخدام القتل لـ«هدف عالي القيمة»، شرط ألّا يتجاوز تقدير عدد الضحايا المدنيّين الذين سوف يسقطون جرّاء العمليّة ٢٩ ضحيّة، أمّا إذا صار العدد المقدّر ٣٠ ضحيّة، فلا بدّ من أخذ موافقة دونالد رامسفيلد أو جورج بوش بالذّات[٦].

تبقى الإشارة إلى الانقلاب النوعيّ في الوجه الشرعيّ والقانونيّ لعمليّات الطائرات بدون طيّار. في ردّ فعل على هجوم تنظيم القاعدة على برجي مركز التجارة العالميّ في نيويورك، طالب الرئيس الأميركيّ جورج بوش حركة الطالبان بتسليم زعيم التنظيم أسامة بن لادن إلى القضاء الأميركيّ لمحاكمته بتهمة تنظيم هجوم يوم الحادي عشر من أيلول / سبتمبر ٢٠٠١. ولّما امتنعت قيادة حركة الطالبان عن تسليمه، أعلن بوش أنّه سوف يتعقّب بن لادن عبر العالم للقبض عليه وسَوْقه إلى المحكمة. انقلب الأمر رأساً على عقب مع إعلان حالة حرب لا نهاية لها سُمّيت «الحرب الكونيّة ضدّ الإرهاب». انتهى دور التحقيق، والأدلّة الجنائيّة،

والقضاء، والقانون الدوليّ، وقرارات الأمم المتّحدة، وافتراض البراءة، والحق في الدّفاع، وسواها ممّا يشكّل الحدّ الأدنى من منظومة دولة القانون واستقلال القضاء وعدالته. غلبت التّهمة الاستباقيّة والقتل الاستباقيّ: يريدون قَتلنا، قرّرنا قتلهم، هي المعادلة الّتي وردت في إحدى خطب الرئيس أوباما. وهو نوع القرارات التي يتّخذها كلّ يوم ثلاثاء في مكتبه بالبيت الأبيض بواشنطن.

أمّا الضّحايا من المدنيّين الذين يعترف لهم بأنّهم قضوا نتيجة «خطأ» ارتكبته طائرة من دون طيّار، فيتلقّى ذووهم تعويضاً يبلغ في أفغانستان، مثلاً، خمسة آلاف دولار ومعزاة.

حرب الاغتيال الإسرائيليّة

يستخدم الطيران الإسرائيلي الطائرة بدون طيّار منذ العام ١٩٧٠، وقد جرى تصنيعها محلّيّاً ابتداءً من العام ١٩٧٤ ويجري تصديرها منذ الثمانينيّات إلى ٢٤ من أصل ٧٦ بلداً تستخدم الطائرة بدون طيّار، وتشكّل صادرات الطائرة بدون طيّار الإسرائيليّة ١٠٪ من إجماليّ قيمة صادراتها العسكريّة. وإسرائيل هي في طليعة مصدّري ذلك النّوع من الطائرات في العالم حسب تقرير للعام ٢٠١٣. الغرض الأوّل من الطائرة بدون طيّار هو تخفيف المخاطرة وتقليص الخسائر في العنصر البشريّ في الطيران الحربي بإخراج الطيّارين من الميدان.

بسبب تعقيد تجهيزاتها وحذلقتها الإلكترونيّة، تملك الطائرة بدون طيّار مجسّات وكاميرات تجمع معلومات وتمارس «وظائف أمر وسيطرة» وتختار الأهداف وتطلق الصواريخ والقذائف على بُعد مئات، وأحياناً آلاف الكيلومترات من الأهداف البشريّة. وقد جرى تشبيه تشغيل الطائرة بدون طيار بألعاب الفيديو. يستخدم المشغّل العصا الإلكترونيّة وكبسة زرّ لإطلاق قذائف ضدّ أهداف ظاهرة على شاشة الكمبيوتر أمامه في اليمن أو أفغانستان وهو قابع في مكتبه المبرّد في قاعدة نيللیس الجوّية في جوار مدينة لاس فيغاس الأميركيّة.

بدأ استخدام الطائرات بدون طيّار في المنطقة في عمليّات استطلاع ضدّ مصر العام ١٩٧١، وصولاً إلى حرب تشرين ١٩٧٣.

وعلى الرغم من أنّ إسرائيل تنفي استخدام الطائرة بدون طيّار لأغراض القتل، فإنّها تمارس القتل بواسطتها باستمرار. ومن أوائل تلك الاستخدامات اغتيال السيّد عبّاس الموسوي، الأمين العام لحزب الله، في موكب سيّارات مع عدد من أفراد أسرته في ١٦ شباط / فبراير ١٩٩٢ بواسطة طائرة بدون طيّار إسرائيليّة من طراز «كشّاف» Scout . مع أنّ المؤكّد أنّ الطائرة بدون طيار تولّت عمليّة الاستكشاف، يبدو أنّ الاغتيال تمّ بواسطة صواريخ موجّهة من طوّافات. في فلسطين، أدلّة على استخدام الطائرة بدون طيّار لتوجيه ضربات على أفراد، منها عمليّة في ٢٤ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٤ ضدّ مقاتلين من الجهاد الإسلامي في خان يونس هما الأخَوان زياد وعمر أبو مصطفى، وكانا في العشرينيّات من العمر.

واستخدمت الطائرة بدون طيّار أيضاً، خلال الحرب على لبنان صيف ٢٠٠٦ لتحديد الأهداف ونقلها إلى الطوّافات للتعقّب والضرب، بشهادة تقارير دوليّة وأميركيّة. وقد جهّزت الطائرات بدون طيّار بصاروخ «حربة رافائيل» وقدّرت «هيومان رايتس ووتش» أنّ ما لا يقلّ عن ٢٥ لبنانيّاً قتلوا في ٩ ضربات لطائرات بدون طيّار إسرائيليّة خلال تلك الحرب.

واستُخدمت الطائرة بدون طيار على نطاق واسع في الاعتداءات على غزة «الرصاص المصهور» ٢٠٠٨-٢٠٠٩. فقد اقتحمت القوّات الإسرائيليّة غزّة تتقدّمها الطائرات بدون طيّار بـ٥٠٠ ياردة تطلق نيران صواريخها المضادّة للدبّابات والقنابل المضادّة للأفراد، وتولّت قيادة تقدّم القوّات ببثّ معلومات عن الطرق الآمنة ليسلكها المشاة.

في العام ٢٠١٠ ابتكرت مصانع السّلاح الإسرائيليّة طائرة بدون طيّار مختصرة زوّدوا بها القادة الميدانيّين بحيث توفّر لهم المطلوب من المعلومات فلا يضطرّوا إلى الاتّكال على سلاح الطيران. وثمّة أدلّة على استمرار عمليّات الاغتيال الإسرائيليّة بواسطة الطائرة بدون طيّار في العامين ٢٠١٢ و٢٠١٣ حسب مصادر «هيومان رايتس ووتش» ذاتها حيث نفّذت ١٨ ضربة في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٢. وقد اغتيل آنذاك درّاج يدعى هيثم مشعل، ٢٩ سنة، وأحد حرّاس مستشفى الشّفاء. وعلى الرغم من أنّه لا دليل قاطعاً على أنّ طائرة بدون طيّار اغتالت بالصواريخ الشيخ المقعد أحمد ياسين وهو في طريقه إلى الجامع للصّلاة على كرسيّه المتحرك، فالراجح أنّها كانت توجّه الطّوّافة التي تولّت تلك المهمّة. لكنّنا نعلم في المقابل أنّ عمليّة «عمود الدفاع» ضدّ غزّة في العام ٢٠١٢ بدأت بتولّي طائرة بدون طيّار من طراز «هيرمس ٤٥٠» توجيه صاروخ مضادّ للدروع على أحمد الجعبري، قائد الجناح العسكريّ لتنظيم حماس. عموماً، تستحوذ العمليّات بواسطة الطائرات بدون طيّار على ٦٥٪ من إجماليّ العمليّات الحربيّة الجويّة للجيش الإسرائيلي.

وثمّة أخبار تفيد بأنّ الطيران الإسرائيلي استخدم طائرات بدون طيّار لتوجيه عدّة ضربات ضدّ أهداف بشريّة في سيناء «بمباركة الطغمة العسكريّة» في مصر حسبما يتباهى عسكريّون اسرائيليّون[٧].

ذروة النّفاق في استخدام الجيش الإسرائيلي للطائرة بدون طيّار هو الادّعاء بأنّها تسمح بتنفيذ «عمليّات حربيّة بدقّة جراحيّة». كيف لا و«درون» بالإنكليزيّة هو ذَكَر النحل تأكيداً على دقّة اللسعة القاتلة. هذه هي نتائج «الدقّة الجراحيّة» لعمليّة «الرصاص المصهور» على غزّة: ٣٥٣ طفلاً قتيلاً و٨٦٠ جريحاً، ١١٦ منهم ضحايا ضربات طائرات بدون طيّار[٨]. علماً بأن ٥١٩ هو مجموع عدد الأطفال الذين قتلوا من مجموع ضحايا الحرب الإسرائيليّة الأخيرة على غزّة البالغ عددهم ٢١٩٢.

مقاومة الأرض

في مواجهة القتل الذي يزخّ من السماء، لجأ الفلسطينيّون إلى الأرض.

للفلسطينيين علاقة حميميّة بالأرض. تعلّموا بالتجربة، أنّه عندما يسيطر الذين سلبوا الأرض على السماء، تجب مقاومتهم من الأرض، وعندما تتعذّر المقاومة من فوق الأرض، تجب مقاومتهم من تحت الأرض. يحفرون الأنفاق في بطن الأرض.

افتتح مقاومو غزّة حرب الأنفاق. قبلهم بادرت المقاومة الإسلاميّة في لبنان إلى استخدام موسّع لتكتيك الأنفاق في استلهام للتّجربة الفيتناميّة. وليس سرّاً أنّ منطقة الشريط الحدوديّ بين لبنان وفلسطين المحتلّة مخترَقة بأعداد كبيرة من الأنفاق يتوغّل بعضها تحت المستوطنات الإسرائيليّة. بعد حرب غزّة، بدأ جنرالات إسرائيل ومحلّلوها الحربيّون يطرحون السؤال: ما الذي سوف يجري إذا أخذ الفلسطينيّون وسائر العرب يحفرون الأنفاق تحت إسرائيل على طول الحدود مع الدولة العبريّة؟ يحارون جواباً. في الانتظار: إنّ باطن الأرض هو الخاصرة الهشّة للذين يسلبون الأرض.

أنين الطيّارين

في واحدة من لمعاته الاستباقيّة، كتب محمد الماغوط: «أشعر بزَهْو الجلاد / بأنين الطيّار الذي يضرب وطنَه بالقنابل» (محمد الماغوط، مصافحة في أيار).

قائد سابق لسلاح الجوّ الإسرائيليّ عندما سئل عن شعوره عندما يقصف مدنيّين، بينهم أطفال فلسطينيّون وعرب، قال «أشعر برجفة خفيفة في جناح الطائرة».

ما شعور الطيارين العرب وهم يضربون وطنهم وأهلهم بالقنابل؟

كم عدد الطيّارين ومساعدي الطيارين والملّاحين الجوّيين العرب – من السعوديّة والإمارات والعراق وقطر واليمن ومصر وسورية وليبيا وغيرها وغيرها – الذين صدر عنهم أنين أو ما يشبه الأنين، وهم يضربون أبناء وبنات وطنهم بالقنابل والصواريخ والبراميل المتفجّرة؟

البراميل المتفجّرة

الطوّافة السوريّة التي ترمي البراميل المتفجّرة لها طيّار. لها طيّار ومعاون طيّار. ولا يستطيع هذا أو ذاك أن يدّعي أنّه لم يشعر إلّا برجفة في جناح الطائرة حين تسقط قنابله أو حين ينفصل صاروخ عن جناح. ولا الادّعاء بأنّه يعاين الهدف على شاشة إلكترونيّة بحيث لا يتطلّب الأمر منه إلّا أن يكبس على زرّ لقصفه. فلا عين ترى ولا قلب يوجع.

هنا يتمّ كلّ شيء بالعَين المجرّدة. تستطيع الطوّافة التحليق على علوّ معقول لعدم توافر دفاعات أرضيّة معادية تهدّد سلامتها. وعند الوصول فوق الهدف، يتولّى معاون الطيّار زحلقة برميل المتفجّرات إلى حافّة الطوّافة وركله بقدمه ليسقط على الهدف الذي غالباً ما يكون حيّاً سكنيّاً.

لا علاقة بين البرميل المتفجّر والطائرة بدون طيّار من حيث دقّة التصويب. تكمن العلاقة بينهما في الهدف: المدنيين.

البرميل المتفجّر اختراع محلّيّ. ومخترعه إنْ هو إلّا اللواء جميل الحسن، قائد الاستخبارات الجوّية، الفرع الأكثر قسوة من فروع الاستخبارات السوريّة. يبدو أنّ أدوات القتل، من مثل الطائرة القاتلة بدون طيّار والبرميل المتفجّر، لا تخرج إلّا من مخيّلة الأمنيّين. وميزة الاختراع أنّ كلفة البرميل الواحد لا تقارَن بكلفة قذيفة مدفع أو صاروخ أرض-أرض أو جوّ-أرض: ١٥٠ دولاراً للبرميل، مقابل نصف مليون دولار للصاروخ المجنّح. بل إنّ مخترع البرميل المتفجّر يتباهى بأنّ الطاقة التدميريّة لبرميله تفوق طاقة الصاروخ المجنّح. وهذه مواصفاته:

- الحاوية: برميل نفط أو حاوية شبيهة
- الطول: ٠،٩-١،٢ متر، العرض ٠،٦ متر
- الزعانف: يجري تلحيمها على جوانب البرميل لتساهم في توجيه البرميل بحيث يرتطم عموديّاً حيث صاعق الصدم
- محتويات البرميل: خردة معدنيّة ممزوجة بمتفجّرات من نوع «ت.ن.ت.»

السعة: يمكن أن تصل سعة البرميل إلى أكثر من ٩٠٠ كيلوغرام من مادة «ت.ن.ت.»

صاعق الصدم: عندما يُدفع نحو الأعلى يستخدم حبلَ التفجير لإشعال الـ«ت.ن.ت.».

البرميل المتفجّر سلاح من الأسلحة المضادّة لحروب الغوار (العصابات). يعمل بناءً على القاعدة المعروفة: إفراغ الماء لقتل السمكة. وظيفته العسكريّة تحييد المناطق التي لا يستطيع الجيش النظاميّ احتلالها أو السيطرة عليها، إمّا للكلفة الباهظة لاقتحام أماكن مبنيّة وإمّا لعدم توافر قوّات اقتحام مضمونة أو عدد كاف من قوّات التثبّت. ليس من مهامّ البرميل إصابة قوّات المعارضة المسلّحة حيث يستطيع هو أو غيره أن يصلها، إنّما تكمن وظيفته الأساسيّة في ترويع السكّان وتدمير الأبنية فوق رؤوسهم، ودفعهم إلى الهجرة، أو إلى الضغط على المسلّحين للمغادرة، أو لعقد اتفاقات وقف إطلاق نار أو هدن مع القوّات النظاميّة. وغالباً ما تكون المنطقة المعرّضة للقصف مطوّقة بواسطة القوّات النظاميّة أو الميليشيات الداعمة لها، ما يزيد من فاعليّة الضغط عليها بواسطة القصف الجوّي البرميلي.

منذ العام ٢٠١٣ أدانت الأمم المتّحدة استخدامه دون أن تتّخذ أيّ إجراء عقابيّ جرّاء الاستمرار في استخدامه. حسب الشبكة السوريّة لحقوق الإنسان، قذفت مروحيّات النظام السوري ٩٩٦ برميلاً في أيار / مايو ٢٠١٦ أدّت إلى مقتل ٥٧ مدنيّاً بينهم ١٨ طفلاً و١٠ نساء[٩].

وبناءً على المصدر ذاته، تعرّض ألف موقع في حلب للقصف بواسطة البراميل المتفجّرة في أيار / مايو ٢٠١٥ ما أدّى إلى ٢٥٦٧ ضحية بين قتيل وجريح من المدنيّين، بينهم ٢٥٪ من الأطفال، وفي الشهر ذاته تعرّضت مدينة درعا إلى ٤٥٠ قصفاً بالبراميل أوقع ٦٠٩ ضحايا ثلثهم من الأطفال[١٠].

البرميل المتفجّر سلاح حِرَفي يصنع محلياً قليل الكلفة عميق الأثر، لكنّه يستثير أحياناً ردّ فعل انتقاميّاً من الطرف المقابل الذي يلجأ إلى ابتكارات حِرَفيّة هو أيضاً بتحويل عبوات الغاز المنزلي إلى قذائف ترمى على مواقع القوّات النظاميّة والأحياء السكنيّة التي تسيطرعليها. كلا السلاحين أعمى أو ضعيف التصويب، يقتل مدنيّين ولا يميّز بين مدنيّ ومسلّح.

ونحن من طرفنا حريّ بنا ألّا نميّز، أو نفاضل، بين ضحيّة وضحيّة بناءً على نوع السلاح الذي ضحّى بها، أو الفريق الذي انتمت إليه. التمييز الوحيد بين البرميل المتفجّر وعبوات الغاز المنزليّ تطلق من «مدافع جهنّم» هو في الطاقة التدميريّة وعدد الضحايا فقط. كلّ الضحايا بشر وكثرتهم مدنيّون. وبينهم نسب عالية من الأطفال. ولا يحقّ لأحد التمييز بين مدنيّ قتيل ومدنيّ قتيل، وبين طفل ضحيّة وطفل ضحيّة. التمييز بين قتيل وقتيل والمفاضلة بين طفل قتيل وطفل قتيل، بذاته فعل قتل، بل يمكن أن يصل أحياناً إلى حجم جريمة حرب.

والناس مستمرّون في مقاومة البراميل المتفجّرة ولا تخلو مقاومتهم من الشعر: «لو أصبح القمر برميلًا لن نعود عن ثورتنا»، يقول هذا القَسَم لأهالي الزبداني، مهما يكن المعنى الذي يلبسونه للثورة!

عودة إلى تجهيز بينال البندقيّة. الحفريات في السماء ما لبثت أن انتهت بحفريات في الأرض. ذلك فعل مقاومة أيضاً، مارس فيه المهندس خالد ملص وفريق «سجلّ» المهمّة الأولى للمعمار والعمارة: حفر الأرض بحثاً عن الماء. جمعوا مبلغاً من المال لتمويل حفر بئر للماء في إحدى قرى محافظة درعا بالتعاون مع مجلسها المحلّي. ردّ أهالي درعا على براميل القتل السماوي الزاخّة عليهم، بتفجير المياه من الأرض ليجعلوا «من الماء كل شيء حيّ»!

المراجع:

١ فصل من كتاب يصدر قريبا عن دار رياض الريس للكتب والنشر بعنوان «دم الاخوَين. العنف في الحروب الاهلية»

٢ Geoff Simons, *Iraq from Sumer to Post Saddam*, 2004, p 21.

٣ استخدم سلاح الجوّ البريطانيّ الشرطة الجويّة مثلاً لقمع قبيلة آل السيار وانتفاضة بن عبدات في الأربعينيّات لعلاقة تلك القبيلة بدول المحور، في منطقة الغُرفة، ومن بين أبناء تلك القبيلة الذين تعاونوا مع دول المحور يونس البحري، المذيع الشهير في إذاعة برلين باللغة العربيّة من خلال برنامج «حيّ العرب!».

٤ راجع مقالة شارلز غلاس في مدوّنته
Charles Glass, Nagmachons:, *Charles Glass.net*, April 6, 2016.
وكتاب آندرو كوبُرناً أدقّ وأغنى بحث في ولادة وتطور وعمليات حرب الاغتيالات بواسطة الطائرات بدون طيّار.
Andrew Cockburn, *Kill Chain: The Rise of High-Tech Assassins*, London, Verso, 2015.

٥ راجع تقرير مبعوثة هيومان رايتس واتش الى اليمن، لينّا تايلر، ٢١ شباط / فبراير ٢٠١٤. ومقالها Letta Tayler, «The Truth about the U.S. Drone Program», *Policy Review*, March 24, 2014.

٦ كوبُرن، المصدر ذاته، ص ١٣٩.

٧ Jason Ditz, in Anti War, July 11, 2016

٨ Mary Dobbins and Chris Cole, *Israel and the Drone Wars. Examining Israel's production, use and proliferation of UAVs*, Drone Wars UK, Oxford, 2010.

٩ http://www.creativememory.org/?p=129518

١٠ https://aininfographic.com/project/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%85%D9%8A%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%81%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%AD%D9%84%D8%A8-%D9%88%D8%AF%D8%B1%D8%B9%D8%A7/

من أبواب أولى

١٢ **رالف نادر «غير القنوع» عن حقوق المستهلكين والانتخابات الرئاسية**
حاورته ميسون سكّرية

٢٣ **جملة بيرني ساندرز نجاحات وإمكانيات**
حاوره دانييل زامورا

رالف نادر «غير القنوع»
عن حقوق المستهلكين والانتخابات الرئاسية

حاورته ميسون سكّرية

باحثة وأكاديميّة، لبنان. أستاذة في كليّة كينغز كولدج، لندن. من أسرة «بدايات».

«الرجل القنوع يتكيّف مع العالم، الرجل غير القنوع يظلّ يسعى لتكييف العالم حسب إرادته. لذا فكل تقدّم يعتمد على الرجل غير القنوع»

برنارد شو

«رجل غير قنوع» هكذا وُصِف رالف نادر على امتداد حياته، ليس بالمعنى الذي أراده برنارد شو. غير قنوع في الولايات المتحدة يعني متوحّشاً، غير منطقي، ورالف يردّ على التهمة بالإشارة إلى قولة برنارد شو «إن نعت الأشخاص بما هم غير قنوعين، أو بأنّهم حالمون أو غير واقعيّين، أسلوب يتبعه النظام الرأسمالي للمحافظة على الأمر الواقع. أدركت باكراً أنّه يتعيّن على المرء أن يسأل دائماً من هو الذي يوجه إليك النعت ولماذا؟».

في هذا الحوار مع «بدايات»، أخذني رالف نادر في رحلة عبر المحطّات الرئيسة في حياته، من طفولته المبكّرة، إلى نشاطه الحقوقيّ بما هو أحد أبرز المدافعين عن المستهلكين في الولايات المتحدة الأميركية، وصولاً إلى حملاته الانتخابيّة لرئاسة الجمهوريّة ونشاطاته الحاليّة.

وُلد رالف في وينستيد، بولاية كونيكتيكات، لأبوين لبنانيّين. درس في مدارس الولاية قبل أن ينتقل إلى جامعة برنستون ومنها إلى جامعة هارفارد حيث تخرّج من كليّة الحقوق في العام ١٩٥٨. سافر إلى كوبا في ذاك العام لحضور مؤتمر صحافي لفيديل كاسترو، وعاد إلى الولايات المتّحدة لينشر أولى مقالاته عن انعدام السلامة في السيارات الأميركيّة التي تحوّلت الى كتاب بعنوان «غير آمنة بأيّ سرعة» العام ١٩٦٨ فحاربته كبريات احتكارات السيّارات.

انتقل إلى واشنطن للعمل على تغيير القوانين المتعلّقة بالمستهلكين. وفي مطلع الثمانينيّات، يئس من العمل من خلال الكونغرس وأنشأ مؤسّسة «محامين من أجل العدالة الاجتماعيّة». في العام ١٩٩٥ بدأ حملاته الانتخابيّة لرئاسة الجمهوريّة التي كرّرها مرّتين في العالم ٢٠٠٠ والعام ٢٠٠٣، ونال فيها ٥٪ من أصوات الناخبين. وبعدما أقلع عن التأثير عن طريق الكواليس في واشنطن، انتقل لتحدّي النّظام من الأطراف والهوامش بعدما أتمّت الاحتكارات السّيطرة على المتون.

يحذّرني رالف من أنّه لن يتكلّم عن لبنان أو الشرق الأوسط، فكونه متحدّراً من أبوين لبنانيّين لا يخوّله بالضرورة الحديث عن السياسة في المنطقة. لا يعتبر نفسه مرجعاً عن الشرق الأوسط. يعرف بعض الأشياء عن الولايات المتّحدة في الشرق الأوسط لكنّه لا يعرف الكثير عن السياسات فيه. لذا اقتصر حديثه على الإجابة عن الأسئلة المتعلّقة بأميركا وخصوصاً عن ثقافة البزنس التي كرّس حياته للنضال ضدّها. لكنّه أصرّ على أن يريني (إيميل) أرسله للتوّ إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت يعتذر فيه عن عدم قبول شهادة دكتوراه فخريّة من الجامعة. «رفضتُ لثلاثة أسباب: أوّلاً، أنا ضدّ التعليم بواسطة المكافأة. ثانياً، الدكتوراه شهادة يستحقّها المرء ولا يتلقّاها. ثالثاً، على فرض أنّي قرّرت قبول درجة شرف، فلن اتلقّاها من مؤسّسة أميركيّة إشكالية عبر البحار، وبالتأكيد ليس بعد أن نالتها دونا شلالا [لبنانيّة الأصل، وزيرة الصحة حينها] وهي من المسؤولين عن حصار العراق والعقوبات التي فرضت عليه، ما أدّى إلى وفاة لا أقلّ من مليون إنسان».

وقد خصّصنا القسم الآخر من المقابلة للانتخابات الرئاسيّة. خاض نادر الانتخابات الرئاسيّة هو نفسه مرّتين. ولديه الكثير ممّا يقوله عنها وعن المال السياسيّ والمرشّحين.

◆ كيف اخترت طريقك في الحياة؟ كيف تطوّر وعيك عن أميركا الاحتكارات؟

■ كان أبي يبادر إلى إطلاق نقاشات عن قضايا سياسيّة واقتصاديّة خلال العشاء ونحن بعد في المدرسة الثانويّة. وكانت العدالة الموضوع الذي يثير شغف والدي أكثر من أيّ موضوع آخر. وهو أمر مفهوم. كان لبنان واقعاً تحت الاستعمار الفرنسي حينها، بالإضافة إلى بلدان عربيّة أخرى تستعمرها قوى غربيّة. تبنّى والدي الولايات المتحدة وطناً له وكان شغوفاً بالعدالة من خلال القانون. لم يحرجنا في النقاشات، علّمنا التفكير النقدي. كان يعرف بالمعاينة الشخصيّة كيف أنّ الاحتكارات آخذة في تدمير المؤسّسات الصغيرة، والمؤسّسات العائليّة، وكان هذا حالنا جميعاً. هكذا بدأت أعي طريقة تشغيل الاحتكارات. وكان عليّ أنا وإخوتي أن نتدخّل في النقاش ونؤثّر فيه من خلال المحاجات العقلانيّة. والمضحك في الأمر أنّي نُعتّ بأنّي غير عقلاني طوال حياتي. كان ندرة (وهذا إسم أبي) يزن كلماته ويستزيد من الأسئلة لمنح كل واحد من أبنائه الفرصة للمشاركة في النقاش إلى أن يشمل النقاش الجميع، وقد تتراوح مواضيع النقاش من الدين إلى «حال الاتّحاد»، ولم يكن يحقّ لأحد منّا أن يستسلم أو يتهرّب من النقاش، فالمتوقّع أن يصمد كلٌّ في مواقعه وأن يدافع عن أفكاره بالحجّة والبرهان.

أمّي في المقابل علّمتنا بالأمثولات أكثر منه بالنقاشات. عانيت بسبب ارتدائي السراويل القصيرة إلى أن بلغت الثامنة من العمر، وكان عليّ أن أتحمّل سخرية زملائي. وعندما كنت أشكو الأمر لأمّي وأحاجج بأنّ سائر الأولاد يرتدون السراويل الطويلة، كانت تقول «ولكنّك مختلف، الأولاد الآخرون لديهم أمّهاتهم، وأنت لديك أمك». ثمّ تسألني: هل أنت قائد أم تابع؟ وتقول لي عليك أن تطرح هذا السؤال على نفسك في كل المناسبات. إنّ هذا الانفصال عن الجماعة – تفكير الجماعة، الانقياد للجماعات– سوف يرافقني كلّ حياتي.

شفيق أخي الأكبر، يكبرني ببضع سنوات. في المدرسة التكميليّة، أعطاني لائحة كتب للقراءة. هي كتب كلاسيكيّة منها «موبي ديك» و«تاريخ الصين» ولكن الأكثر إثارة لاهتمامي كانت أعمال آبطون سينكلير مثل «كتاب الأدغال» الذي يصف المظالم التي يتعرّض لها عمال تعليب اللحوم. وأيضاً كتاب إيدا تاربل «تاريخ شركة ستاندرد أويل كومباني» الذي تكشف فيه كيف أنّ آل روكفلر استخدموا طرقاً غير شرعية لإنشاء احتكار في الحقبة المبكّرة من صناعة النفط، وكذلك أعمال ستيفنس «النضال من أجل الحكم الذاتي» وهو بحث شامل في السياسة الأميركيّة. حفزتني تلك الكتابات على التأمّل في تركيب السلطة في أميركا.

في الثانويّة كان عليّ أن أراجع وثائق الكونغرس في مكتبة المدرسة لأنّ ما من أحد كان مهتمّاً فيها، فكوّنت فكرة عن طريقة عمل الكونغرس. ثمّ إنّي كنت مهتمّاً دائماً بأن أكون مواطناً صالحاً ولم أكن مهتمّاً بأن أنجح داخل النظام. النجاح لم يكن كلمة نسمعها في البيت. أن تكون لك غاية كان يعني أن تؤدّي عملك على نحو جيّد كائناً ما كان الهدف. و«جيّد» هنا يعنى المساهمة في الخير العام لا إحراز النّجاح الفرديّ.

عندما قدّمت طلب الانتساب الى جامعة برنستون أردت التخصّص في شؤون الشرق الأقصى، وكنت مؤهلاً لنيل منحة لأنّي تخرّجت بشهادة شرف من الثانويّة، وأجيد لعب كرة السلّة وبعض اللغات. غير أنّ أبي لم يسمح لي بطلب المنحة لاعتقاده أنّ المنَح يجب أن تعطى للشباب الذين لا يستطيع أهلهم دفع الأقساط الجامعيّة، فالمطعم الذي يديره يعمل بطريقة جيّدة، وقد دفع أقساط تعليمنا الجامعي جميعاً، مع أنّنا كنّا مؤهّلين لنيل المنح الدراسيّة بناءً على علاماتنا لا على حاجاتنا الماديّة.

مصدر النفوذ الثاني بالنسبة إليّ هو اجتماعات قاعة البلدة في وينستيد التي كان أبي يأخذنا إليها كلّ أسبوع منذ الطفولة. ووينستيد حينها كان يحكمها أهلها فيجتمعون في قاعة البلدة ويشرّعون ويناقشون في كلّ الأمور ويمارسون الديمقراطيّة. وكان أبي يأخذ مبدأ الحريّة على مأخذ الجدّ منذ أن حطّ على أرض الولايات المتحدة وشاهد «تمثال الحريّة»، يسألنا كلّ يوم بعد الدراسة ما إذا كنّا تعلّمنا أن نفكّر أو أن نؤمن بشكل مستقلّ، دون تدخّل من أحد.

◆ حدّثنا عن بدايات حركة حقوق المستهلكين؟

■ كنت طالباً في كليّة الحقوق بجامعة هارفارد عندما تعرّض صديقي الحميم وزوجته واثنان من أولاده لحادث سير خطر، نجا صديقي بمفرده لكنّه أصيب بالشلل. بسبب شكوكي في الشركات، بدأت النظر في إحصائيّات ضحايا حوادث السيّارات، وكانت الأرقام مرتفعة جدّاً: **٤٧،٧٠٠** قتيل في العام **١٩٦٤** وأربعة ملايين جريح، أي إنّ أميركيّاً واحداً من كلّ أميركيّيْن اثنين معرّض لأن يكون ضحيّة حادث سيّارة. كتبت مقالة في مجلة «ذي نايشن» أناقش فيه تصميم السيّارات ومخاطرها. كان الموضوع جديداً كلّ الجدّة حينها والإعلانات عن السيّارات تبيع القوّة والأناقة مع السيارة وتربط الترويج لها بالجنس. والقدرة التنافسيّة لموضوع تصميم سيّارات آمنة ضعيفة في وجه الجنس والقوّة والأناقة.

عام ١٩٥٨ بادرت شركة فورد إلى تقديم سلّة سلامة للسيّارات وكسبَتْ شعبيّة عليها. الآن أسقطت شركة «جنرال موترز» سلّة السلامة وهدّدت شركةَ فورد بإخراجها من السوق إن هي ظلّت تبيعها. كانوا يخشون أنّ إجبارهم على بيع سلّة السلامة سوف يزيد من التشريعات والقواعد، وهم لا يريدون أن تتدخّل الهيئات الفيدراليّة في الرقابة على سلامة السيّارات. فكّرت أنّه إذا فرضنا قواعد سلامة من خلال القانون الفيدرالي فسوف يفرض عليهم تطبيق تلك القواعد. كانت الأسطورة الرائجة تقول إنّ كلّ حادث سيّارة مسؤول عنه الرجل الذي خلف المقود. إنّها أسطورة «السائق المتهوّر». حاججتُ بأنّها مجرّد أسطورة وأنّ الوفيّات نتيجة حوادث السير مشكلات بنيويّة لأنّ السيّارات ليست مصمّمة لتوفير الأمان بل يجري تسويقها بما هي مركبات حُلميّة ذات أثر جنسيّ-نفسانيّ.

باشرت أبحاثاً استغرقت ثلاث سنوات لإثبات فكرتي. كان التقرير وافياً وشكّل فتحاً في مجاله بحيث لم يمكن تجاهله. دعا إلى تشريع ينظّم صناعة السيارات، وركّز على الأعطال في التصنيع بما هي السبب الثانوي للحوادث ولوقوع الضحايا. بعبارة أخرى: إنّ المركبة التي تظنّها جوهر سعادتك خطيرة إلى أبعد الحدود. حاولتْ جنرال موترز تلطيخ سمعتي بشنّ حملة تحرٍّ في حياتي الشخصيّة. أرسلوا نساء لإغرائي وتصويري في وضعيّات محرجة. في نقاش في الكونغرس عن جنرال موترز، حاججت بأنّه يتعيّن أن يكون للمرء حياة متقشّفة ليستطيع الحديث بصدق عن الصناعة الأميركيّة. اعتذرتْ جنرال موترز لكنّي قاضيتهم وحصّلت منهم على ٤٧٥،٠٠٠ دولار غرامة على خرق خصوصيّتي. وظّفت المبلغ في وقفيّة شكّلت الموارد الأولى لنشاطي في السنوات التي تلت.

كانت القضيّة ضدّ جنرال موترز بداية معركة طويلة ضدّ كبريات الشركات من خلال ما سمّيته «حقوق الاستجابة»: أي المرافعات القانونيّة لصالح الجمهور. سبب تطبيق هذا القانون وعدم تطبيق القانون الآخر مسألة مهمّة من جيل إلى آخر، تثير أسئلة يجدر طرحها علناً. القانون لصالح من؟ هو السؤال الذي يجب أن يكون في صميم نشاط المؤمنين في البنية القانونيّة إطاراً للنّضال ضدّ الشركات، وهي حالٌ إيماني حينها. سافرت إلى الدول الإسكاندينافيّة ودرست نظام «الأومبودزمان» وكنت مقتنعاً بأنّي بدلاً من مهنة محاماة فرديّة، أكثر إدراراً للربح، أريد أن أدافع عن مصلحة المستهلكين العاديّين، مهما تكن الأكلاف الشخصيّة.

◆ تعرّضتَ للانتقاد لأنك ركّزت على المرافعة عن المستهلكين بدلاً من الانخراط في حركات الحقوق المدنيّة وفي الحركات المعارضة لحرب فيتنام في الستينيّات. ماذا تقول في هذا الصّدد؟

■ أفادت حركتنا أيّما إفادة من الحركة المناهضة للحرب والداعمة للحقوق المدنيّة. كلتا الحركتين خلقتا مناخاً للنضال من أجل حقوق المستهلكين، للنضال ضدّ استيلاء الشركات على السلطة. آثرت العمل داخل الإطار القانوني مناضلاً من أجل المستهلكين ومعظمهم يعيش في الفقر أو في الغيتوات المدينيّة. هكذا أسهمت في حركة الحقوق المدنيّة بطريقة غير مباشرة.

بعد «قانون سلامة المركبات» عملنا على «قانون نظافة الغذاء والدواء». كانت اللحوم والدجاج المعلّبة التي تباع للفقراء مفتقرة إلى الشروط الصحيّة. حمّل القانون الحكومةَ الفيدراليّة المسؤولية عن مراقبة اللحوم وعمليّات التعليب. ثمّ فرضنا «قانون السلامة الصحيّة» الذي تضمّن تشريعات وقواعد لمنتجات أخرى تتعلّق بالإشعاعات. وفي العام ١٩٦٨، فرض «قانون الغذاء والزراعة» تعديلات تتعلّق بالحليب والأرزّ والحبوب والأراضي الزراعيّة. مَن تعتقدين أفاد من تلك القوانين؟ من هو الطرف الأكثر مسؤوليّة عن الفقر وخرق الحقوق المدنيّة غير العنف المستتر الذي تمارسه الشركات؟ ومن هم الذين يجري خداعهم وابتلاؤهم بالأمراض وإصابتهم بالإعاقات إن لم يكونوا الأقلّيّات والفقراء؟

في السبعينيّات، تمكّنا من فرض تشريع ٥١ قانوناً جديداً تدور كلّها مدار حماية المستهلكين. كانت قوانين حماية المستهلك موجّهة ضد الشركات، فيما المنطق ذاته يستخدم في أيّامنا هذه تحت عنوان «مكافحة الفساد» أو «حماية المستهلك»، ولكن بدلاً من النضال ضد كبريات الشركات، صار يخدم في حمايتها وتسويغ مراكمة الثروات. وهذا ما يجري على نطاق العالم أجمع، بقيادة البنك الدول وكبريات الشركات وبالتعاون مع الحكومات المحلّيّة.

◆ تقول «نحن». هل لك أن تفسّر من تعني بـ«نحن»؟

■ كنّا فريقاً من الطلبة الجامعيّين في معظمنا، نصف مليون طالب موزّعين على معظم الجامعات، وباحثين، يتوزّعون العمل يبحثون في إطار «مجموعة البحث في المصلحة العامّة». في السبعينيّات قدّمت الشهادات أمام الكونغرس عن عدد من القضايا مثل سلامة المناجم، التلويث بواسطة الزئبق، الإقراض غير العادل، طمر نفايات القطارات و«قانون حريّة المعلومات». وثمّة العديد غيرها مثل قانون

مساعدة الطلاب والسيارات النظيفة، وقد انبنت كلّها على الأبحاث وروّج لها الطلاب، أمّا أنا فكانت وظيفتي تأمين تواصل العمل بين المجموعات.

بدأت المصاعب في السبعينيّات. لم تكن البداية مع ريغان، وقعتْ أوّل انتكاسة لقوانين حماية المستهلك في عهد كارتر عندما تقدمنا بـ«قانون مراقبة الكونغرس» المستوحى من قضيّة لوكهيد مارتن، وهي حالة فساد كلّفت الحكومة الفيدراليّة بليوني دولار. أسست هيئات متابعة للمسؤوليّة المهنيّة من أجل الدفاع عن مسرّبي معلومات عن حالات الفساد داخل الشركات. والنقطة المركزيّة في الأمر: متى يحقّ للموظّف ان يحسم بأنّ الولاء للمجتمع يجب أن يتغلّب على الولاء لسياسات المؤسّسة، أي لأرباح الشركات، فيبادر إلى إبلاغ الأطراف الخارجيّة أو القضاء. لم تكن أميركا الشركات مغرمة بذلك المشروع المترافق مع «قانون مراقبة الكرنغرس». أخذوا يهاجموننا. علّق أبي على الهجوم بقوله إنّ الغلط في أداء أيّ حكومة يبدأ عندما تكون أسهل وسيلة لفقدانك وظيفتك هي أن تمارس تلك الوظيفة حسب الأصول.

بدأت أميركا الشركات شراء أعضاء الكونغرس وأنشأوا «مؤسسة الميراث» للقضاء على قوانين حماية المستهلك. عدلوا تشريعات وقواعد الصحة والسلامة على اعتبارها مسألة اقتصادية في حين أننا ناضلنا من أجل تعريفها على أنها قضايا أخلاق وسلامة.

بدأت أميركا الشركات شراء أعضاء الكونغرس وفقدنا القضيّة. كارتر لم يؤيّد المشروع. كانت أيّام ريغان قاسية. أعاد النظر في القوانين الحكوميّة وأخذ يفكّك ما قضينا عشرين سنة. في تشييده. راجع أصحاب الشركات دورهم في السياسة وبدأوا يموّلون مراكز الأبحاث لأغراض الدعاية ومحاولة تغيير شروط المناقشة كليّاً. أنشأوا «مؤسّسة الميراث» للقضاء على قوانين حماية المستهلك. عدّلوا تشريعات وقواعد الصحّة والسلامة على اعتبارها مسألة اقتصاديّة في حين أنّنا ناضلنا من أجل تعريفها على أنّها قضايا أخلاق وسلامة. حوّلوا طريقة ممارسة السياسة في واشنطن وسائر البلد. اشتروا سياسيّين وإعلاميّين ديمقراطيّين وازداد الحزب الديمقراطي اقترابا من الحزب الجمهوري. وجدت نفسي بلا قواعد، فانكفأت إلى النشاط القاعدي بدلاً من العمل على تغيير السياسة، فقد استولت الاحتكارات على السياسة بحيث استحالت إمكانيّة إسداء الهزيمة لهم في الكونغرس. لقد تعلّموا اللعبة، شرّعوا «قانون الشركات» [الذي يعترف للشركة بصلاحيّات قانونيّة وحقوق وامتيازات وواجبات كالتي يتمتّع بها الفرد، وهي حقوق متمايزة عن حقوق الأفراد الذين تتكوّن منهم الشركة، فتستطيع الشركة شراء الأملاك وبيعها وتوارثها، إلخ.]، وفي منتصف التسعينيّات استكملت الشركات الاستيلاء على السياسة. منذ ذلك الوقت لم يكن لنا حكومة تعمل لصالح الشعب، وإنّما حكومات تعمل لصالح شركة إكسون-موبيل وشركة جنرال موترز، لا حكومات «من الشعب وإلى الشعب».

◆ كيف وبأي معنى سيطرت الشركات على أميركا؟ متى حصل الانقلاب، كيف نظّموه؟

■ كان في معظمه رد فعل على التعبئة الفعالة التي قمت بها في واشنطن وعلى قوانين المواطنة التي كنا نصدرها. لويس باول، الأمين العام لغرفة التجارة الأميركيّة وعضو الكونغرس لاحقاً، كتب مذكّرة عنوانها «٧١ شاغلا للشركات تجاه نشاطات نادر» يذكر فيها «ربّما كان العدوّ الفرد الأشدّ فاعليّة ضدّ البزنس الأميركي هو رالف نادر، الذي تحوّل إلى أسطورة وهو لا يزال على قيد الحياة ومعبود الملايين من الأميركيّين بفضل الإعلام بالدرجة الأولى». وأوصى باول بضرورة «شنّ الهجوم بلا هوادة على أمثال نادر وماركيوز [الماركسي الألماني هربرت ماركيوز، الواسع التأثير في جيل الستينيّات]، وسواهما من العاملين على تدمير النظام. لا هوادة في الدفع بقوّة في كافّة الميادين السياسيّة لدعم نظام الاقتصاد الحرّ. ولا تردّد في المعاقبة السياسيّة لمعارضيه».

باول مصاب بالرُهاب وهجومه هجوم على الديمقراطيّة في أميركا. على الصعيد العمليّ طالب عالم الأعمال باستئجار كواليسيين في الكونغرس وصبّ الأموال على السياسيّين من كلا الحزبين، وتأمين حضور في الجامعات وتحريك مراكز الأبحاث اليمينيّة وضخّ الأموال في «مؤسسة التراث الأميركي» وسواها من مراكز الأبحاث التابعة للشركات. غير أنّ المثير هنا أنّ التعليق على مذكرة باول حين إعلانها أخطأ معناها. هو طالب الشركات بالوحدة والتوجه إلى واشنطن لممارسة الضغوط على أعضاء الكونغرس وقد نجحوا في ذلك. غير أنّ الإستراتيجيّة التي حازت النجاح الأكبر هي أنّ مذكّرة باول أدتّ إلى إفساد عميم للحزب الديمقراطي.

تاريخياً، كان الديمقراطيّون يأتون بأموالهم من عالم العمل والنقابات. وقد حصل الانعطاف في العام ١٩٧٢ عندما أخذوا يقبلون التبرّعات من الشركات. أدرك باول في مذكّرته أنّ إفساد الحزب الديمقراطي سوف يزيد من فساد الحزب الجمهوري للمزايدة على الديمقراطي.

منذ ذلك الحين، وضعت النقابات العمّاليّة في موقع دفاعي لم تستطع أنْ تتجاوزه، وهي قد نزفت بسبب الأتمتة ثمّ بواسطة العولمة عندما أخذت الشركات تصدّر مصانعها عبر البحار. كانت أموال النّقابات تشكّل ربع أكلاف الانتخابات الرئاسيّة، يذهب معظمها إلى الديمقراطيّين، وهكذا كان العمّال يؤثّرون في سياسات الديمقراطيّين الانتخابيّة قبل العام ١٩٧٤. الآن يدفع مجمّع الشركات ٥٢ دولاراً للنّفقات الانتخابيّة مقابل دولار واحد تدفعه النقابات العمّاليّة، فيما كانت المساهمة متساوية.

ومنذ أن صارت الأموال تتدفّق من الشّركات على الحزب الديمقراطي، لم يصدر أيّ تشريع يحمي حقوق المستهلكين. وهذا هو أثر المال وتدخّل الشركات في السياسة، وتخريب أيّ نوع من الهجوم المعاكس على عدوانهم.

◆ كيف كان الأثر على لجان المواطنين؟

■ ضاعفنا الجهود في مقابل تدنّي المردودات يوماً بعد يوم. هزم الديمقراطيّون في موجة انتخابيّة عارمة، وخسرنا نوّاباً ينتمون إلى المجموعة التقدميّة فيه فخفضوا سقف مطالبهم وصاروا تكتيكيّين لا برنامج هجوميّاً لهم. وعندما تكون في حالة دفاع في السياسة يستحيل عليك التخلّص منها. صارت «لجان المواطنين» تدافع عن المواقف الدفاعيّة لنوّاب الحزب الديمقراطي التقدمي.

كسب جيمي كارتر انتخابات العام ١٩٧٦ وعيّن بعض الأشخاص الجيّدين، لكنْ حلّ الشللُ والاستنقاع بعد العام ١٩٧٨. أخذنا نعاين انهيار كلّ البناء الفوقي الذي انشأناه والذي دافع عن رجال ونساء عاديّين في واشنطن. بدأت المؤسّسات المانحة بخفض تمويلها لمجموعات المواطنين، موّلوهم إلى حين أفسدوهم وأجبروهم على الخيار بين أهون الشرّين في وسائل العمل. كان معظم أمناء مؤسّسة فورد من رجال الأعمال فبدأوا يوقفون تمويل «لجان المواطنين».

أطلقنا حملة لمقاومة إعادة الهيكلة، ووقفنا في وجه هجمة تحرير الأسواق العارمة، ولم يعد بإمكاننا فرض تنفيذ القوانين الجيّدة، ذلك أنّ الموظّفين المناصرين للشّركات وضعوا كلّ التشريعات في الأدراج. لجأنا إلى استراتيجيّة أخرى: بدأتُ أدور في البلد لتشكيل مجموعات مختلفة تعيد تأسيس البنية التحتيّة المدنيّة، وإحدى الطّرق لذلك هي تشريع قوانين تلزم الشركات بأن تضيف إلى الفواتير التي ترسلها للزبائن الدعوة إلى الانضمام إلى لجان الدفاع عن حقوق المستهلكين. نجحت الحملة نجاحاً كبيراً ولكن ما إن صرنا على أهبة اجتياح البلد، رفعت الشركات قضيّة ضدّنا على اعتبار أنّ ما نطالب به يخرق حقّ الشركة – أيْ حق شركة باسيفيك غاز، والمصارف – في التزام الصمت وهو الحقّ الذي يصونه التعديل الدستوريّ الأوّل بالنسبة إلى المواطنين الأفراد. نالوا ما أرادوا. وصدّق القضاء على رفضهم وألغت إلزاميّة إرسال الشركات الدعوات إلى زبائنها للانتساب إلى منظّمات للدفاع عن المستهلكين مع فواتيرهم.

عندما تولّى كلنتون الرئاسة تمّ عزلي تماماً، ولم يعد بإمكاني أنْ أناقش قضايا أمام الكونغرس. ضيّقوا علينا فأخذتْ معظم مجموعات المواطنة تخفض سقف مطالبها حتى إنّ جماعة كلنتون عصرونا عصراً وعلّقوا الأوجه الأكثر حيويّة من الديمقراطيّة الأميركيّة. صار العمل ضمن النظام القانوني مستحيلاً: استولوا على النظام القانوني بواسطة القانون الذي يعتبر الشركة شخصاً حيّاً ومتمتّعاً بالوعي. وتكاثرت التشريعات لصالح الشركات وأنفقت أموالاً طائلة وجرى تهميش القانون العام. وترافق ذلك مع رفع قيمة القروض على التعليم، فامتنع الطلاب عن اختيار القانون العام لأنّه لن يفضي إلى وظائف دسمة تسمح بإيفاء الديون بعد التخرج، فيما التخصص في قانون الشركات يتيح لك تسديد القروض في بضع سنوات.

أزال «قانون الشركات» الحواجز بين النّزعة التجاريّة والمواطنة، سلّعوا الانتخابات، وسلّعوا السياسة، سلّعوا كلّ شيء، صار كلّ شيء معرّضاً للبيع، عندما انكسر سدّ «القانون العام» وسمح للمجمّعات الشركات بدخول ميادين كانت محظورة عليها سابقاً. من يمكنه شراء الديمقراطيّة؟ الذين يملكون المال، يمكنهم شراء الانتخابات، شراء الموافقة، شراء كلّ شيء. يجب أن تكون ثمّة منطقة حرام للديمقراطيّة! يجب تحريم شراء وبيع الحكومات، يجب تحريم شراء الطفولة وبيعها، البيئة لا يمكن أن تكون عرضة للشّراء والبيع، وهي كلّها الآن معروضة للشراء والبيع، وهذا الذي يُسمّى «قانون الشركات» يسمح للشركات بأن تموّل الانتخابات أسوة بالأفراد. وهو ما كسر الديمقراطيّة، وأنشأ ديكتاتوريّة نظام الحزبين. إذذاك قررتُ خوض الانتخابات الرئاسيّة، للإعلان بأنّ زمن العمل من داخل النظام قد ولّى، وأنّ ثمّة حاجة إلى كسر ديكتاتوريّة نظام الحزبين. كنت أعلم أنّني لن أفوز. كانت حملتي حملة توعية سياسيّة.

◆ ما الذي كشفه ترشيحك للرئاسة؟

■ كشف نظام ديكتاتوريّة الحزبين والتلاعب بالشعب الأميركيّ وكيفيّة السيطرة عليهم بواسطة التخيير بين أهون الشرّين. كان المرشحون من خارج الحزبين يعاملون بما هم مواطنون من الدّرجة الثانية. لا حقّ لهم بالاطّلاع على قوائم الترشيح أو المشاركة في الحوارات الرئاسيّة. كان عليك أن تملك ١٠٪ من الأصوات في الانتخابات الأوّليّة ليحقّ لك المشاركة في الحوارات الرئاسيّة. وهذا تمييز ضدّ الحرّيّات المدنيّة للمرشّح: لكلّ مواطن الحقّ المتساوي في خوض الانتخابات لتولّي الوظيفة العامّة. المعارضة والمقاومة التي جذبت الناخبين تاريخيّاً أسهمت في تحسين الأداء السياسيّ وحقّقت بعض العدالة في بلدنا. كان الإعلام الذي يرفض تغطية حملاتنا يسمّينا «مفسدين» العمليّة الانتخابيّة. وقد اتّهمت بأنّي سهّلت فوز بوش.

بـــــــــــدأت تكمن عبقرية ترامب فى اللعب على الكلمات. إنه ينطق باسم اللاوعى الأميركى ويعكس العقلية اليمينية فى المجتمع الأميركى ويجيد الحديث إلى هذا اليمين المحافظ إنه شعبـــــــــــوي يخاطب الطبقة الوسطى الأميركية البيضاء.

والمعيب أنّ الحزب الديقمراطيّ هو الذي يمنع ملايين الناخبين من أن يختاروا مرشّحاً ثالثاً، يريدون احتكار السياسة التقدّميّة في وقت صاروا فيه أكثر محافظةً اقتصاديّاً من الجمهوريّين.

◆ هل تعتقد أنّك سوف تشاهد تغيير نظام الحزبين في أيامك؟

■ الحقيقة أنّني متفائل إلى حدّ كبير. أوّلاً، القيود على المرشّحين من خارج الحزبين آخذة في التقلّص بسبب الأزمة الاقتصاديّة وبداية نهاية الرأسماليّة الأميركيّة. ثانياً، ثمّة قضايا عديدة مرفوعة من «حزب الخضر» و«الحزب الليبرتاري» أو حتى «حزب المحافظين» الذين تنامى نفوذهم في ولاية بعد ولاية، بات بالإمكان تجاوز العقبات ومنح الناخبين المزيد من الخيارات والأصوات. وثالثاً، تشير نتائج الانتخابات إلى أنّ نحو ٦٠٪ من الأميركيّين يتطلّعون إلى حزب ثالث فعّال.

◆ لننتقل إلى انتخابات هذا العام. كيف ترى إليها؟

■ إنّها آخر ألاعيب حفلة سيرك، لكنّه سيرك قاتل، لأنّ الجميع يجعجع على أمل أنْ يصير قائداً للولايات المتّحدة ويضع إصبعه على الزرّ الذي يفجّر القنبلة النوويّة. إنّها عمليّة شاذّة حيث الذين يملكون الثروات الطائلة، لكنّهم عديمو الكفاءة، يعتلون خشبة المسرح، ويحقّقون الشهرة والجاه، غير أنّ العقول التي تَقْولبها رسائل التويتر لا تنتج مجتمعاً ديمقراطياً متألّقاً. إنّهم يحوّلوننا إلى مُشاهدين، وتتحوّل الانتخابات إلى تسلية نتنازل فيها عن حقّنا في المحاسبة بما نحن مواطنون.

◆ ما رأيك في المرشحين؟ لنبدأ بدونالد ترامب. ما الذي تقول لك شعبيته عن الجسم الانتخابي الأميركيّ وعن مطالبه؟

■ ترامب يهزّ النظام وهذا أمر جيّد. قد يُنتج ذلك نتائج إيجابية وقد ينتج نتائج سلبيّة، مثل اختيار الحزبين لنائب رئيس يمينيّ، يربطهما معاً بمصالح وول ستريت ودولة الاحتكارات. لا تعرف الصحافة كيف تحشر ترامب. إنّه يخاطب الناس الذين ملّوا السياسة ولم يمارسوا أيّ نشاط سياسيّ من قبل. يعرف هؤلاء أنّهم يتعرّضون للسّرقة وهم يَضيقون ذرعاً بالسياسيّين. وهذا ما يعرفه ترامب جيّداً جدّاً. الناس يتطلّعون إلى رجل قويّ. هذا من معالم التقهقر في مجتمعاتنا، عندما يقول «سوف أخنق أنفاس من يتعرّض لكم». الناس يريدون تطمينات من هذا النّوع. إنّه يراهن على الوضوح، عباراته مبتسرة جدّاً، يقول أشياء مثل: «إنّهم ينيكوننا» أو «سوف أبني جداراً» [بين الولايات المتّحدة والمكسيك لوقف سيل الهجرة]. تكمن عبقريّة ترامب في اللعب على الكلمات. إنّه ينطق باسم اللاوعي الأميركيّ ويعكس العقليّة اليمينيّة في المجتمع الأميركيّ ويجيد الحديث إلى هذا اليمين المحافظ: هؤلاء هم نحن، هذا هو مجتمعنا. لكنْ ليس من العدل استسهال اتّهام ترامب بأنّه يمينيّ. إنّه شعبويّ يخاطب ثقافة الطبقة الوسطى الأميركيّة البيضاء. يدعو إلى إعادة النّظر في اتفاقيّات التّجارة الدوليّة، يقول إنّ كبار الرأسماليّين يسرقوننا، ويرحّلون الوظائف عبر البحار، ويراكمون الأموال، فيما نحن عاطلون من العمل.

يقول أموراً لم يقُلها رجل أعمال من قبل. عندما تحدّاه أحدهم بأنّه سجّل طلب إشهار إفلاسه، قال «إنّني ألجأ إلى الإفلاس بما هو مصلحة ماليّة. أستطيع أن اسمّي عديدين استخدموا إشهار إفلاسهم لكسب الأموال. لست أقول أيّ شيء مختلف وأنا أقوم بكلّ هذا بطريقة قانونيّة». إنّ ترامب في وقاحته يخدم الأجندة التقدّميّة، والنقّاد التقدّميّين لسياسات وول ستريت وللقوانين العاملة لصالح التكتّلات الرأسماليّة. إنّه يملك فرصة لكسر طغيان نظام الحزبين الذي يسيطر على المشهد السياسيّ لصالح كبار الرأسماليّين. يتطلّب الأمر صاحب بليونات من الدولارات لكسر هذا النظام. وترامب يزيد من الفرص أمام نظام متعدّد الأحزاب، متعدّد الأصوات، متعدّد الخيارات.

وترامب يقدّم نفسه على أنّه شخصيّة أبويّة. «لا تجزعوا، سوف أوفّر لكم الوظائف»، «سوف أتدبّر أمر الإرهابيّين». وعندما يتعثّر، يقلب الآية. يقول إنّه لا يريد أجوراً مرتفعة، ثمّ يناقض نفسه خلال أسبوع، فيقول «انظروا، أستطيع أن أغيّر رأيي. لا تجزعوا. الجدار الواقي بين أميركا والمكسيك. من سيدفع أكلافه؟ المكسيك. سمعت أنّهم لن يدفعوا. تدرون ماذا؟ هذا يعني أنّنا سنزيد عشر أقدام إضافيّة إلى ارتفاع الجدار». ثمّة بعض المهارة في هذا.

الأمر الثالث في ترامب أنّه منغّل. أسمّيه «جمهقراطي». يدعو إلى اعتماد قانون للضمان الاجتماعي والصحّيّ، وهو من أنصار المشاريع العامّة. وهذا ما يطمْئن الذّكور البيض المحافظين وآخرين إلى أنّه لن يكون محافظاً مخبولاً مثل السناتور تيد كروز وأشباهه.

وهذا ما نلقاه عندما نسير قرب ورشات بناء ونتحدّث إلى عمّال بيض وهم يشعرون بأنّهم مقموعون لغويّاً. قد يصعب على واحدة في مثل عمرك إدراك ما سوف أقوله. إنّهم يحبّون الوقوف عند الناصية وأن يصفّروا عند مرور امرأة جميلة. ولكنّهم لا يستطيعون ذلك بعد الآن. ضاعفي الحالات عبر الزمن: لا يحقّ لك أن تتحدّث عن هذا الأمر، ولا يحقّ لك أنْ تتحدّث عن ذاك الأمر، وربّ العمل يأمرك بأن تسكت. وربّما أنّ زوجتك تريدك أن تسكت، وأولادك يطالبونك بأن تسكب. فيما هم قد ورثوا لغة متكاملة فيها عبارات إثنيّة من مثل «بولاك» للبولونيّين. وكثير منهم نشأوا على نكات إثنيّة، وقد باتت محرّمة كلّيّاً في أيّامنا هذه. هل تدرين أنّ كلّ كتب النّكات الإثنيّة قد سحبت من المكتبات الآن؟ وكان يوجد منها الكثير على الدوام. كتب نكات عن الزنوج، كتب نكات عن اليهود، كتب نكات عن البولونيّين، كتب نكات عن الإيطاليّين. كان العمّال يلجأون إلى النّكات الإثنيّة في الثلاثينيّات والأربعينيّات والخمسينيّات لتخفيف الضغوط عنهم، ويتضاحكون لكلّ نكتة يلقيها أيّ منهم ويرمونه بنكتة في المقابل. ولا تزال هذه الأمور سارية المفعول في أميركا. ثمّة مئات من الأمور يحبّ القوم أن يقولوها، فإذا ترامب يزايد عليهم فيها، يسكرهم بها. وبهذه الطريقة نجح في لفت أنظارهم أوّل الأمر.

◆ هل تقصد أنّ ترامب محقّ في موضوع اللياقة السياسيّة؟ وأنّنا بتنا شديدي التزمّت في هذا الصّدد؟

■ نعم، بالتأكيد. ترين ذلك في الجامعات، ما اسمه؟ «إنذار التنبيه»؟ بلغ الأمر حدّ العبَث. أقصد يجري قمع الناس، وإثارة مشاعر الغضب، وما النتيجة؟ تحويل النّاس إلى بَشَرات تتجرّح إذا سقطت عليها أشعّة القمر. الشباب اليوم شديدو الحساسيّة لأنّهم لم يخدموا خدمتهم العسكريّة الإلزاميّة. لم يقابلوا عريفاً يصيح بهم «انبطحْ أرضاً ونفّذ ٥٠ حركة ضغط صعوداً وهبوطاً، ولست أهتمّ إذا كنت ستفعلها في الوحل».

إلى ذلك، وهذا مهمّ، ثمّة شريحة ضخمة من النّاخبين لا تحبّ أيّاً من الحزبين. وكثير منهم لا يقترعون أصلاً أو يقترعون على قاعدة أهْون الشرّين. لكنّهم يحبّون من لا يُشترى ولا يُباع.

إنّ ساندرز غير قابل للشراء أو البيع. وقد أثبت أنّه ليس مضطراً إلى ارتياد أحياء الأغنياء في نيويورك بحثاً عن مموّلين من القطط السمان، وهذا خرق عظيم بالمناسبة. كان الديمقراطيّون يقولون لعقود من الزمن «نؤمن بإصلاح تمويل الانتخابات، لكنّنا لن نقلع عن تلقّي التمويل من الشّركات من جهة واحدة». ساندرز أقلع عن الممارسة من جهة واحدة. وأحاط نفسه بالنّاس العاديّين الذين يتبرّع الواحد منهم بما لا يزيد عن ٢٧ دولارا للحملة الانتخابيّة.

لست أدري إلى أيّ حد تعرفين عن «لجنة النقاشات الرئاسيّة» وهي شركة خاصّة لا تتوخّى الربح. أراد الديمقراطيّون والجمهوريّون التخلّص من «رابطة الناخبات» التي كانت تدير النقاشات الرئاسيّة لأنّها كانت شديدة الاعتداد بالنفس فأنشأوا تلك اللجنة. تمّ تمويلها من التكتّلات الرأسماليّة – آنهاوزر-بوش، فورد، آي تي أند تي. فإذا هذه الشركة باتت تقرّر بالنيابة عن الحزبين عدد النقاشات، وشكلها، ومدراء الجلسات، وسائر الآليّات. لا أعتقد أنّ الأمور سوف تسوء أكثر من ذلك. حتى وصلنا إلى العام ٢٠١٦ فإذا النقاشات مناسبات لتولّي أجهزة الإعلام الخاصّة تحقيق الأرباح. فالآن لدينا تلفزيون «فوكس نيوز» والـ«سي. إن. إن» تتناوبان على إدارة النقاشات. وكلتا الشركتين تسجّل أرقام مشاهدة هائلة، خصوصاً أن ترامب حوّل الحوارات الرئاسيّة إلى سيرك. تصوَّري: لديك أجهزة إعلام متهالكة على الربح في «فوكس» و«سي إن إن» وسواهما، وهي تقرّر من يشارك في الحوارات وما هي مدّتها وأين مكانها. هل هذا ضرب من المزاح؟ لقد جرى تسليع الحوارات في الانتخابات الفرعيّة وما من أحد يعلّق على ذلك!

◆ ماذا عن ساندرز وترامب؟

■ ساندرز يعبّر عن رأي أكثري، وقد أنشأ نظاماً فعالاً، يعكس رأي الأكثريّة، وهو يطالب بزيادة الحدّ الأدنى للأجور – وهذا ما يطالب به عشرات الملايين من الأميركيّين ويعارض خفض الرقابة على أسعار الأدوية التي ترتفع شاهقة.

ساندرز وترامب كلاهما من الخوارج، سياسيّاً يُحدث تموّجات كبيرة في الحياة السياسيّة وتغييراً كبيراً منذ الانتخابات الرئاسيّة الأخيرة. لكنّ المرشّح الذي يعبّر عن الأكثريّة هو بيرني ساندرز. وقد أنفق ملايين الدولارات من تبرّعات متواضعة وهو لا يريد اللجوء إلى ممّولين. ترامب من أبناء الدّاخل بمعنى انتمائه إلى عالم التكتّلات الرأسماليّة، يتلقّى المساعدات الماليّة والإعفاءات الضريبيّة الحكوميّة لصالح شركاته، ويستخدم قانون الإفلاس للتهرّب من سداد ديونه. له انتقادات كثيرة على صناديق التحوّط ورجال وول ستريت، القطط السمان الذين ينمّون تعويضاتهم بما هم رؤساء مجالس إدارة. ويقول كأنما عن غير وعي كامل منه: «لماذا ندفع للسياسيّين كلّ هذا المال؟ لأنّهم ينفّذون كلّ ما نطالبهم به». وهذا تأكيد لما كنّا نقوله من سنين عندما يجيء على لسان ربيب عالم التكتّلات الرأسماليّة. لقد تحدّى ترامب وول ستريت في غير مناسبة، دعا إلى إعادة النظر في الاتفاقات التجاريّة، مع أنّي لست أدري مدى جدّيّته في هذا. لكنّه يقول إنّه ضدّ حسم حصّة من الأرباح لتغذية صناديق التحوّط وهاجم أموال الفوائد الخاصّة، وقد موّل حملته الانتخابيّة بماله الخاصّ، وبالتّالي هاجم العوائد المتأتّية للذين يديرون الأموال دون أن يكونوا من المستثمرين. إلّا أنّه خفّض من مستوى النقاش السياسي إلى أعماق غير مسبوقة من الغرائزيّة والتجهّم والخواء، ترافقها مقادير هائلة من التبجّح واللغو. وهذا سيّئ لأنّه صبّ أموالاً كثيرة في أجهزة الإعلام، وهو نوع من النّقاشات باتوا يشجّعون عليه.

◆ ماذا عن ساندرز وهيلاري كلنتون؟

■ المشكلة الرئيسة في ساندرز هي أنّه قال منذ البداية وكرّر ذلك لاحقاً، إنّه إذا رشّح الحزب الديمقراطيّ هيلاري كلنتون فسوف يدعم ترشيحها. فخسر بذلك كلّ تأثير لدفعها إلى اعتماد أجندة أكثر تقدّماً. وخسر أيضاً ثقة جميع الذين ينشطون دعماً له. فماذا يقول لملايين الناس الذين أيّدوه وتبرّعوا لحملته، هؤلاء الذين سوف يفقدون الأمل؟ إنّ كلنتون تتباهى بسجلّها وتجربتها بطرائق يمكن لساندرز استخدامها لفضح نقاط الضعف الجدّيّة عندها والمعوّقات الكبرى لأهليّتها للرئاسة. صحيح أنّ ساندرز يردّ على نقاط كلنتون، لكنْ تعوزه الدقّة المطلوبة لتدمير عجرفتها.

هيلاري كلنتون ليست صادقة مع الشعب الأميركيّ عندما تحتفظ لنفسها بتسجيلات الخطب السريّة (تتلقّى عليها ٥٠٠٠ دولار بالدقيقة) التي تُلقيها في مؤتمرات رجال الأعمال في وول ستريت وفي ندوات الجمعيّات

coca-cola
abc
intel inside
Pizza Hut
IBM
PEPSI

التجاريّة. عقود إلقاء الخطب التي توقّعها كلنتون تشترك في السريّة والكتمان. غير أنّ كلنتون لم تبلغ الناخبين بعد بما كانت تقوله خلف أبواب مغلقة لكبار أصحاب المصارف وأصحاب مصانع السيّارات والأدوية والمطوّرين العقاريّين. ومع ذلك فهي تملك القحَة لاتهام ساندرز بأنّه ليس شفّافاً. وعندما يتّهمها هذا الأخير عن حقّ بأنّها عيّنت هنري كيسنجر، وزير الخارجية زمن ريتشارد نيكسون، مستشاراً لها، تناور وتتحاشى الجواب بأن تسأل ساندرز أن يسمّي مستشاريه للشؤون الخارجيّة. الحقيقة أنّ كيسنجر وكلنتون يتشاركان في أمور عديدة من حيث تقديم الإمبراطوريّة الأميركيّة على أعلى درجات وحشيّتها. كيسنجر «جزّار كمبوديا»، الذي شنّ هجوماً غير شرعيّ لتخريب ذاك البلد المسالم، ما مهّد الطريق أمام تولّي بول بوت ذبح ملايين من الأبرياء. أمّا كلنتون، فهي «جزّار ليبيا» غير الشرعيّ، وليبيا الآن مأساة متواصلة تتنامى «ارتداداتها غير المقصودة» أسبوعاً بعد أسبوع. في إعادة تذكير كاسحة بنزعة هيلاري كلنتون الحربيّة الكارثيّة، يخلص جيفري ساشز، أستاذ الاقتصاديّات المستدامة في جامعة كولومبيا، إلى أنّها «مرشّحة آلة الحرب»، مرشّحة التكتّلات الرأسماليّة والحرب. وقد خسر ساندرز كلّ أوراقه من أجل الدفع نحو اعتمادها لسياسة مختلفة.

وسألوا طالبات جامعة بايلور عن عدد الساعات التي يقضينها على الهاتف. كان الجواب ما معدله ١٠ ساعات باليوم. هذا لا يشبه مشاهدة التلفزيون.

تعكس هذه الانتخابات الرئاسيّة نهاية هيمنة الرأسماليّة الأميركيّة كما عرفناها إلى الآن. إنّ النظام قيد الانهيار، الكثير من الناس يضعونه موضع تساؤل، أمّا كيف سوف ينتهي، فوسط معارك وقد تكون معارك عنيفة، إن لم يُنصت ذوو السلطة إلى طبول التحذير التي قرعها خلال الانتخابات أنصار ترامب وأنصار ساندرز على حد سواء وهم يقولون: «هذا النظام فاسد منهار ويحتاج إلى إصلاح». هذه رسالة واضحة يطلقها الشعب الأميركيّ في هذه الانتخابات. لقد فقدوا الأمل في الرأسماليّة الأميركيّة والمعركة مفتوحة. ومن لا يحرم كبار المرشحين من صوته، لن يستطيع توقع التغيير. أن نحرمهم أصواتنا، هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمونها.

أعتقد أنّ هيلاري كلنتون سوف تهزم دونالد ترامب، لأنّها الحليف الأكبر لرأس المال الكبير، أي أنّ انتصارها أشبه بانتصار دونالد ترامب على دونالد ترامب. فهو لا يستطيع السيطرة على نفسه فكيف بسيطرته على آخرين؟

◆ هل تعتقد أنّ وسائل التواصل الاجتماعي أفادت منظّمي الحملات الانتخابيّة أم أضرّتهم؟

■ أعتقد أنّها أسدت خدمة عظيمة لساندرز. لكنّني أعتقد، في الحصيلة، أنّها تدمّر عقول الجيل الجديد. لا مثيل لها من حيث الاستهلاك المحض للوقت والتفاهة المحضة والنرجسية المحضة والألم المحض. ولست أعتقد أنّنا باشرنا تحليل ما يصيبنا جميعاً بسببها، والأفدح هو ما يصيب الأجيال الجديدة. نشرت «النيو يورك ريفيو أوف بوكس» مؤخّراً مراجعة لأربعة كتب عن أثر الهواتف الذكيّة على الناس. وسألوا طالبات جامعة بايلور عن عدد الساعات التي يقضينها على الهاتف، كان الجواب ما معدله ١٠ ساعات باليوم. هذا لا يشبه مشاهدة التلفزيون. هذا انغماس كامل. والأمر يزداد سوءاً. هذا يعني تناقص القدرة على التركيز وعلى التواصل مع الآخرين. لم يعد الشباب يتحادثون على الهاتف. ليس بواسطة الحكي على كل حال. لقد باتوا أكثر حساسيّة. والهواتف الذكيّة تعزل الشاب والفتاة عن الأسرة. إنّه جهاز عازل جداً. قالت إحدى الفتيات إنّها تتعاطى بـ٦٠٠ رسالة إلكترونيّة باليوم، وإنها سوف تموت إذا حُرمت من هاتفها. في البدء، قلنا: حسنٌ، هذا سوف يسهّل التنظيم الآن. لا طوابع بريد، لا اتصالات هاتفيّة بعيدة، جماهير جاهزة للحظتها. هذا ما لم يحصل. تصلك عرائض ولكنّ مواقع التغيير الآن تغرقها العرائض.

◆ لنعد إلى الوراء بعض الشيء. ما هو الهدف الذي ناضلت لتحقيقه لأطول فترة ولم تحقّقه؟

■ حملات لتنظيم جماعات المواطنة. كلّ المجتمعات الديمقراطيّة عليها أنْ تمارس التنظيم. لا يكفي أن نعرف ما الصحيح وما الخطأ وأن نعلن ما ينبغي تحقيقه. كما قال جان مونيه: «لا يمكن تحقيق شيء بدون شعب، ولكن لا شيء يدوم دون مؤسّسات». في جامعة برنستون نظّمت صفّاً من الخريجين لتنفيذ مشروع يوزّع الطلّاب إلى مجموعات نشاط مدنيّ عبر البلاد وعبر العالم. وأنشأ أحد الصفوف بكليّة الحقوق بهارفارد ١٦ مركزاً لتطبيق القانون وتحقيق العدالة. هذا مصدر أسفي الأكبر: عدم تعميم هذا النموذج، لأنّه كان سوف يغذّي بقوة عروق مجتمع ديمقراطيّ وإنتاجيّته.

حوار مع ادولف ريد
حملة بيرني ساندرز نجاحات وإمكانيات

ادولف ريد

استاذ العلوم السياسية في جامعة بنسلفينيا ومناضل يساري من مؤسسي «حزب العمال الاميركي» من ابرز اعماله «حديث طبقات» (٢٠٠١) عن العرق والطبقة في السياسات الاميركية.

حاوره دانييل زامورا

سوسيولوجيّ في دراسات بعد الدكتوراه في جامعة إلينوي، شيكاغو. نشر مؤخّراً فوكو والنيوليبراليّة. وقد نشرت «بدايات» جزءاً منه في العدد ١٢.

خلافاً لجميع التوقّعات، تمكّن بيرني ساندرز من الفوز بأكثر من ثلاثة عشر مليون صوت (٤٣٪ من المجموع الكليّ) وثلاث وعشرين ولاية في الترشيحات لانتخابات الرئاسة الاميركيّة. لم يظفر بالترشيح النهائيّ، لكنّه خلّف أثراً واضحاً على جيلٍ من الناخبين الجدد وعلى الخطاب السياسيّ في البلاد.

سيبقى معنى هذا بالنسبة إلى اليسار والحركة العماليّة في البلاد رهناً بالمستقبل. في حوار مع دانييل زامورا، في الدوريّة البلجيكيّة إيتود ماركسيست، يناقش أدولف ريد أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة بنسلفينيا هذه الظاهرة وما يمكن أن تعنيه للمستقبل.

◆ كيف تفسّر نجاح حملة ساندرز؟ وحتى مع خسارته الترشيح النهائيّ، كانت سابقةً أن يوشك «اشتراكيٌّ ديمقراطيٌّ» مُعلَن على هزيمة مَنْ يمكن أن نعتبرها السياسيّة الأقوى في الولايات المتحدة [هيلاري كلينتون]. فالمبلغ الذي تمكّن من جمعه، وعدد الناس الذي اجتذبهم إلى الحملة والأفكار التي عمّمها كلّها أمورٌ لم تكن متوقّعة أبداً.

■ أظنّ أن هناك عوامل متعدّدة تفسّر باجتماعها نجاح الحملة. وأودّ التأكيد على وجوب اعتبار الأمر نجاحاً، فلطالما كانت إمكانيّة نجاح ساندرز بالترشيح الديمقراطيّ أمراً بعيد الاحتمال إلى حدّ كبير، دع عنك انتخابه رئيساً للجمهوريّة، مع أنّ كثيراً منّا – للمفارقة – ظنّ أنّه سيكون مرشّحاً أقوى من كلينتون، بهذا المعنى أو ذاك.

بالطبع، كان علينا كلّنا أن نعمل واضعين في الذهن احتمال نجاحه فعلًا، فمن جهة تبقى الإمكانيّة بعيدة الاحتمال إمكانيّةً مطروحةً، عدا عن أنّ التوقّعات بعد [الانتخابات الفرعيّة في] آيوا لم تعد كما كانت عليه لفترة طويلة. وكذلك، كيف لنا أنّ نأمل رفع إمكانيّة الحملة إلى أقصاها لو لم نفكّر بهذه الإمكانيّة؟

ولكن، وعلى نحو مفهوم، وجد البعض أنّ من الصعب مقاومة التفاؤل الطاغي الذي شجّع على توقّعات أكبر. فإحدى سمات مواقف اليسار في الولايات المتّحدة أنّه يميل لأن يكون أقوى في مجال تفاؤل الإرادة منه في مجال تشاؤم الفكر. غالباً ما كنتُ أشير إلى أنّ نموذج عملنا في الحملة هو محاولة حشد أكبر قدر ممكن من الدعم في المكان الذي نعمل فيه في تلك اللحظة، بصرف النّظر عن نتائج استطلاعات الرأي أو ما يحدث في ولايات أخرى.

وعلى أيّة حال، أودّ التشديد على هذه النقطة لأنّني سمعت مؤخّراً بعض المعلّقين «التقدّميين» المزعومين يطرح الرأي المعاكس، أي أنّ الحملة قد أخفقت. إذ صرّح بعضهم بأنّ توقّعاتها كانت غير منطقيّة، مدفوعين جزئيّاً بفعلٍ ما اعتبره هؤلاء سذاجةً حيال السياسة الانتخابيّة، نزعةً للتقليل من شأن الوزن المؤسساتيّ لمنظومة الحزب وصلاته على المستويين المحلّي والقومي ومع المؤسسات الحليفة مثل معظم الاتحادات والمنظّمات النسائيّة والحقوق المدنيّة.

أما البعض الآخر من المتحمّسين لاعتبار الحملة فاشلة فمدفوعون بأهداف أيديولوجيّة أخرى. على سبيل المثال، فإن التروتسكيّين وآخرين غيرهم ممّن يعتبرون – على نحوٍ صنميّ – أنّ التعاون مع الديمقراطيّين هو أكبر الخطايا في السياسة، يودّون المحاججة أنّ ساندرز كان سينجح أكثر لو تقدَّم كمُرشّح مستقلّ.

هذا رأي واهٍ. ففي المقام الأوّل، لم تكن الحملة خارج الترشيحات الديمقراطيّة والجمهوريّة لتظفر بأيّ انتباه على الإطلاق، ما يعني أنّنا كنا سنُضيّع العام الماضي هباءً، كما أنّنا لن ننال دعم أيٍّ من الاتحادات النقابيّة والمهنيّة أو المنظّمات الأخرى تقريباً.

ويصرّح نشطاء مناهضة العنصريّة، أو يُضمرون، أنّ الحملة كانت ستنتزع الترشيح من كلينتون لو كانت قادرةً

على التقرّب من السود على نحو فعّال أكثر، ويعنون بهذا لو كانت الحملة قد منحتهم مكانةً خاصّةً كممثّلين رمزيّين للمقترعين السود. إنّ مسألة «أصوات السود» وحملة ساندرز أكثر تعقيداً ممّا تبدو للوهلة الأولى. هناك عدد كبير من المقترعين السود الذين تتنوّع تفضيلاتهم، واهتماماتهم، ودوافعهم، وميولهم الأيديولوجيّة، وصلاتهم المؤسساتيّة. أعلم أنّنا سنناقش هذا لاحقاً، لكنّ الصياغات الدائرة حول الشذوذ الظاهر القائل إنّ ساندرز لم يكسب نسبة أكبر من أصوات المقترعين السود هي مُضلِّلةٌ بحدّ ذاتها.

بمعزل عن أولئك المنتقدين، كان عدد آخر من الديمقراطيّين النيوليبراليّين والمعلّقين الإعلاميّين قد اعتبروا الحملة دون كيشوتيّةً منذ البداية، وأمعنوا في محاولة تسخيف ساندرز وقاعدته. وكان هذا متوقّعاً. فإحدى التناقضات في محاولة استخدام حملة انتخابيّة قوميّة كأداة لبناء حركة سياسيّة هي أنّ مثل هذا الجهد سيعتمد على ما تقدّمه صناعة الترفيه الإخباريّ من رؤية عريضة ومباشرة. لكنّ من الحماقة توقُّع سماع وتقييم مُنصفَيْن من تلك الجماعة.

ركّزت الحملة، بدرجة ما، على إحباط عامّ يسود الدوائر الانتخابيّة، أي أعلى لإحساس بأنّ أيّاً من الديمقراطيّين أو الجمهوريّين المعتادين لا يخاطب اهتمامات الناس ومخاوفهم.

وسيكون من الخطأ اعتبار أنّ جميع، أو معظم، أولئك الداعمين لساندرز هم من اليساريّين الملتزمين أو من معتنقي انتقاداتٍ يساريّةٍ مركّبةٍ للنيوليبراليّة. كثيرٌ منهم أناس يقاسون ويقلقون من الناحية الاقتصاديّة. كانت دوافع دعم حملة ساندرز متنوّعة، ومع أنّني أظنّ أنّ التشكّك حيال إخلاص الأحزاب لـ«وول ستريت» كان خيطاً محوريّاً في دعم ساندرز بكلّ تأكيد، إلّا أنّ من الخطأ محاولة التحدّث باسم تلك الدائرة العريضة من الناخبين.

أظنّ أنّ مغزى قبول الداعمين لسمة «الاشتراكيّة الديمقراطيّة» هو أمرٌ مُبالَغ فيه أيضاً. تذكّرني الثرثرة بشأنه بالمزحة القائلة إنّ نجاح حملة «احتلّوا وول ستريت» الأكبر كان دفع نيويورك تايمز إلى الكتابة عن التفاوت الاقتصاديّ في أميركا. لعقدين أو أكثر، لم يكن من المعقول التفكير بأنّ مصطلح «الاشتراكيّة،» مهما طرأت عليه من تعديلات، كان يحمل أيّ معنى أو مجموعة معانٍ محدَّدة أو متناسقة بالنسبة إلى الغالبيّة العظمى من الأميركيّين.

أفهم السبب الذي دفع ساندرز إلى استحضاره بهذا القدْر الكبير. كان المصطلح دمغةً ملصوقةً به أساساً، وكان من المنطقيّ أنْ يُحكم السيطرة على مناقشة هذه الدمغة كقضيّة بأن يبادر هو إلى طرحها بنفسه. وقد بدا طرحه مثالً [الاشتراكيّة في] الدنمارك لتفسيرها، أو تهدئة المخاوف حيالها، منذ وقت مبكّر مُزَعْزَعاً قليلًا وغير فعّال سياسيّاً برأيي، لكنّ بإمكاني تثمين سبب تصرّفه ذاك أيضاً.

وفي جميع الأحوال، أخشى أن تكون الحماسة لرؤية العبارة [الاشتراكيّة الديمقراطيّة] مطروحةً في الخطاب العموميّ شهادةً على هامشيّة اليسار ومدى قدراته على تحقيق أهدافه بالتمنّي وعلى الهيمنة، حتى بين الذين يسمّون أنفسهم يساريّين، على افتراضات الخطاب السياسيّ السائد بين كلّ هزال مفاهيمها وانقيادها إلى التصريحات الإعلاميّة المُقتضبة. وأفترض أنّ هذا ما يحدث حين يشارك حتى اليسار في اعتناق «إلصاق الدمغات».

وللأسباب ذاتها لم أنجذب إلى العبارة المخاتلة عن [اعتبار ترشيح ساندرز على أنّه] «ثورة سياسيّة». لقد خضتُ مواجهات كثيرة جدّاً، حتى ضمن الحملة، مع أناس تخيّلوا أنّ للعبارة معنى ملموساً أكثر ممّا توحي به فعلًا. من الواضح أنّها فعّالة كرطانة سياسيّة، لكنّ هذا يعود لكونها رمزاً تكثيفيّاً يعني أموراً مختلفة بالنسبة إلى أناسٍ مختلفين، لكنّ الأرجح أنّها لا تدلّ على أمرٍ ملموسٍ فعليّاً أو ذي سمة برنامجيّة بالنسبة إلى معظم النّاس.

نعلم تماماً أنّ دعوات ساندرز إلى تعليم جامعيّ عامٍ ومجانيّ وإلى نظام صحيٍّ على الصعيد القوميّ، علاوةً على نظام تكثيفٍ الاستثمارات العامّة وتنظيم القطاع المالي كان لها أصداء واسعة. القضيّة المحوريّة هي كيفيّة المضيّ قُدُماً. تمتلك الحملة لوائح ضخمة من النشطاء ذوي إمكانات تمكّنهم أن يشكّلوا قاعدةً لتنظيم آتٍ على مدى أطول، وثّمة نقاشات متعدّدة بشأن الخطوات المقبلة تجري في الدوائر الداخليّة للحملة وفي قاعدة دعمها المكوَّنة من ناشطين مقرّبين، مثل مبادرة «الحركة العمّاليّة من أجل بيرني»، بصدد الخطوات اللاحقة.

◆ يقول البعض إنّ علينا فهم خسارة ساندرز بكونها نتيجةً لافتقاره إلى الاهتمام بقضيّتَي العنصريّة والتحيّز الجنسيّ. كتبت أنجيلا ديفيز [القيادية الشيوعيّة والمناضلة من أجل الحقوق المدنيّة] أنّ ساندرز كان مرشّحاً «يرفض مواجهة العنصريّة» ومنخرطاً في «نوع من الاختزاليّة الاقتصاديّة التي تمنعه من تطوير مفردات تُتيح له التحدّث بطرق تُنوّرنا بشأن استمرار العنصريّة، والعنف العنصريّ، وعنف الدولة». وحاجج پول كروغمن أنّ

ساندرز كان عاجزاً عن تناول «التفاوت الأفقيّ» فلم يتمكّن بالنتيجة من الفوز بأصوات «الأقليّات». ما رأيك بشأن هؤلاء المنتقدين؟

■ من الصعب الإجابة على مثل هذه الاتهامات لأنّها تخلو من مضمون ملموس. طوال فترة الحملة كنتُ أتساءل كيف يمكن ألّا يكون فرض حدٍّ أدنى فيدراليّ للأجور هو خمسة عشر دولاراً في الساعة (الحدّ الأدنى الحاليّ هو ٧،٢٥ دولارات) قضيّةً وثيقة الصلة بالأميركيّين السود واللاتينيّين الأوسع حضوراً بين العمّال الذين يتقاضون الحدّ الأدنى من الأجور؟ كيف لا يكون نزع صفة التّسليع عن الضمان الصحيّ القوميّ «قضيّةً متعلّقة بالسود»؟ أو التعليم العالي العام المجانيّ؟ أو الاستثمار العام المتعاظم بشدّة؟ أو إعادة التفاوض بشأن اتفاقات التجارة العالميّة وإيقاف مفاعيل منظّمة «الشراكة عبر المحيط الهادئ»، التي ستقوّي سلطة الشركات ضدّ جميع فئات الشعب العامل؟ وما إلى ذلك. لم يحاجج أحد أنّ الأميركيّين السود، أو الأميركيّين من غير البيض، لن يستفيدوا أكثر من سواهم من تفعيل تلك البنود في برنامج ساندرز.

وعكساً، ما الذي تعنيه «مواجهة العنصريّة»؟ لا أحد في الوسط السياسيّ الأميركيّ ممّن يطمحون إلى أن يكونوا جديرين بالاحترام يعتنق العنصريّة صراحةً – ولا حتى دونالد ترامپ. في الواقع، فإنّ الجميع، حتى ترامپ، يشدّدون على كونهم معارضين لها.

كيف يمكن نعت حملة انتخابيّة بـ«اختزاليّة اقتصاديّة» حين تكون قائمة على برنامج يسعى إلى توحيد الطبقة العاملة الواسعة حول اهتمامات تتشارك فيها الطبقة فيما يتجاوز العرق والجندر والتصنيفات الأخرى؟ للمفارقة، لدينا في السياسة الأميركيّة اليوم يسارٌ يتّهم أيّة إحالةٍ إلى الاقتصاد السياسيّ بكونها «اختزاليّة اقتصاديّة».

ثمّ إنّه ليس ثمّة دليلٌ على أنّ ساندرز كان رافضاً للاعتراف بالتّفاوت العنصريّ أو الجندريّ، أو مناقشته. ما الذي يعنيه «تنويرنا بشأن استمرار العنصريّة، إلخ؟» بكل تأكيد، لا تحتاج [المناضلة الشيوعيّة ضدّ العنصريّة] أنجيلا ديفيس إلى تنوير في هذا المجال، لقد ألّفت كتباً عن هذا الموضوع. إن خطّ النّقد هذا إمّا مُضلَّلٌ أو مُضلِّل.

وثمّة ما هو مُنوِّرٌ بالقدر ذاته، وهو وجود جوقةٍ من تيّار النسويّة الهويّاتيّة يسعى على نحو متكرّر إلى اعتبار دعم ساندرز نابعاً أساساً من رجال يساريّين متحيّزين جنسيّاً. كان هذا تنويعاً على خدعة سابقة بشأن وجود

جماعة من الرجال الاشتراكيّين الذكوريّين الكارهين للنساء هدّدوا النسويّات بالاغتصاب أو بشكلٍ آخر من العنف بسبب رفضهنّ تأجيل المخاوف النسويّة لمصلحة اشتراكيّةٍ طبقيّة-اختزاليّة متركّزة ذكوريّاً.

جسر ساندرز الهوة مع مضيّ الحملة قدما وخروجها من الجنوب. لن أعتبر الاقتراع لكلينتون إشارة إلى أن المقترعين السود ملتزمون بسياسة مناهضة للعنصرية مع أجندتها على كونهم ملتزمين بتحسين أوضاعهم المادية وأمنهم.

هذا أمرٌ شديد الإيحاء، وكان كشفُه أحد اسهامات الحملة التي لم أكن أتوقّعه وهي أنّ لدينا الآن «يساراً» في الولايات المتّحدة يعتبر الاشتراكيّة دليلاً على التخلّف. من الجيّد أنّ هذا بات واضحاً الآن، من الجيّد دوماً معرفة مواقف الناس حيال الصراع الطبقيّ.

أجد ادّعاء كروغمن مثيراً للاهتمام حقّاً، بالقدر ذاته الذي وجدتُ فيه شكوى هيلاري كلينتون أنّ تفكيك البنوك الكبرى لن يُنهي العنصريّة أو التحيّز الجنسيّ. وهو لن يُنهي العواصف الشمسيّة ولا هو يساعد البحرين على الفوز بكأس العالم أيضاً. يتّبع كروغمن خطاً مماثلاً في تكوين ليبراليّة بعد الحرب التي تفصل فكرة اللامساواة عن الاقتصاد السياسيّ وتعتبرها أمراً يخصّ تباين الجماعات.

كانت تلك فعليّاً الحركة الأشدّ إيحاءً، مع أنّها غالباً ما تتملّص من التمييز، الذي قام به دانييل پاتريك موينيهان في كتابه السفيه العائلة الزنجيّة: الدعوة من أجل الفعل القوميّ، المعروف باسم تقرير موينيهان. بدأ أمثاله من الليبراليّين بمحاولة طمس التدخّلات العامّة الهائلة لسياسات «العقد الجديد» [للرئيس بروزفلت] منذ نهاية الأربعينيّات. قام أوسكار هاندلن، أبرز مؤرّخي الإثنيّة الأميركيّة في عصره - بل يمكننا القول إنّه ابتكر هذا الحقل، وهذ أمر له دلالاته أيضاً – بتوصيف الارتقاء الاجتماعي للمجموعات الإثنيّة في العام عام ١٩٤٩ دون أيّ ذكر لسياسات «العقد الجديد» أو النقابية الصناعية لـ (CIO)، اللذين كانا لا يزالان فعّالين وديناميكيّين آنذاك.

وما يدعو إلى الغضب خصوصاً الآن في ظل وصول التفاوت الاقتصاديّ إلى مستويات قياسيّة أنّ كروغمن وآخرين يتجاهلونه ويصرّون بدلاً من هذا على أنّ محور اهتمامنا يجب أن ينصبّ على كيفيّة توازع التفاوت الهائل المتعاظم بين الجماعات الإثنيّة المختلفة، أو بين الفئات السكّانيّة التي تُعدّ جماعات. وتزيد هذه الاستجابات على انتقادات ساندرز في تنفير الكيفيّة التي كيف أنّ الأصوليّة المعادية للعنصريّة والبرامج الهويّاتيّة الأخرى لا تنتج نيوليبراليّين يساريّين وحسب لكنّها تنتج أيضاً وسائط فاعلة في فرضها فكرة تقول بوجود حدود لما يجوز التفكير به سياسياً – أي أنّها تنتج لوناً من حرس الحدود الفكريّ والثقافيّ للنيوليبراليّة.

◆ ولكن، ألا تظن أنّ حمله بيرني لم تكن، بدرجة ما، حملة مناهضة للعنصريّة؟ فمن الصحيح القول إنّ تركيز رسالته كان على القضايا السوسيو-اقتصاديّة. يقول كثيرون ضمن اليسار إنّ هذا الأمر يفسّر جزءاً من إخفاقه في الترشيحات النهائيّة في الفوز بدعم جماعة السود في الولايات الجنوبيّة. سمّاها الناس «أجندة بيضاء»، وأعتبر هذا توصيفاً مزعجاً – بل حتى أنّ تا-نهيسي كوتس قال عنها إنّها سوف تعزّز «سيادة البيض». كيف لنا أن نفسّر هذا، ونفسّر مستوى الدعم المذهل لكلينتون؟

■ علينا أن نفهم أنّ السياسة الانتخابيّة تعمل وفق منطق مُشايعة خاص. مقالة سيدرك جونسن «الخوف والقوادة في ولايّة پالميتو»، هي دون أدنى شكّ أفضل تحليل لظاهرة نجاح كلينتون النسبيّ مع المقترعين السود. ارتبط قدرٌ كبيرٌ من هذا النجاح بحقيقة أنّ لكلينتون علاقات عميقة مع الشبكات النخبويّة التي تقود الناخبين إلى الاقتراع. وثمّة أسباب عديدة أخرى أيضاً. من بين نقاط سيدرك المهمّة المحاجّة ضدّ محاولة التعامل مع المقترعين السود بوصفهم «صوتاً أسود» يفكّر فيه الجميع بذهنيّة واحدة.

وكذلك كان لدينا ثلاثون عاماً أو أكثر من التوقّعات المنخفضة الراسخة حيال ما يمكن أن نتوقّعه من عمليّة الاقتراع. وقد تمثّل هذا بوضوح في كارولاينا الجنوبيّة عندما أقدم عضو الكونغرس المخضرم عن ولاية جورجيا والأيقونة السابقة في حركة الحقوق المدنيّة جون لويس وزميله عضو الكونغرس عن ولاية كارولاينا الجنوبيّة جيمز كلايبرن على تسفيه عرض ساندرز بخصوص التعليم العالي العامّ والمجانيّ معتبرين إيّاه غير مسؤول لأنّه يبثّ رسالة خاطئة أنّ على الناس توقّع أشياء مجانيّة – أي خدمات وبضائع عامّة غير سلعيّة– من الحكومة. «لا شيء مجانيّاً في أميركا»، زمجر لويس.

وقد جسَر ساندرز الهوّة مع مضيّ الحملة قُدُماً وخروجها من الجنوب. ومع ذلك، لن أعتبر الاقتراع لكلينتون إشارةً إلى أنّ المقترعين السود عموماً ملتزمون بسياسة مناهضة للعنصريّة مع أجندتها على كونهم ملتزمين بتحسين أوضاعهم الماديّة وأمنهم.

تلك هي القصّة التي يتحدّث بها نشطاء حملة «حيوات السود تهمّ» ونشطاء يعتبرون أنفسهم ناطقين بلسان المقترعين السود. لكنّ الأمر متعلّق بتدخّلهم الدعَوي، خصوصاً مع افتقارهم إلى قاعدة حقيقيّة بين السود الذين يقترعون على أيّة حال.

◆ ما بدا جديراً بالاهتمام بالنسبة إليّ هو قدرة ساندرز على ربط حملته مع الحركات العماليّة الأوسع في الولايات المتّحدة. من خمسة عشر دولاراً كحدّ أدنى للأجور إلى دعمه لإضراب يريزن، بدا دوماً معنيّاً بشدّة بخلق ديناميكيّة إيجابيّة بين النشطاء العماليّين وحملته. هل هذه هي الاستراتيجيّة التي علينا أخذها بالاعتبار من أجل مستقبل اليسار الأميركي؟

■ نعم، أظنّ أنّ من البدهيّ في الولايات المتحدة، كما في أيّ مكان آخر، أن يرتبط غياب أساس راسخ للحركة العماليّة بغياب أيّ يسار جديٍّ فعلًا. كثيرٌ من الناس لا يحبّون سماع هذا، ولكن أعتقد أنّهم أساساً أناس يفضّلون تحقيق خيالاتهم عاطفيّاً على السعي إلى السُّلطة السياسيّة كهدفٍ لبناء الاشتراكيّة.

◆ يبدو لي، في نهاية المطاف، أنّ المرشّح النيوليبراليّ الفعليّ هي كلينتون وليس ترامپ. ففي كثيرٍ من الحالات، صوَّتَ مقترعو بيرني وترامپ ضدّ كلّ ما تدعّمه كلينتون. في حالة بيرني، ضدّ التجارة الحرّة، الفرصة المتساوية بدلًا من المساواة، الأسواق الحرّة، سياسة خارجيّة عدوانيّة، موقف مناصر لوول ستريت، كانت كلّها قضايا محوريّة للنّقاش. ولكن في حالة ترامپ، وبطريقته الموغلة في الديماغوجيّة، كان قد عبّر عن نفسه أيضاً ضد اتفاقات التجارة الحرّة، وسياسة كلينتون الخارجيّة، وكذلك بشأن الهجرة كتهديد للأجور والوظائف. إذاً، بدرجة ما، لا يتمحور هذا الجدال بين «ديقمراطيّين» مقابل «جمهوريّين» فحسب بل كذلك عن النيوليبراليّة وآثارها. ويبدو أنّنا، في العالم الغربيّ، نشهد سرديّة أشدّ تطرّفاً، ضمن اليمين، تهدف إلى الفوز بدعم «الخاسرين» جرّاء العولمة.

لست واثقا مما ينبغي قوله عن ترامپ بخلاف أنه مختل وانتهازي مهيأ بشدة لتملق النزعات خطورة في السياسة الأميركيـــــــة.

وفي هذا الوضع، من المزعج أنّ اليسار يبدو عاجزاً عن تقديم إجابة أخرى بخلاف اكتفائه باتّهام «الطبقة العماليّة البيضاء» بكونها عنصريّةً. انطلاقاً من وجهة النظر هذه، يبدو بيرني بمثابة علامة أمل وانطلاقة يسارٍ يمكنه توحيد الطبقة العاملة خارج حدود سياسة الهويّة هذه بأسرها.

■ كلينتون هي المرشّح النيوليبراليّ حتماً. لست واثقاً ممّا ينبغي قوله عن ترامپ بخلاف أنّه مُختلّ وانتهازيّ شرس مُهيَّأ بشدّة لتملّق أشدّ النزعات خطورةً في السياسة الأميركيّة. وأتّفق مع رؤيتك عن كيفيّة ملاءمة ترامپ لسياسة اليمين المتطرّف الشعبويّة التي برزت في أوروبا علاوةً على هنا.

كما أنّ من المهمّ تذكُّر أنّ متوسّط الدخل السنويّ لمقترعي ترامپ حسب آخر ما رأيته، وذلك منذ شهرين، هو **٧٧** ألف دولار سنويّاً. ليس هذا وضع الطبقة العاملة، هذا حال أصحاب الأعمال الصغيرة أو الحرف الثانويّة الذين يسعون جاهدين لتأكيد إحساسهم بالانتماء إلى الطبقة المحترمة أو المحافظة عليه، أولئك الذين يعتبرون أنفسهم الأميركيّين «الحقيقيّين»، ويتماهون مع الأثرياء، ويخشون اختراقهم من الطبقة العاملة وخصوصاً الأعضاء غير البيض من تلك الطبقة العاملة.

وهذه هي الفئة ذاتها الخاصّة بـ«الجنتلمان ذي الملكيّة والجاه» التي صدّرت لنا عصابات مناهضة إلغاء العبوديّة في أميركا قبل الحرب، وهي النسخة السياسيّة من جماعة كو كلكس كلان كظاهرة قوميّة في العشرينيّات، والحزب النازيّ، وجميع الحركات السلطويّة والفاشيّة الأخرى. كما أتّفق كذلك بشأن الأمل الذي جسّدته حملة ساندرز. بيّنت لنا الحملة أنّ من الممكن الارتباط مع الطبقة العاملة الواسعة، وقد أصبحت واعياً أكثر فأكثر للدرجة التي نسمح فيها نحن، واليساريّون ضمناً، للطرف الآخر بفرض حدود الطبقة العاملة أمامنا.

وكما حاجج نلسن ليشتنشتاين، عمل إصلاح قانون العمل الرجعيّ بعد الحرب العالميّة الثانية الذي عدّل قانون علاقات العمل الوطنيّة في حقبة البرنامج الجديد الذي كان قد حثّ على إنشاء نقابات منذ منتصف الثلاثينيّات – على تشديد تقييدات تصنيفات العمّال المؤهّلين للانضواء ضمن النقابات، ما أدّى إلى استبعاد كثيرٍ ممّن يُسمّون «أصحاب الياقات البيض» والموظّفين العاديّين.

وكما تعلم، بالطبع، سال حبر كثير في طرح توصيفات استثنائيّة للسبب الذي لم تعمد فيه الولايات المتّحدة على تطوير منظومة حماية اجتماعيّة عامّة كما هو الأمر في معظم دول أوروبا. وعلى أية حال، يمكن أن يكون تفسير هذا الاختلاف شديد البساطة، فبعد الحرب ضعفت مكانة الطبقات البورجوازيّة في معظم أنحاء أوروبّا

وانهارت صدقيّتها بسبب تعاونها مع الفاشيّة. بينما خرج بورجوازيّونا بعد الحرب أقوى ممّا كانوا عليه من قبل وأعيد تأهيلهم سياسياً بفعل مشاركتهم في المجهود الحربيّ.

وفي جميع الأحوال، أصبح كل شيء الآن متوقّفاً على ما يمكن أن نبنيه على الزّخم الذي ولّدته الحملة، من تعميق وتوسيع الصلات مع النقابات العماليّة، وأماكن العمل، والجماعات، والجامعات – مسلّمين بأنّ التقدّم سيكون بطيئاً، وممتدّاً لعقودٍ ربّما، كما ينبغي لنا أن نرى أنفسنا على أنّنا عند بداية رحلة تنظيم طويلة فعليّاً.

وإنّ أحد انشغالاتنا، أو يُفترَض فيه أن تكون، ذلك التيار ضمن جماعة من اليساريّين المتحمّسين للتعظيم المنهجيّ لفصل الاندماجات واستبدال البرنامج الطبقيّ بسياسة هويّة مناهضة للتكافل.

وأظنّ أنّ علينا تعزيز المظاهر الأشدّ مثاليّة في البرنامج، مثل المطالبة بتعليم عالٍ عامّ ومجانيّ، ونزع التسليع عن النظام الصحيّ، إلخ... والقتال الجوهريّ لإيقاف الشراكة عبر المحيط الهادئ، وبالطبع القتال ضدّ التمييز على أساس العرق أو الجندر أو الميول الجنسيّة، إلخ وكذلك ضدّ التسييس النيوليبراليّ ومنظومة السجون العامّة/الخاصّة المتعاظمة باستمرار، وهذه ينبغي علينا فهمها، والتشديد على الآخرين كي يفهموها، بما هي قضيّةٌ طبقيّة.

◆ كيف يمكن أن يكون لهذه الحملة تأثيرات خارج الانتخابات برأيك؟ أعني، حتى بيرني قال مرّات عديدة إنّ ما يريد تحقيقه لا يمكن أن يقوم به رئيس الجمهوريّة بمفرده (حتى لو كان هو الرئيس). إذاً، كانت حملته متعلّقة أيضاً ببناء حركة سياسيّة يمكنها تغيير المشهد السياسيّ في الولايات المتّحدة. هل ترى مستقبلاً لبيرني؟ وما موقع منظّمات العمّال في هذه العمليّة؟

■ برأيي، كان كلّ شيء حتى الآن مجرّد تحضير. كانت الحملة تدور، بهذا المعنى، حول إظهار أنّ النقاش المفتوح بشأن مشاغل الطبقة العاملة وبرامجها كان يهدف إلى إيجاد ناشطين ومنظّمين جديّين وجد هذا النقاش صدى لديهم، وإلى توحيدهم، والاستعداد للبدء بالتنظيم والحشد حول قضايا الحملة، وربما الترشيح الانتخابيّ المعتاد.

وثمّة عقبةٌ أخرى لا بدّ لليسار في هذا البلد من تخطّيها، هي النّزعة المتوتّرة للبحث عن مرشّح للمنصب أو موضوع جديرٍ بالتشريع. وينبغي أن ينبع كلا الأمرين من الحركة كتعبيرٍ عن قوّتها، وبرغم اعتقادات أولئك الواقعين تحت نير الأمميّة الرابعة وأوهام أخرى، إلّا أنّ هذه الاعتقادات ليست أدوات لتوليد تلك القوّة.

◆ هل أنت متفائل حيال مستقبل الحركة العماليّة الأميركيّة؟

■ لا بدّ لي أن أكون كذلك. لا يمكننا الانتقال إلى أيّ مكان من دون حركة عمّاليّة نابضة بالحياة، وكذلك، كما يحاجج مسؤول عمّال شركات السيارات الكنديّين سام كندين ورفاق آخرون في اتحادات التجارة، تحتاج الحركة العماليّة إلى يسار نابض هي بالحياة أيضاً. وهذا يتّضح طوال الوقت. ثمّة علامات إيجابيّة كبيرة ضمن الحركة العماليّة، كانت مبادرة العمّال من أجل بيرني إحدى أكثر المبادرات رسوخاً في الحملة وقد قدّمت سياقاً لكثيرٍ من اليسار العماليّ – بمن فيهم رفاق كثيرون من حزب العمّال الذي كنت أنتمي إليه – كي يجتمعوا ويفكّروا استراتيجياً على نحو متناغم. وحتى بمعزل عن الحملة، ثمّة قوى أساسيّة في نقابات عديدة يقودها تقدّميّون ويساريّون ملتزمون بدور النقابات في بناء حركة اجتماعيّة أوسع. إنّها عمليّة طويلة وبطيئة، وسيكون من المهمّ لنا كمناضلين أن نُبقي هذا في أذهاننا. كما أنّ تلك المقاربة المُضنية للتنظيم هي اختصاص آخر من اختصاصات الحركة العمّاليّة، أي نموذج التوسيع ثمّ التثبيت ثمّ المزيد من التوسيع.

ولا يمكنني القول إنّني واثقٌ أنّنا سنفوز في نهاية المطاف: فالأرجحيّات هي دوماً ضدّنا على طول الطريق، وكما تُبيّن لنا الصعوبات التي يواجهها رفاقنا في البرازيل وفنزويلا على يد الطبقات البورجوازيّة الفاسدة التي تخشى أنّها ستعجز بعد الآن عن إحكام السيطرة على المجتمع ديمقراطياً، كلّما تزايد نجاحنا، تعاظمت خطورة الوضع السياسيّ.

الفارق بين الماركسيّين اليوم والماركسيّين قبلنا، إذا استثنينا المتعصّبين الدينيّين الطائفيّين المتزمّتين، هو أنّنا لم نعد نملك عزاء الثّقة بالغاية. ليس ثمّة لحظة لتحقّق الألفيّة السعيدة، أو لحظة موضوعيّة لتوقّع الانهيار. لا نعلم الطرق التي سيسلكها التاريخ، كلّ ما نستطيعه هو محاولة التأثير فيه.

الواجب هو النضال في أماكن انخراطنا والتمسّك به مع إدراك أنّنا مُسنّنات صغيرة في مشروع كبير، وأنّ جهدنا ينبغي أن يتركّز على جعله أكبر وأقوىً.

قد يساعدنا استخدام تشبيه رياضيّ في هذا السياق: مهمّتنا هي وضع الكرة في الملعب والسعي لأن نكون مستعدّين للردّ بفاعليّة على الظروف التي غالباً ما تكون عصيّة على التنبّؤ. وهذا يستلزم بالطبع فهماً لمنطق اللعبة ولطبيعة معارضتنا وقواها وحدودها علاوةً على طبيعة حلفائنا وقواهم وحدودهم.

الثورات بشبابها

٣٠ **قصّتي مع الجنرال ميشال عون**
جويل بطرس

٣٦ **لا كرز بعد اليوم**
زينب سرور

٤٠ **عند حدود الـ٣١**
مريم حمود

قصّتي مع الجنرال ميشال عون

جويل بطرس

باحثة في التاريخ، لبنان.

«إيه ويالّا... سورية اطلعي برّا». ردّدتُها عندما كنتُ في الخامسة من عمري. يومها، اصطحبني أهلي إلى «قصر الشعب» (قصر الجمهوريّة في بعبدا). مشينا طويلاً للقاء قائد الجيش اللبنانيّ آنذاك، العماد ميشال عون. حملت العلم اللبنانيّ، وردّدت أغنيةً لماجدة الرومي قد تكون «سقط القناع»، لا أذكر. لكنّني أذكر أنّني ارتديتُ قبّعة الجيش المرقّطة، وصرختُ مطالبةً بخروج الجيش السوريّ من لبنان. لم أكن أدرك حينها، وأنا طفلة في الخامسة من العمر، ما فعله الجيش السوريّ. لكنّني كنت أراقب قصفه المتواصل للمناطق المجاورة من شرفة المنزل، تماماً كما كنت أراقب القصف المتواصل بين «القوّات اللبنانيّة» والجيش من فوق سطح المنزل. أراقبه لبضع دقائق فقط، قبل أن تهرع أمّي لإدخالنا، أخي وأنا، إلى المنزل. أراقب الحرب الجارية وأسمع أنّ ميشال عون سيخلّصنا منها.

استيقظت مرّةً لأجد والديّ يبكيان بشدّةٍ أمام شاشة التلفزيون. سمعتهما يتحدّثان عن لجوء عون إلى فرنسا بعد محاصرة الجيش السوريّ له في بعبدا. لم يفرحا لانتهاء حربٍ دامت ١٥ عاماً. تكلّما يومها عن ضياع الحلم، الحلم في بناء الدولة، الحلم في طرد الجيش السوريّ من لبنان، الحلم في «السيادة والحرّية والاستقلال». إلّا أنّ أبي لم يستسلم. ظلّ متسلّحاً بالأمل. أمل عودة الجنرال «المخلّص» بسرعة إلى الوطن. علّق صورةً كبيرةً له على حائط الصالون، وإلى جانبها العلَم اللبنانيّ. أتصفّح اليوم صور أعياد ميلادي وأجد فيها عون والعلم خلفي، حتى بلغت العاشرة ربّما. قطعت قوالب الحلوى «بحراسة» الجنرال. اقتنع بعدها والدي بأنّ العودة لن تكون قريبةً، فأزال الصورة والعلم.

«إذا تكلّمتُ طائفياً، انبذوني»

نشأتُ في هذه البيئة. بيئةٌ ضاقت ذرعاً بالممارسات المليشياويّة لـ«القوّات اللبنانيّة» في المناطق المسيحيّة، فوجدتْ في ميشال عون خشبة خلاص. حضَنَته ودعَمَته وتبنّتْ شعاراته، تظاهرت لأجله وماتت دفاعاً عن مبادئ تشاركتها معه. نشأتُ في بيئةٍ اقتنعت وأقنعتني أنا وكثيرين غيري بأنّ ميشال عون هو الحلّ الوحيد لمشاكل لبنان الأزليّة. نشأتُ في بيئةٍ عاشت الإحباط بعد رحيله، والخوف من الاعتقال إذا أتتَ على ذكره.

في الواقع، كانت الاستخبارات السوريّة مدعومةً من الأجهزة الأمنيّة اللبنانيّة، قد أحكمت الخنّاق على أيّ لبنانيّ/ة معارض/ة للحكم الناشئ بعد انتهاء الحرب اللبنانيّة. والمعارضة آنذاك تمثّلت بـ«التيّار الوطنيّ الحرّ» و«القوّات اللبنانيّة» و«حزب الوطنيّين الأحرار» و«الكتائب اللبنانيّة». اختار أهلي السكوت والانكسار، خصوصاً بعد اعتقال قائد «القوّات» سمير جعجع في العام ١٩٩٤ والحكم عليه بالسجن المؤبّد بعد خفض العقوبة. حينها غاب الحديث عن عون لفترةٍ طويلة في المنزل. حذّروني من تداول اسمه خارج البيت خوفاً عليّ. حتّى في المدرسة، كان ممنوعاً عليّ التحدّث عن ميولي السياسيّة أمام أصدقائي. لفترةٍ طويلة، ظلّ عون بالنسبة إليّ صورةً على حائط، شعاراً وطنيّاً رنّاناً، ومشروعاً لم يتحقّق.

احتكّيت به للمرّة الأولى، عن سابق إصرار، في ٧ آب / أغسطس ٢٠٠١. يومها، رأيت رجال الاستخبارات يعتدون على الناشطين في بيروت لمجرّد مطالبتهم بإنهاء الوصاية السوريّة على لبنان. رأيتهم يصرخون، يقاومون الضرب، يرفضون الانكسار لاقتناعهم بقضيّتهم. تابعتهم يُعتَقلون ويُحاكَمون ويُسجَنون ولا يخضعون.

كان أحد المعتقلين أستاذي في المدرسة. ركضتُ لملاقاته عندما خرج من السجن. احتضنته وقلت له إنّه بطل. صفّقت له طويلاً في حفل استقبالٍ سرّيّ أقيم في إحدى القرى اللبنانيّة.

رفيقي، من جهته، اختار الهروب والاختباء في مزرعة طوال شهرين خوفاً من الاعتقال. عاد بعدما تأكّد أنّه لن يُساق إلى السجن. في ٧ آب / أغسطس ٢٠٠١، اقتنعت بأنّ لميشال عون و«التيّار الوطنيّ الحرّ» قضيّة محقّة. والأهمّ، اقتنعت بأنّ الشبّان والشابّات المدافعين/ات عن هذه القضية صادقون لدرجة أنّهم مستعدّون لدخول السجن دفاعاً عن قضيّتهم. يومها، أعربت أمام والديّ عن رغبتي بالانضمام إلى «التيّار». جنّ جنونهم. رفضا الفكرة كليّاً خوفاً عليّ من بطش الاستخبارات. تريّثتُ قليلاً، احتراماً لرغبتهما. لكنْ، بدأت بالمشاركة في بعض الاجتماعات. ثمّ دخلتُ جامعة كانت التجمّعات الحزبيّة فيها ممنوعة، فابتعدت عن النشاطات السياسيّة، وانشغلتُ بدراستي، واكتفيتُ بمتابعة التحرّكات والتظاهرات عبر وسائل الإعلام. حصرتُ اهتماماتي بمناقشة زملائي في الصفّ والدّفاع عن «التيّار» أمام أيّ معترضٍ أو معترضةٍ، وصولاً إلى أساتذتي.

كان اغتيال الرئيس رفيق الحريري في ١٤ شباط / فبراير ٢٠٠٥ لحظةً مفصليّة، فيها شعرت بأنّ لا أحد ولا شيء سيمنعني من النزول إلى الشارع والمطالبة بخروج الجيش السوريّ من لبنان. وبالفعل، لم أترك ساحة الشهداء. كنت هناك عندما أعلن الرئيس عمر كرامي استقالته. بكيت. شعرتُ للمرّة الأولى بأنّني حقّقتُ شيئاً ما في هذه الرّقعة التي كانت تقتل أحلامنا كلّ يوم. وجاءت تظاهرة ١٤ آذار / مارس في السنة ذاتها. لم أفهم يومها ما يحصل. حتّى أنّ أبي عاد إلى الشارع ومشى من الدورة إلى «ساحة الحريّة» للمطالبة بإنهاء الوصاية السوريّة. عدنا إلى المنزل يومها، متسلّحين بأملٍ كبير. اعتقدنا أنّنا تمكّنا أخيراً من طيّ صفحة الخلافاتٍ فيما بيننا نحن اللبنانيّين، وباشرنا العمل معاً لبناء الدولة التي لطالما حلمنا بها.

أعترفُ اليوم بأنّنا كنّا ساذجين، أو على الأقلّ، كنتُ ساذجة. لا أريد أن أتكلّم عن غيري. لم أكن أدرك حينها أنّ نظام ما قبل ٢٠٠٥ كان يسعى فقط إلى إعادة إنتاج نفسه بصيغة تلائم ظروف ما بعد ٢٠٠٥. وبالفعل، بدأتْ عملية إعادة التموضع، وانخفض سقف المطالب، وأصبنا مجدّداً بالإحباط. شعرتُ بأنّنا سنبقى عاجزين عن تحقيق أيّ تغيير إلى أن قرّر الجنرال عون العودة إلى لبنان في ٧ أيار / مايو ٢٠٠٥.

يومها، وصل العماد عون إلى ساحة الشهداء حيث كان مئات الآلاف بانتظاره. وقفت هناك أنتظر سماع خطاب العودة، ولم يخذلني. وعدني يومها ببناء ديمقراطيّةٍ حديثة، بمحاربة الإقطاع السياسيّ، بمحاربة الفسادٍ والمالٍ السياسيّ، بالعمل على وضع برامج انتخابيّة يحاسِب الناخبُ/ة على أساسها النائب المنتخب. قال لي حرفيّاً: «إذا تكلمتُ طائفيّاً، انبذوني. فنحن لا نريد بعد الآن عصبيّات طائفيّة تتناحر وتتقاتل وتهدم ذاتها. نريد مجتمعاً لو كان له انتماءٌ طائفيّ أن ينتخب لفكرٍ سياسيّ، حينها فقط ينقذ لبنان». قدّم لي مشروعاً طموحاً مناهضاً لفساد النظام ورجالاته. اقتنعت بما كان يردّده والدي على مسامعي طوال هذه السنوات. ميشال عون صاحب مشروع، وسيكون شبكة الخلاص للبنان. ازدادت قناعتي بعدما سعى الجميع إلى محاربته، وتنحيته عن التحالفات الانتخابيّة، وتهميش دوره ودور «التيّار».

كأنّه تفاهم، لكنّه حرب

تقرّر إجراء الانتخابات النيابيّة في حزيران/ يونيو ٢٠٠٥، وقرّرت حينها الانخراط في العمل مع «التيّار» لإيصال مرشّحيه إلى مجلس النوّاب. لم أغادر المكتب الانتخابيّ في جونيه طوال الفترة الانتخابيّة. من ترتيب اللوائح، إلى التأكّد من لوائح الشّطب، إلى تنظيم التطوّع في المراكز يوم الانتخاب، إلى التجوّل في الشوارع لعرض البرنامج الانتخابيّ الخاصّ بـ«تكتّل الإصلاح والتغيير». وفاز «التيّار الوطنيّ الحرّ» في الانتخابات. اكتسح منافسيه. شعرتُ بفرحةٍ لا توصف. حتّى أنّني علّقت صورة للجنرال على حائط غرفتي. وحان وقت العمل، الطريق طويلٌ وشاقّ لكنّنا سنتمكّن من تحقيق المطالب. دخل «التيّار» إلى البرلمان من باب المعارضة لحكومة الرئيس فؤاد السنيورة الأولى. طالب عون خلال مناقشة البيان الوزاريّ في تموز / يوليو ٢٠٠٥ بالكشف عن مصير المفقودين خلال الحرب والمعتقلين في السجون السوريّة. سأل عن البؤر الأمنيّة المغلقة في وجه الأجهزة الأمنيّة، ولم يتردّد ميشال عون في انتقاد بقاء سلاح المقاومة المتمثّلة في «حزب الله»، في الزمن الذي كانت باقي الأحزاب تدافع عن هذا السلاح وتحاول إقناع النّاس بجدوى بقائه.

واجه «التيّار» الجميع، وأصرّ على مواقفه المتشدّدة وعلى فضح الصفقات والسياسات التي أدّت إلى تدمير الاقتصاد اللبنانيّ وتكبيد اللبنانيّين كلّ هذه المشاكل الاجتماعيّة والبيئيّة والاقتصاديّة. شعار «الإصلاح والتغيير» لن يبقى شعاراً انتخابيّاً. شعرت بأنّنا أمام فرصةٍ حقيقيّةٍ لتطبيقه.

دافعت عن ورقة التفاهم مع «حزب الله». رأيت فيها ما وصفه الجنـــــــرال أنه فرصة لمد الجسور بين اللبنانيين. تناسيت هجومه المتكرر على سلاح الحزب. وإنكاره للبنانية مزارع شبعا.

كذلك، دافعتُ عن ورقة التفاهم مع «حزب الله»، الاتّفاق الذي أفضى إلى تأسيس تحالفٍ بين الطرفين في ٦ شباط / فبراير ٢٠٠٦. رأيتُ فيه ما وصفه الجنرال من أنّه فرصةً لمدّ الجسور بين اللبنانيّين. تناسيت هجومه المتكرّر على سلاح الحزب، وإنكاره للبنانيّة مزارع شبعا، وإصراره على تطبيق القرار ١٥٥٩. ولم يفاجئني التغيير في خطابه كما فاجأ العديد من أصدقائي الذين اختاروا الانسحاب رفضاً للتفاهم. ثمّ جاءت حرب تموز / يوليو ٢٠٠٦ لترسّخ قناعاتي. فلولا التفاهم هذا، لما استطعنا حماية لبنان من العدوّ الصهيونيّ أوّلاً ومن الداخل المتآمر ثانياً.

دافعت عن «حزب الله» بحماسة أكبر من تلك التي أدافع بها عن «التيّار». تشاجرتُ مع أصدقاء هاجموا قرار الحزب بخطف الجنديّين الإسرائيليّين، وحمّلوه وحده مسؤوليّة الحرب الإسرائيليّة على لبنان. اعتبرت أنّ وقوف «التيّار» إلى جانب «حزب الله» هو عملٌ بطوليّ، حقيقيّ، يثبّت هذا التفاهم، ويعطي فرصة لتحالفٍ جديدٍ بعيداً عن الأحزاب والتيّارات التي أشبعت الدولة اللبنانيّة فساداً.

لمّا اتخذ قرار إسقاط حكومة الرئيس فؤاد السنيورة في أواخر العام ٢٠٠٦، أيّدت المطلب ولكنّني تردّدت أمام الخطّة. رفضتُ ما عرف آنذاك بـ«حصار السراي». رأيتُ أنّ إغلاق وسط المدينة لهذه المدّة الطويلة (سنة ونصف سنة تقريباً) خطوةٌ لن تؤدّي سوى إلى التصادم. والجنرال كان قد وعدنا بتوسيع رقعة التفاهم والتعلّم من أخطاء الماضي. لم أشارك في أيّة تظاهرة خلال هذه الفترة، وتناقشتُ طويلاً مع أصدقائي حول جدوى اللجوء إلى الاعتصام بهذا الأسلوب. ولم تتأخّر المواجهات في الشارع. أوّلها كان بين «القوّات» و«التيّار» في ٢٣ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٧. يومها، عادت ذكريات الحرب بتفاصيلها. رأيتُ الجيران يطلقون النار على بعضهم، يغلقون الطرقات كلٌّ لحساب طرف. شاهدتُ والدي يتشاجر مع أصدقاء مؤيّدين لـ«القوّات». اضطررنا إلى الاختباء مجدّداً في منازلنا. أغلقت الطرقات في وجوهنا، أشعلت الدواليب، أصيب شاب برصاصة أدّت إلى شلله، قتل آخر. خُيّل إلينا للحظة أنّ الحرب عادت وأنّ الحديث عن طيّ صفحة الماضي بين قائد «القوّات» سمير جعجع وعون لم يكن سوى خدعة سياسيّة رخيصة. وهي بالفعل كانت كذلك. خرج الرجلان في اليوم التالي يكيلان الشتائم بحقّ بعضيهما البعض. حرّضا الشارع بدلاً من تهدئته، وأعلنا صراحةً أنّ المواجهة بينهما عادت إلى سابق عهدها. كذبا لمّا وعدا بأن الخلاف سيبقى في إطار المواجهة السلميّة. تبادلا اللوم، ولم يتحمّل أيّ منهما مسؤوليّة ما حصل.

يومها، شعرتُ بأنّ شيئاً ما قد انكسر بيني وبين «التيّار». فقد عشت طفولتي أتنقّل بين ملجأ وآخر، أشاهد والدي يتألّم في المنزل وأمّي تبكي لأنّها لا تستطيع نقله إلى المستشفى بسبب القصف بين «القوّات» والجيش. شاركت في مشاجرات عنيفة بين «القوّاتي» و«العوني» في عائلتي الكبيرة. اضطررتُ إلى الدّخول في صلح بينهما مراراً وتكراراً. حتّى إنّ جدّتي قرّرت تعليق ورقة في المطبخ كتبت عليها: «ممنوع التكلّم في السياسة». أرادت تجنيبنا المزيد من التوتّر. لكنّ المواجهات عادت. أفرادٌ خسروا حياتهم، آخرون أصيبوا بضررٍ دائم، وعائلات عادت لتتشرذم. ومن أجل ماذا؟ هذه المرّة، لم أجد الجواب. ازداد التوتّر بين الأطراف المتخاصمة، وكان واضحاً أنّنا ذاهبون إلى مواجهةٍ أسوأ من تلك التي شهدناها خلال الثلاثاء الأسود. واندلعت أحداث ٧ أيار/ مايو ٢٠٠٨. عادت الحرب إلى شوارع العاصمة بيروت. انتشر القنّاصة على أسطح المنازل في غضون ساعات. ظهر السلاح، حمله الجميع بلا أيّ استثناء. عدنا إلى الاختباء، بعضنا هرب إلى أماكن أكثر أماناً. وبعدما مات المئات دفاعاً عن كرامة زعمائهم، أوقف هؤلاء حربهم، واتّجهوا مجتمعين إلى الدوحة في قطر. عقدوا اتفاقاً، وعادوا ليحكموا جميعاً باسم الوحدة الوطنيّة. مرّةً أخرى، لم يعتذروا منّا، ولم يعلنوا أنّهم فشلوا في حمايتنا. نزعت صورة الجنرال عن حائطي.

محوريّة التخلّي عن شربل نحّاس

في العام ٢٠٠٨، دخل «التيّار الوطنيّ الحرّ» إلى السلطة للمرّة الأولى منذ عودة الجنرال عون إلى لبنان. أصبتُ بإحباطٍ شديد، من «التيّار» على نحو خاصّ. لكنّ العماد عون خرج يومها ليؤكّد لنا أنّه اختار السلطة لتطبيق مشاريعه الإصلاحيّة، وأنّه سيعارض من داخلها صفقات الفساد، وسيعمل لإعادة تأهيل مؤسّسات الدولة. عرض وزراء «التيّار» خطّتهم وبدوا متحمّسين ومنكبّين على تطبيقها. نشطت المشاريع، أطلقت ورشة عمل داخل «التيّار»، وعادت الشعارات الكبيرة إلى الواجهة استعداداً لانتخابات العام ٢٠٠٩ النيابيّة.

كنت قد استعدت حماستي، لكنّني قرّرت ألّا أصوّت لمرشّحي «التيّار» في دائرتي الانتخابيّة. اخترتُ هذه المرة وضع ورقة بيضاء في صندوق الاقتراع. فاز «التيّار» مجدّداً بمقاعد أغلبيّة المناطق التي ترشّح فيها، لكن بنسبةٍ أقلّ من تلك التي حصل عليها في العام ٢٠٠٥. لم تجرِ عمليّة تقييم جديّة لهذه النتائج، حتى أنّ معظم مسؤوليه رفضوا نقاشَ انخفاض النسبة. أصرّوا على تسويق فكرة أن «التيّار» يمثّل ٧٠ في المئة من المسيحيّين. وبدأ الخطاب الطائفيّ يعلو شيئاً فشيئاً داخل «التيّار». اندلع الخلاف الأوّل على هذه القاعدة. فقد اعتبر العماد عون أنّ الحصّة المعروضة عليه في الحكومة لا تعكس حجم تمثيله الطائفيّ. استمرّ الخلاف بينه وبين الرئيس المكلّف سعد الحريري حوالي خمسة أشهر. نجح الطرفان بعدها في الاتفاق على الحصص، وعلى عودة صهر الجنرال عون الوزير جبران باسيل إلى الحكومة. عيّن عون شربل نحّاس وزيراً للاتّصالات. فتح هذا الأخير باب المواجهة مع رجالات السلطة السابقة في إدارات الدولة، فكانت الأولى مع عبد المنعم يوسف، المدير العام لهيئة الاتّصالات. ضخّ نحّاس نبضاً جديداً داخل «التيّار»، نبضاً نجح في استيعاب أولئك الذين ابتعدوا عنه خلال السنتين الأخيرتين. ومن «الاتّصالات» إلى «الكهرباء»، خرج علينا وزير الطّاقة جبران باسيل ليزفّ إلى اللبنانيّين أنّنا، وأخيراً، سننعم بالكهرباء ٢٤/٢٤ ساعة.

وجدت أن ما كان يجمعني مع طروحات «التيار الوطني الحر» ورئيسه قد انتهى. وبت على اقتناع تام بأن لا مكان للإصلاح على أجندة «التيار». أبعد نحاس لإتمام صفقة بين عون وبري. وعين مكانه. سليم جريصاتي الذي لم يتردد في الإشادة بدور رئيس الاتحاد العمالي العام غسان غصن في حماية العمالة اللبنانية.

لكنّ هذا الصعود لم يستمرّ طويلاً. إذ سرعان ما بدأت الخلافات تستعر بين أطراف الحكومة. فكيف لأفرادٍ تقاتلوا طوال هذه المدّة أن يتّفقوا على إدارة شؤون البلاد؟ أسقطت حكومة الرئيس الحريري في العام ٢٠١١، وقطع العماد عون «وان واي تيكيت» للحريري الابن، ووعدنا مرّةً أخرى ببدء تطبيق برنامجه من خلال حكومة الرئيس نجيب ميقاتي. حكومةٌ شكّلتها المعارضة السابقة التي ضمّت «حزب الله» و«أمل» و«التيّار» و«المردة» وأطراف أخرى مستقلة. ترقّبنا تنفيذ الوعود، فبدأ الحديث عن العراقيل. طالبنا بكشف الحقيقة. لم يأتِنا أحدٌ بجوابٍ شاف. لماذا لم تطبّق خطّة الكهرباء؟ من يعرقلها، بعدما أُقرّت اعتماداتها؟ ألقي اللوم تارةً على التمويل، وتارةً أخرى على حراك العمّال المياومين المطالبين بتثبيتهم، وفي معظم الأحيان على «الجميع» الذين يحاربون خطّة «التيّار» الإصلاحيّة. حُمّل ميقاتي المسؤوليّة الأساسيّة لعرقلة الحلول، وشنّ «التيّار» عليه حملةً شرسة. لكن «التيّار» اختار في المقابل التخلّي عن الوزير شربل نحّاس، الذي كان قد تولّى حقيبة العمل. طرح شربل نحّاس مشروع «التغطية الصحيّة الشاملة لجميع اللبنانيّين المقيمين»، فرفض رئيس مجلس النواب نبيه برّي الطرح، واتُخذ القرار بإبعاد نحّاس عن الحكومة، إذ إنّ الوزير «المشاغب»، كما وصفوه، بات مصدر إزعاج للتّكتّلات الحاكمة. شكّل رفض نحّاس توقيع مرسوم بدلّ النقل غير الشرعي والذي يحرم الموظفين من الضمانات على جزء من راتبهم الحجّة الأنسب «للتخلّص» من وزير العمل. وقف عون على الحياد، ولم يدافع عن تشبّث وزيره بعدم التوقيع على قرارٍ غير قانونيّ. قدّم نحّاس استقالته من الحكومة، قبلها عون، ووقع وزراء «التيّار» على المرسوم غير القانونيّ. برّر الجنرال قراره بضرورة تأمين سير عمل الحكومة. صدّقه البعض. من جهتي، وجدتُ أنّ ما كان يجمعني مع طروحات «التيّار الوطنيّ الحرّ» ورئيسه قد انتهى. وبتّ على اقتناعٍ تامّ بأنّ لا مكان للإصلاح على أجندة «التيّار». أبعد نحّاس لإتمام صفقة بين عون وبرّي، وعيّن مكانه عضو المجلس الدستوري السابق سليم جريصاتي، الذي كان قد وقّع على قرار إبطال نيابة غابريال المرّ عام ٢٠٠٢ والذي لم يتردّد في الإشادة بدور رئيس الاتّحاد العمّالي العام غسان غصن في حماية العمالة اللبنانيّة. غسان غصن، الذي حرص على دفن الاتّحاد منذ تسلّمه رئاسته.

ما عاد «الإبراء» مستحيلاً
حزبٌ كبقيّة الأحزاب

بخروج شربل نحّاس من الحكومة في العام ٢٠١٣، اقتنعتُ نهائياً بأنّ هذا «التيّار» ليس تيّاراً معارضاً للسلطة، من خارجها أو من داخلها. لا بل أضحى تيّاراً يتسابق على السلطة، يفاوض لكسب أفضل المناصب، يعرقل لإتمام الصفقات التي تناسبه، حاملاً لواء حماية الطوائف المسيحيّة، رافضاً الغبن اللاحق بها منذ انتهاء الحرب. لم أعد أكترث، حتى عندما أصدر «تكتّل التغيير والإصلاح» كتاب «الإبراء المستحيل». حاجج الكتاب لاستحالة إبراء ذمّة أيّ حكومة في مرحلة ما بعد الطائف من الإنفاق الذي قامت به والإيرادات التي حصلّتها، وفيه اتّهام صريح لحكومات الرئيس رفيق الحريري بتبذير مليارات الدولارات هدراً.

لم يسمح بإجراء انتخابات لرئاسة «التيار» بعدما قرر التخلي عن منصبه. تدخل لإجبار الجميع على القبول بتعيين صهره الوزير باسيل رئيسا لـ«التيار».

تحوّل التيّار خلال تلك السنوات إلى تيّار لرجال الأعمال المقرّبين من أركان السلطة والساعين إلى تفاهم معها. تبنّى خطاباً طائفيّاً بامتياز، بعدما كان الجنرال قدّ دعانا إلى نبذه شخصياً إذا تكلّم طائفيّاً . كرّس مفهوم حزب الشخص الواحد، فكان الناشطون أوّل من مُنع من نقد قرارات الجنرال، إن على مواقع التواصل الاجتماعيّ أو في الاجتماعات. بدأت عمليّات فصل هؤلاء. تخلّى عون عنهم، بعدما كانوا قد استبسلوا في الدفاع عن طروحاته، وواجهوا لأجلها الأجهزة الأمنيّة اللبنانيّة والسوريّة وسجونها. ولم يكتفِ الجنرال بذلك. إذ عارض التمديد لمجلس النّواب اللبنانيّ مرّتين، لكنّه لم ينسحب منه. أصرّ على إقناعنا بجدوى المعارضة من الداخل. رفض انتخاب رئيس للجمهوريّة بعد انتهاء ولاية الرئيس ميشال سليمان، بحجّة أنّ المجلس غير شرعيّ. أصرّ على إجراء انتخابات نيابيّة تفضي إلى تشكيل برلمانٍ جديد مهمّته انتخاب الرئيس. عرقل عمل المجلس تحت هذه الذّريعة. قدّم اقتراح قانون انتخاب على أساس طائفيّ، القانون الأرثوذكسيّ، نصّ على انتخاب كلّ طّائفةٍ لممثّليها. لربّما وجد أنّ هذا الحلّ هو الأنسب بعد تحويل تيّاره «العلمانيّ» إلى تيّار طائفيّ يكاد يتبنّى جميع أفكار حزبَي «الكتائب» و«القوّات» خلال الحرب. قاطع حكومة الرئيس ميقاتي، فدفعه إلى الاستقالة. دخل حكومة الرئيس تمّام سلام، لكنّه سرعان ما بدأ مقاطعة جلساتها هي أيضاً. قاطعها بحجّة التعيينات الأمنيّة المجحفة للمسيحيّين. عاد إليها بعد فترة ليعود ويقاطعها مجدّداً تحت الذريعة بحجّة تطبيق الميثاقيّة. اتّهم سلام بـ«الداعشيّة»، ووضع الطائفة السنيّة هدفاً له. هاجم الحراك المدنيّ في العام ٢٠١٥ بعدما اتّهمه هذا الأخير بالمشاركة في صفقات الفساد. حرص على إفشاله، فكان رأس الحربة الأولى للسلطة في وجه الحراك. حتّى إنه لم يتردّد في اتهام منظّميه بسرقة شعاراته الداعية إلى محاربة الفساد. وعد بالعودة إلى الشارع للمطالبة بحقوق اللبنانيّين، من إيجاد حلٍ لأزمة النفايات إلى تطبيق خطّة الكهرباء وغيرها من المطالب الحياتيّة اليوميّة. وَعَدَ فقط. لم يسمح بإجراء انتخابات لرئاسة «التيّار» بعدما قرّر التخلّي عن منصبه. تدخّلَ لإجبار الجميع على القبول بتعيين صهره الوزير باسيل رئيساً لـ«التيّار». فصل المعارضين بإجراءات تعسّفية لم يشهدها أيّ حزبٍ حاليّ. تبنّى خطاباً عنصريّاً بحقّ اللاجئين السوريّين، وطائفيّاً بحقّ كلّ من يعارضه. حرص على عدم تأمين النصاب في أيّ جلسة رئاسيّة، لدفع الجميع إلى تبنّي ترشيحه. تحالف مع جعجع لتحقيق هدفه. أوحى لنا أنّ هذا الاتفاق أتى فعليّاً لطيّ صفحة الماضي. ثلاثين سنة من الاقتتال، أنهاها الرجلان بتوقيع «ورقة إعلان نوايا»، وبتبنّي جعجع لترشيح عون، من دون أيّ اعتذارٍ لنا عمّا جرى.

في ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٦، وصل العماد عون إلى قصر بعبدا. حقّق حلماً سعى إليه منذ العام ١٩٩٠. أن يصبح العماد عون رئيساً للجمهوريّة اللبنانيّة. حلم لم يتردّد في المساومة من أجله. عاد وزراء «التيّار» قبلها إلى الحكومة. لم تعد تعنيهم التعيينات في المراكز الأمنيّة. تحالف عون مع الحريري. لم يعد «تيار المستقبل» المسؤول عن الفساد الذي أصاب مَرافق الدولة منذ انتهاء الحرب. ما عاد «الإبراء» مستحيلاً. تصالح عون مع الطائفة السنيّة. لم تعد «داعشيّة» لأنّها سعت إلى السيطرة على حقوق المسيحيّين. تبنّى خطاباً جامعاً. لم يعد هناك من يريد محاربته وعرقلة مشاريعه. في ٣١ تشرين الأوّل/ أكتوبر، انتخب مجلس النوّاب غير الشرعيّ العماد عون رئيساً للجمهوريّة. لا يهمّ. يمكننا اعتبار مجلس النوّاب شرعيّاً ما دام انتخب العماد عون رئيساً.

لا كرز بعد اليوم

زينب سرور

جامعية وصحافية، لبنان

زفافٌ في السماء

أمّي

- نعم حبيبتي
- هل الله متزوّج؟
- كلّا، ليس متزوّجًا
- حقًّا؟
- حقًّا
- أريدُ أن أتزوّج الله
- لماذا؟
- لأنّي أحبّه. أرغبُ بزفاف كبيرٍ في السّماء. هناك، فوق تلك الغيمة. أترينها؟ تلك الّتي تُشبه رأس اللعبة الّتي تملكُها منى. أريدُ أن أضع فوق رأسي تاجًا كبيرًا مرصّعًا بماساتٍ مُبهرة. سيتناسبُ المشهدُ مع النّجوم! ممم. على شكل قلوبٍ وأزهار. أريدُ أن أرتدي فستانًا طويلًا جدًّا ناصع البياض. يجبُ أن يكون مصمّمًا خصّيصًا كي يتناسبَ مع جناحيّ الجميلين.
- وهل أخبرتِه بحقيقة مشاعرك تجاهه؟ ورغبتك الزّواج منه؟
- كلا
- لماذا؟
- أخشى أن يرفض. هل يُمكنك أن تطلبي منه ذلك ماما؟
- لا مانع لديّ. لكنّي لو كنتُ مَكانكِ لتريّثتُ قليلا
- لماذا؟
- حتّى أصبح امرأةً ناضجة. حتّى أصبح أجمل، حتّى يصبح شعري طويلًا جدًّا ورائع الجمال. عندها يُصبح الفستان أكثر تناسقًا على جسدي، والتّاج أكثر سحرًا على وجهي. حتّى أحصل على أعلى الشّهادات الجامعيّة. كيف ستُحاورين الله وأنتِ لستِ متفوّقة في المدرسة؟
- نعَم! أريَدُ أن أكون الأجمل على الإطلاق. أريدُ أن أكون الأذكى أيضًا. لكن، هل سيبقى الله يحبّني؟
- بالطّبع. وفق شرطٍ واحد

- ما هو؟
- أن تستمرّين في حبّه، وحبّ عمل الخير.
- سوف أستمرّ في حبّه. بل إنّي سوف أحبّه أكثر من الآن!

الكفّار من يحبّهم؟

- أمّي
- نعم حبيبتي
- هل الله متزوّج؟
- متزوّج؟! كلّا، ليس متزوّجًا! فالله لا يتزوّج.
- لماذا؟
- لأنّ الله واحدٌ أحد، لا امرأةَ له ولا ولد، ولا شريكَ له في الملك
- هل يعاني اللهُ من مرضٍ معيّن؟
- ما هذا السّؤال؟ بالطّبع لا!
- إذا كان سليمًا، فلمَ لا يتزوّج؟ كلّ الرّجال يتزوّجون
- الله ليس رجلاً
- هو امرأةٌ؟
- كلّا طبعا!
- رجلٌ وامرأة؟ ما هو؟
- ليس رجلاً وليس امرأة، إنّه شيءٌ لا مثيلَ له
- إذا كان لا مثيلَ له، ألا يجدر به حبّ إلهة لا مثيلة لها وإنجاب طفلٍ لا مثيلَ له؟
- اللّه لا يحتاجُ إلى الحبّ والزّواج وإنجاب الأطفال. إنّه الإله القادر الكبير الواحد الأحد كما قال في كتابه العزيز، ثمّ لا وجود لإلَهة، فهذا يتنافى مع التّعا..
- هل تعنين أنّ الله لا يحبّ أحدًا؟
- بل على العكس، يحبّ الجميع
- يحبّ الكفّار؟
- كلّا طبعًا!
- إذاً هو لا يحبّ الجميع
- يحبّ المؤمنين
- بوجوده؟
- نعم
- والكفّار من يحبّهم؟
- يحبّهم الشّيطان
- لأنّهم يؤمنون بوجوده؟
- كلّا، لأنّهم يتبعون تعليماته. المؤمنون بالله يؤمنون أيضًا بوجود الشّيطان
- ألا يؤمن الكفّار بالشّيطان؟
- بعضهم يؤمن، وبعضهم يُنكر وجوده والله معًا
- ما تقولينه أنّ جزءًا من الكفّار لا يُؤمن بوجود الشيطان؟

- المُشركون
- المشركون لا يؤمنون بوجود الشّيطان؟
- هم لا يؤمنون بأي قوى خارج الطّبيعة
- إذًا المُشركون أكثر ولاءً لله من المؤمنين
- ما هذا الكلام!
- هم لا يؤمنون بوجود عدوّ الله، بينما المؤمنون يفعلون
- من أينَ تأتين بهذا الكلام؟! انتهى النّقاش. هناك الله. هناك الشّيطان.
- وهل الشّيطان متزوّج؟
- كلا
- لماذا؟ هو أيضًا واحدٌ أحد لا شريكَ له؟
- كلّا طبعًا!
- تقصدين هناك أكثر من شيطان
- كلّا، هناك شيطانٌ واحدٌ كبير
- كبير؟ إذًا هو يُوازي الله! أمّي، الله والشّيطان متشابهان! لا يتزوّجان، لا يُنجبان الأطفال، لديهما أتباع، لديهما مؤمنون بهما. لن أتزوّجَ الله بعد الآن! كلّا! كلّا! لن أحبّهُ بعد الآن! لن أحبَّ أحدًا يُشبه الشّيطان! الشّيطان مُخيف!

التين والزيتون... والكرز؟

لا يعجبُه لون الأحمر على شفتيها. «إيه اللّي انت بتعملي في نفسك كده»؟ الشّرائط الصّغيرةُ المتدلّيةُ من الكنبَة المُتعَبة إلى جانبها تُذكّرها بفستان نبيلة عبيد. أحمرٌ قان. تزمُّ شفتيها. لطالما حلمت باكتناز الشّفّة السُّفلى. صيفًا، كانَت تقودُها مخيّلتها الجامحة إلى صورة أكثر لهيبًا من حرّ الأماكن. تمرّر حبّةً على «السُّفلى». السّرّ هناك. كمُذنبة بريئة، تكوّر شفتيها نحو الدّاخل، تجول بناظريها على الحضور. تشعر بالأمان، فتُكمل سردَ أحداثها الهلاميّة. تحبّ الكرز. القانيات منه. لم يكن والدُها يكترث إن هي أحبّتها، أم لم تفعل. في لحظة، بدأ يفعل.

لصغر سنّها، لم تلحظ التّراكم الّذي بُنيت عليه أسس التّغيير. هكذا، من لا شيء، وجدت والدها بلا شاربين. كلّما أطال لحيته، كره حبّات الكرز. لم تفهم العلاقة بين طول اللّحية والكرز. كلّما نبتت شعيراتٌ فوق شفتيه الرّقيقتين، وجدته يحاول نزعهما بأدوات لم تعتَد رؤيتها بين أيدي الرّجال.

خانتها دقّةُ الملاحظة. دقائقُ إضافيّةٌ يقضيها مستمعاً إلى الشّيخ عبد الحميد كشك. تدريجيًا، خَفت بريق ألوهيّة صالح عبد الحيّ. لم يكن في الأصل يحبّ الاستماع إلى عبد الوهاب. لكن صالح حالة فريدة. انه الأصلي. ولا مقارنة بين الأصل والتّقليد. أصبح ممكنًا قطع وَصْلة «عاشق يقول للحمام». ثمّ استحال واجبًا. لم يعُد يمتلك حشريّة معرفة ما سيلي عبارة «يا

ريت جناحك يوم». بموت الحشريّة، تنتفي ملَكة الموسيقى.

وفي ليلةٍ من ليالي أغسطس انتهى وعاء الكرز.

- لا كرز بعدَ اليوم

- جاءها الردّ صاعقاً

- بسّ يا ماما

- قلت ما فيش، مُش عاوزة مشاكل

أصبحت تكرهُ دخول المطبخ كي لا تقع عيناها على سلال التّين. في البدء كانت سلّة. مع الأيّام، تكاثرت. بدأت تشعر أنّ التّين يُحاصرها. التّين والزّيتون. متى ينتهي موسم الصّيف، يستعين بالمجفّف. فهمت المُعادلة. كيف لأحدٍ أن يرى نورَ الله في كوز فاكهة؟

- أبي هل نستطيعُ نحن اختيار فاكهة الله؟

- التين/ الزّيتون

- والكرز؟ أمّي؟

النظر إلى الشرائط الصغيرة المتدلّية من الكنبة المُتعَبة أضحى أقصى أمانيها. تنسُج منه فستانًا على قياس مخيّلتها الخجولة. تزمّ شفتيها سرًّا. في علبة جوانبُها محكمة الإغلاق تجلسُ بهدوء. تخلّت الصّور حولهاً عن أبعادها الثّلاثيّة. بعدٌ واحد. هذا جلّ ما تقوى على نسجه. ولكن للأشياء نهاية.

- أمي؟

- مش عاوزة مشاكل.

في إحدى المرّات خاطبها الشّيخ. «أتوجّه بهذا السّؤال لطلبة الصّفّ الخامس ابتدائي». إنزلقتْ من العرق الأخضر. إستقرّت على الرأس المدبّب. أسندت وجنتهاَ اليُمنى عليه. صغيرةٌ في عالم الكرز.

«رغبت إحدى الممثّلات في الزّواج، فتقدّم لها في ستّة أيّام ١٢٤ عريسًا، المطلوب كم عريسًا تقدّموا لها في اليوم؟»

قبل أن يبدأ الشّيخ عبد الحميد بالإجابة اشتغل العدّادُ في رأسها. ١٢٤ على سبعة.

- سبع تعشر

- إي؟

- الجواب يابا، سبع تعشر عريس!

- هو ده اللي همّك يا بت؟ نبيلة عبيد وعرسانها؟ إي اللّي انتِ بتعملي في نفسك ده؟

- الشيخ بيقول عشرين عريس، ده يبقى حمار؟ بيحب ياخد يوم أجازة شكلو، أو عاوز يكبّر عرسانها بأيّ طريقة ممكنة. همست ملاحظتَها.

فجأة، تقلّص حجمُها. وضعت رُكبتيها على رأس الحبّة المُدبّب. تسلّقتها بخفّة، حتّى وصلت إلى رأس العِرق الأخضر. ومن هناك، شاهدت عمامة الشّيخ كشك، وإبتسمت.

عند حدود الـ٣١

مريم حمود

ممثلة ومخرجة مسرحية، لبنان.

١

تقترح عليّ رفيقة الدرب، التي لطالما رددنا معا أمنيتنا المشتركة لوكنا مثليتيّن، لوأحببنا بعضنا البعض، لكانت حياتنا أفضل : كنا تشاركنا الملابس والأذواق والمنزل، وساهمنا بتطوير بعضنا البعض، ودعمنا مشاريعنا معا! لكننا ما كنا لنرتاح من وطأة الوقت. ما كنا لنرتاح من السؤال المتكرّر من عيون الأهل، وديدانهم تنبثق من ألسنتهم، عن موعد الزواج والحمل وسنّة الحياة. تقترح عليّ رفيقة الدرب أن اكتب عن الموت، لأني في حال منه وفيه، ولكني حيةّ وعاشقة. تقترحه، لأني ابتعدت عن فكاهتي، ولبست المدى وكبرت إحدى عشر سنة في أسبوعين فقط، وقتلني ابني البالغ من العمر عشرين عاماً. تثيرني فكرة أن أكون مدى، وأن أخبركم بها، ولكن لا علاقة لمدى بكل ما كتبته سلفاً، في الجزئين السابقين، كما أنني حقا قدمت جسدي قربانا لاحميها من الديدان.

أموت لأنا لتحيا هي.

لا يمكن أن اسمح لنفسي أن استهلك مدى فقط لأني أبحث عن مقدمة تشدّ قرائي! إنها لم تنضج بعد!

٢

دائما ما كنت أعاني من اختيار المقدمات والنهايات والعناوين وقدّمت صلب الموضوع مباشرة دون إنذار مني أوتصميم!

دائما ما أعجبني خطئي إذا اتفقت عليه وأصدقائي أوأساتذتي. أعشق رحلة المؤامرة على الأخطاء وأحداث الثورات فيها جذريا، كتغيير النظام من داخل منظومته النواة. في الحقيقة، لقد كتبت الجزء الثالث من سلسلة «الميرم» ولم أحبه على الإطلاق، ووجدتني فارغة كليا، وتزامن ذلك مع رحلتي إلى «برلين»، المدينة التي لم أتحمسّ لزيارتها كثيراً إلا أنني استمتعت بها كثيرا! حسناً، أنا مؤخراً لا أتحمّس لأي شيء على الإطلاق.

أثناء الرحلة، بدأت بتجميع الكثير من المواد والتي باتت هي الأخرى تحبل بمواد جديدة ومتجددة، وصار عندي في رأسي مقدمة مناسبة وعظيمة لبدء الجزء الثالث. إلا أنّ الذاكرة خانتني كلياً والوقت بدأ يتسمّ بسمات الخذلان، فما كان إلا أن أعدت قراءة ما كتبت وأجريت التعديلات عليه!

وافقني أستاذي وصديقي الجديد وأختي العتيقة بأنّ كل ما أضفته جميلاً وما اختزلته من القديم باليا، يكاد يكون سردا لا طعم له ولا لون، أي لا فائدة منه! وفي الحقيقة انتظرت رأي فرساني الثلاث، واستمتعت من فكرة المؤامرة هذه على كلماتي، وأخذت القرار بعدم الإعادة أوالاستعادة، بل بالخلق، والخلق يتجلّى بنهار الأحد صباحا، في السرير الكبير الفارغ مني أيضاً، تحت شباك رومانسي، يغتاله حائط أبيض وجهاز التكييف الصدئ الذي لا يعمل.

لكني الآن أصر على ترتيب الحالة المناسبة للكتابة:

الشاي بالنعناع؟ موجود!

شي ما تأكلينه إذا صرخت المعدة المقرّحة؟ موجود!

الهاتف؟ موجود

انتهت اللائحة بالنظر الى أظافري غير المقلمّة بتاتا، وشعرتين من شاربي اللتان اشعر بمظاهرتهما وخروجهما من تحت الجلد!

٣

في هذه الأيام يشغلني كثيرا التفكير بالهوس!

الهوس!

كم رغبت أن أعاني منه، وأن اعرفه، حتى دقّت «مدى» بابي ودخلت رحمي فحملت بفكرتها واختفيت.

ماتت مريم بأول ظهور لمدى وكم هما مختلفتان. أصلاً لا تحاول الواحدة منهما أن تحلّ مكان الأخرى، ولكن لن يدوم ذلك، فستموت مدى في كذبة نيسان/ إبريل ٢٠١٧ وتعود مريم الى السطح العائم.

ستعود مدى الى قبرها في دير الزور، وتعاود مريم الخروج من رحم من ولدتها بين يديّ الداية!

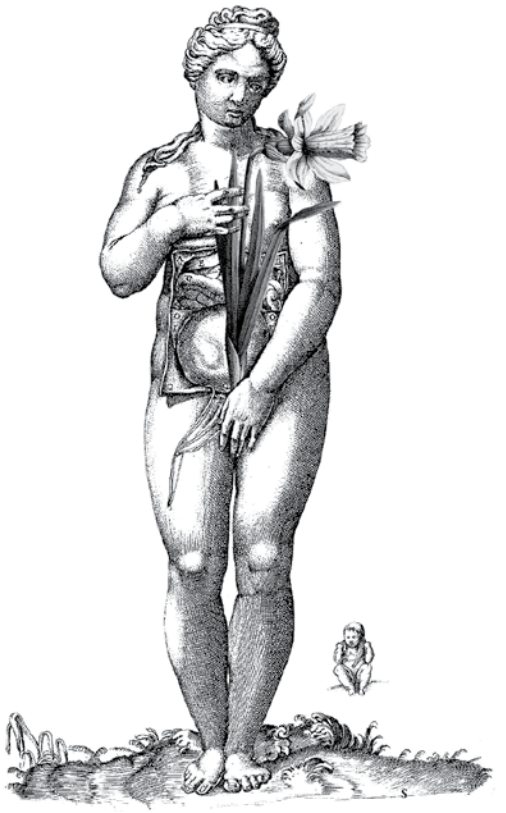

٤

أحضرّ لنعيي من الآن تحديداً، وكم تلفتني ورقات النعي المعلقة على الجدران وفيها تتسلسل اسم المغدورة / الفقيدة/ الشهيدة /المترحّم عليها، وغيرها من تسميات لجسد غادرنا، فيما يأخذ من مساحة النعوة المساحة الأكبر، تسلسل من بقي على قيد الحياة من إخوانها وأخواتها، وتبصم هي على عواميد الكهرباء والحيطان وهنا وهناك.

ولكنني سعيدة في هذا الموت الجزئي أو المرحلي. سعيدة بالموت والقيامة وكأنني المسيح الإنثى في يوم الأحد هذا. سعيدة بالمد والجزر هنا، وكم مريح أن استفرغ كل ما املكه من ذكريات ومحطات من حياتي، كوقود يشتعل عند الغضب أو اليأس.

وكم أفضلّ الغضب على اليأس الآن. وكم استغرب أن نخلق ونوثق بورقة، شهادة ميلاد، فنعي، شهادة ممات!

٥

قريبا سأتم الحادية والثلاثين عاماً وسيؤرقني قربي من تحقيق الحلم، وكيف سأعيش من دون حلم.

سيجيبني البعض أن احلاماً جديدة ستظهر في الأفق وان ما بعد الحلم حلم. ولكنني تعبت ولا أريد المزيد من خصائصي الفردية والتي تتلخص بكل خصائص الجماعة المفروضة عليّ كالإقامة الجبرية.

عادة مع المشهد الخريفي السائد في بيروت والصدئ، تكتئب مني زاوية من روحي، لكن هذا الخريف جاء مختلفا. اشعر بطعم الدم في فمي، أشمّ حلب من هنا واسمع الأطفال ولم اعد اشعر بالقدرة على الاستدارة، أن ألفّ وجهي بعيدا، وان انشغل بفرديتي. وأي فردية هذه؟

إنها أول مرة أخاف حقا، ما يعني أنّ ما أخاف عليه يستحقّ الحياة!

لم أعد ارغب بالتسوّق، أو النظر الى خزانتي الجميلة الممتلئة، الى تركيب القطع فوق بعضها أو الاهتمام بأمور استهلاكية يومية. حتى الشارب المتظاهر سأتركه ليكبر ويثابر. لكن ربما اشتقت الى الفتاة في داخلي وعلي اقتلاع الشارب، ربما عندها فقط!

٦

اليوم، في هذا التاريخ تحديدا، اكتشفت أنّ العالم كله في جسدي، وأنني أعاني من وجع العالم.

أحاول عبثا الحفاظ على قدرتي على التنفسّ، ولا افهم حقيقة معنى الكتابة هنا أو التفريغ، أو الاهداف منه أو الاستفادة منه مع كل ما يحصل حولنا من مجازر وصمت وثورات الكترونية فايسبوكية فقط. ومع ذلك استمرّ بالكتابة لانّ هذه هي الحال، استمرّ بالكتابة ربما لان لا شيء أفعله.

ربما سوداويتي في هذا النص جاءت مصبوغة بالمدى وقصتها وهي بطلة عرضي المسرحي القادم، وقد أنجبتها واغتالتني ربما، ولم تنضج بعد. لكني غالبا ما أراها أثناء الاستحمام. أراها كصورة سينمائية كما أرى نفسي غالباً أثناء القيادة ضمن تقنية الـ«زوم أوت».

٧

أكثر صورة أحبها لي في ذاكرتي، هي شعري الأحمر المتطاير البرتقالي في سيارتي البرتقالية، ونظاراتي الشمسية القديمة «الآنتيك» ووشاحي الزيتي المنقط من ماركة «رالف لورين» الذي وجدته في متجر للملابس المستعملة.

أفتح نوافذ السيارة جميعها، وأضع موسيقى لطيفة، وأقود وحيدة والطريق الى بيت أهلي لا تنتهي. لحظات قليلة فقط، اشعر بها في طريق البترون – متوجهة الى طرابلس – أنني من أفلام السبعينات وللحظات أغدو سعيدة، غالبا تجتاحني رغبة بدخول الحمام، فأفكر ببورسلان حمام والدتي، ومنعها لنا من استعماله أثناء الطفولة ليبقى براقا! ابتسم والسيارة تقاد، ولست ادري من يقودها مع أنني فيها وحيدة!

مؤخرا لا أطيق الذهاب الى بيت الضيعة، مع أنها المكان الأكثر راحة وخضارا. لا أطيق التواجد مع عائلتي وأقوم بذلك من منطق الواجب، احتراما لما قدّموه لي وتقديرا لهم ولعجزهم. مؤخرا فهمت أن طفولتي اللطيفة المضحكة، وكل ما ذكر في الفصلين السابقين من «العيب» و«والدي والجيب المليء بالسكاكر»، كلها من مخيلتي ورؤيتي أو تأويلي لأحداث حقيقية جرت ولكن وضعها في نوستالجيا المضحك المبكي، في شريط حياة من تأليفي.

أما اليوم أيضاً، حين سأصل الى بيت أهلي، ستنهال عليّ الذكريات، مريول المدرسة، خزانة الملابس، صور كلوديا شيفير وأمنيتي أن تتزوج بكاظم الساهر، صورتي السيدة العذراء المعلّقتين فوق سريري، في منزل الحاج (مرتين) خضر حمود.

ستنهال عليّ الـ«حميراء» مني، كما يلقبنيّ كاتباً وباحثاً أحب فعلا عمله! تلك الطفلة – الشيطانة – التي إذا ظهرت ألغت الأخرى مني، الأخرى التي تكتب اليوم ، المرأة مني، بردائي الساتان الأسود على سريري الأبيض.

تلك الطفلة التي ولدت في غرفة الجلوس في منزل عائلتنا في عكار العتيقة، وأخرجتها من بطن أمي داية ضيعتنا، والداية هي إمرأة تنجب الأطفال في كل منازل الحارات. خلّفتها الداية. وقد كان وزنها كيلوغرام ونصف فقط لا غير، أي لا يشبع أي رجل جائع جالس على مائدة لحم طازج. حتى الديدان ما كانت لترغب في هذا الطبق.

نعم إنّها أنا. ولدت هناك ولما انتقلت الى غرفة النوم مع والدتي، وضعوا مكاني التلفاز، قطعة المنزل الفنية الوحيدة ومصدر التسلية. اشعر اليوم حقيقة كأنني التلفاز في تغير قنواته ومزاجي وطريقة كتابة التي استغربها كليا الآن. إلا أنني ما زلت لا استطيع التوقف على الإطلاق ولا أفكر بما اكتب.

ربما تكون مدى بشبحها سيطرت على أصابعي. حيث أنني أجد طريقتي بالكتابة مثيرة تماما للريبة.

ربما لأنني اعرف أنني ولدت كالبطة السوداء من عائلة قريبة وبعيدة عن بعضها البعض نوعا ما. سوداء، كان لها أسئلة كثيرة، وكانت امها تتركها مع أختها التي تكبرها

بثلاثة عشر عاماً، مما سمح لها بتشرب أمراض أختها أسرع من أي طفل آخر. على الأقل وجدت من يسمع أسئلتها. كانت أختها إذ تعاقبها تطلب منها الوقوف على أصابع قدميها، وتقف الفتاة فتتحول المعاقبة الى متعة فرغبة فموهبة فشغف فتمكن فرقص.

هي طفلة ولدت، اصغر إخوتها وأكثرهم حدة. كانت تتمتع بخيال كبير، واعتقد أنّها أدركت كذلك. اختارت أن تكون سعاد حسني كمهنة للمستقبل ولما عادت المعلمة سؤالها عن صورتها المستقبلية لنفسها، أجابت: يبدو أنك لا تحبين سعاد حسني. من أجلك فقط، قد أصبح شريهان، وكلاهما بالأبيض والأسود حصرا.

طفلة – بطة سوداء، لم تحب بنات عمها قط، ولطالما نظرت الى الفرق الشاسع بين تربية أهلها لها وإخوتها ومدى الحرية والتواضع في المنزل مقارنة بنموذج بيت العم الذي يشكلّ رعبا وعنفا وغرورا حتى البكاء.

ولكني اليوم حقاً لا اشعر بالذهاب الى هناك، وهناك شيء ما مبتور فيني كليا. أضف الى ذلك، أنّ هذه الذكريات وتأويلات الماضي تنهكني من محاولات الابتسام.

مثلا لطالما اعتقدت السوداء أنها تتمتع بقوة خارقة، عندما كانت تلعب «اللقيطة» كان تفاجأ دوما كيف أنها تمسك من قبل الأخر مع أنها عندما تركض تتحولّ الى شخص خفيّ! لكنها لم تصارح أحداً بذلك، لأنها تعرف انه خيالها، فليكن لها ولم لا فماذا يملك الطفل سوى خياله؟

نوستالجيا الطفولة.

أعود الى صورتي السينمائية البرتقالية وشعري المتطاير أثناء القيادة الأوتوماتيكية، كاستراحة محارب فقط لا غير. أقود من بيروت الى عكار لمدة أربع ساعات. الطريق الذي لم أتخيله إياباً قط، ودائما ما كان ذهابا فقط، فكم حلمت به بالاتجاه المعاكس، من عكار الى بيروت. كنت أدرك دوما أنني سآتي الى بيروت وقد أكون الفتاة الأولى التي تجازف بسمعتها وتخطو خارج الصراط المستقيم.

٨

بيروت أيضاً حلما تحقق وهو مشوّهاً مبتور الأطراف.

يا لهذه العاصمة التي اغتصبها أبناؤها، كل أنواع الاغتصاب والاستغلال. اللبنانيون بمعظمهم داعشيون إذا قسنا نوع العلاقة بينهم وبين هذا البلد الجسد.

٩

في محاولة مني للتأكد من أن والدي سيوافق على ذهابي الى بيروت، كنت قد بدأت بتحضير جعبتي منذ أن كان عمري عشرة أعوام. لا ادري لماذا لم أحب طرابلس مع أنني اليوم أغرم بها كمدينة وانعي بيروت كشبه جزيرة عربية.

دق جرس النفير، وصرت في السابعة عشر، وأخيراً ذهبت الى بيروت، لاجتياز مباراة الدخول في اختصاص الصحافة في الجامعة اللبنانية آنذاك. دخلت قاعة وراقبت أناساً وانتظرت أشواطاً، ٣ ساعات مدة الامتحان ويدي لم تكتب كلمة. ربما أنهت روحي المقال المطلوب إنما لم تُخرج مني حرفاً واحد. كنت أخاف أن انجح في هذا الاختصاص. كنت أخاف أن أضيع فيما لو طلب أهلي مني دراسة الإعلام، خاصة وانه قد يكون اختصاصاً أكثر توافقاً مع مفهوم الضيعة والدين والمجتمع والعرف السائد.

يا لطيف، كما لو أنني سأنجح بين المئات من المتقدمين.

يا للأسف، أين تلك الروح مني الآن، روح المغامر!

١٠

بيروت. حين زرتها كانت حقاً مشوّهة. بيروت التي أعرفها أحلى. مخيلتي أحلى.

إنّها الطريق بالاتجاه المعاكس الى منزل أهلي، تدفق علي بتحليلات ورصد حركة التطور الذي أعاني منه. ففي هذه

الأيام، الكآبة دليل ربما على انك تشعر بالآخرين وبعذاباتهم.

حانت ساعة الصفر، ساعة القيامة، إنها الحرب الأخيرة، إما أن تعيش أو لا داع لذلك، إما الجنة أو النار هي كذلك حقاً.

نوستالجيا المرة الثانية التي ازور فيها بيروت في شهر واحد. أجرة الطريق في يدي وسعر الـ«سندويشة». أعدّ المال كل دقيقة فلكثرة ما هو محدود، أخاف على نفسي من التشتت في حال ضاعت مني ألف ليرة فـ«يخترب بيتي» كلياً وسأضطر للمشي في مكان لا اعرف عنه أي شيء.

نعم لا أعرف أي شيء على الإطلاق عن بيروت، فأنا من محافظة سورية، ولكي اعبر الى بيروت لا بد من تأشيرة الدخول ومن جواز سفر. هذه هي الدعابة التي ترددت على مسامعي طوال أربعة أعوام من الدراسة في المعهد. يرددونها ويشعرونني سلفا بالدونية، عكار؟ وكيف سمح لك اهلك؟ ٤ ساعات للوصول؟ تذهبين وتأتين كل يوم؟ طبعا لا أيها الأغبياء. لا يهم.

عندما قدمت امتحان الدخول، كان من الغريب أن أرى اناساً يمثلون، يقبلون بعضهم، يتسامرون، يشتمون، وفتيات تصرخن ولا اذكر لماذا! تولولن ضحكاً وتبالغن في الفعل وردات الفعل فيما يقف زمرة من الشباب في آخر القاعة، يقفون وأنا أحاول أن انتقي بينهم حبيبي المستقبلي.

على خشبة المسرح السوداء، هناك في الروشة، سحر خاص لا يمكن إلا أن تلامسه. تجلس لجنة الحكم وتبدأ أنت بالآداء:

مشهدي كان عن فتاة تحاول أن تقوم بمشهد ما، إلا أنها من الرعب ما استطاعت وتوقفت مرارا لتعاود المحاولة فالبكاء فالصلاة أو الدعاء. أكثر ما اذكره أنّ أحد الممثلين – من اللجنة - قدمّ لي كوبا من الماء عندما أشفق على ترددي وخوفي، فيما كشفت سيدة بجانبه انه جزء من اللعبة. في الجزء الآخر من مباراة الدخول امتحان نفسي؟ تحليل نفسي؟ ثقافة عامة؟

العمى، وعفوا على التعبير. كل هذا؟! تحليل نفسي مسمى بثقافة بماذا ولماذا؟

هل تعرفين هذه الصورة لمن تكون؟

ممم لا.

هذا الاسم أو ذاك؟

ممم. بالكاد استطيع قراءة الاسم الروسي هذا.

ولا واحد منهم؟

«تسك»

ولا حتى موليير؟

نعم. موليير نعم. كان في برامج الأطفال في التلفزيون العربي السوري.

هممم. أح.أح أح

ولكنني هنا لأدرسهم، لا؟ لأعرف عنهم. وإلا لماذا أنا هنا؟

معها حق.

نعم معها حق.

للحقيقة أنّ والدي يدخل رغماً عن انفي في هذه القصة أيضاً، إذ قد شبّهني أحد الأساتذة بشخص كان يرأسه في الجيش، ولما سمع اسم عائلتي وأنني من عكار قال لي وماذا يكون «خضر» لك؟ انه أبي! إذهبي فقد أحببتك.

وذهبت.

ولم يكن لي أبداً أي رأي ما إذا كنت سأقبل أم لا! وأنا التي لم ترى يوما مسرحا، ولا قاعة سينما، وربما رأيت البحر مرتين فقط. فكيف إذاً سأعرف ما إذا كنت جيدة في التمثيل أو لا؟

وكيف سأعرف ذلك، كان هذا ما يشغلني، كيف سأصل الى بيروت من جديد، وفي جعبتي ما لا يتكاثر بل يكاد ينقرض المال؟ كيف سيدفع والداي ثمن تكلفة المواصلات من جديد؟

لا بدّ أنني سأنجح ولن اعرف بذلك. سأنتظر إذاً. سأعطي رقم هاتفنا الى شخص تعرفت عليه في المعهد. هي الفتاة الأجمل، الأكثر أناقة وأنوثة وأكثرهن رونقا. لقد اخترتها، سأعطيها رقمي، وهي بدورها رنت لي.

ألو.

ألو.

مريم حمود؟ منزل مريم حمود؟

نعم. عفواً لقد أعطتني رقمها في بيروت.

يووووووووووومريييييييييم تعي تعي ردي عالتليفون يومرييييييم.

Allo bonjour مريم معك فلانة. تفضلي.

لقد نجحت بالمرتبة الأولى في امتحان الدخول. بيروت ها نحن قادمون فاتسعي لنا.

هكذا مرت الأيام. باص من الكولا حتى الروشة والعكس صحيح. مصروفي الشهري مئة ألف ليرة لبنانية فقط لا غير. قوتي اليومي، منقوشة زعتر سادة، الحلم الأقرب لي ان استطيع أن أضع بداخلها بعضاً من الطماطم والخضار يوماً ما.

خمسة أيام في بيروت واثنان في عكار، اغسل فيها ثيابي واحمل بعض الطعام الذي قد تعدّه لي والدتي.

١١

غريب أن تتدفق هذه الذكريات وتتجلى بالمقولة الشهيرة: «وين كنا ووين صرنا». برافو. شيء من الاعتزاز بالنفس

والفخر والاحترام.

ولكن الغريب أن تتدفق فقط برغبة بدخول الحمام فاستذكار حمام البورسلان فالمنزل فالعائلة فمجرى الحياة. كله من الحمام!

ربما وصلت الى هذا التحليل الآن لأن الجوع طغى على الـ«حشرة». ربما لأن الطريق لم يعد جميلاً، فبدا الواقع ينهمر وصور «الإخوان» المقتولين في سوريا، وحدود نهر البارد التي تذكرني بكل القتلى ومنهم تسعة عشر من معارفي في الضيعة، ومحلات اللحم قرب محلات الميكانيك والدواليب.

والمشهد الأنكى – عفواً – الذبح، نعجة تتبعها نعجة تبكي عليها نعجة. أرى النعاج تتخبطن كالسمك من دون ماء والقطط مدهوسة والـ«بجم» في الطريق واكره البشر!

سأفكر في «الباذنجان المكدوس» وبطبخ أمي إذاً، ربما تقصر المسافة.

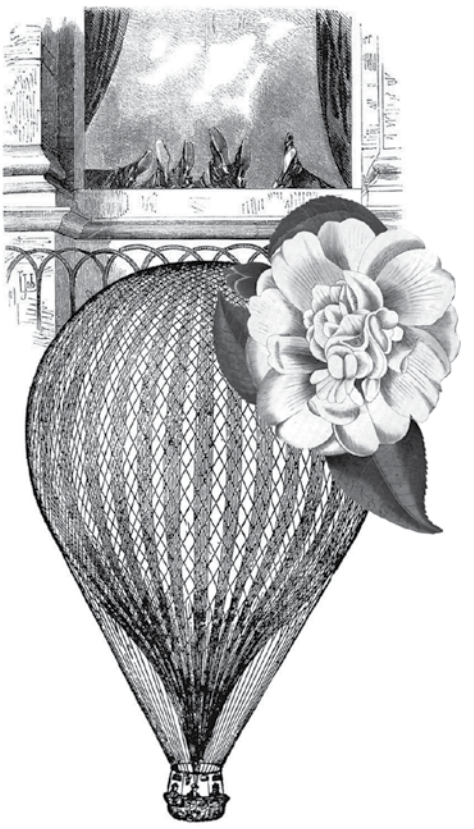

١٢

والدتي لها ذوق غريب بالتفكير، منهج عجيب وكانت إذا أعطتني طعاما، فعلبة كبيرة جدا من الرز وأخرى من يخنة البطاطا. علبتان تكفيان لخمسة أيام. إذاً أنا آكل أربعة أنواع من الوجبات في شهر! بالإضافة الى المنقوشة السادة اليومية، الطقس المعتاد.

كانت تحضرّ لي ما استطاعت: قليل من زيت الزيتون، المكدوس، الشنكليش والكشك. أي شيء استطيع حمله حتى التوى ظهري.

أذكر أنني حملت مرة غطاء السرير والتلفاز الصغير وسجادة وحقيبة الثياب والأكل معاً ولا يزيد طولي عن المئة وستين سنتمتراً والخمسين كيلو.

كل هذا الشقاء وكل من حولي يأكل أشياء اكتشفها مجددا: نودلز، باستا، إسكالوب، ناغيتس.

يا إلهي عندما رأيت أنّ الدجاج ممكن له ألا يكون محروقاً تماما على الفحم وأن هناك خبزاً دائرياً كالبرغر الذي لم أعرف من أين ابدأ بأكله تماما.

لا شك أنّ اليوم أيضاً حضرت أمي لي الكفتة بالخبز وهي لا تقتنع أنني لا أحب اللحم والدجاج ولا السمك وأنني أفضل الخضار، وأنني أيضاً هذه المرة سآكل المكدوس إذاً!

وتستمر الطريق والمونولوغ الذي يعبرني ويصفع فيني!

١٣

سنين تمرّ كلمح البصر، كنت فيها اكتسب الكثير من فعل المراقبة هناك. كيف يلبسون، يتكلمون، هذا وذاك والآخر هناك، حتى قررت التعرف على بيروت فعلا.

أول منزل، عفوا أول سرير من منزل، كان في الطريق الجديدة وقد طردتني منه صاحبته إذ خافت مني حين وجدت الكثير من الصور الفوتوغرافية في غرفتي، على البلاط والحيطان. فانتقلت الى بيت آخر لم أتحمله لأقرر السكن في ثالث أكثر راحة.

فانتقلت الى منزل آسيا، اسمها آسيا. صاحبة المنزل قارة بحدّ ذاتها. هناك صار عندي صديقة، كانت قد سبقتني بكل شيء بأشواط كبيرة، وصرت اخرج معها أينما كان، حتى أنني لم اشك يوما أنها تبيع المخدرات. أول صديقة لي كانت في الجهة الأخرى من العالم، ربما تشاركنا البيت نفسه، ولكنه يبدو لي أنني أنا كنت في آسيا وهي كانت فعلياً في لأوروبا.

صرت اخرج واسهر معها، هي دليل على كل أزقة بيروت، وكواليسها وحياتها الليلية. اسهر، أرقص قرب الطاولات، أجنّ، الكل ينظر لي حين أرقص، الكل يقترب

ليتعرف علي وهي تتحدث مع الشباب لتقول لهم، لا يغرّكم إنها ترقص، ليست من هذا الكار، لن تستطيعوا ابداً التقرب فلا تتعبوا أنفسكم!

لم افهم يوماً كل ما كانوا يتكلمون به. كنت غبية للغاية، وكانت لي عقدي الخاصة تجاه الشباب لكنني كنت منهمكة بالرقص على الموسيقى العالية والابتهاج.

في كل الأحوال كانت صديقتي مغرمة بشاب مصري لبناني، يعيش في جونية، متقدما بمراحل كبيرة عني، في التجارب المتنوعة والممنوعة. وكم كنت مقبلة على الحياة وعلى اللاحكم على احد، وكم كنت انتظر أن اكبر أكثر فأكثر.

من منزل الى آخر، كان الأسوأ هو رابعهم، حين التقينا بعاهرتين، تعملان حقا في الليل، وتعيشان من ذلك، وقد كانتا جارتي في الغرفة.

هذا المنزل لملم كل أنواع النساء: المثقفات المتعجرفات، العاهرات البسيطات والعاهرات حقاً، الكلاسيكيات، المتدينات، اليساريات، وأنا، التي رفضت أن احمل أي هوية وفيني بعض من كل هذه السيدات.

في هذا المنزل، توقفت تماما عن استعمال الشفرة، وبتت استعمل الحلاقة الكهربائية، هذا الجهاز الذي يقضي على بصلات الشعر. أذكر أن صديقتي الأوروبية (أعجبني هذا التشبيه) ثبتتني وامرأتين من المنزل على السرير، لتجبراني على مطاوعتهم.

في هذا المنزل، أغرمت بالكثير من الرجال، وتركت الكثيرين، ورأيت المصلين والآخرين.

أذكر منهن:

فرح، وقد أحبت مطربا وبقيت تتبعه حتى نامت معه وأغرمت به!

ملاك، خطبت إبن خالتها الذي يعيش في الخارج وستنتقل تماما!

مادونا، الشيوعية المثالية المتفلسفة المنظرة على أنها افهم من جمع الجميع!

ديانا، تعمل في محل للأحذية الايطالية وتستهلك جيوب زبائنها!

بتول، سورية لم افهم قصتها يوما إلا أنّها أيضاً كانت تعود كل صباح بالكثير من المال، واذكر انّ كان لها ابن في مكان ما!

لما، ابنة صاحب المنزل، جلبت صديقها مرة ليلا ووجدنا «واقي ذكري» في سلة المهملات، وهي كانت من تجبرنا على عدم كسر قوانين المنزل!

منال، مغرمة بمؤخرتها وتكذب على حبيبها توهمه أنها خارجة ليغار وتشاهد قناة «فاشن تي في» بصوت عال ليعتقد أنها محاطة برجال فيغار، وسرعان ما تزوجته!

وأنا. هناك فقط تتكون ملامحي لأكون امرأة اليوم. امرأة قريبا فقط ستنفذ ما خططت، وستلذع الأفعى الأوراق. قريبا في مدى، ومدى ليست سوء جزء من الميرم!

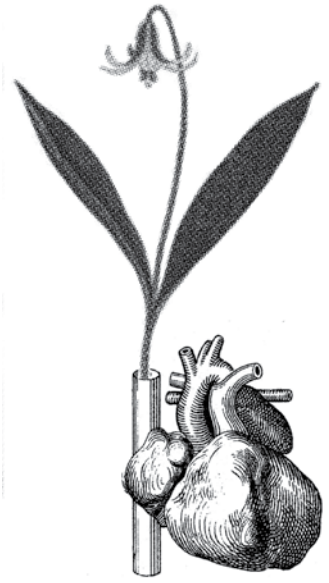

١٤

من سرير الى آخر حتى أعود اليوم من بيروت الى الضيعة، من منزلي المستأجر بغرفتي نوم وحمامين. الغرفة الإضافية لبعض الأصدقاء عندما يحتاجونها، ولهم حمامهم الخاص، ولقططي ولمدى وأشباح عروضي المستقبلية ولمنع أي احد من الاقتراب بسريري وربما لأتأكد أنني بخير حقا!

فحتى عند أهلي لا نملك ستائر في غرف النوم، وفي طفولتي كانت خزانتي حقيبة تحت السرير الذي لم انم عليه، لم يكن لي، كان بطن أبي سريري كما تعرفون!

وأخيراً وصلت الى طريق الزيتون في عكار، كم اعشق هذا الطريق تحديدا! لقد تعبت من القيادة، وسأتوقف عن تسجيل هذه الأفكار هنا، سأتوقف عن القيادة أيضاً. سأقف حوالي الخمس دقائق تحت هذه الشجرة لأخذ نفساً واضع القناع الشفاف قبل أن أصل الى الدار، حيث يجب أن أبدو سعيدة، جيدة، موافقة على كل شيء ومؤمنة!

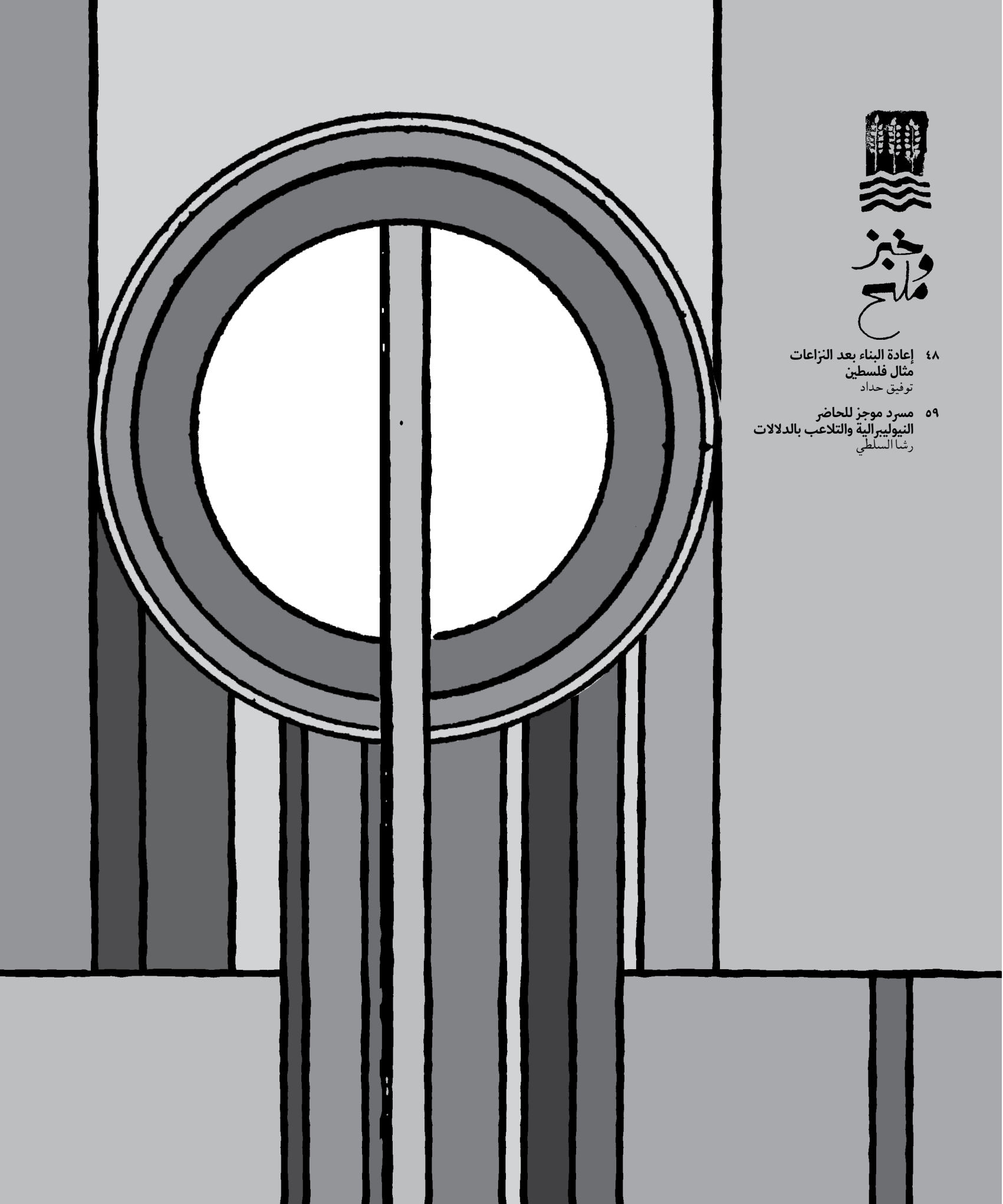

ملخص وموجز

٤٨ **إعادة البناء بعد النزاعات مثال فلسطين**
توفيق حداد

٥٩ **مسرد موجز للحاضر النيوليبرالية والتلاعب بالدلالات**
رشا السلطي

خبز وملح

إعادة البناء بعد النزاعات
مثال فلسطين

توفيق حداد

جامعي وكاتب وناشط سياسي فلسطيني. صدر له أخيراً *Palestine LTD: Neoliberalism And Nationalism In The Occupied Territories.*

اليوم، يبدو الشعار الثوري «الخبز، الكرامة، والعدالة الاجتماعية» الذي أسَر آمال الملايين في العالم العربي، أشبه بذكرى بعيدة.

العالم العربي وثوراته في أتون أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة: مصر، وليبيا، والعراق، وسورية واليمن في حالاتٍ ناشطة مختلفة من التفكّك والحرب الأهليّة. أمّا الدول التي لا تشهد ثوراتٍ صريحة فتسعى يائسة إلى أن تنأى بنفسها عنها وتحاول نيل هدوء شعوبها من خلال سياسات تراوح بين تعزيز الدولة الأمنيّة، وخططٍ ترسي حكماً تدريجياً وتقدّم إصلاحاتٍ اقتصاديّة بغيةَ نزع فتيل التوتر الداخلي الذي يكاد أن ينفجر. لطّخت نتانة السياسات الطائفية جزءاً كبيراً من الخطاب السياسي، إذ إنّ الأطراف الإقليميّة والدولية تساهم إلى حدّ كبير في الأوضاع العامة المتمثّلة في الاستقطاب والتفكّك. تنظر أعداد هائلة من المواطنين إلى إمكانيّة الهجرة باعتبارها الحلّ الوحيد لمحنتهم، فالظروف التي يواجهونها بموضوعيّة تتلخّص في خيارٍ ما بين التواجد المستمرّ ضمن دول المافيا الباتريمونياليّةً والنيو-باتريمونياليّة التي تعتمد التهميش والإخضاع السياسي والاقتصادي، أو مقاومة هذه الظروف، ممّا يفضي إلى إجراءات سريعة في سبيل سحق أيّ برعم تمرّد من شأنه تصوير أيّ بديل واحتوائه. ويبدو أنّ ما من دولة عربية لا تنطبق عليها هذه الظروف العامة بشكلٍ أو بآخر.

بالإقرار أنّ الظروف العامّة والخاصّة التي ساهمت في هذا الوضع المزري كانت قيد التحضير منذ سنوات، يمكننا أن نتوقّع أيضاً أنّ حلّها سيستلزم سنواتٍ، إن لم يكن أجيالاً.

بيد أنّه، بقدر ما تظلّ الحياة القائمة على الحريّة والكرامة والعدالة الاجتماعيّة هدفاً مرجوّاً وضروريّاً للعالم العربيّ وشعوبه وتطوّرهم، تتمثّل ضرورات السنوات المقبلة في كيفيّة تعبئة الحركات السياسيّة التي تستطيع تحقيق هذه الأهداف وبناءها والحفاظ عليها. وبالنظر إلى الموارد المحدودة للأطراف الفاعلة السياسيّة والاجتماعيّة، وصلاحيّات خصومها وحلفائها الدوليّين، ستبرز في واجهة هذا التحدّي مسائل أيديولوجيّة، وتكتيكيّة، واستراتيجيّة، ومؤسساتيّة، وماديّة. في هذا السياق، إنّ الاستعداد في ما يتعلّق بالقدرة على تقديم التوجيه الأيديولوجي، والوضوح السياسي، وآليّات التعبئة السياسيّة والاجتماعيّة، وإضفاء الطابع المؤسساتي، وأساليب التأكد من استدامة هذه الحركات على المستوى المادّيّ والدفاع عنها، تبقى جميعها جوانب أساسيّة ستؤدّي دوراً كبيراً في تحديد الفائزين والخاسرين في الصراعات المقبلة. ويبدو أنّ النضال من أجل العدالة الاجتماعيّة كعنصر ضروري للرفاهة الاقتصاديّة والحريّة السياسيّة، يكمن في التوازن.

في ضوء ما تقدّم، يحدّد هذا المقال الهدف من محاولة المساهمة في عمليّة التحضير هذه من خلال إجراء بحث بشأن البنك الدوليّ وصندوق النقد الدوليّ. ويهتمّ هذا المقال بشكلٍ خاص بمعرفة إلى أيّ مدى تقدّم أفكار هاتين المنظّمتين وسياساتهما وأموالهما مجموعة من الموارد لأطراف عرب في نضالهم في سبيل العدالة الاجتماعية.

تنبثق الحاجة إلى استكشاف هذا الدور المحدّد وتعيينه من حاجات وحوافز متعدّدة.

على الرغم من سلطة هاتين المؤسستين ونفوذهما الهائل على صعيد وضع وصْفات سياسيّة معياريّة على المستوى العالمي وعلى أساسٍ ثنائيّ حتى في دولٍ عربية متعدّدة، تفتقر نوعاً ما الأطراف السياسيّة والاجتماعيّة في العالم العربي إلى فهمٍ وتحليلٍ أوضح لأدوارهما

المحدّدة. غير أنّ هاتين المنظمتين تبقيان فاعلتين في اقتراح إصلاحات اقتصاديّة واجتماعيّة مختلفة في الدول العربيّة التي تسعى كما يُفترَض إلى المساهمة في التنمية الاقتصاديّة والعدالة الاجتماعيّة، سواء كان ذلك في دول لم تختبر بعد اضطرابات ثوريّة (على غرار المغرب والأردن)، أو تلك التي تعصف بها الثورات (كتونس ومصر). والواقع أنّ هذه الاقتراحات هي غالباً امتداد لسياسات سابقة لم تخضع للمحاسبة بعد. من يستطيع أن ينسى الموافقة البهيجة التي منحها صندوق النقد الدولي على وضع الاقتصاد التونسيّ قبل أسابيع قليلة فقط من انفجار الثورة التونسيّة؟

لطالما كان البنك الدولي وصندوق النقد الدولي رديفا للهيمنة الإمبريالية الأميركية وسيطرة الدول الرأسمالية الغربية المتطورة، الاقتصادية والسياسية، على اقتصادات العالم الثالث أو عالم الجنوب.

يُذكر في هذا السياق أنّه منذ عام ٢٠١٢ خصّص البنك الدولي لتونس ما لا يقلّ عن ١.٣ مليار دولار أميركي، فيما شهدت مصر زيادة بمعدّل أربعة أضعاف في التزامات البنك – من ٤٠٨ ملايين دولار أميركي عام ٢٠١٤ إلى ١.٤ مليار عام ٢٠١٥ (الموقع الإلكتروني للبنك الدولي). تشير هذه الإحصاءات إلى أنّ هاتين المنظّمتين لا تقفان أبداً على الحياد في خضمّ الاضطرابات الإقليميّة. فضلاً عن ذلك، يدلّ استعدادهما للالتزام بالترتيبات السياسيّة «القديمة» (يرمز إليها المجلس العسكري في مصر في ظلّ حكم السيسي، أو في الأردن والمغرب) أو تلك الجديدة (تونس ما بعد الثورة)، على قناعتهما البراغماتية بضرورة المضيّ قدماً أيّاً كان الإطار المحليّ، في مسعى لطرح أجنداتهما التنظيميّة.

ما الذي نعرفه عن هذه الأجندة؟ وإلى أيّ مدى توفّر مصدراً أو منبراً للجهات الفاعلة السياسيّة لطرح قضايا العدالة الاجتماعيّة كبديلٍ عن الترتيبات السابقة؟

للإجابة عن هذه الأسئلة أهميّة كبيرة في إطار حيث أدّت هذه القوى أدواراً بارزة في بناء الحاضر العربيّ، فيما لا تزال ناشطة في محاولة التأثير في مستقبل العالم العربي وتوجيهه. في هذا الصدد، من شأن الوضوح حول هذه المسائل أن يكشف إلى حدٍّ كبير كيف أنّ الجهات الفاعلة السياسيّة والاجتماعيّة تستطيع أن تحدّد بشكلٍ أكثر فاعليّة رؤيتها البديلة وترسمها وتطبّقها مع الاحتفاظ بتقييم واقعيّ للقوى والأفكار المختلفة التي تحاول التأثير في هذه العمليّات أيضاً.

تأريخ وتسييس البنك الدولي وصندوق النقد الدولي

ينبغي أن يبدأ تقييم دور البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية بفهم لما تقوم به هاتان المنظّمتان، ومَنشئهما، وطريقة عملهما، ولصالح من. إنّ فهم منشأ هاتين المنظّمتين ومسارهما التاريخي، والأسس الأيديولوجيّة والنظريّة لوصفاتهما التاريخيّة، وممارساتهما الفعلية المعيشة مهمٌّ لكشف كيفية تأدية هذه المنظمات دوراً في تنظيم النشاط الاقتصادي والسياسي لمجتمعٍ معيّن والتأثير فيه، وما إذا كان هذا الترتيب يوفّر توزيعاً عادلاً للثروة والفرص والامتيازات.

يعود تأسيس هاتين المنظّمين إلى مؤتمر الأمم المتحدة النقدي والمالي (مؤتمر بريتون وودز) الذي انعقد عام ١٩٤٤ والذي هدف إلى وضع مجموعة جديدة من القواعد التي تحكم النظام النقدي الدولي بعد الحرب العالميّة الثانية في الدول الـ ٤٤ المشاركة.

وكان من بين الخلاصات التي توصّل إليها هذا المؤتمر تأسيس البنك الدولي للإنشاء والتعمير للمساعدة في إعادة إعمار أوروبا بعد الحرب، والذي يقدّم اليوم قروضاً للدول النامية متوسطة الدخل، وصندوق النقد الدولي الذي تأسّس لضمان استقرار النظام النقدي الدولي من خلال تتبّع التوجّهات الاقتصاديّة الوطنيّة والعالميّة، وإقراض الدول التي تواجه صعوبات في ميزان المدفوعات، وتقديم المساعدة «التقنيّة» إلى الدول الأعضاء. مع الوقت، أسس البنك مؤسّسة أخرى، المؤسّسة الدوليّة للتنميّة (عام ١٩٦٠) لمنح القروض للدول الفقيرة والنامية، ومؤسسة التمويل الدوليّة، التي تأسسّت عام ١٩٥٦، لتقديم المساعدة الإقراضيّة مباشرة إلى العناصر التي هي ضمن القطاع الخاص. مجتمعة، يُطلق على مجموعة البنك الدولي[1] إلى جانب صندوق النقد الدولي بشكلٍ أعمّ اسم «المؤسسات المالية الدولية» أو عندما تُضمّ إليها منظّمة التجارة العالميّة، تُعرَف بمنظّمات بريتون وودز.

لطالما كان البنك الدولي وصندوق النقد الدولي رديفاً للهيمنة الإمبرياليّة الأميركيّة وسيطرة الدول الرأسماليّة الغربيّة المتطوّرة، الاقتصاديّة والسياسيّة، على اقتصادات

١ تتألف مجموعة البنك الدولي من مؤسّستين أخريين: وكالة ضمان الاستثمار متعدّد الأطراف، والمركز الدولي لتسوية منازعات الاستثمار.

العالم الثالث أو عالم الجنوب. وبحسب المؤرّخ الأميركيّ تشارلز ماير، «مُعفاة من الخسائر التي تكبّدها المتحاربون الآخرون، ورثت الولايات المتحدة فرصة لترسيخ القواعد الاقتصاديّة الغربيّة الأساسيّة وفقاً لاحتياجاتها ورؤيتها الخاصة» (ماير، ١٩٧٨). وعلى سُلَّم أولويّاتها، الحرص على ألّا تُنشِئ إعادة إعمار أوروبا فرصاً لنزاع متجدّد مع الدول الأوروبيّة أو في ما بينها، والعمل بالتوازي على درء خطر الإغراء الشيوعي. تاريخياً، باتت هذه الجهود تُعرَف بـ«الليبرالية المدمجة» حيث عملت الولايات المتّحدة، من خلال مشروع مارشال والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، على توجيه الدول الأوروبيّة واليابان سياسيّاً على امتداد تدخّلاتهما التنمويّة. من خلال توفير الدعم لبيروقراطيّة فعّالة مموّلة جيّداً ضمن هذه الدول التي تدور في فلكها، عملت الولايات المتّحدة على استبعاد الأحزاب الشيوعيّة من المشاركة في الحكومات وعلى إثباط الترتيبات الجماعية حيثما أمكن، أو على الأقلّ احتوائها ضمن الحدود المقبولة لليسار الوسط (راغي، ١٩٨٣).

في حين شكّلت مصالح الولايات المتحدة الدعامة الأساسيّة لهذا الترتيب، مع الوقت، توصّلت منظّمات بريتون وودز إلى حماية المصالح الجماعيّة للاقتصادات المتقدّمة لدول أوروبا الغربيّة واليابان، من خلال البنية التنظيميّة وآليّات صنع القرار ضمن البنك.

وعلى الرغم من أنّ هياكل البنك وسياساته يُفترَض أن تعكس إرادة الدول الـ١٨٨ الأعضاء فيه، عمليّاً، السلطة رهنٌ بصيغة معقّدة تربط تصويت الهيئة الأساسية لصنع القرار في البنك – مجلس المحافظين – بحجم اقتصاد الدولة كما هو مُحدَّد بحسب قياس الدخل القومي، والاحتياطات الأجنبيّة، والمساهمة في التجارة الدوليّة. وقد عنى ذلك تهميشاً تاريخياً للاقتصادات النامية على حساب صنع القرار ديمقراطياً استناداً إلى العضويّة (عضو واحد، صوت واحد).

الوصفات السياسية

بعد تحديد التوجّه التاريخي والسياسي العام لهذه المنظّمات، لنَعُد الآن إلى وصفاتها السياسية، التي ظهرت وتطوّرت في ظلّ تبدّل المصالح والأولويّات الأميركيّة مع الوقت.

لقد تبدّل التوجّه التنموي العام للبنك مع الوقت ليتماشى مع الأهداف السياسيّة لمؤيّديه الغربيّين البارزين، إلى جانب التوجّهات الاقتصاديّة السائدة والرائجة في ذلك الوقت – رائجة بمقدارٍ ليس بضئيلٍ أبداً لأنّ هذه التوجّهات الاقتصاديّة توافقت أيضاً مع التوجّهات السياسيّة نفسها.

تكشف قراءة لعمليّات الإقراض التي قام بها البنك الدولي بحسب القطاع أنّ الفترات السابقة (خمسينيات القرن الماضي وستينيّاته) شهدت تركيزاً كبيراً على البنية التحتيّة (وذلك على نطاقٍ واسع في أوروبا). بيد أنّ ذلك أفسح في المجال تدريجيّاً أمام التركيز على الزراعة، والإنفاق الاجتماعي والصناعة في أجزاء من العالم النامي. وقد بدأت الدفعة الثانية خلال رئاسة روبرت ماكنمارا (التي بدأت عام ١٩٦٨)، مع هذه التدخّلات التي اعتُبِرَت مهمّة «للحدّ من الفقر» وتلبية «الاحتياجات الأساسيّة». في ذلك الوقت، مثّلت الهند وباكستان أكبر متلقّي مساعدات من البنك، إذ إنّ هاتين الدولتين كانتا تُعتبَران دولتين رئيسيّتين تحتاجان إلى أن تكونا بمنأى عن تأثير القناعات الروسيّة أو الصينيّة.

مع انهيار معظم النماذج التنمويّة التي تقودها الدولة في مختلف أنحاء العالم النامي بحلول منتصف سبعينيّات القرن الماضي، وارتفاع تدفّق الدَّين العام، خرج البنك في مطلع الثمانينيّات بأجندته الرئيسيّة الثالثة على شكل «التكيّف الهيكلي». وقد تمّت المصادقة بموجبه على تطبيق تعديلات عامّة في الاقتصاد الكلّيّ على الاقتصادات النامية كافّة من خلال عشر أدوات سياسيّة أساسيّة باتت تُعرَف بـ «إجماع واشنطن» (انظر ويليامسون، ١٩٩٠). وقد شملت هذه الأدوات الانضباط في السياسة الماليّة (أي ما من عجزٍ ماليّ في ما يتعلق بالناتج المحلّي الإجمالي)، وإعادة توجيه الإنفاق العام (ما من إعانات)، وإصلاح النظام الضريبي لصالح رأس المال، ومعدّلات فائدة عائمة (تحدّدها السوق)، وأسعار صرف تنافسيّة، وتحرير التجارة، وتحرير الاستثمار الأجنبي المباشر الموجّه إلى الداخل، وخصخصة المؤسسات الحكوميّة، ورفع القيود التنظيميّة، وتوفير الضمانات القانونيّة لحقوق الملكيّة.

اعتُبِر تبنّي هذه الإصلاحات ضرورياً من أجل منح القروض، وبالتالي فُرضت شروط صارمة أعادت توجيه أولويّات هذه الاقتصادات، وملكيّتها وتوجّهها، وعلاقة المواطنين فيها بعمليّات صنع القرار التي تحكم اقتصاداتهم ورفاههم الاجتماعي.

انطوت التعديلات الهيكليّة في صلبها على اعتقاد بأنّ استقرار الاقتصادات المثقلة بالديون وتحريرها وخصخصتها سيؤدي إلى النموّ والتطوّر. وقد سُوِّغَ كلٌ من عناصرها في إطار النظرة العالميّة إلى الاقتصاد

الكلاسيكي الجديد كحلٍّ تقنيّ «للحدّ من التضخّم»، و«التخلّص من العجز»، و«القضاء على التشوّهات في الأسعار» واستنباط «الكفاءة». والواقع أنّ هذه السياسات ألغت أدوات سياسة مختلفة كانت بيد الحكومات لحماية اقتصاداتها وتنظيمها وتوجيهها، مؤمّنة تدخّلات مختلفة، وتدابير حماية ومعايير ضدّ الأسواق وفشلها. من خلال نزع هذه الأدوات من قبضة الحكومة، وتوحيد الوصفات السياسيّة عبر الدول، نصَّبَ البنك الدولي بدعم من صندوق النقد الدولي، جهات فاعلة وأصحاب مصالح اقتصاديّة، محليّين ودوليّين رئيسيّين للتمكّن من الاستفادة من هذه السياسات مالياً على حساب الفقراء. ومن شأن ذلك حتماً أن يسرّع وتيرة تشكّل الطبقات فضلاً عن انتقال الثروة والتفاوت في الثروة.

باتت هذه الدفعة الثالثة من سياسات البنك التي طَبَعَت الحقبة النيوليبرالية وقد بدأت في ظلّ سياسة حافّة الهاوية التي اعتمدها كلٌّ من ثاتشر وريغان، باتت مشهورة بسبب حجم التخفيضات المقتطعة للخدمات الحكوميّة في مجال الصحّة والتعليم والرعاية الاجتماعيّة، وخصخصة الأصول التي تملكها الدولة. وكان من المفترض بالحدّ من تدخّل الدولة في الاقتصاد والحدّ من سلطاتها التنظيميّة أن يدفع بالجهات الفاعلة في القطاع الخاص إلى ملء الفراغ في هذا المجال. غير أنّه في معظم الأحيان، أدّت هذه السياسات إلى تدمير الرعاية الاجتماعيّة، وإثراء النُخَب، والتمييز الطبقي، وتنظيم المجتمع على مبادئ الربح والجشع، لا على مبادئ خدمة الحاجات الإنسانيّة.

باتت هذه الدفعة الثالثة من سياسات البنك التي طبعت الحقبة النيوليبرالية وقد بدأت في ظل سياسة حافة الهاوية التي اعتمدها كل من ثاتشر وريغان. مشهورة بسبب حجم التخفيضات المقتطعة للخدمات الحكومية في مجال الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية. وخصخصة الأصول التي تملكها الدولة.

حتماً، سيحصد التحوّل النيوليبرالي الشديد للبنك الدولي في ثمانينيّات القرن الماضي في ظلّ التكيّف الهيكلي نتائج مخيّبة للآمال، ويجبر في نهاية المطاف المؤسّسات الماليّة الدوليّة على تكييف مقارباتها ومحطّ تركيزها مرّة أخرى (انظر سعد-فيلهو، ٢٠٠٥، ص. ١١٦-١١٧). بيد أنّه عوضاً عن إعادة النظر بشكلٍ أساسيّ في التكيّف الهيكلي، تمسّكت منظّمات بريتون وودز بشدّة بهذه المبادئ، لكن اعتبرت أنّ الدول تفتقر إلى القوام المؤسساتي المناسب اللازم لضمان التآزر والانطلاق. إذا كان الشعار في ظلّ التكيّف الهيكليّ هو الحاجة إلى «إصلاح الأسعار»، فإنّ شعار محطّ تركيز البنك الرابع والحالي هو «إصلاح المؤسّسات». بالتالي، ولِد «ما بعد إجماع واشنطن»، الذي شدّد على «بناء المؤسّسات» و«الحوكمة الجيّدة»، مع هذه السياسات الهادفة إلى دعم المبادئ الأساسيّة للتكيّف الهيكلي. وإذا أمكن تطبيق ترتيبات الحوكمة الملائمة التي تضمن معاملات سلسة وفعّالة في السوق، وإذا كانت تلك مدعومة بترتيبات الاقتصاد الكلّيّ الليبرالية التي شجّعت الاستثمار الخاص، والتجارة، والخصخصة، والتقشّف مع الدفاع عن الملكيّة الخاصّة، يمكن في نهاية المطاف تحقيق النموّ والتنمية.

النيوليبرالية والعدالة الاجتماعيّة

إذا كان الأساس النظريّ لوصفات البنك الدولي السياسيّة يستند إلى الأجندة النيوليبرالية، التي تستند بدورها إلى الاقتصادات الكلاسيكيّة الجديدة، مدموجة بفرع في الاقتصاد يُعرَف بـ«الاقتصاد المؤسّساتي الجديد» (الذي ساهم في إطار عمل «الحوكمة الجيّدة»)، ومن الجدير استكشاف المزيد بشأن هذه الأسس النظريّة لفهم كيفيّة التعامل بوضوح مع المسائل الاجتماعيّة.

في حين تطوّرت الأبعاد النظريّة كما التطبيقيّة للنيوليبراليّة على مرّ السنين، تبقى مجموعة جوهريّة من التكهّنات والافتراضات الأساسية متّسقة دوماً. وهذه الأفكار الجوهريّة هي التي تضفي على النيوليبراليّة طابعها المثالي، إذ إنّها تفترض أشكالاً متشدّدة وأدواتيّة.

يصف عالم الاقتصاد هاورد شتاين خمسة عناصر فرعيّة تأسيسيّة صغرى يُفترَض صراحة أو ضمنيّاً توافرها في كلّ نظريّة كلاسيكيّة جديدة ألا وهي:

- أنّ الانسان فردٌ يقوم بحساباتٍ عقلانيّة ويسعى بطبيعته إلى تحقيق المنفعة الأكبر لنفسه (كائن اقتصادي)،
- أنّ خيارات المرء تُحدَّد فرديّاً، وتهدف إلى تعظيم الذات (الفرديّة المنهجيّة)
- الأسواق تطهّر نفسها لبلوغ «أمثلية باريتو» – وضعٌ حيث لا يمكن لأحد أن يكون أفضل حالاً من دون أن يضرّ بشخصٍ آخر – (قبول التوازن كحالة طبيعيّة)،

- يُحدّد سلوك العميل مسبقاً من خلال مجموعة محدّدة من القواعد (التفكير الاستنباطي العقلاني)
- ينطلق سلوك العميل تلقائيّاً من مجموعة من مؤشّرات السوق (التفكير البديهي) (شتاين، ٢٠٠٨، ص. ٦٠-٦١).

من هذه العناصر التأسيسيّة الجوهريّة الصغرى، تُوضع مجموعة من الافتراضات الملموسة المرتبطة بطبيعة الأسواق، والسلع، والمعاملات، والأسعار. باختصار، تحمل هذه الافتراضات معها مفاهيم مثاليّة مشابهة عن الفعاليّة المُثلى، والتفاعل العفوي والتعاملات، والعمى حيال الاختلافات في قوّة العملاء في ظلّ شروط السوق الحرّة «البحتة».

من هذه المفاهيم الجماعيّة، تبدأ الوصفات السياسيّة العامّة والتحيّزات بالبروز بهدف إرساء الظروف المثاليّة لحدوث التراكم. ويشمل ذلك الحاجة إلى عدم تدخّل الحكومات في أداء الأسواق، والحاجة إلى إزالة التنظيمات التي تعيق تراكم الأرباح وتولّد «تشوهّات في الأسعار»، وبخاصةٍ في ما يتعلّق بالتجارة، والحاجة إلى خصخصة المؤسّسات التي تملكها الدولة، ممّا يعزّز، كما يُقال، الكفاءة والحاجة إلى خفض الرعاية الاجتماعيّة الحكوميّة وتقديم الخدمات كي يتمكّن القطاع الخاصّ من ملء هذه الأدوار، فيظهر التوازن «بطبيعة الحال». إذا لبّت الأسواق بدلاً من الحكومات المجموعة الكاملة من احتياجات الإنسان، يتلاشى الشرط الأساسي لمعظم الممارسات السياسيّة وصنع القرار. تُقسَّم المسائل السياسيّة والحاجات الاجتماعيّة إلى مسائل صغرى يمكن تسليعها ومعالجتها تقنياً من خلال مخصّصات السوق. فتصبح الحريّة عبارة عن القدرة على اتخاذ قرار فردي يُطبَّق في السوق من خلال القدرة على الشراء أو البيع، عوضاً من أن تجسّد مفهوماً مرتبطاً بأشكال الظلم الهيكلي والحقوق الفرديّة أو الجماعيّة، فتصبح قضايا العدالة الاجتماعيّة محصورة بالمسائل المرتبطة بوكالة الإنسان عن نفسه، والولوج إلى الأسواق، والقدرة الاستهلاكيّة. وتصبح أساليب الحماية الاجتماعيّة مؤطّرة باعتبارها «التزامات» لا حقوقاً، فيما تمحو العمليّة بكاملها أبعاد التقسيم الطبقيّ والسلطة.

في حين أنّ النقد الأدبي لهذه الجدالات مُسهَب، من المهمّ البدء بتحديد الانتقادات الموضوعيّة واسعة النطاق التي تنبع من النظريّة نفسها.

وبحسب عالم الاقتصاد الماركسي دايفيد هارفي، لطالما كان للنيوليبرالية هويّة مزدوجة:

يمكننا بالتالي تفسير النيوليبرالية إما باعتبارها مشروعاً مثالياً يهدف إلى تحقيق مخطّط نظريّ من أجل إعادة تنظيم الرأسماليّة الدوليّة، أو مشروعاً سياسيّاً يهدف إلى إعادة توطيد الشروط الملائمة لتراكم رأس المال واستعادة سلطة النخب الاقتصاديّة (هارفي، ٢٠٠٥، ص. ١٩).

بنظر هارفي، إنّ التأكيد (السياسي) الأخير على السلطة الطبقيّة هو الذي يكمن حقيقة وراء العمليّات الليبراليّة بطابعها النظري المثالي وهو بمثابة نظام لتبرير وتشريع كلّ ما ينبغي القيام به من أجل تحقيق هذا الهدف (المرجع نفسه، ص. ١٩). وهو يذهب إلى أبعد من ذلك مؤكّداً أنّه: «عندما تصطدم المبادئ النيوليبرالية بالحاجة إلى استعادة سلطة النخبة أو الحفاظ عليها، فإمّا أن يتمّ التخلّي عن هذه المبادئ وإمّا أن تصبح ملتوية جداً لدرجة أنّه يصبح من الصعب التعرّف عليها».

كذلك، تنعكس ملاحظة هارفي بشأن طابع النيوليبراليّة المزدوج من خلال التناقضات والتوتّر الذي يكمن بين نظريّة النيوليبراليّة والبراغماتيّة الفعليّة الناجمة عن إرساء النيوليبراليّة كما هي مطبّقة من خلال منظّمات بريتون وودز.

ممّا لا شكّ فيه أنّ النيوليبراليّة قد اتجهت نحو إنتاج كوكبة من المشاكل في طور تنفيذها بما في ذلك زيادة في تركّز الثروة وعدم المساواة فيها، والزيادة في البطالة والبطالة الجزئيّة، والأجور الراكدة، وتراجع قوّة العمل المنظّم، وتزايد الجرائم، ورجال الشرطة، والسجون، والتشرّد والتسوّل، تآكل الحريّات المدنيّة، وتجريد الشركات الصغيرة والمزارعين من حقوقهم، وازدياد الهجرة، وأشكال العصيان المسلّح والمقاومة، وتدمير العمليّات الديمقراطيّة، والانخفاض المقلق في أشكال التضامن الاجتماعي (مقتبس عن لوني، عام ٢٠٠٣).

النيوليبراليّة تفترض أنّ أسس الاقتصاد الكلّي (المثاليّة) الخاصّة بها خالية من أيّ صبغة سياسيّة، وترتكز حصراً على رغبتها في إنتاج الكفاءة، والمساواة في الفرص والثروة، مع الحفاظ على «الحريات» في آن.

باختصار، ما من شيء موضوعي، أو غير شخصي، أو علمي أو لا سياسي بشأن نظام سوقي يحمي حقوق الملكيّة الخاصة، مع كون هذه المسائل محدّدة سياسيّاً وتاريخيّاً بدقّة كبيرة، ومع وجود مسائل متعلّقة بالنفوذ السياسي والطبقي كامنة في صلب تحديدها. يذهب تشانغ (٢٠٠٠) إلى أبعد من ذلك معتبراً أنّ «عقلانيّة» السوق التي يحاول النيوليبراليّون حمايتها من خلال

تركيزهم على اقتصادٍ غير مسيّس ونظام اجتماعي «هي في الواقع كناية عن ديمقراطية مخصيّة»، و«ليست منطقيّة إلّا في ما يتعلّق ببنية الحقوق/ الواجبات التي تقوم عليها، والتي هي في الأساس بنية سياسيّة».

النيوليبرالية كتعبير ملطّف

يستحقّ الطابع «التلطيفي» للنيوليبراليّة، ولمجمل سياسات البنك الدولي أن يتمّ التشديد عليه هنا، لأنّه موضوعٌ متكرّر في الأدب النقدي وعلى أرض الواقع عند تقييم العوامل الاقتصاديّة والسياسيّة في نهاية المطاف.

باتت إعادة تأطير المواضيع السياسيّة التقليديّة مثال إدارة القطاع العام، والمحاسبة، وشفافية القطاع العام، وأطر العمل القانونيّة، والفساد، والإنفاق العسكري، وطرحها كمسائل تقنيّة من قبل منظّمات بريتون وودز أكثر تعقيداً إذ إنّه في ظلّ المنطق النيوليبرالي، يُترجَم قدرٌ كبير من التطبيق العمليّ للتنمية ويُدار بقبضة القطاع الخاص. في هذا السياق، تحتاج مركزيّة القطاع الخاص باعتباره المحرّك الرئيسي للتغيير في نموذج التنمية النيوليبرالي إلى أن تُطرَح كإشكاليّة من الناحية النظريّة والتطبيقيّة، فمن هنا تنشأ الديناميكيّات الاجتماعيّة والسياسيّة التغييريّة.

يتطرّق سمير أمين (٢٠١٢) إلى الطابع المفهومي لهذه المركزيّة، من خلال تفسيره لهذا الميل النيوليبرالي («النموّ الذي يقوده القطاع الخاص»)، مشيراً إلى أنّه «[في ظل النيوليبراليّة] ينبغي أن تدير الشركات الخاصة الاقتصاد إذ إنها وحدها تتصرّف بشكلٍ طبيعي كوكيلة تعمل بموجب متطلّبات المنافسة المفتوحة». ما يعنيه ضمنيّاً أنّ منطق تنافسيّة السوق وجني الأرباح هو في الواقع منطق مختلف تماماً عن المنطق الذي يتبنّى أو يدمج مفاهيم أخرى كجزء من حساباته مثال: منطق تقرير المصير الوطني، والحركات التي تدافع عن الحقوق السياسيّة والنضالات من أجل العدالة الاجتماعيّة. باختصار، إنّ الترتيبات الجماعيّة التي كانت ممكنة تاريخيّاً من خلال أشكال النضال الجماعي والتضامن وحسب قد تمّت تصفيتها عن طريق الممارسات الفرديّة النيوليبراليّة، مع اعتبار هذه العمليّة وبشكلٍ مثير للسخرية ضروريّة من أجل منع «الإكراه»، وفي وقتٍ لاحق، «القضاء على الفساد».

من خلال تأطير المسائل السياسيّة والاجتماعيّة بأساليب إنسانيّة وتقنيّة ولا سياسيّة، ثمّ تخصيص هذه الوظائف لقوى السوق، يُنزَع فتيل هذه القضايا بفعل أنّها محكومة ومسيّرة الآن بحسب منطق جني الربح الخاصّ وذلك على الطرف النقيض من الاحتياجات والهواجس المرتبطة بالتحرير الوطني وحقّ تقرير المصير والعدالة الاجتماعيّة. بهذه الطريقة، تُقسَّم المسائل المتعلّقة بالحقوق السياسيّة وتُغيَّب، فيتلاشى التأثير المُخثِّر للحقوق الجماعيّة والنضال، وتتشكّل طبقات جديدة – نخبويّة ومحرومة على حدّ سواء.

بهذه الطريقة، تعيد الأجندة التنمويّة النيوليبراليّة تحديد «قواعد» المنافسة بين المحليّة، راسمة «المقاييس عينها التي تُقاس استناداً إليها التنافسيّة الإقليميّة، أو السياسة العامّة، أو أداء الشركات، أو الإنتاجيّة الاجتماعيّة» (بيك وتيكل، ٢٠٠٢). يُعاد تشكيل العلاقات الاجتماعيّة «على شكل قراءة صارمة لمتطلّبات السوق التنافسيّة» ممّا يؤدّي إلى تمايز اجتماعي وسياسي، وتجزئة وشذوذ.

النيوليبراليّة والعالم العربي

تتضاعف مشاكل تبنّي المنطق النيوليبرالي في الأطر غير الديمقراطيّة، أو ما بعد الاستعماريّة، أو الاستعماريّة.

تجذب أعمال تيموثي ميتشيل الانتباه إلى كيفية تأثير الوصفات السياسيّة النيوليبراليّة للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي على مناطق كالشرق الأوسط بشكلٍ خاص، وذلك تحديداً لأنّ تركيبة السلطة الاقتصاديّة والسياسيّة متشابكة بشكلٍ وثيق. وبحسب ميتشيل، تربك سياسات المؤسّسات الماليّة الدوليّة والحكومات الغربيّة وإرشاداتهما وممارساتهما «حلقة ريع» القطاع الخاصّ وعلاقتهما بالنخب العسكريّة والسياسيّة وتتجاهلها. من الناحية العمليّة، الإصلاح الاقتصاديّ للسوق الحرّة هو في الواقع أشبه بـ«تعديل معقّد للشبكات التي تربط وتدمج مجموعة متنوّعة من الأصول العقاريّة، والصلاحيّات القانونيّة، ومصادر المعلومات وتدفّقات الدخل»، لصالح النخب. (ميتشيل، ٢٠٠٢، ص. ٢٨١). ويساهم ذلك في رأس المال والتشكيلات الاجتماعيّة النيو-بطريركيّة المرتبطة به التي تلتمس سبلاً لتدوير الأرباح السريعة، مع تركيز الاقتصادات على قطاعاتٍ كالسياحة، والعقارات، والأطعمة والمشروبات – ضربٌ من التنمية شبيه بـ«رأسماليّة الكازينو» (ستراينج، ١٩٨٦).

تجدر الإشارة إلى أنّه وبخاصةٍ في مناطق كالشرق الأوسط حيث صمّمت الدولة عن عمد طبيعة العقد الاجتماعي الموجود بغية تحقيق التوازن والتعويض

عن طبيعة الأنظمة غير الديمقراطيّة، بإطلاق العنان للممارسات النيوليبراليّة فتح الباب أمام ممارسات واسعة النطاق لما يسمّيه هارفي «التراكم بنزع الحيازة» (هارفي، ٢٠٠٣ و٢٠٠٦). ويمثّل التراكم بنزع الحيازة مفهوم هارفي للأنماط الماركسيّة التقليديّة للتراكم «البدائيّ» أو «الأصليّ» التي تكيّفت مع أنماط الرأسماليّة المعاصرة المتطوّرة. بالتالي فإنّ تسليع الأصول العامّة، والموارد واليد العاملة وخصخصتها، وإضفاء الطابع النقدي على التبادل، وفرض الضرائب، وتعزيز نظام الائتمان، و«إضفاء الطابع المالي»، تندرج ضمن هذه الوسائل كتطبيق للممارسة النيوليبراليّة المعاصرة. وبذلك فإنّ التركيبات الاقتصاديّة والاجتماعيّة وحتى السياسيّة القائمة مقموعة بشدّة أو مختارة من أجل تهيئة ميادين جديدة للتطوّر الرأسمالي واستغلالها ودمجها في عمليّة تراكم رأس المال. هنا تؤدّي الدولة دوراً تأديبيّاً وتنظيميّاً ومؤسساتياً حاسماً، يدعمه «احتكارها العنف وتعريفها للشرعيّة» (هارفي، ٢٠٠٣، ص. ١٤٥).

منذ التوقيع على اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣، أدت المؤسسات المالية الدولية دورا مركزيا إنما غير معترف به إلى حد كبير في عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية.

يصف تحليل هارفي عمليّة قسريّة بشكلٍ خاصّ، وجشعة وحتى مثيرة للسخرية لتراكم رأس المال في ظلّ النيوليبراليّة. الأشكال الثقافيّة والتواريخ والإبداع الفكري جميعها خاضعة للتسليع ونزع الحيازة مع تطبيق موجات جديدة من «تسييج المشاعات». وبذلك، تراجعت الإنجازات السابقة للنضال الشعبي وتفكّكت لصالح الربح من خلال رفع القيود التنظيميّة والخصخصة (المرجع نفسه، ص. ١٣٦).

دراسة حالة: الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة

بعد استكشاف الأصول التاريخيّة والسياسيّة لمنظّمات بريتون وودز، ووصف الأصول النظريّة والوصفات السياسيّة لهذه المنظّمات وتقييمها من حيث ارتباطها بقضايا العدالة الاجتماعيّة، ستساهم نظرة سريعة إلى نشاط هذه المنظّمات في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة في توضيح جوانب مختلفة من النقد المذكور أعلاه.

منذ التوقيع على اتفاقيّات أوسلو عام ١٩٩٣، أدّت المؤسّسات الماليّة الدوليّة دوراً مركزيّاً إنّما غير معترف به إلى حدّ كبير في عمليّة السلام الفلسطينيّة-الإسرائيليّة.

فقد التزم البنك الدولي بالأبحاث وتصميم السياسات والإشراف والتقييم والتمويل والتنسيق وحشد موارد الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، إلى السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة في المقام الأوّل، وإلى القطاع الخاص والمنظّمات غير الحكوميّة المحليّة والدوليّة. وتصف وثائق البنك تدخّله في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة باعتبار أنّه يؤدّي دوراً «أكثر مركزيّة [...] منه في أيّ حالة بارزة أخرى ما بعد الصراع أو قبله» (شيافو-كامبو، ٢٠٠٣، ص. ٩) فيما تقرّ عمليّات التقييم الداخليّة بأنّ تجربة البنك أدّت دوراً في تمهيد الطريق أمام صياغة سياسة إعادة الإعمار ما بعد النزاع الخاصّة بالبنك (البنك الدولي، ١٩٩٧).

كذلك، أدّى صندوق النقد الدولي دوراً أساسيّاً في ترسيخ إصلاحات واسعة النطاق ضمن السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة عبر الضفة الغربيّة وذلك كجزءٍ من الجهود الرامية إلى بناء الدولة الفلسطينية. وقد أُقِرَّ بأنّ هذه الجهود نجحت في تمكين السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة من «إدارة السياسات الاقتصاديّة السليمة المتوقّعة من دولة فلسطينيّة مستقبليّة تعمل جيّداً» (صندوق النقد الدولي، ٢٠١٢) – حتى لو لم تنشأ بعد الظروف السياسيّة التي تتيح لها العمل بسيادة.

في حين لم تتردّد هاتان المؤسّستان يوماً في الإشادة بإنجازاتهما، طال انتظار قراءة نقديّة أكثر لممارساتهما في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة.

اضطلع البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بدورٍ مركزيّ في تسهيل بروز الضعف والانقسام على مستوى الشؤون الفلسطينيّة الذي نشهده اليوم في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة. لم يكن ذلك نتيجة التطبيق التقليديّ لأجندة إجماع واشنطن، إذ إنّ السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة التي ساعد البنك الدولي في إنشائها ودعمها من خلال تقديم «تكلفة بدء التأسيس»، لم تكن حتى قويّة بما يكفي لامتلاك أدوات الحكم الأساسيّة اللازمة لتطبيق هذه الأجندة. بيد أنّها نشأت من التناقض بين ما كان البنك الدولي وصندوق النقد الدولي يقولان إنّهما يقومان به هناك، مقارنة بما كانا هما وباقي الجهات المانحة يقومون به حقيقة.

علانية، صاغت الجهات المانحة الغربيّة التي تقودها الولايات المتّحدة والمؤسّسات الماليّة الدوليّة أجنداتها المرتبطة بالتنمية وإرساء السلام وبناء الدولة واعدة بتحقيق

الازدهار والسلام في إطار «سلام ليبرالي» و«جني ثمار السلام». عنى ذلك أنها دعمتْ كما يُفترَض الممارسة السياسيّة الديمقراطيّة للسلطة الفلسطينيّة والجهود التي تبذلها في سبيل إقامة اقتصاد سوق حرّة سيؤدّي حسب قولها إلى تحقيق فائض وإلى تأثيرات تدريجيّة من شأنها أن تغذّي الحوافز نحوَ الحلّ السلميّ للنزاع مع إسرائيل وتعزّزها. لكن في الحقيقة، كانت المؤسّسات الماليّة الدوليّة والجهات المانحة ملتزمة بتقديم أجندة سياسيّة مثيرة للسخرية وخادعة لدرجة أكبر بكثير.

تناقض افتقار الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة إلى السيادة السياسيّة والتناقضات الأساسيّة على مستوى تطبيق أنظمة مدنيّة وأمنيّة متعدّدة في أجزاء مختلفة من جغرافيتها، بشدّة مع ادعاء «السوق الحرّة» أو قدرة الفلسطينيين على تنظيم شؤونهم وتسييرها بأسلوب يمكن توقعه وبشكلٍ متجانس. بيد أنّ مطالبة الجهات المانحة الغربيّة الفلسطينيّين بإصلاح ترتيبات الحوكمة المؤسّساتية وتحسينها لا يمكن فهمه كحالة حيث كانت هذه القوى تحاول ببساطة دفع الفلسطينيّين إلى تطبيق «الممارسة الفضلى»، بل عوضاً عن ذلك كدليل على التفضيل الانتقائي لأجندات (ثانوية) معيّنة على أجندات (أساسيّة) أخرى، وذلك بحدّ ذاته يقتضي تفسيراً.

من دون افتراض أسباب ذلك، يرسم السجلّ الحافل بالإثباتات والذي يتألّف من وثائق عامّة وسريّة صورة تُدين طريقة تصرّف الجهات المانحة الغربيّة وإسرائيل حيال التطلّعات الفلسطينيّة التنمويّة وتلك المرتبطة ببناء الدولة منذ عام ١٩٩٣.

أنشأت عمليّة بناء السلام النيوليبراليّة خلال سنوات أوسلو، التي تقودها المؤسّسات الماليّة الدوليّة إطار حكم فلسطينيّاً أساسيّاً (السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة) يحرّكهُ رئيسٍ منظّمة التحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات بصفته رئيساً من النمط الغنائمي الجديد (يستخدم موارد الدولة لضمان ولاء فئات من الشعب له) ضرورياً ومستعدّاً لذلك. وقد غضّت هذه القوى الطرف عمّا يكفي من الفرص الريعيّة الاستنسابيّة التي خصّته بها إسرائيل (من خلال التسديد المباشر لإيرادات الوقود في حساب مصرفي في تل أبيب) من أجل توزيع «أرباح السلام»، واستمالة جهات فاعلة سياسيّة واجتماعيّة مختلفة – ما يكفي لإعطاء هذا الترتيب الثقل السياسي والمؤسساتي الكافي. وقد اعتُبر ذلك ضروريّاً بالنسبة إلى هذه السلطات إذ إنه تطابق مع المفهوم الأميركي-الإسرائيلي الأوسع نطاقاً لتوظيف جهازٍ/كيانٍ غير سيادي متعاقد عليه من الباطن للتمكّن من إدارة الشؤون المدنيّة والاجتماعيّة الفلسطينيّة. ومن شأن هذا الأخير أن يمكّن إسرائيل من إخراج نفسها من تناقضاتها الديمقراطيّة اليهوديّة وهو ما بات يُعرَف بالمصطلح الاستراتيجي «خطّة ألون» (انظر أشقر ١٩٩٥ و١٩٩٤).

بعد أن فشل هذا النموذج الأساسي في حصد اتفاق سلام نهائيّ في مؤتمر كامب دايفيد في تموز/يوليو عام ٢٠٠٠، استخدمت منظّمات بريتون وودز إطار الحكم الجيّد القائم من أجل الإعلان عن الفساد والمحاباة والاستبداد. وقد مكّنها ذلك من المضيّ قدماً بالإصلاحات المؤسّساتية التي همّشت عرفات والسلطة التنفيذيّة، على الرغم من أنّ سياسات الجهات المانحة هي التي رعت هذا الفساد وتوقّعت بالفعل من السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة سَنّ تدابير أمنيّة مشدّدة لسحق المعارضة السياسيّة للاتفاق. أدّت الطريقة الأدواتيّة المثيرة للسخرية التي انتقد بها المانحون عرفات دوراً حاسماً في تهميشه، تتوّج في نهاية المطاف بوفاته (على الأرجح عن طريق الاغتيال). لكن قبل أن يسري مفعول سمّ القاتل، لعلّ الخطاب المليء بالنفاق بشأن الإصلاح والحكم الرشيد هو الذي قتل عرفات سياسيّاً.

بعد وفاة عرفات، طرحت منظّمات بريتون وودز «بناء الدولة» على أنّه إطار العمل الذي يبرّر تدخّلاتها، على الرغم من توقّف المفاوضات. أمّا جهاز السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة الذي كان عرفات وحده يتمتّع بالشرعيّة السياسيّة لتشكيله في ظلّ الشروط التي أدّت إلى نشوئه، فقد تمّ انتزاعه من قبضته من خلال تدابير مشروطة اتّخذتها الجهات المانحة الغربيّة والعنف العسكري الإسرائيلي، وخضع بعد ذلك إلى إعادة هيكلة واسعة النطاق بما يتماشى مع خطوط ما بعد إجماع واشنطن. أزالت هذه «الإصلاحات» السلطات الاستنسابيّة المحدودة للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة التنفيذيّة، مع إعادة تشكيلها بما يسمح للمانحين بالإشراف المباشر على الموارد الماليّة كافّة. وقد أدّت التدابير الهادفة إلى استدراج التمويل إلى جانب الترتيبات المؤسّساتية المصحّحة التي آثرت نمو القطاع الخاص، في وقت لاحق، إلى تحفيز اقتصادات القضاء على التنمية. وبذلك سُمحَ لنموذج ضعيف ينتمي إلى الغنائمية الجديدة بأن يعيد تشكيل نفسه تحت إشراف المانحين الصريح ومع تركيز مشدّد على «الأمن».

طوال الطريق، قُمعَت التطلّعات الديمقراطيّة الفلسطينيّة بشدّة وتمّ احتواؤها من خلال العنف العسكري المباشر والحصار المالي والسياسي المفروض على البرلمان الفلسطيني الجديد. بيد أنّ هذا النموذج الأخير عجز عن

إدارة التناقضات كافّة التي ولّدها وانطلق منها، ممّا أدّى في نهاية المطاف إلى «فقدان» المساحة الجغرافيّة لأراضي قطاع غزّة، التي أفلتت من الرعاية السياسيّة لحركة فتح – «الكيان السياسي» الأساسي الذي كان المجتمع الدولي يرعاه.

انطبع الترتيب الإجمالي بالتباين الشديد بين نظريّة المؤسّسات الماليّة الدوليّة وسياساتها من جهة، والسياسات الفعليّة المطبّقة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة من جهة أخرى.

تُقدّم الأبحاث إثباتاً قوياً إلى حد ما يشير إلى أنّ الجهات المانحة قد خطّطت وسَعَتْ بنشاط إلى التلاعب بالسلطات الفلسطينيّة والعلاقات الاجتماعيّة بأساليب دفعت قدماً بأجندات سياسيّة غير معلنة.

على الرغم من التظاهر بتبنّي أجندة تقنيّة لا سياسيّة، تعاملت الجهات المانحة الغربيّة مع افتراضات ثابتة تتعلّق بأوجه مختلفة من السياسة الاقتصاديّة والاجتماعيّة، (مثال النطاق النهائي لترتيبات الحكم الفلسطينيّة، أو كيفية إدارة السياسات الاجتماعيّة) وتطرّقت حتى إلى المسائل المتعلّقة بالوضع النهائي (كمسألة اللاجئين). سعت هذه السياسات إلى إعادة صياغة هذه المسائل عن طريق التحايل على القواعد القانونيّة الدوليّة، وبالتالي تقويض الادّعاءات الفلسطينيّة قبل طرحها في المفاوضات. والواقع أنّ الكثير من ممارسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي على المستويين الاجتماعي والاقتصادي يمكن قراءتها كمساعٍ هادفة إلى تصميم ترتيبات سياسيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة تتطابق مع الأولويّات غير المعلنة للجهات المانحة وإسرائيل، على الرغم من التباين في ما بين هذين المعسكرين وداخلهما. هذا ما يعطي واقعَ الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة تشوّهَه الخاص، بغضّ النظر عن التشوّهات التي تنشأ عن الاستعمار الاستيطاني أو النيوليبراليّة بحدّ ذاتها.

كذلك، تتناقض الممارسة السياسيّة والاقتصاديّة الليبراليّة مع تساهل الجهات المانحة حيال الترتيبات الاقتصاديّة غير الديمقراطيّة أو غير الليبراليّة من قبل إسرائيل والسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة. كانت الجهات المانحة متورّطة بعمق في هذه السياسات من خلال تمويل صيغتي الترتيب الغنائمي الجديد، ومحاولة إلغاء نتائج الانتخابات الديمقراطيّة (وحتى الضرب عرض الحائط بها).

انسجاماً مع ممارسة المؤسّسات الماليّة الدوليّة التي حثت على تشكيل طبقات جديدة، شكّلت رعاية النخب ضمن المجتمع المدني والقطاع الخاص أولويّة أيضاً بالنسبة إلى هذه المؤسسات.

في ما يتعلّق بالمجتمع المدني، ساهمت هذه الأخيرة في شراء بعض النخب السياسيّة التي غالباً ما تقترن باليسار السياسي، مُنتجة ومعزّزة أشكالاً من التبعية العموديّة التصاعديّة والمحاسبة حيال المانحين، مقارنة بقاعدتهم الشعبيّة.

ساهمت عمليّات الشراء هذه في منح الثقة والمساعدة في تنظيم مصالح هذه الدائرة الانتخابيّة حيال السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة. أعطيت الأفضليّة في البداية إلى المغتربين الرأسماليّين، فيما شملت الجهود المبذولة لاحقاً أقساماً من رأس المال الأصلي. وقد ساعد التغلغل المتبادل المتزايد للمصالح بين الجناحين الذي بات أسهل من خلال تدابير التمويل التي اتخذتها المؤسسات الماليّة الدوليّة في توطيد طبقة من النخب السياسيّة والاقتصاديّة في الضفّة الغربيّة، مرتبطة بالاقتصاد السياسي لبناء الدولة النيوليبراليّة بحدّ ذاته فيما بقيت غالبيّة المجتمع الفلسطيني محرومة سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً.

ساهمت تناقضات عمليّة أوسلو للسلام كما ينظر إليها من خلال الممارسات الزائفة للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومانحين آخرين، والسيطرة العسكريّة الشاملة لإسرائيل، جميعها في انتهاك التكامل السياسي والاقتصادي والمؤسّساتي الفلسطيني وتفكيكه. شكلان من الشرعيّة، مرتبطان بمجموعتين من المؤسّسات، واقتصادان سياسيّان. مجموعتان من النخب وبرنامجان سياسيّان مختلفان يحكمان الآن قطعتي أرض لا تتمتّعان بالسيادة. بات الآن غطاء كلّ تقسيم سياسي منقوشاً على أرض جغرافيّة، مفككاً الوحدة السابقة بين الجغرافيا والسياسة والمؤسّسات السياسيّة. بالتالي دُمِّرَ أي احتمال لنشوء مركز سياسي موحّد.

الخلاصة

تمثّل دراسة حالة الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة وتجربتها مع المؤسّسات الماليّة الدوليّة شهادة مدمّرة على أسلوب عمل هذه المنظّمات. يرقى ذلك بشكلٍ أساسي إلى تورّط هذه المنظّمات في ترتيبات تدفعها إلى التصرّف كأداة بيد السياسة الخارجيّة الأميركيّة وإن بشكلٍ غير مباشر وباستعمال وسائل متطوّرة. وهذا، إلى جانب سياسات إسرائيل والدول الغربيّة، أفضى بفاعليّة، إلى تصفية القضيّة الفلسطينيّة من خلال إنكار حقوقهم الجماعيّة

السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وإلى سياسات الهندسة الاجتماعيّة التي تسعى إلى تحويل التناقض الأساسي بين قوّة الاحتلال والشعب المحتلّ إلى صراعات طبقيّة بين الفلسطينيّين. وعلى طول الطريق، تحصل إسرائيل على الوقت والمساحة السياسيّة للاستمرار في زخمها الاستيطاني الاستعماري، في حين يبقى الوضع الفلسطيني ضعيفاً ومفكّكاً.

ربما يقدم نموذج الأراضي الفلسطينية المحتلة حالة متطرفة جدا حيث كانت الحرية التي نعمت بها هذه المنظمات على صعيد وضع الأجندات واسعة جدا. لدرجة أنها بالغت أيضا في النتائج التي حققتها.

ولو بقي سجل إنجازات هذه المؤسسات محصوراً بالانتقادات التي تتناول العدالة الاجتماعية وحدها، لكان سيئاً بما يكفي. ففي آب ٢٠١٥، يصف تقرير مجموعة الأزمات الدوليّة الوضع في غزّة بأنّه الأسوأ منذ عام ١٩٦٧ – وذلك خير دليل على الدمار الذي ساهمت هذه السياسات في إعاثته. لكن تورّطها يمتدّ إلى أبعد وأعمق من ذلك بكثير. فقد تجاوز الدور المدمّر لمنظّمات بريتون وودز في كافّة أنحاء الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة إلى حدّ كبير النطاق الاجتماعي، وهو يشمل طائفة واسعة من الجرائم السياسيّة من الترويج لأجندات فرّق تَسُد الكلاسيكيّة إلى التواطؤ حتى في الاغتيال السياسي ربّما. هذا السجلّ الدامغ إلى حدٍّ كبير ينبغي أن يشكّل مادة للتفكير بالنسبة إلى الجهات الفاعلة السياسيّة في العالم العربي وفي أيّ مكان آخر، التي تحاول التصدّي لعمل هذه المؤسّسات وما إذا كانت سياساتها وأفكارها تقدّم بديلاً عن الترتيبات التي رعتها الأنظمة العربيّة.

ربّما يقدّم نموذج الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة حالة متطرّفة جداً حيث كانت الحرّية التي نعمت بها هذه المنظّمات على صعيد وضع الأجندات واسعة جداً، لدرجة أنّها بالغت أيضاً في النتائج التي حقّقتها. بعد قول ذلك، من المفيد أن نفهم ونقدّر أنّ ذلك ممكن الحدوث بالتحديد حيث أتيحت هذه الحرّية من قبل القوى، وهي في هذه الحال، الولايات المتحدة التي كانت بادئ ذي بدء ترعى عمليّة السلام الإسرائيليّة الفلسطينيّة. غير أنّ ذلك يظهر أنّ التوجّه السياسي والإيديولوجي العام لهذه المنظّمات يخدم مصالح الولايات المتحدة وحلفائها من مقدّمي الهبَات في أوروبا الغربيّة واليابان، فضلاً عن النخب المختارة في البلدان المضيفة. بالتالي، أياً تكن أولويّات هذه الأجندة، منظّمات بريتون وودز مستعدّة لترجمتها إلى أطر عمل جاهزة أتاحتها النيوليبراليّة بحدّ ذاتها، مع خطابها التقني ووصفاتها السياسيّة ذاتيّة المرجعيّة التي تمحو السلطة والطبقيّة. توفّر هذه جميعها مجموعة من الأدوات المرنة للتكيّف مع هذه المصالح والتطابق معها، مع طمس الطبيعة السياسيّة الحقيقية لتدخّلاتها.

في حين أنّه لا بد من الاعتراف بوجود جدالات بين النخب، وبين الدول، وداخل الأوساط السياسّية الأميركيّة بشأن كيفيّة خدمة أجندات ومصالح معيّنة على أفضل وجه، ثمّة تداخل توافقيّ بين القوى الغربيّة المهيمنة تقوده الولايات المتحدة. في هذا الصدد، تضطلع منظّمات بريتون وودز بدور محدّد في ما يتعلّق بتفسير، وتبرير وتنفيذ تفويضها السياسي، وذلك بالتحديد من خلال إنكار هذه العمليّة السياسيّة. بالتالي تصبح قضايا العدالة الاجتماعيّة متداخلة بشكل راسخ مع النضال من أجل الحقوق السياسيّة ضدّ هيمنة الولايات المتحدة، وضدّ الطبقات الحاكمة المحليّة كما الدوليّة.

المراجع:

١ Maier, C. (1997). «The Politics of Productivity: Foundations of American International Economic Policy after World War 2». *International Organisation*, Vol.31. No. 4, Between Power and Plenty: Foreign Economic Policies of Advanced Industrial States (Autumn, 1977), pp. 607-633

٢ Ruggie J.G. (1983). International Regimes, Transactions and Change: Embedded liberalism in the postwar economic order, in Krasner, S. (1983). *International Regimes*. Ithaca: Cornell University Press. 195- 232

٣ Williamson, J. (1990). What Washington means by Policy Reform. In J, Williamson (Ed.) *Latin American Adjustment: How Much has happened?* Washington D.C.: Institute for International Economics.

٤ Saad-Filho, A. (2005). «From Washington to Post- Washington Consensus: Neoliberal Agendas for Economic Development» in A. Saad-Filho and D. Johnston *Neoliberalism: A Critical Reader*, London: Pluto Press, 113- 119

٥ Stein, H. (2008). *Beyond the World bank agenda: An institutional approach to development*. Chicago; london: University of Chicago Press.

٦ Looney, R. (2003). The Neoliberal Model's Planned Role in Iraq's Economic Transition. *Middle East Journal*, 57 (4), 568-586

٧ Harvey, D. (2005). *A Brief History of Neoliberalism*, Oxford: Oxford University Press. (2003). The new imperialism Oxford: Oxford University Press.

٨ Amin, S. (2012). Liberal capitalism, crony capitalism and lumpen development. 11-21, Issue 607.

٩ Achcar, G. (1994). The Washington Accords: A Retreat Under Pressure. *International Viewpoint*, 252 (January). (1995). Zionism and Peace: From the Allon Plan to the Washington Accords. *New Politics 5*, 3 (Summer): 95-115

١٠ Mitchell, T. (2002). *Rule of experts: Egypt, techno-politics, modernity*. Berkeley: University of California Press.

١١ Strange, S. (1986). *Casino capitalism*. Oxford, Uk; New York, NY, USA: B. Blackwell.

مسرد موجز للحاضر
النيوليبرالية والتلاعب بالدلالات

رشا السلطي

ناشطة فنية وكاتبة، لبنان. مبرمجة لمهرجان تورنتو الدولي للأفلام.

يحاجج علماء الفلك، وبقدرة على الإقناع، أنّ الحاضر بناء نظريّ لا قيمة جسديّة أو حسابيّة أو قابلة للحساب الزمني له، بل أنّ قيمته وجوديّة، نفسانيّة-عاطفيّة وسياسيّة. في الواقع إنّه بناء عجيب عميق التجذّر في الشعور بالكينونة، وفي ماديّة الجسم كما في لا ماديّة الذات، هو حسّي وسياسيّ بامتياز، يشتغل باستمرار من خلال المقارنة مع الماضي والمستقبل.

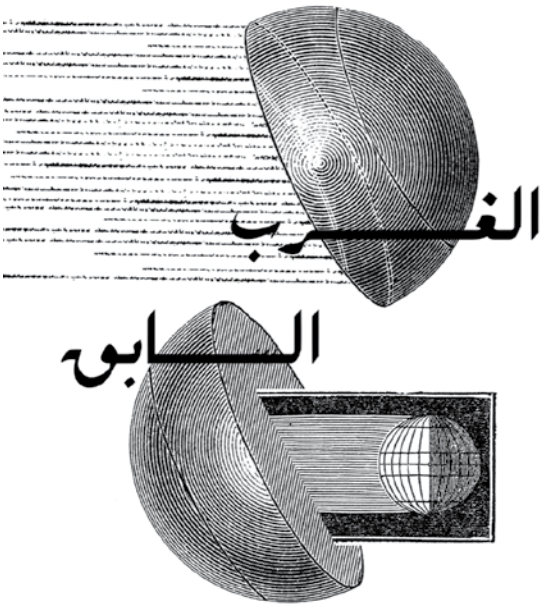

النيوليبرالية وتضخيم الحاضر

الحاضر ضرورةٌ وإلحاحٌ في آن، وفيما تعمل أيديولوجيّات مختلفة على استثمار الماضي والحاضر والمستقبل تبعاً لنماذج التقييم الخاصّة بكلٍّ منها، تولّد الرأسماليّة النيوليبراليّة تضخّماً مفرطاً في الحاضر، لأنّ «الجِدّة» أمرٌ جوهريٌّ في الإعلان والتسويق.

ومنطق رأس المال النيوليبراليّ حريص بشدّة على تمثيل الحاضر كانفصال أو ترك للماضي، ونادراً ما يكون استمراريّة له. بمعنى آخَر، يتمّ إدراك هيمنة نموذج التنظيم الاقتصاديّ والاجتماعيّ والسياسيّ المحكوم بالسّوق بكون تلك الهيمنة هي قدر البشريّة الأصيل والأشدّ طبيعيّةً، فيما جميع الأنماط الأخرى هي تجارب ماضويّة غير قابلة للديمومة وفاشلة.

وعلاوةً على ذلك، تدمج النظريّة السياسيّة النيوليبراليّة بين الزمن والجغرافيا في نسيج «المخطّطات التطوّريّة» للعالم بأسره. ولذا، مع انتهاء الحرب الباردة، مثلاً، أصبحت دول «عدم الانحياز» تُعرَّف بكونها «نامية» أو «متخلّفة». وقد كان معيار قياس مرحلتها التطوّريّة هو مدى اقترابها من النماذج الغربيّة للتنمية الاقتصاديّة، و/أو خضوعها لسياسات البنك الدوليّ البنيويّة من أجل لبرلة محكومة بالسوق. وما إنّ توضّحت الآثار الكارثيّة لهذه السياسات حتى أُنزل تصنيف بعض تلك البلدان إلى «دول فاشلة». أمّا المراتب العليا في المخطّط التطوّري الهرميّ فتحتلّها «الديمقراطيّات الصناعيّة الكبرى»، المعروفة منذ قمّة ناپولي عام ١٩٩٤ بمجموعة الثماني (G8)، متضمّنةً عضويّةً كاملةً لروسيا الاتّحاديّة، التي تشكّلت حديثاً من بقايا الاتحاد السوفييتيّ.

وبينما شكّل «الشرق السابق» و«العالم الثالث السابق» مصطلحين منتشرين في التخطيط النيوليبراليّ الجغرافيّ-التاريخيّ/التنمويّ للعالم، فإنّ فكرة «الغرب السابق» هي بمثابة اختلاس، أو لقطة انعكاسيّة، إن شئنا استعارة لغة السينما، تعمل على فصل وتعطيل الآليّات الداخليّة المنطقيّة للأيديولوجيا. وبدلًا من تصوير لقطة انعكاسيّة، تعمل هذه المقالة على تفكيك مجموعة من الصيغ الاصطلاحيّة المنتقاة من القاموس النيوليبراليّ الشامل.

شهدت حقبة بعد العالم **١٩٨٩** من القرن العشرين دمقرطةً هائلةً على طول الكتلة السوفييتيّة سابقاً، أي شرق أوروبا ووسطها، وانتشرت إلى بقاع أخرى من العالم، بما فيها شمال أفريقيا وتشيلي. وفي خضمّ هذه الموجة المزعومة، تمّت إعادة تعريف الديمقراطيّة، وحقوق الإنسان، والهويّة الثقافيّة/الإثنيّة و«أعيد استغلالها» كأدوات لشرعنة التدخّل السياسيّ العلنيّ والخفيّ من جانب مجموعة الثماني في باقي أنحاء العالم.

كان التغيّر المفاهيميّ زائفاً، وقد جرى القطع المنهجي بين الحقوق المدنيّة وحقوق الإنسان من جهة وبين أبعادهما الاقتصاديّة، فيما اجتاحت الهويّةُ الثقافيّة والإثنيّة فكرتي الجماعة والحياة الكريمة. وفي الواقع، تتكرّر مفردة «حق» في عدد من العبارات السياسيّة والتشريعيّة التي روّجها نيوليبراليّون متشدّدون لاقتراح أساسات جوهريّة وراسخة.

اللعب بالدلالات استراتيجيّة سياسيّة حاذقة تُسهم في تفعيل تحوّل راديكاليّ في الإدراك. على سبيل المثال، التعارض بين تعريف حركةٍ بوصفها «مناهضة للإجهاض» أو «الحق بالحياة» صارخ. فالدلالات التقابليّة لمناهضة الإجهاض تُوحي بمقاومة سلبيّة وتركّز على دور المرأة الفعّال، بينما «الحق بالحياة» يُوحي بدعم استباقيٍّ ويركّز على الطفل الذي لم يولَد. من يودّ أن يكون ضدّ حق الطفل بالحياة؟ العبء الأخلاقيّ في العبارة الأولى أقلّ بكثيرٍ منه في العبارة الثانية.

التلاعب بالحقّ في نوعيّة الحياة

وقد استُخدمت الاستراتيجيّة ذاتها في عنوان تشريعٍ عماليّ مؤذٍ طُبّق في ما قارب أربعاً وعشرين ولاية في الولايات المتحدة، والمعروف باسم «الحق بالعمل». وقد كانت غايته الضبط والكبح الشديدين للمجال المسموح به للعمال داخل نقاباتهم. فمثلاً، تمنع قوانين «الحق بالعمل» الاتفاقات الأمنيّة للاتحادات النقابية. وهذه القوانين لا تقدّم، بأي حال من الأحوال، ضمانات توظيف للراغبين بالعمل، كما قد توحي به العبارة. تم طرحه والتصويت عليه في التسعينيّات بعد كولسة ملحّة في أروقة الكونغرس من غرفة التجارة التي تدافع عن مصالح الشركات حصراً.

ونجد تجسّدًا آخر لهذا التقلّب الدلاليّ في مجموعة أخرى من القوانين تهدف إلى تمكين استبدال الطابع الطبقي لأحياء بكاملها، وضبط قيمة الملكيّة العقاريّة المتزايدة، المعروفة بـ «جرائم بحقّ نوعيّة الحياة» (وتنطبق تلك القوانين على رسوم الغرافيتي والتخريب المتعمّد للممتلكات، واحتلال الأرض من جانب المتشرّدين، إلخ). هنا أيضاً، يتصوّر المرء بدهياً أنّه عند الإحالة إلى «جريمة ضدّ نوعيّة الحياة»، تكون الضحيّة هي المتشرّد الذي انخفضت نوعيّة حياته بشدّة بفعل تراجع سياسات الرفاه وخيانة مؤسسات الدولة. وكما سيتبيّن، فإنّ مقترِف الجريمة هو المتشرّد، الذي يتسبّب سلوكه المشاكس وحضوره بتخفيض قيمة ملكيّةٍ عقارية معيّنة. وبدلًا من حماية المتشرّد الذي انتُزعت ملكيّته، يقوم تشريع «نوعيّة الحياة» بالدفاع عمّن انتزع الملكيّة.

وتستمدّ هذه الحالة محاجّتها من «نظريّة النافذة المكسورة» لجيمز ك. ولسن[١]، أو الادّعاء أنّه حين تبقى نافذةٌ مكسورةٌ بلا إصلاح، فهذا يشير إلى حالة عامّة من فسادٍ مُمنهج، وبالتالي فإنّ منظر القمامة، والغرافيتي، والتبوّل في الشارع والاستيلاء على أراض أوعقارات تشير إلى درجةٍ من الفوضى المتفشّية، الأمر الذي يزيد أرجحيّة اقترافٍ مزيدٍ من الجرائم الجديّة. وقد طُبّقت مجموعة القوانين هذه في عددٍ من المدن الأميركيّة في الثمانينيّات والتسعينيّات على يدِ عددٍ من العُمد المحافظين في المدن الأميركيّة. وفي الواقع، غالباً ما كانت نظريّة ولسن إحالةً لتبرير سياسات انعدام التسامح التي يناصرها هؤلاء العمد لضمان «نوعيّة الحياة» في أنحاء مدنهم.

١ "Broken Widows", James Q. Wilson and George L. Kelling, The Atlantic Monthly, March 1982.

الأمن يخترق الحياة اليومية

منذ انطلاق الحرب العالميّة على الإرهاب عام ٢٠١١ إثر اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر، لم تعد مفردة «أمن» ملكيّة حصريّة لقاموس السياسة الخارجيّة، بل اخترقت المجالين المواطنيّ والمدنيّ في الحياة اليوميّة. بفعل خوفهم من اعتداءات إرهابيّة، توصّل المواطنون في جميع أنحاء العالم إلى قبول أنْ يكونوا مراقَبين طوال الوقت تقريباً عبر عدد لا حصر له من كاميرات المراقبة في زوايا الشوارع وأركانها، وتقاطعات الطرق، وجميع محطّات النقل العموميّة، والساحات العامّة، والمدارس، والأسواق، والمتاجر الكبرى، والمباني المكتبيّة والحكوميّة، إلخ. كما توصّلنا إلى القبول بأنّ مبادلاتنا وتواصلاتنا مراقَبةٌ أيضاً – المكالمات الهاتفيّة، الفاكسات، الرسائل النصّيّة، الإيميلات، إلخ. انّنا نوافق على تفتيشنا جسديّاً تفتيشاً شاملاً، وعلى أن نخضع لتحقيقات مجنونة على نحو عشوائي، وقمنا باستبطان شيفرات «تشخيص الهويّة الاجتماعيّة» بناءً على النماذج الدينيّة والإثنو-ثقافيّة والطبقيّة والعرقيّة. وهذا لأن العدوّ في كل مكان، قد يكون الجار والزميل في العمل وسائق الباص وعامل التنظيف، كما أنّ ساحة المعركة في كلّ مكان وأيّ مكان – الطائرات التجاريّة، المدارس، النوادي الليليّة، السوبرماركتات. وتضمن لنا بوّابات الدخول المغناطيسيّة والتفتيش الممنهج للحقائب أنّ الأسلحة بجميع أنواعها ليست في الأيدي الخطأ، في المكان الخطأ، حتى لو كانت مُتاحةً للشراء أكثر من ذي قبل، علناً وخفيةً.

عيون وآذان وكالات الأمن القوميّ، وأجهزة الاستخبارات، ومتعاقدو الأمن الشخصيّ، الآخذ عددهم بالازدياد، تُشاهد وتُنصت لحماية سعادتنا. في ظلّ الحُكم الشموليّ لأنظمة الحزب الواحد في «الشرق السابق»، كانت ممارسة المراقبة والتجسّس مُفعَّلةً على يد الدولة، حيث يُرغَم المواطنون على الخضوع، خوفاً من الانتقام. أمّا في ظلّ هيمنة النيوليبراليّة، فالمواطنون يجري تطويعهم على الخضوع، خوفاً من هذا العدوّ البدائيّ الشرّير الذي يُفترَض أنّه منقاد بكراهيّة عمياء وطموح لتدمير «الثقافة الغربيّة».

وفقًا لمقال لكشمير هيل، نُشر في موقع Fusion.net في ٢٨ حزيران/يونيو من هذا العام، تجمَع بيانات تحديد المواقع في الهواتف الذكيّة من مواقع التواصل الاجتماعيّ، كما في مواقع فيسبوك التي تقترح عليك «أناسا قد تعرفهم»، ويجري انتقاؤهم من بين الذين تتقاطع مسارات تنقّلاتهم خلال فترة محدّدة من الزمن. ويتم تعقّب المواقع أوتوماتيكيّاً خفيةً عبر «تطبيق تحديد مكان» مُدمَج، بمعنى آخر، من دون أن يكشف الشخص عن موقعه.

تلاشي الأمن الاقتصادي والاجتماعي

وعلى نحو مشابه، تحدث عمليّة تفكيكيّة بشأن فكرة الأمن، كما في فكرة الحقوق، وتحديداً فإنّ الأمن الاقتصاديّ والأمن الاجتماعيّ باتا غير مهمّين إلى درجة الإهمال التامّ. فالأمن الاجتماعيّ، الذي كان في ما مضى حجر زاوية للرأسماليّة، أصبح اليوم على شفا التلاشي. فعلى سبيل المثال، التحوّلات التي طرأت على فكرة «أمن الوظائف»، بما هي واحدة من تجسّدات الأمن الاقتصاديّ، من سبعينيّات القرن الماضي حتى هذه اللحظة، مثيرة للعجب. كان أمن الوظائف نموذجاً تأسيسيّاً تقريباً للتوظيف والإدارة. أمّا الآن فقد أصبحت تسريحات العمّال جزءاً لا يتجزّأ من الإدارة الذكيّة للشركات. ففي عام ٢٠١٣، أعلنت شركة «إتش پي» (للالكترونيّات) عن تسريح ٢٩ ألف موظّف، وهذا كان عملاً غير قابل للتصوّر أساساً في السبعينيّات أو الثمانينيّات.

وفيما تعمّلقت الوجبات السريعة، تصاغرت الشركات (أو اعتمدت «الحجم الذكيّ»)، وجرى تفريع ليتوزّع على أسواق العمالة الأرخص، وتحوّلت العمليّات الماليّة الكبرى إلى الملاجئ الضريبيّة، ويتمّ كلّ هذا بهدف زيادة معدّلات أرباحها الإجماليّة. كان مستشار فرنسيٌّ متخصّص في «خطط إعادة تشكيل الشركات» ضيفاً في مقابلة مع إميلين كاتسي في اليوميّة الفرنسيّة لو موند (الأحد ٢٩ والإثنين ٣٠ أيار/مايو ٢٠١٦). تحت عنوان «عملي هو مساعدة الشركات على طرد الناس»، كشف پيير (لم يُدرَج إلا اسمه الأول لـ«حماية» هويّته) من دون تحفّظ: «مؤخّرًا، اتصل بي مديرو الموارد البشريّة في شركة صيدلة (سُرّح فيها ٢٥٠) هلعين: ‘لقد جاؤوا كلّهم وكلٌّ منهم يضع شارة

عليها اسمه الأول وعدد سنوات خدمته في الشركة. ليس ثمّة ما هو بغيض في الأمر. يحتاج الموظّفون إلى إظهار ارتباطهم بالشركة، كي يثبتوا وجودهم في اللحظة التي يتم فيها تقرير مستقبلهم. في السنوات العشر الأخيرة، كانت الكوارث طافحةً في فرنسا. لا يمرّ يوم من دون استحضار خطة جديدة. وعلى أيّة حال، كان الرأي العام، ووسائل الإعلام والموظّفون قد فهموا أنّ التسريحات الاقتصاديّة باتت أداة في يد إدارة الشركات. وذلك إلى درجة أنّ الخطة التي لا تُفضي إلى تسريح أكثر من مئة شخص لا يتمّ ذكرها أبداً». وعلى نحو مثير للاهتمام، تزامنَ تجاهل أمن الوظائف مع ممارسة أخرى في البزنس، وهي الارتفاع الشاهق في علاوات المديرين التنفيذيّين الكبار، وقد دافع المستشارون في شؤون الإدارة عن الاجرائهن معاً.

تبعاً لمنطق النيوليبراليّة، ليست هذه التحوّلات من قبيل التقدّم فحسب، بل هي «طبيعيّة» أيضاً، أو هي الأكثر أصالةً في التعبير عن الميل «الطبيعيّ» للإنسان. إنّها قدَرٌ جليٌّ، لو جاز التعبير. ولقد أخفقت الاشتراكيّة ودولة الرفاه وصيغ أخرى من النماذج الكينزيّة لأنّها تجري بما يعارض الطبيعة البشريّة، على حدّ قولهم. وتكمن مفارقة استحضار «الشرق السابق» في الكيفيّة التي أصبحت فيه أشدّ ممارسات السيطرة استغلالاً وتطفّلاً وانحرافاً مُطوَّعةً ومُطبَّعةً ومُدمَجةً في سلوكنا كمواطنين ومستهلكين ومقترعين ومُنتجي فائض قيمةٍ ماديٍّ وغير ماديّ.

«صناعة التوهيم» والحروب اللاخطّيّة

أما ما تُسمّى «الحرب على الإرهاب» فتبدو استراتيجيّةً ماكيافيليّةً كلاسيكيّةً وتطبيقاً عمليّاً قديم الطراز بالمقارنة مع مشهد «صناعة التوهيم» في ديمقراطيّة «السيادة» التي فعّلها فلاديسلاف سوركوف، أحد أبرز «الكاردينالات الرماديّين» ممّن يديرون السياسة في الخفاء في الكرملين، خلال ولاية بوتين الأولى. موّل سوركوف، الملقب توصيفه بـ«راسبوتين بعد-الحداثيّ»، أحزاب معارضة صوريّة من اتجاهات مختلفة، ومنظّمات حقوق إنسان غير حكوميّة، ومنتديات للنقاشات النقديّة، وحركة شبابيّة من اليمين المتطرّف لمواجهة الشباب المتمرّدين خلال الحراكات والتظاهرات والمهرجانات. ومثل لاعب دمى محترف، أشرف سوركوف على حملات ترويج معلومات زائفة وتشويه للنيل من شرعيّة جميع منتقدي النظام ومعارضيه، ولنشر التخبّط لدى الرأي العام في حقول السياسة، ومنظومات التدقيق والمحاسبة، وتمثيل وجود النظام القائم بكونه القوة السياسيّة الوحيدة المستقرّة التي يمكن التعويل عليها، والجديرة بالثقة والقادرة على إدارة دفّة البلاد.

عام ٢٠١٤، نشر بلا سماء، وهي نوفيلا خيال علميّ قصيرة كملحق لمجلة روسكي پيونير (الرائد الروسي، العدد ٤٦، أيار / مايو ٢٠١٤)، باسم مستعار هو ناتان دوبوفتسكي، استعاره الكاتب من اسم زوجته ناتاليا دوبوفتسكايا. تجري أحداث هذه النوفيلا العكس طوباويّة خلال «الحرب العالميّة الخامسة»، التي وصفها المؤلّف بكونها حرباً «لاخطّيّة [لا تتّبع مساراً مستقيماً]»:

«كانت أولى الحروب اللاخطّيّة. في الحروب البدائيّة في القرنين التاسع عشر والعشرين، كان من السائد أن يتقاتل طرفان فحسب. بلدان اثنان. ائتلافان. أما الآن فثمّة أربعة ائتلافات تتقاتل. لا اثنان ضد اثنين، أو ثلاثة ضدّ واحد. لا. الجميع ضدّ الجميع. ويا لها من ائتلافات! ليست كتلك التي كانت موجودة من قبل ... كان من النادر أن تدخل دولٌ بكاملها في القتال. قد تنضمّ عدّة مقاطعات إلى طرف، ومقاطعات أخرى إلى طرف مختلف. أو قد تنضمّ بلدةٌ واحدة أو جيلٌ واحد أو جندرٌ واحد إلى بلدة أو جيل أو جندر آخر. ثمّ تتبادل الأطراف مواقعها وتحالفاتها، خلال المعركة أحياناً».

أصاب مراجعو النوفيلا الى قدر كبير في الإشارة إلى حقيقة أنّ پوتين قام بضمّ القرم بعد عدّة أيّام من صدور الرواية. وعلى أيّة حال، بعد عامين، بدا أنّ «الحرب اللاخطّيّة» توصيفٌ ملائمٌ للحرب في سورية. يحاجج المخرج التسجيليّ والفنّان البريطانيّ آدم كيرتِسْ بأنّ مفهوم سوركوف لـ«الحرب اللاخطّيّة» قد تمّ تبنّيه من أنظمة أخرى، خصوصاً من بريطانيا الحاليّة. وكذلك، بما أنّ سوركوف يعمد غالباً إلى استحضار المنهج بعد-الحداثيّ، تحديداً حيال إخفاق السرديّات الكبرى واستحالة التوصّل إلى الحقيقة وتفشّي الصور الزائفة عنها، يشير كيرتس إلى المدى الذي تمّ فيه تبنّي استراتيجيّات سوركوف من الفنّ المعاصر.

هل يمكن إيقاف أو تعطيل الحرب اللاخطّيّة؟ وإزالة الصورة الزائفة؟ إنّ أحد أهمّ مكوّنات المقاومة هو استرداد اللغة، تأسيس ونشر مسرد يُزيل ويفكّك هذه العقد والانعطافات الدلاليّة. بمعنى آخر، مسرد يجسر الهوّة مع البعد الحقيقيّ. أو بمفردات أبسط، مع التجربة المركّبة المتذبذبة لحاضرنا المعيش. من المستحيل القبض على الحقيقة كليّاً، أمّا الحقائق الموجودة فهي لا تزال امتيازاً حصريّاً للقويّ والقادر. ولكن حيواتنا مهمّة. وصف دليل السي آي إيه النتاج المأساويّ لخلق وحوش من أجل هزيمة العدوّ استناداً إلى تجربته هو، يُعرَّف ببساطة بكونه: «ضربة ارتداديّة».

حضور الغياب

٦٤ **من مذكرات جارالله عمر**
الدفاع عن الجمهورية اليمنية
حاورته ليزا ودين

من مذكرات جارالله عمر
الدفاع عن الجمهورية اليمنية

حاورته ليزا ودين

استاذة العلوم السياسية في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الاميركية. لها عدة مؤلفات عن سورية واليمن منها «السيطرة الغامضة» (١٩٩٩) و«الجموع، السلطة، الاداء في اليمن» (٢٠٠٨).

◆ متى بدأ جاد الله عمر العمل السياسي؟

■ بعد الثورة مباشرة بدأ نشاط حركة القوميين العرب والبعث ينتشر بين الشباب والجيل الجديد، حيث أخذ بعض زملائنا في المدرسة من المتقدّمين الذين لهم صلة بحركة القوميّين العرب والبعث يتسابقون لكسبنا، وكان أول من اتصل بنا هو الدكتور محمد عبد الملك العلفي (رئيس مصلحة المساحة حالياً) بالإضافة إلى الأستاذ أحمد العماد، كما كان هناك مَن يوزّع كتب الإخوان المسلمين، بالذات كتابات محمد قطب وسيد قطب، وشخصياً اتصل بي الأخ العميد محمد محرم في الجيش وأخبرني أنّ هناك تنظيماً باسم حركة القوميين العرب، وأنّه منتشر في كل الساحة اليمنية، وأفكاره قوميّة عربيّة وحدويّة. ولأنّ الناصرية كان لها صدى كبير وكان لصوت العرب تأثيراً كبير علينا، فضّلنا الانتماء إلى حركة القوميين العرب، وكان أول شخص أقابله من المدنيين هو الأخ / مالك الألباني حيث سلّمني له الأخ محمد محرم، والذي بدوره سلّمني إلى الأستاذ عبد الحافظ قائد رحمه الله. كان ذلك في نفس عام الثورة، ١٩٦٢، وقد انتظمتُ في حلقة حزبية مع عدد من الأخوة منهم الدكتور محمد عبد الجبار سلام ومحمد الفضلي وأحمد عبد الله الأنسي، حيث كوّنّا حلقة حزبية، وهذا الشيء كان بالنسبة إلينا شيئاً جديداً ومهمّاً، فقد كان يُشعرنا بالتميّز، لأنّنا «شيء» مختلف عن الناس العاديين، وكانت حركة القوميين العرب تتبنّى الدعوة إلى الوحدة القومية وعملية الدفاع عن الثورة في اليمن. وقد استمرّ هذا الوضع فترة من الوقت، وبدأنا بكسب زملاء جدد في المدرسة الإعدادية ومن زملائنا في المدرسة الثانوية، ومن بين الناس الذين اتصلنا بهم عبد الرزاق الرفيحي، الله يرحمه، والمحامي أحمد الوادعي وأحمد الشبيبي، وأثناء ذلك كنّا قد حاولنا إقامة اتّحاد للطلبة، وهو أوّل اتحاد للطلبة في صنعاء، حيث شارك في ذلك العديد من الإخوة من ضمنهم الأخ محمد الطيب، أحمد الوادعي، علي صلاح، أحمد الشبيبي، صالح الدوشان ومحمود الأشول وعدد كبير أيضاً.

في كلّيّة الشرطة

وقد استغلينا فرصة تواجدنا في الاتحاد، وعملنا على توسيع نشاطنا في أوساط الطلاب لكسب أعضاء جدد إلى حركة القوميين العرب. بعدها بفترة فتحت كليات عسكرية وشرطية، وكان البعث والبعض من مسؤولي حركة القوميين العرب يتسابقون إلى استقطاب الطلاب وإلحاقهم بالكليات العسكرية. وفيما يخصّنا فقد أصدرت إلينا حركة القوميين العرب الأوامر للالتحاق بإحدى الكليتين إما الكلية العسكرية أو كلية الشرطة، فاخترت أنا وأحمد الأنسي ومحمد الفضلي كلية الشرطة، وانخرطنا في الكلية عام ١٩٦٥، فيما انخرط آخرون ومنهم الزميل محمد محرم، في الكلية العسكرية.

خلال عام ونصف العام درسنا على أيدي الخبراء المصريين منهجاً شرقياً يشمل العلوم القانونية، القانون الدستوري، القانون المدني وقانون الإجراءات، بالإضافة إلى بعض المواد الشرطية، وخلال التّيرم (الفصل) الأوّل تم اختبارنا وكنت متفوقاً فيه، ولذلك تمّت ترقيتي إلى رتبة طالب ضابط وتوليت قيادة إحدى السرايا، إلى جانب حمود وزيد عيسى، الذي كان الأول في دفعتنا، وعبد الله صبره وعيدروس السقاف وآخرين. ومن الأحداث الهامة التي حصلت أثناء دراستنا في كلية الشرطة كانت زيارة جمال عبد الناصر لمدينة صنعاء عام ١٩٦٥، وقد أخرج طلاب الكليات لاستقباله، واصطففنا في ميدان

التحرير لاستقباله حيث ألقى يومها خطابه الشهير، ثمّ ألقى الأستاذ محمد محمود الزبيري كلمته، وأتى بعد ذلك الأستاذ عبد الله البردوني، الذي ألقى قصيدة شعرية حماسية، كان من ضمن أبياتها التي لا تزال عالقة في ذاكرتي حتى اليوم تلك التي تقول:

من جمال ومن أسمي جمالا
معجزات من المدى تتوالى

وشموخاً يسمو على كل فكر
وكل قمة يتعـالى

يا لصوص العروش عيّبوا جمالاً
واخجلوا إنّكم قصرتم وطال

لقد حفظنا هذه الأبيات وشدّت معنوياتنا كثيراً، وفي غضون دراستنا كانت صنعاء تشهد بعض التفجيرات وأعمال العنف المتفرقة، كما كان الحصار يشتد من حولها بين حين وآخر، وكان القتال مشتعلاً بين القوات المصرية والجيش اليمني من جانب والقوات الملكية المؤيدة للإمام من جانب آخر، وكنا نكلّف بين حين وآخر بحراسة شوارع العاصمة ليلاً. وخلال السنوات الأولى لاندلاع الثورة حصلت أعمال عنف وعمليات قتل كثيرة طاولت بعض أنصار الإمام، وبسبب الأوضاع التي تحملها أية ثورة، قُتل الكثير من الوزراء والمسؤولين

من الأحداث الهامة التي حصلت أثناء دراستنا في كلية الشرطة كانت زيارة جمال عبد الناصر لمدينة صنعاء. وقد أخرج طلاب الكليات لاستقباله. واصطففنا في ميدان التحرير لاستقباله حيث ألقى يومها خطابه الشهير.

في عهد الإمام منذ الأيام الأولى للثورة، وبعضهم كان لا يستحق الإعدام، لكنّ الثورة دائماً تكون أشبه بسيل يجرف ما أمامه. واليوم ينظر الإنسان إلى تلك الإعدامات بشيء من الأسف، بل وينظر بأسف إلى كل الآثار التي ترتبت على أعمال العنف التي صاحبت الثورة، لكن منهج العنف كان سائداً في اليمن من قبل الثورة ومن بعدها، سواء من قبل الإمامة أو من قبل الثوار. وفيما يتعلّق بموقف المجتمع الصنعاني من الثورة والقضاء على الإمامة، كان الشباب المتعلم والمنخرط في الأحزاب السياسية يقف إلى جانب الثورة، ولكن كان هناك قسم كبير من أبناء صنعاء وفي خارجها يؤيد الإمام ولا يرحّب بالثورة. وفي الحقيقة كان هناك انقسام حقيقي في المجتمع، وإن كان يختلف من منطقة إلى أخرى، حيث كان التأييد للثورة كبيراً في مناطق تعز وعدن والمناطق الوسطى والمناطق الشرقية، لكنْ في المناطق المحيطة بصنعاء كان التأييد للثورة يقتصر على بعض أبناء المشايخ، الذين كانوا قد دخلوا في صدام مع الإمام، حيث ساهم بعضهم في الثورة، بالإضافة إلى بعض الضباط الذين انخرطوا في الجيش.

أمّا سائر المواطنين في المناطق الشمالية، وحتى بعض المواطنين في المناطق الوسطى، فلم يكونوا يؤيدون الثورة تلقائياً، لكن الأمور كانت تتغير بين يوم وآخر.

عبد الله السلال ودور المصريين

المشير عبد الله السلال كان رجلاً عسكرياً وطيب القلب وتلقائياً، كما كان مخلصاً للثورة، واضطلع بأعباء كبيرة أثناء الحرب الأهلية وقيادة المعارك، وكان يتمتع برباطة جأش لأنّ المعارك كانت مستعرة في كل مكان تقريباً، ولا أظن أحداً كان يستطيع القيام بالدور الذي قام به السلال، لأنّ الحرب والمعارك ضد الملكيين كانت هي القضية الأساسية، إذ لم يكن هناك في الحقيقة أية اهتمامات أخرى لا في مضمار التنمية ولا في أي مجالات أخرى.

وبطبيعة الحال، فقد بدأت تظهر بعد عام، أو عام ونصف العام، انقسامات داخل الصف الجمهوري، وكان العديد من شيوخ القبائل والسياسيين يعارضون سياسة المشير السلال، غير أننا في حركة القوميين العرب كنا مناصرين للسلّال وللوجود المصري في اليمن، وقد شاركنا تحت قيادة الحركة في العديد من المظاهرات المؤيدة للرئيس السلال والمصريين. كان العديد من السياسيين، وبالذات الذين لهم صلة بالبعث، يعارضون السلال، بالإضافة إلى بعض الأحرار القدامى، مثل الشهيد محمد محمود الزبيري، وأحمد محمد نعمان وعبد الرحمن الإرياني، وقد كان خلاف الرئيس جمال عبد الناصر مع البعث في سورية والعراق يلقي بظلاله على الأوضاع في اليمن، كما انه كانت هناك أخطاء يرتكبها بعض الضباط المصريين في أدائهم اليومي، والتدخل في تفاصيل الحياة اليومية، وهذه كانت تؤثر سلباً على وحدة الصف الجمهوري.

لكنّني أريد هنا أن أسجّل شهادة للتاريخ، وأقول إن الوجود المصري في اليمن، قد ساهم الى جانب مشاركتهم في الحرب في خلق نواة الإدارة لأول مرة في اليمن، كما ساهم في انتشار التعليم الإعدادي والثانوي بمناهجه الحديثة، وكان هذا عملاً تحديثياً وحضارياً، كانت اليمن بحاجة إليه، لأن التخلف كان شاملاً ومتمكناً من كل حياة اليمن.

من المآخذ التي كانت تؤخذ على الرئيس السلال أنّه اعتمد على المصريين إلى درجة أنّ البعض كان يقول إن القرار السياسي اليمني كان يُتخذ في القاهرة وليس في صنعاء. وهذا صحيح، فالمشير عبد الله السلال اعتمد كثيراً على المصريين، ولكنني أعتقد بأنه كان سياسياً واقعياً، فقد كان يدرك أنه لولا التأييد المصري للثورة، فإنها كانت سوف تسقط في عامها الأول، أو الذي يليه، وبدون الوجود المصري ما كان للثورة أن تستمر، ولذلك كان البديل للوجود المصري هو تسوية مبكرة مع المملكة العربية السعودية ومع القبائل المحيطة بصنعاء، وهذا ما حدث بعد ذلك، ونحن جميعاً يعرف نتائجه. وإذا ما نظرنا إلى تعامل السلال مع القبائل المحيطة بصنعاء والتي كان يعتقد أنّها كانت السبب في وقوع العديد من الانتكاسات للثورة، فأنا أعتقد أن هذا أمر كان يعبّر عن حالة واقعية، وإذا عدت إلى تاريخ اليمن منذ ألف عام، فستجد أن القبائل كانت تصعّد إماماً وتُسقط آخر طبقاً للمصالح.

وقد لعبت القبائل دوراً كبيراً في عدم الاستقرار، وحالت دون أن تنتقل السلطة سلمياً في أي وقت من الأوقات، وكانت الغنيمة هي الأساس في كل ما حصل، وما حدث بعد الثورة لم يكن استثناءً لهذه القاعدة، إلّا من حيث وقوف بعض القبائل إلى جانب الثورة، فمثلاً قبيلة حاشد وقفت إلى جانب الثورة لأن الإمام كان قد قتل مشايخها، وأعدم حسين بن ناصر الأحمر وأخاه حميد، أمّا بقية القبائل، فقد كانت ذات مواقف متنقلة بحسب المصلحة وبحسب تأثير المشايخ، وبحسب الظروف القائمة. بمعنى آخر، لم تكن القبائل تحارب عن عقيدة أو عن اقتناع لا مع الإمام ولا مع معارضيه، طوال التاريخ.

أمّا دورنا في الأحداث التي أدّت إلى الانقلاب على الرئيس عبد الله السلال، قبل تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٧، فقد كنا قد تخرجنا من كلية الشرطة، ثم تم تعييننا كمدرّسين فيها، وكلفتنا حركة القوميين العرب بالنشاط في صفوف ضباط الشرطة والطلاب الملتحقين بالكلية، وقد استطعنا كسب عشرات الضباط في الشرطة. وكان هناك عدد من الضباط المصريين يدرسون في الكلية، ولاحظوا علينا هذا النشاط، وبدأوا يتوجسون منه، ويشكّون بانضمامنا إلى حركة حزبية، وكان الاتجاه المعمّم في أوساط الوجود المصري في اليمن، عسكريين ومدنيين على السواء، هو مناهضة الحزبية، وعندما أيقنت الاستخبارات المصرية واليمنية أنّنا منخرطون في حركة القوميين رغم أنّ عملنا كان سرياً، تم طردنا من كلية الشرطة.

وصادف في تلك الفترة أنّ الخلاف بين حركة القوميين العرب ومصر أخذ يظهر بالتدريج بسبب الأوضاع السائدة في جنوب اليمن، والاختلاف القائم بين جبهة التحرير والجبهة القومية، فبينما كانت حركة القوميين العرب تؤيد الجبهة القومية كانت بعض الأجهزة المصرية تتبنى جبهة التحرير، وتعمل من أجل دمج الجبهة القومية بمنظمة التحرير لتكون ما عُرف بعد ذلك «جبهة التحرير»، وكانت الكوادر الأساسية في الجبهة القومية وفرع الحركة في صنعاء تعارض مثل هذا الدمج، وتعتقد أنّ الجبهة القومية هي صاحبة السبق في الكفاح المسلح، وينبغي لها أن تستمرّ. ومن هنا بدأت الشكوك تحيط بنا، فتم إبعادنا من سلك الشرطة إلى التموين المدني، ولكنّنا لم نعمل في التموين، لأنه كان مغلقاً، ولم يكن هناك موظفون ولا مكاتب للعمل، وكان يديره حينها الأستاذ علي السنيدار، رحمه الله، لوحده. وبعد فترة من الوقت ووساطات عديدة عدنا إلى كلية الشرطة، وساهمنا في حرب بني حشيش، حيث كنا من الضباط الذين خرجوا إلى هناك وأقمنا معسكراً لفترة، ثم عدنا من جديد إلى صنعاء، وفصلنا من الشرطة من جديد.

بالنسبة إلى النشاطات السياسية التي كنا نقوم بها، ودفعت السلطات إلى فصلنا من الشرطة، فقد كانت هناك نشاطات كثيرة كلفتنا بها حركة القوميين العرب، كما أنّنا كنا نبادر أحياناً بنشاطات أخرى، وقد ساهم كل ذلك في إلقاء الأضواء على تحزّبنا أو على الأقلّ وضع علامات الاستفهام حول ذلك حيث كان يُفترض بنا كضباط في الشرطة عدم القيام بأية أعمال ذات طابع سياسي.

لقد كنا خلافاً لذلك، نشارك في المظاهرات المختلفة، وفي كثير من الأحيان كنّا نخرج بملابس مدنية للمشاركة في هذه المظاهرات. وكانت هذه المظاهرات تناحر بالطبع النظام الجمهوري والرئيس السلال في مواجهة خصومه ومعارضيه، كما كنا نتبنى قضية الجبهة القومية في كل المحافل، وكنا نبدو كمجموعة متجانسة من خلال خطابنا السياسي وعلاقاتنا الاجتماعية بالناس وقد أكدت هذه

النشاطات المنظمة أنّ مجموعة حركة القوميين العرب كانت تضمّ أناساً غير عاديين، ولهذا تم التصدي لهذه النشاطات.

حراسة عبد الفتاح إسماعيل

كان عبد الفتاح إسماعيل قد اعتقلته المخابرات المصرية، كما اعتقلت أيضاً أنور خالد الذي كان يومها رئيس مؤتمر الخريجين، وأحد زعماء الجبهة القومية، وتم إيصالهما إلى صنعاء وأودعا الأمن المركزي كمعتقلين، وكان حينها المرحوم علي الواسعي قائداً لقوات الأمن المركزي، فيما كان حسين الدفعي وزيراً للداخلية.

وكانت حياة عبد الفتاح إسماعيل وأنور خالد معرّضة للخطر، على الرغم من أن حكومة السلال، وفيها عبد الغني علي، الله يرحمه، ومجموعة من أعضاء الاتحاد الشعبي كانت تتعاطف مع عبد الفتاح، غير أن القوات المصرية كانت ضده. وكان أنصار جبهة التحرير حينذاك يتواجدون في صنعاء.

في تلك الفترة تمّ تكليفنا من حركة القوميين العرب بحراسة عبد الفتاح إسماعيل وأنور خالد، وقد كنا نقوم بحراستهما ونحن بملابسنا العسكرية، وكنا قد نسّقنا مع الأخ علي الواسعي ليمكّننا من الجلوس والخروج معهم عندما يرغبون في الذهاب إلى أيّ مكان، وعلى ما أذكر، فإن من بين الذين تولّوا هذه المهمة الأخ محمد عبد السلام منصور وناصر السعيد. وذات يوم تعرّض عبد الفتاح لوعكة صحية، ونُقل إلى المستشفى، ولاحظنا أنّ إحدى السيارات كانت تطاردنا في الطريق وتراقب حركاتنا، وعلى ما أتذكر فقد نزلنا يومها في أحد الفنادق القريبة من شارع جمال عبد الناصر، وبعد لحظات جاءت مجموعة مسلّحة، وبدأوا يسألون عن عبد الفتاح إسماعيل، وكان واضحاً انهم يستهدفون اغتياله مع أنور خالد، فانتصبنا، ونحن بملابسنا العسكرية، وقلنا لهم إننا مرافقون رسميون مع هؤلاء، وأشرنا إلى عبد الفتاح بالهروب من الباب الآخر للفندق، ثمّ عدنا إلى الأمن المركزي.

◆ هل كانت لك صلة مباشرة بعبد الفتاح إسماعيل قبل ذلك؟

■ لا، نحن تعرفنا إليه في السجن، لكن حركة القوميين العرب وقيادتها في صنعاء، من بينهم عبد الحافظ قائد، سلطان أحمد عمر، أحمد قاسم دماج، علي سيف مقبل، عبد القادر سعيد هادي، عبد الرحمن محمد سعيد، مالك الأرياني كانوا على صلة بالموضوع وبمشكلة عبد الفتاح إسماعيل. وكان كثير من المثقفين اليمنيين يزورون عبد الفتاح في سجنه بصنعاء ويدافعون عنه، وقد أدّى هذا كله في النهاية إلى إطلاق سراحه هو ورفيقه انور خالد. وقد أثنت حركة القوميين العرب على دورنا في هذه المهمة، واعتبرته دوراً ممتازاً، لأننا أفشلنا خطة مؤكدة لاغتيال عبد الفتاح الذي كان يومها واحداً من أهم رموز الثورة في الجنوب، لكن هذه المهمة كانت قد كشفت نشاطنا السياسي بشكل أكبر.

وعبد الفتاح إسماعيل لم يُعتقل في صنعاء بالذات، بل اعتُقل في منطقة قريبة من ماوية بتعز، وقد أتت به المخابرات المصرية إلى صنعاء باعتبارها العاصمة، بهدف التحقيق معه في قضية المرحوم علي حسين القاضي، وكانت القوات المصرية تدرك أنّ هناك خلافاً بين الجبهة القومية وجبهة التحرير، كما كانت المخابرات المصرية قد وجدت مسدساً يحمل رقماً مسجّلاً باسم شخص في الجبهة القومية. وكان قد ألقي بعد ذلك القبض على المرحوم فيصل عبد اللطيف الشعبي، المؤسس الأوّل لحركة القوميين العرب، والقائد البارز في الجبهة القومية، حيث قُبض عليه في أطراف محافظة لحج، ثم أُرسل إلى القاهرة، وكانت سياسة اعتقال قادة الجبهة القومية ومضايقتهم سياسة متّبعة في تلك الأيام من قبل القوات المصرية، وقد حاولت حركة القوميين العرب حلّ هذا الموضوع بالتفاوض مع عبد الناصر، لكنّ النجاح كان محدوداً، إذ لم يكن هناك إمكانية للجمع بين الطرفين. بالنسبة إلى عبد الفتاح، بعد الإفراج عنه في صنعاء أعتقد أنه سافر إلى الخارج وبالتحديد إلى المجر، ثم عاد بعد ذلك، وعند نشوب الحرب الأهليّة في عدن قبل الاستقلال كان متواجداً في مدينة الإسكندرية بمصر، وقد عُيّن بعد ذلك عضواً في الوفد الذي قاد مفاوضات الاستقلال مع الوفد الإنكليزي في جنيف.

انقلاب ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٧

سبق أن أوضحت أنه كانت هناك معارضة دائمة لعدد من الشخصيات اليمنية ضد السلال، تضم بعثيين ويساريين وشيوخ قبائل، وعلى رأس هؤلاء القاضي الأرياني والزبيري والنعمان. وبعد ذلك جاءت تطورات كثيرة، كان من ضمنها اتفاقية السلام مع السعودية ومؤتمر حرض، وكانت هناك محاولات لحلّ المشكلة اليمنية، لكنها لم تنجح، فاضطربت العلاقة بين مصر واليمن من جديد، وكانت مصر يومها قد اقتنعت بسحب المشير السلال إلى القاهرة، فذهب الأخير إلى هناك فتولى محمد الرعيني وبعده العمري القيادة هنا في صنعاء. لكنّ المصريين أعادوا السلال إلى اليمن عام

١٩٦٦ وكانت الحكومة بطبيعة الحال مكوّنة من معارضي السلال وبرئاسة العمري. ومن الطرائف أنّ أعضاء الحكومة ذهبوا إلى مصر مع مجموعة من ضباط الجيش في محاولة لطرح المشكلة على الرئيس جمال عبد الناصر، فصدرت الأوامر باعتقالهم جميعاً في القاهرة، بمن فيهم النعمان، باستثناء القاضي عبد الرحمن الأرياني، الذي أُنزل في منزل خاص، فيما قبع الجميع في الزنازين، وكان هذا خطأً سياسياً فادحاً، يخلو من الذكاء السياسي ومن الفطنة ولا معنى له طبعاً في حكومة السلال التي تشكلت. بعد ذلك حصلت مقاومة، وبعد هذه المقاومة جرت محاكمات وإعدامات ومن ضمن الذين أُعدموا المرحوم محمد الرعيني وهادي عيسى وآخرون، وكان هذا جزءاً من الصراع الذي كان دائراً داخل الصف الجمهوري نفسه.

الانقلاب على السلال: نقاوم أم لا نقاوم؟

بعد هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ رحلتْ القوات المصرية من اليمن، وكانت سبقت انقلاب ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٧ في صنعاء مظاهرات في شهر تشرين الأول / أكتوبر ضد السلال، وفي مؤتمر القمة الذي عُقد في الخرطوم عقب هزيمة ١٩٦٧ اتفق الطرفان المصري والسعودي على انسحاب القوات المصرية من اليمن، على أن توقف السعودية دعمها للملكيين، وبعد ذلك تم إطلاق سراح المعتقلين في القاهرة وعادوا إلى اليمن.

كانت القوى التي نفذت الانقلاب على السلال مزيجا من الثوار الجمهوريين والقوى التقليدية ومن الحزبيين أيضا. ولكنها غير متماسكة.

وبعد عودة الجميع إلى صنعاء قام الرئيس السلال بزيارة إلى العراق والاتحاد السوفياتي، واصطحب معه نائبه اللواء عبد الله جزيلان، وعندما ودّع السلال مودعيه في مطار صنعاء قال لهم كلمات توحي بأنه ذاهب إلى العراق وأنّ الأمر متروك لهم، وأنّ الجمهورية في أعناقهم. وكان العائدون من القاهرة قد أخذوا يعدّون للانقلاب ضد السلال، لأنه لم يعد هناك إمكانية للمصالحة بين الخصوم، وهذا ما ينعكس في الواقع حتى اليوم.

والمصالحة كانت ممكنة، كان بإمكان الأطراف كلهم تشكيل ائتلاف، لأنهم كانوا في مواجهة خطر خارجي، وأن يتم تصالح وتفاهم واعتذار متبادل، والعمل من أجل إنقاذ البلاد، لكن للأسف كان موضوع الصراع على السلطة له الأولوية، حيث بدأ التحضير والإعداد للانقلاب يجري بصورة علنية منذ منتصف شهر تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٧.

وكان موقف حركة القوميين العرب التي ننتمي إليها ضد الانقلاب على السلال، كما كان الشباب المؤيد لمصر والناصريين وبالذات في تعز معارضين للانقلاب، واتحاد الشعب الديمقراطي كان يعارض هذا الانقلاب، لكن البعث وبقية القوى السياسية وبعض الضباط والمشايخ، كانوا مؤيدين للانقلاب على السلال. وأذكر أنّنا في حركة القوميين العرب ناقشنا هذا الموضوع عند إبلاغنا بموعد الانقلاب بيوم واحد وأنه صار أمراً محتماً لا مفرّ منه، وقد عرفنا ذلك من خلال مجموعة من الضباط كانت تنتمي إلى الحركة، حيث أصدروا لهم الأوامر بالاستعداد فاتخذنا قراراً بمقاومة الانقلاب، وهذا الشيء يقال لأول مرة.

وقد اتخذ القرار إثر اجتماع عُقد في منزل المرحوم علي قشعة في صنعاء، وهو من أبناء صنعاء، وكان عضواً قيادياً في حركة القوميين العرب، واتُّخذ هذا القرار بحضور عدد من قادة الحركة، أتذكر منهم عبد الله الأشطل ومالك الأرياني، أمّا عبد الحافظ قائد فقد كان يومها في الحُديدة، وسلطان أحمد عمر في عدن، وعبد القادر سعيد في تعز. وقد اشترطنا في هذا الاجتماع لكي نقاوم الانقلاب، أن يكون هناك استعداد من قبل أنصار السلال للوقوف إلى جانبنا، وهكذا قرّرنا الاتصال ببعض الشخصيات من المشايخ والضباط المناهضين للحركة الانقلابية والمؤيدين للسلال، وكان من بين هؤلاء المرحوم مطيع دماج والمرحوم أحمد عبد ربه العوافي والشيخ أمين أبو رأس عن طريق الأخ أحمد قاسم دماج، كما قمنا بالاتصال بقائد الحرس الجمهوري العقيد القواس، وأعطينا تعليمات لبعض الضباط المنتمين للحركة بمحاولة الوصول إلى بعض الوحدات العسكرية قبل أن يصل الانقلابيون إليها. وكان القواس قد أبدى استعداداً للعمل لكنّ الحرس الجمهوري كان قد تعرض للتفكك بعدما اتصل مشايخ القبائل كلٌّ بأصحابه.

ولعب الشيخ أحمد علي المطري، الله يرحمه، دوراً كبيراً في الاتصال ببعض منتسبي الحرس من أبناء بني مطر، كما جرى الاتصال أيضاً بالقواس، وقال له إن المقاومة لن تنجح. لقد كانت القوى التي نفّذت الانقلاب على السلال مزيجاً من الثوار الجمهوريين والقوى التقليدية ومن الحزبيين أيضاً، ولكنها غير متماسكة، فما

كان يجمعها في الانقلاب هو الرغبة في عملية التخلص من السلال. كان الذين ينتمون إلى ثورة سبتمبر ومن ينضوي تحت لواء حزب البعث يرون في الانقلاب نوعاً من أنواع التصحيح للثورة سيخلق تماسكاً في الصف الجمهوري وسيفتح آفاقاً أكبر للتطور. أما القوى التقليديّة فكانت تريد أن تعود بالثورة إلى الوراء، وأن تنتزع السلطة من أيدي القوى الحديثة وتسيطر على النظام، وصولاً إلى التخلص من الصف الجمهوري والحزبي في أقرب فرصة، وهو ما حدث فعلاً بعد الانقلاب.

وعن سبب تراجعنا في اللحظات الأخيرة عن مقاومة الانقلاب، فقد اجتمعنا في الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ تشرين الثاني / نوفمبر قبل الانقلاب بساعات قليلة واستعرضنا الوضع من جديد ومدى قدرة قوّاتنا على التصدّي للانقلاب، ومدى قدرة المشايخ المؤيدين للسلال على إيصال بعض القبائل إلى صنعاء، في الوقت المناسب، فوجدنا الإمكانيات ضعيفة، وأنّ الوقت كان قد تأخر، خصوصاً بعدما ذهب ناصر السعيد وعبد الكافي عمر إلى قوات المدرعات ووجدوا أنّ الضباط المناوئين للسلال قد سبقوهم إلى نفس المكان. ولهذا اتخذنا قراراً عند الساعة الحادية عشرة والنصف بالامتناع عن مقاومة الانقلاب والاكتفاء بمقاومته سياسياً، كما قررنا أن يختفي بعض القادة البارزين حتى لا يتعرضوا للاعتقال.

أمّا بخصوص التظاهرات التي سبقت الانقلاب، فقد قمنا بتنظيم مظاهرة يوم الثالث من أكتوبر / تشرين الأول، بهدف الدفاع عن الثورة وتأييداً للرئيس السلال. لكنّ هذه التظاهرة كانت في الواقع قد أسهمت في إضعاف نظام السلال، ومهّدت لانقلاب ٥ تشرين الثاني / نوفمبر، سواءٌ أردنا ذلك أم لم نرد، خصوصاً أنّ المظاهرة أدّت إلى تغيير الحكومة وإلى اعتقال بعض من أنصار السلال وبعض الضباط، من ضمنهم عبد القادر الخطري الذي حوكم بعد ذلك، بتهمة إطلاق النار على المتظاهرين يوم ٣ تشرين الأول / أكتوبر، باعتباره كان يقود الأمن المركزي. لكنّني، وهذه شهادة للتاريخ، أريد القول إن العقيد الخطري لم يطلق النار على المتظاهرين إطلاقاً، وقد حُكم عليه ظلماً، لأن الخطري كان محسوباً على المصريين وكان قد دخل في صراعات مع بقية الجماعات، ولذلك اعتُقل وحوكم بتهمة التصدي للمتظاهرين وإطلاق النار عليهم.

◆ هل قامت حركة القوميين العرب باتصالات مع الرئيس السلال وأبلغته وقوفها إلى جانبه؟

■ لا لم تقم الحركة بذلك، لأن السلال كان في زيارة إلى بغداد وكان الاتصال به غير ممكن، وقد كان آخر لقاء للحركة بالرئيس السلال في ٣ تشرين الأول / أكتوبر، يومها قابلنا السلال وتحدثنا معه حول الأوضاع، وفي نفس اليوم أقال الحكومة وعيّن حكومة جديدة.

ونحن وإن ساهمنا في تظاهرة تشرين الأول / أكتوبر بنوايا حسنة، لكن موضوعياً أدّت هذه المظاهرة إلى التسريع بوقوع الانقلاب على السلال.

وبخصوص التّهم الموجّهة للرئيس السلال، فهي أنه قام، بمعاونة المصريين، بتصفية الكثير من العناصر الثورية. أنا لا أتصوّر أنّ الرئيس السلال يتحمّل مسؤولية في هذا المجال، لقد كانت الحرب تؤدي تلقائياً إلى ممارسة العنف هنا وهناك، فالصراع بين الملكيين والجمهوريين حصد عشرات الألوف من الضحايا، كما أنّ الصراع داخل النظام الجمهوري قد أدّى إلى سقوط ضحايا أيضاً. لقد ألحقت هذه الصراعات باليمن ضرراً بالغاً وأوقفت عملية التنمية، وسخّرنا كل جهودنا للصراع السياسي العنيف، ولو لم نفعل ذلك لكانت حياتنا اليوم أفضل.

حصار صنعاء

استمرّت الأوضاع بعد الانقلاب في توّتر وقلق دائمين، ويومها كان الأستاذ محسن العيني رئيساً للحكومة، وكان الملكيون من جانبهم يعدّون العدّة للاستيلاء على صنعاء. وفي بداية كانون الأول / ديسمبر من العام نفسه كنت في الحديدة، وحاولت العودة إلى صنعاء، فقيل لنا إن طريق الحديدة – تعز قد قُطعت، وطلب منا الذهاب إلى جانب القوة هناك لفكّ الطريق، وقد استقبلنا قائد القوة عبد العزيز البرطي ومجموعة من الضباط المتواجدين هناك، وفي غضون أسبوع تم فتح الطريق واستعادة الأمن في المنطقة. بعد أيام، بثّت إذاعة صنعاء خبر استقالة الأستاذ محسن العيني وتكليف الفريق حسن العمري بتشكيل الحكومة وقيادة القوات المسلحة. وعلمنا بعدها أنّ طريق صنعاء الحديدة قد قُطعت، فعدنا إلى الحديدة وركبنا طائرة أنتينوف كان يقودها الطيار الكميم ويرافقنا الشهيد عبد السلام الدميني، وكان المطار يومها آمناً لهبوط الطائرات.

وكان طلاب كلية الشرطة والعديد من الضباط موجودين في مطار الرحبة ومكلفين بالدفاع عنه، وحدث أن حصل خلاف بين الطلاب الذين كان معظمهم ينتمي إلى

حركة القوميين العرب ثم إلى الحزب الديمقراطي الثوري بعد ذلك. وكان يومها العميد يحيى الراذعي ومحمد خميس يقودان طلاب الكلية في المطار، فتمرّد عليهم الطلاب، ما حتّم استدعاءنا إلى وزارة الداخلية من قبل العميد عبد الله بركات، مع مجموعة من الزملاء، وطلب منا العودة إلى عملنا، على الرغم من أنّنا كنا مفصولين من الشرطة، والذهاب إلى المطار ضمن القيادة الجديدة التي تشكلت لقيادة طلبة كلية الشرطة، وتكونت من العميد حسين صالح الخولاني، وعلي الحيمي، وعلي الواسعي، وعبد الله يحيى الشامي، وعبد الله محمد العلفي، ومحمد البردي، وعبد الرحمن البردي، ومحمد الأنسي وجاد الله عمر وعدد آخر من الضباط لم أعد اتذكرهم.

وعند انتقالنا إلى المطار كان الحصار على المدينة قد استُكمل بعد انسحاب قوات المظلات من متنة والمناطق المجاورة لها بفرض تكوين دفاعات حول العاصمة. بعد الحصار وجدت صنعاء نفسها معزولة عن كل مناطق اليمن، وأدّى هذا الحصار إلى خلق جبهة وطنية عريضة، انخرطت فيها سائر القوى الوطنية في المعركة.

صحيح أنّ وحدات الجيش والمقاومة الشعبية كان لها الدور الأساسي في فك الحصار عن صنعاء، لكن بقية فئات المجتمع لعبت دوراً كبيراً في المعركة بما في ذلك سكان العاصمة صنعاء. كما وحّد الحصار صفوف القوى والأحزاب المختلفة، بما فيها حزب البعث والحزب الديمقراطي فيما بعد، والماركسيون أيضاً بقيادة عبد الله صالح عبده، حيث كوّنوا المقاومة الشعبية لحماية العاصمة وللإشراف على توزيع المؤن على السكان، ومن أبرز قادة المقاومة الشعبية يحيى الشامي، سيف أحمد حيدر، مالك الأرياني، عمر عبد الله الجاوي، علي مهدي الشنواح وغيرهم. وقد تناسى الجميع في تلك المحنة خلافات الماضي كله، وتوجهوا جميعاً لخوض المعركة، وقد كانت حماسة الناس لفك حصار صنعاء كبيرة عند الجميع، وفي الحقيقة لم يكن أمام المحاصرين سوى القتال حتى آخر لحظة.

النجدة من الجنوب ومن السوفييت

ظلت صنعاء تقصف لمدة شهر تقريباً، وبعدها اعتاد الناس على القصف وكيّفوا حياتهم عليه، وكانت المعارك لا تتوقف حول صنعاء كافة، فيما كان الشيخ سنان أبو لحوم يعمل على توفير الدعم للعاصمة عن طريق الطائرات قبل أن يُنسف المطار ويُدمّر. وكان للأخ محمد الأرياني وللشيخ أحمد عبد ربه العوافي دور كبير في حشد المقاتلين من المناطق المختلفة والهجوم لفك حصار صنعاء العاصمة، وكان الدور القيادي لحسن العمري وعبد الرقيب عبد الوهاب. كما أنّ الدعم القادم من الجنوب كان أحد العوامل التي أدّت إلى النجاح في فك الحصار عن صنعاء. فبعد استلام الجبهة القومية للحكم في الجنوب عملت على إرسال المساعدات من الذخائر والمواد الغذائية للمقاومة الشعبية، وكان المرحوم سعيد عبد الوارث الإبي على رأس الذين كانوا يأتون لتسليم هذا الدعم مع مناضلين آخرين.

وكان هناك دعم خارجي أيضاً، فقد وقفت روسيا إلى جانب النظام الجمهوري وأرسلت طائرات إلى الحديدة، وشاركت هذه الطائرات في المعارك وخصوصاً المعارك الليلية، وأذكر أنّ أحد الطيارين الروس سقط في منطقة جحانة. كما أذكر أنّه في إحدى الليالي استطاع الملكيون اختراق صفوف النظام الجمهوري ووصلوا إلى باب شعوب، وتجاوزوا قرية الدجاج، لكن سلاح الطيران الروسي انطلق ليلاً من الحديدة وقصف القوات الملكية في المناطق التي احتلوها، وبالذات قواعدها الخلفية في جبل الطويل، ما أرغمهم على التراجع. وفي مجال الدعم الخارجي، كان هناك أيضاً دعم من سوريا بإرسالها عشرة من أفضل طياريها، وقدمت الجزائر دعماً بمليون دولار، فيما أرسلت مصر كميات من الذخائر والمواد التموينية عن طريق الحديدة.

كل هذه العوامل أسهمت في فك الحصار عن صنعاء، وبطبيعة الحال فإن هذا الحصار أدّى إلى خسائر كبيرة في صفوف الجميع، وإذا كنا اليوم نشعر بالاعتزاز والفخر لمشاركتنا في هذه المعركة وانتصارنا فيها فإننا نشعر أيضاً بالأسف لسقوط الضحايا من الطرفين، ونستطيع القول إنّ الإنسان كان يتمنى ألّا تحدث المعركة، لكن التاريخ ليس فيه «لـو».

الصراع داخل الصف الجمهوري

أحداث آب / أغسطس ١٩٦٨ هي «مأساة جمهورية»، وهي تدلّ على أنّ العنف عندما يسود المجتمع يتحوّل إلى قانون يستخدمه طرف ضد طرف آخر، ثمّ يستخدمه الطرف ضد بعضه.

كان هناك قتال وصراع بين الجمهوريين والملكيين، ثمّ كان هناك قتال وصراع داخل الصف الجمهوري

وصراع داخل الصف الملكي، وأحداث آب / أغسطس ١٩٦٨ ذات دلالة على عدم النضج السياسي وسيادة العاطفة والرغبة الثورية المتأججة في تحقيق الانتصار بالقوة، كما أنّها صراع على السلطة أيضاً، كانت معركة حصار صنعاء قد أدّت إلى بروز قوى حديثة تمثّلت في المقاومة الشعبية وفي القادة العسكريين الشباب، الذين تولّوا قيادة الوحدات العسكرية من أمثال عبد الرقيب عبد الوهاب، عبد الرقيب الحربي، علي متن جبران، محمد صالح فرحان، حمود ناجي سعيد، وقد أدّى ذلك تلقائياً إلى ما يمكن اعتباره ازدواجية في السلطة بين القوى الجديدة «المقاومة الشعبية» وبين أجهزة السلطة الأخرى المختلفة.

هذه الازدواجية كانت مدعّمة بخلفيّة فكريّة وسياسيّة، فقد كان البعث يقف في جانب وحركة القوميين العرب واليسار عموماً يقف في جانب آخر. وتداخلت في هذا الموضوع عوامل مختلفة، منها جغرافية ومذهبية. لقد كنّا نحن الضباط الصغار متحمسين، سريعي العاطفة، أقل صبراً وأكثر طموحاً، وكان الصفّ الباقي من الضباط الكبار لا يطيقون نزق هذا الجيل الجديد، ويتوجّسون خيفةً من اندفاعاتهم، ودخلت القوى والاتجاهات السياسيّة لتخلق استقطاباً في هذا الأمر، ودخلت قضية التعامل مع الملكيين مادّة جديدة في الصراع، فقد كان السياسيون الذين في الحكم يعملون من أجل التفاهم والمصالحة مع بقايا الصف الملكي المهزوم ويمدّون صِلاتهم مع بعض المشايخ، أمثال قاسم منصر. وكانت هناك مكاتبات مع بعض هؤلاء المشايخ للعودة، مع استبعاد أسرة آل بيت حميد الدين، بالإضافة إلى اتصالات مع السعودية بغرض الوصول إلى حلّ سلميّ للمشكلة، خصوصاً بعدما حسمت معركة صنعاء، وكان الطرف الجمهوري المتشدّد، الذي تمثّله حركة القوميين العرب واليسار عموماً وصغار الضباط في الجيش والشرطة يرفضون هذه الاتصالات، ويعتبرونها عملاً معادياً للنظام الجمهوري.

نشب هذا الصراع بعدما تأكد أنّ الطرف الملكيّ قد هُزم، فصار الصراع على السلطة يتحكّم بسلوك القوى السياسية المختلفة. واشتدّ هذا الصراع بعدما شعرت القوى التقليدية بأنّ القوى السياسيّة الجديدة صارت تهدّد بقاءها في السلطة. وجاءت قضية الدبابات السوفياتية لليمن لتثير أزمة إلى أين ستذهب، ففيما كان عبد الرقيب عبد الوهاب يريدها أن تصل إلى الأركان في صنعاء، كان الفريق حسن العمري يريد أن تبقى الدبابات تحت سيطرته. وتدخلت المقاومة الشعبية في الموضوع، لكنّ مقر المقاومة في الحديدة ضُرب من قبل سلاح المدرعات، وتلى ذلك قرار حلّ المقاومة الشعبية، وبعدها أصدر الفريق حسن العمري قراراً بإعفاء علي مثنى جبران، قائد سلاح المدفعية، وأحد أبطال معركة فك الحصار عن صنعاء من منصبه، وهنا بدأت الأمور تتّخذ منحى آخر.

كانت القوى الجديدة تريد الدفاع عن مواقعها، على اعتبار أنّها لعبت دوراً رئيسيّاً في فك الحصار، وأنّ من حقّها المشاركة في القرار السياسي، وأنّ تُستشار في كل الأمور. وكانت القوى الأخرى ترى أنّ هؤلاء شباب متطرفون وأنّ دورهم بعد الآن سيكون ضاراً ولا بد من تصفيتهم. وأعترف اليوم بأنّنا كنّا نحن الشباب حينها نفتقر إلى القدر الكافي من التجربة والحكمة والعبَر، فقد كان الكثير من الصف الآخر الذين اختلفنا معه حلفاء لنا. كما لعب الصراع الذي كان قائماً بين حركة القوميين العرب وحزب البعث دوراً كبيراً في هذه العملية.

وكما هو معروف، فقد نشبت معركة كبيرة داخل صنعاء يومي ٢٣ و٢٤ آب / أغسطس ١٩٦٨ حيث تمكنت القوى التقليدية من هزيمة القوى الجديدة، وحسمت قضية ازدواجية السلطة لصالحها. وتمّ اعتقال أعضاء حركة القوميين العرب واليسار بالإضافة إلى ممثّلي الفئات الرأسمالية، مثل أحمد شمسان، وسلام علي ثابت وآخرين، فيما أرسل عدد آخر من الضباط إلى الجزائر، وكان هذا الحسم يؤدّي إلى صراعات لاحقة. ولوحق بعد ذلك أعضاء الحزب الديمقراطي الثوري، الذي كنا شكّلناه في العام ١٩٦٨ وهرب عدد كبير من هؤلاء إلى المناطق الريفيّة وعدن.

◆ من كان الخاسر في هذه الأحداث الدموية؟

■ في اعتقادي أنّ الخاسر كان اليمن والنظام الجمهوري، لأن النظام الجمهوري أثبت أنّ الجمهوريين هؤلاء لا يستحقّونه، وأنّهم ليسوا على قدر من الرؤية والبعد الاستراتيجي، فقد كان من الأفضل أن ينظروا إلى ما يعملون بعد كل هذه الحرب من تضميد الجراح. طبعاً يمكن القول إن التفكير بالتصالح والسماح للملكيين بالعودة كانت فكرة صحيحة لأنّ هؤلاء مواطنون يمنيون وكان يجب حل القضية سلمياً، لأنّ الحلّ العسكريّ لا يمكن أن يحلّ أيّ شيء.

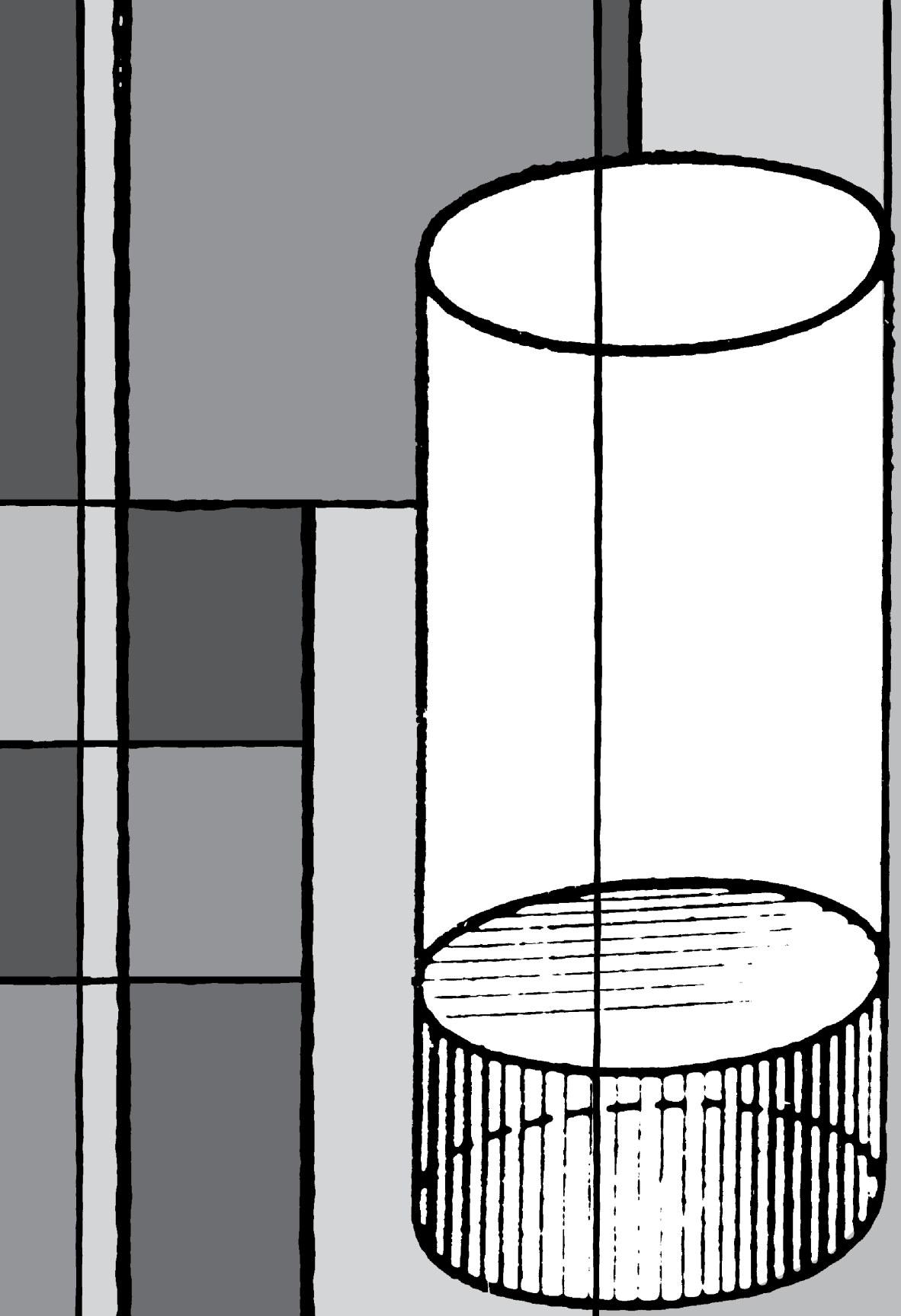

ذاكرة

٧٦ **اليمن السعيد ١٩٦٦ – ١٩٦٧**
إعدام في عيد مولدي
رياض بحيب الريس

اليمن السعيد ١٩٦٦ – ١٩٦٧
إعدام في عيد مولدي

رياض نجيب الريس

صحافي متقاعد يعمل في النشر.

الجمعة في ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٦. إنه عيد مولدي. اليوم أبلغ التاسعة والعشرين من العمر. أنا واقف في ميدان التحرير داخل سور صنعاء، بانتظار أن أشهد أوّل عملية إعدام بالرصاص في تاريخ اليمن، وتحت راية الأمم المتحدة أيضاً. لقد طلبت مني المخابرات المصرية ذلك، وأنا جهزت نفسي لهذه اللحظة، أو قل حاولت، متجنباً التفكير في الأمر. إنها المرة الأولى لي، وسوف تكون الأخيرة.

من السيف إلى الرصاص

وعليّ الاعتراف بأن هديّة المخابرات الناصرية هذه ستظلّ مشهداً لا ينسى في ذاكرتي. لقد قرأت عن بعض الإعدامات رمياً بالرصاص في مجلّدات التاريخ وكتب السياسة والصحف، لكنّي لم أتوقّع قطّ أن أكون في أحد الأيام شاهداً على واحد منها. قالوا لي إنني لن أكون الصحافي الوحيد، بل سيكون معي ثلاثة صحافيين مصريين. كان في ذلك بعض العزاء لي وشيء من الألفة. لكنّ هذا عنى أيضاً أنّني سأكون الصحافي الأجنبي الوحيد بين الجميع. كانت كاميرتي الصغيرة تتدلّى من عنقي. وضعتُ يدي عليها قليلاً كما لو أنني أتماهى مع جمودها وآلية عملها الحيادية في كل الأوقات والمناسبات والظروف، ثم تناولت سيجارة ودخنتها، متأملاً اليمنيين الذين احتشدوا في المكان، وقد بدت عليهم الحماسة. لقد اعتاد اليمن الإعدامات، إلا أنه لم يشهد إعداماً بالرصاص. قبل الثورة عام ١٩٦٢، كان الإعدام يُنفّذ بالسيف. يعطي الإمام أحمد الذي كان يحكم اليمن وأغلق البلاد وعزلها عن أية بعثة دبلوماسية أجنبية أو أي سفراء، الأمر، فيُقطع رأس المُدان بالسيف، ويُعلّق على أسوار البوّابات ليصبح الرأس الجاف من الدم ناقوساً يقرع في ذهن كل مواطن يحاول الاعتراض على الحكم أو الإمام أو توجيه أقلّ انتقاد إليه.

كنت أريد أن ينتهي كل شيء بسرعة، أو يؤجّل مرة واحدة وإلى الأبد، كما يقولون بالإنكليزية. أنا لا أعرف أحداً من المحكومين السبعة، ولم أقابل أياً منهم. إلّا أن فكرة أنّ شخصاً ما سيفقد حياته أمامك، وأنّك ستواصل المضيّ في حياتك، وستمرّ بنفس الميدان الذي أعدم فيه، لم تكن يسيرة عليّ، إذ إنني لن أغادر صنعاء مباشرة. ورحت أفكر في الصحافيين الذين اشتهروا بتوثيق عمليات الإعدام حول العالم. لا شكّ في أنّ لهم قلوباً من تركيبة خاصة جداً. مهما يكن، فإن عليّ الآن أن أتصرّف كما لو أنني واحد منهم الآن، موثّق إعدامات حقيقي. أطفأت سيجارتي ولاحظت أن يديَّ ترتعشان قليلاً. كان واضحاً أنني لا أزال مضطرباً، وقد اقترب موعد وصول المحكومين إلى الميدان. إلا أن أحداً لم يكترث بأمري، فأنا لست الحدث هنا، ولا شيء فيّ يسترعي انتباه الناس ورجال المخابرات إلا كاميرتي. وقد بذلتُ كل جهدي لكي أرفع من رباطة جأشي وأموّه كل الارتباك الذي ألمّ بي. لقد أتيت إلى اليمن مدركاً أن المشهد السياسي في غاية التعقيد، خاصة في ظل الانقسامات والانقلابات وتدخّلات مصر بقوّات عسكرية ولوجستية، والسعودية بشحنات كبيرة من الأسلحة، وأن هناك دماً يسيل في الشوارع وعلى الجبهات ودماً يسيل دون أثر في الاجتماعات والمؤتمرات المتعلّقة باليمن. إذن، ينبغي لي أن أكون ثابتاً وسريعاً. ألتقط أكبر عدد ممكن من الصور في أقصر وقت ثم أغادر الميدان. فبلا شك، سينتهي الأمر في لحظات. ستخترق الأعيرة النارية الخاطفة أجساد المحكومين، يتهاوون، نلتقط الصور والملاحظات، ثم يهدأ كل شيء. وننصرف.

وصل المحكومون السبعة إلى الميدان في سيارة عسكرية مصفّحة، وعلى رأسهم الزعيم القبلي محمد الرعيني، وقد كانوا جميعاً من الزعماء القبليين ومسؤولين في حكومة الرئيس عبدالله السلال، الذي قاد انقلاب اليمن على الملكية عام ١٩٦٢، والموالي لجمال عبد الناصر. وقفت المصفحة في الميدان، وتقدّم منها سيّاف الدولة، على جري العادة منذ أيام الملكية، فأنزلهم من المصفحة واحداً تلو الآخر وألقاهم على الأرض. كانوا مكبّلين بالسلاسل. ثم تقدم منهم نقيب يمنيّ وأطلق النار عليهم من مدفع رشاش. البعض أصيب في الظهر، والبعض الآخر في الرأس. قتل السبعة على الفور. كانت تهمتهم الخيانة. ورغم أنني حاولت أن أهيّئ نفسي جيداً للحظة الإعدام هذه، إلّا أن الكاميرا اهتزّت كثيراً في يدي بينما كنت أصور. كنت مرعوباً وخائفاً ولم أعرف أين بالتحديد أركّز الكاميرا. فأنا كنت على بعد خطوات فقط من رصاص السيّاف والجثث التي تراكمت والدماء الساخنة تفور منها. وكنت في الوقت عينه أفكر في السبق الصحافي الذي سيتحقق في «النهار».

ممنوع من التصوير

لم تستمرّ عملية الإعدام أكثر من ربع ساعة. اهتاج بعدها اليمنيون بعد أن كانوا مجرّد متفرجين متحمسين. هاجموا الجثث السبع وسحلوها في الشوارع، وصولاً إلى مقرّ الجانب السعودي في لجنة السلام. وما هي إلّا دقائق حتى كانت الجثث قد باتت معلّقة على باب السور، في رسالة مصرية إلى السعوديين. لكنّي لم أرَ الصور التي التقطتها، ولم أعرف إذا كنت فعلاً التقطتها كما يجب. إذ ما إن انتهى هرج الحشود، حتى تقدّم مني ضابط مصري بذراع اصطناعية اسمه على ما أذكر العميد القاضي، وطلب مني تسليمه الأفلام التي صوّرتها والكاميرا أيضاً. أتلف

أنـــــا كنت على بعد خطوات من رصاص السياف والجثث التي تراكمت والدماء الساخنة تفور منها. وكنت في الوقت عينه أفكـــــر في السبق الصحافي الذي سيتحقق في «النهار».

الأفلام وأعاد إليّ الكاميرا. لم أكن مستوعباً تماماً ما كان يجري، خصوصاً أنّه لم يصادر أياً من الصور التي التقطها الصحافيون المصريون الآخرون. فهمت منه أنني الوحيد

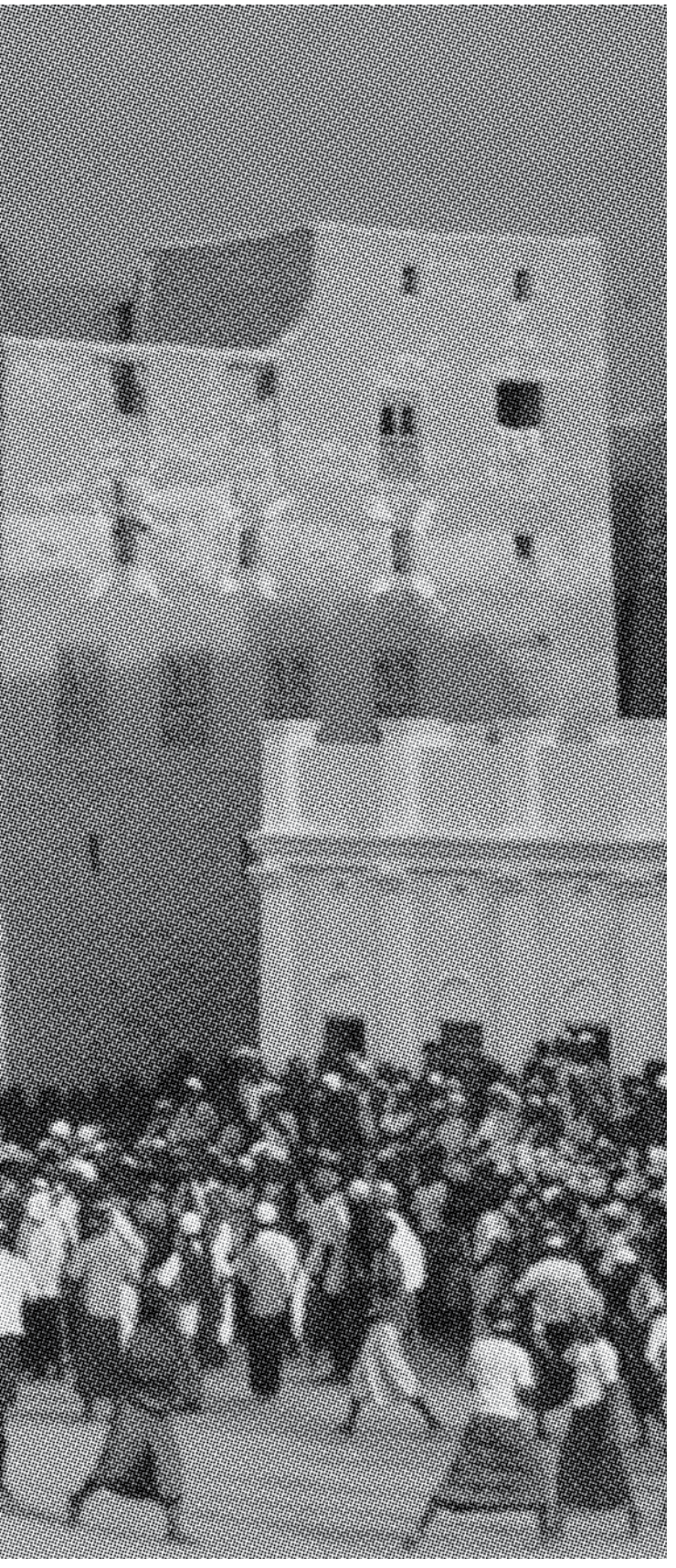

بين الجميع الممنوع من التصوير، إذ إن ما جرى يجب أن يبقى بعيداً عن الصحافة. فليكن مجرّد خبر. سوف يتكفّل نظام عبد الناصر لاحقاً بتفنيده، متذرعاً بعدم وجود أية صورة تبرهن صحة كلام الصحافي. وهو ما قد يفسّر عدم نشر أيٍّ من الصور التي التقطها الصحافيون، وربما ما زالت محفوظة في ملفات اليمن لدى أجهزة الاستخبارات المصرية. كنتُ آنذاك صامتاً، لا شيء لديّ لأقوله أو لأعترض عليه. وأحسست كما لو أنّ العالم صمت ولم يبق فيه سوى ذراع الضابط الاصطناعية التي رحت أتمعن فيها، فقال لي دون أن أحاول الاستفسار منه عن الأمر: «لقد فقدتها قبل سنة هنا، في حرب اليمن». تلك الحادثة كانت ما جعلني أدرك أن التصوير الصحافي ليس مهنتي.

تعزّ والقات وأمين الريحاني

وصلتُ إلى اليمن في شهر أيلول/سبتمبر من عام ١٩٦٦. كانت قد مرّت أربع سنوات على الثورة على الإمام أحمد وبعده ابنه الإمام البدر. كنت أنوي الذهاب إلى صنعاء. ركبت الطائرة من أسمرة في إثيوبيا، وكانت تلك الطائرة هي الوحيدة التي يملكها اليمن في ذلك الوقت. أي إنها شكلت وحدها كل ما يمكن تسميته الخطوط الجوية اليمنية. اشتراها الإمام أحمد في أواسط الخمسينيات، لتغدو القناة الوحيدة بين اليمن والعالم. ولعدم توافر طائرة غيرها، باستثناء طائرة أخرى تطير مرة في الأسبوع من جيبوتي إلى تعز ويقودها طيار فرنسي هرم من مخلفات حرب الهند الصينية، كانت الطائرة تعمل بعقلية باص، إذ تتوقف بحسب الركاب. أقلعنا من أسمرة، وبعد نحو ساعتين ونصف ساعة، هبطت الطائرة في الحديدة، لأن هناك ركاباً يريدون النزول هناك. لم يكن لديّ أي خيار سوى أن أذعن وأنتظر حتى تعود وتقلع من جديد. كنت أظنّ أنها ستتجه إلى صنعاء، إلّا أنها بعد أن أقلعت من

كنت أنوي الذهاب إلى صنعاء. ركبت الطائرة من أسمرة في إثيوبيا. وكانت تلك الطائرة هي الوحيدة التي يملكها اليمن في ذلك الوقت. أي إنها شكلت وحدها كل ما يمكن تسميته الخطوط الجوية اليمنية.

الحديدة هبطت في تعز. نهض الركاب عن مقاعدهم، ونزلوا من الطائرة. أمّا أنا فبقيت جالساً. تقدّم مني أحد

أفراد الطاقم ليخبرني بأنّ تعز آخر محطة اليوم، «لكنّني ركبت الطائرة لا لآتي إلى تعز، بل لأنّني أريد الذهاب إلى صنعاء»، قلت. لكن الطائرة لم تكن لتستطيع الإقلاع من تعز إلى صنعاء براكب واحد، فبقيت في تعز. وكان عليّ أولاً أن أجد أمتعتي التي اختلطت بصرر ثياب الركاب الآخرين وسلال الفاكهة والخضرة والقات.

لم يرق الإمام أن يكون توقيعه في أسفل الورقة. فأمر بتغيير الكتابة كلها. وبدلا من أن تظل من فوق إلى تحت كسائر لغات العالم تقريبا، قلبها لتصبح من تحت إلى فوق. وبذلك يعتلي توقيعه القمة.

لم أكن أعرف شيئاً عن اليمن، سوى ما كتبه صحافي ذكي و«ريبورتر» قدير هو أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب». وفي المطار، انتشرت طائرات الميغ المصرية، فضّية اللون، التي كانت تلمع تحت وطأة الشمس. وكان بعضها يحلّق وبعضها يهبط بين أكواخ خشبية وخيام عسكرية في المطار، أبرزت جواز سفري السوري لضابط الأمن، الذي أبدى استغرابه سائلاً «أنت آتٍ من لبنان؟ ما الذي جئت تفعله في تعز؟»، سألني من باب الفضول لا التحقيق، خاتماً جواز سفري بابتسامة ودودة. قال لي إنه لم يأت من صحافيي لبنان إلى اليمن قبلي إلّا واحد بقي لعدة أيام بعد ثورة عام ١٩٦٢.

كان الوقت ظهراً، وبعد أن ناولني الضابط جواز سفري، تقدّم مني شاب وسارع إلى حمل أمتعتي إلى التاكسي. كان يضع خنجراً كبيراً على خصره، ما جعلني أتجنّب المجازفة بإعطائه بقشيشاً قليلاً. اليمني لم يفترق عن خنجره منذ أيام بلقيس ملكة سبأ. «إلى أين»؟، سألني سائق التاكسي. «إلى أقرب فندق»، قلتُ. «ليس هناك في تعز كلها إلا فندق واحد، «فندق الأخوة»، سآخذك إليه»، قال. في الطريق، لاحظت أن سائق التاكسي يمضغ شيئاً ما، ويبقيه داخل فمه مكوّراً بين خدّه وأسنانه، وكان يقود بسرعة لا تتناسب والطريق الترابية. أدركت أنّ ثمّة شيئاً ما غير عادي، فسألته: «لماذا تقود بهذه السرعة؟ أنا لست مستعجلاً». أجاب «لكنّي مستعجل. لقد تأخرت، الساعةُ الثانيةَ عشرة ظهراً، وعليّ أن ألحق حفلة التخزين». لم أشأ أن أزيد في السؤال، ولم أفهم ماذا عنى بكلامه. لكنّي علمتُ لاحقاً أنّ اليمنيين يبدأون بالتململ بعد الثانية عشرة ظهراً، فدوام العمل ينتهي عند فترة الغداء، وينصرف العامّة بعدها إلى «التخزين»، أي مضغ القات، مُدخلين مدينة تعز في حال من الشلل التام. فتعزّ لديها علاقة خاصة مع القات الذي يأتيها من جبل «صبر» المشرف عليها والمحيط بها، و«صبر» مصدر لأجود أنواع القات وأكثره فاعلية في العالم. فاليمن كما سيخبرني لاحقاً وزير اقتصاده محمد سعيد العطار، يضيّع نحو ثلاثة مليارات ساعة عمل في السنة، بسبب القات.

قبل الثورة، كانت الإقامة الوحيدة المتاحة للأجنبي في صنعاء هي بيت الضيافة. دار قديمة، لا يمكن الزائر مغادرتها إلا بإذن الإمام الذي يحدد أيضاً موعد سفرك، لذلك بدت الإقامة في فندق «الأخوة» في تعز إحساساً حقيقياً بالحرية. وكان الفندق مفخرة السياحة اليمنية. عمارة من الباطون، يُتباهى بأن فيه حماماً و«دوشاً»، وكانت لائحة الطعام فيه لا تشتمل إلا على البيض المقلي وطبخات يمنية، كان من بينها لحم غنم مسلوق بحلّة كبيرة بالبهارات يقدَّم مع خبز لذيذ جداً. ولأنّ الفندق يقع على قمّة جبل عال، فقد بدت تعز من غرفتي كأنّها مدينة من الورق.

غير أن أول ما لفت نظري فعلياً في اليمن، كان أنّ العرائض والطلبات الرسمية تكتب من تحت إلى فوق. واحدة من العادات القليلة التي ابتكرها الإمام خلال حكمه، وتوارثها الثوار من بعده. إذ لم يرُق الإمام أن يكون توقيعه في أسفل الورقة، فأمر بتغيير الكتابة كلها، وبدلاً من أن تظلّ من فوق إلى تحت كسائر لغات العالم تقريباً، قَلَبها لتصبح من تحت إلى فوق، وبذلك يعتلي توقيعه القمة. رأيت ذلك أول مرة في بيت المحافظ الذي ذهبت لمقابلته في تعز قبل توجهي إلى صنعاء. أتذكّر أن بيته كان يقع أعلى درج لولبي ضيّق وقذر، ولم تكن هيئته توحي بمكانته. وفيما فوجئت بأنه هو المحافظ، فوجئ هو بأنني صحافي من لبنان، إذ أثار ذلك دهشته. وبعد دقائق على بدء الحوار الصحافي معه، تنبّه إلى الوقت قائلاً: «لا يمكنني الاستمرار. إنه وقت التخزين. فلنستكمل المقابلة في المساء».

لا بدّ من صنعاء

مكثتُ بضعة أيام في تعز، ثم ركبت الطائرة القديمة نفسها متجهاً إلى الحديدة. ومن هناك استقللت سيارة لبلوغ صنعاء، بما أن بلوغها جواً يبدو مستحيلاً لقلة عدد الركاب. كان الحر في الحديدة شديداً، ولم يكن اختراع التكييف قد وصل إلى اليمن بعد. وكانت نسخة أخرى

من فندق «الأخوة» بانتظاري. رأيت الناس يسيرون في الشوارع وفي أيديهم مناشف لتجفيف العرق. وفي اليوم التالي قبل الظهيرة، ركبت سيارة أجرة. كان عليّ أن أبلغ صنعاء قبل المغيب، إذ بعد السادسة مساء يصبح السفر بين صنعاء والحديدة ممنوعاً. استغرقت الطريق من الحديدة إلى صنعاء خمس ساعات، وكانت الطريق الوحيدة المعبدة في كل اليمن في ذلك الوقت. شَقّها الصينيون أيام حكم الإمام.

كانت صنعاء من أجمل مدن العالم في ذلك الوقت. عماراتها الأيقونية وسورها القديم رسما ملامحها الأقوى. ظننتُ أنني أنظر إلى مدينة خارجة من رسوم أحد الكتب القديمة المجنّحة. صنعاء كانت تستحقّ الانتصار في تلك الحرب.

بعد أن هبطنا في مطار الحديدة، ألقيت حمولة الطائرة مباشرة على الرمال التي كانت تكسو أرض المطار الصحراوي. وساد الهرج واختلط الركاب بضباط الأمن ورجال الجمارك، حتى لم يعد بالإمكان تمييز أي منهم، إذ كان المطار يعجّ بالطائرات الحربية اليمنية، وقد استقرّت في الحديدة خوفاً من ضربها في صنعاء. كان من بينها تسع طائرات نقل سوفياتية طراز «أنطونوف» رفعت العلم الأحمر. أخذت أمتعتي من كومة الحقائب، وركضت مباشرة إلى طائرة «داكوتا» مجاورة ستنطلق إلى صنعاء فور أن تمتلئ بالركاب. كان الناس يتدافعون إليها، ومن يصل إليها أولاً يكن بإمكانه ركوبها، وإلّا بقي في الحديدة. كان الناس يلقون بأمتعتهم فيها ويرفع بعضهم بعضاً إليها. وبهذه الطريقة، أصبحت داخل الطائرة.

لا يمكنني أن أنسى منظر صنعاء محاطة بأربعة جبال شاهقة في مشهـــــــــــــد ساحر. أما أبوابها، فكانت قد هدمت في الحرب، باستثناء واحد، الباب الحجري وهو الذي تعلق عليه الرؤوس.

صنعاء قريبة من الحديدة، والرحلة لم تستغرق سوى ساعة واحدة. وإلى هذه اللحظة، لا يمكنني أن أنسى منظر صنعاء محاطة بأربعة جبال شاهقة في مشهد ساحر. أما أبواب صنعاء القديمة، فكانت قد هدمت بفعل الحرب، باستثناء واحد، الباب الحجري وهو الباب الذي تعلّق عليه الرؤوس بعد إعدام أصحابها. لقد شهدت المدينة بعض التغييرات في مظاهرها. ازداد عدد المقاهي مثلاً، حتى أن واحداً منها، وهو «مقهى ساحة التحرير» يذيع أغنيات أم كلثوم كل ليلة. غير أن المحلات التجارية بدت مقفرة، فالزبائن المصريون رحلوا، وهم من كان يشتري الكاميرات والسخانات والبرّادات والترانزيستور.

لفت انتباهي في العاصمة تفشّي المظاهر المسلّحة. كان كلّ مواطنٍ تقريباً مسلحاً بصورة متطرّفة. يمشي في الشارع حاملاً رشاشاً وبندقية، وعلى خصره مسدس وعشر قنابل يدوية أحياناً، ويحيط بصدره ما بين خمسمئة وألف رصاصة موزعة في أمشاط. إلى جانب ذلك، فإن الوجود الصيني الذي بدأ مع الإمام، لم يتأثر بالثورة. فالصينيون لم يتدخّلوا بأيّ شكل من الأشكال. وبفضل ذلك، كان المواطن اليمني يكنّ لهم احتراماً خاصاً، ويبدي ارتياحاً في التعامل معهم. لقد شقوا الطرق، ومنها طريق الحديدة – صنعاء، التي كانت سبباً رئيساً في اندلاع الثورة، إذ تمكّن الثوار عبرها من تأمين الأسلحة من ميناء الحديدة إلى صنعاء. أنجزها الصينيون بأقل من ثلاث سنوات، نكاية بالأميركيين الذين جزموا بأنّ شقّ طريق كهذه سيستغرق وقتاً أطول من ثلاث سنوات، ثم بنوا مصنعاً للنسيج.

وبفضل ذلك المصنع، كانت تلك المرة الأولى التي تعمل فيها المرأة في تاريخ اليمن. ورغم كل هذه الخدمات التنموية التي قدّمتْها، إلا أن الصين لم تستطع أن تؤثر إيديولوجياً في المجتمع اليمني. صحيح أن كل يمني تقريباً، كان يضع على صدره أزراراً حمراء معدنية عليها رسم ماو تسي تونغ، لكن ذلك لم يكن إيماناً بنهج تونغ أو فكره، بل لأن اليمنيين أحبوا أن يتزينوا بأشياء برّاقة.

عدن الحرب الأهليّة

من صنعاء توجهت إلى تعز، حيث الناس أكثر هدوءاً، ولم يكن الزائر سيصفعه مشهد السلاح المنتشر كما في صنعاء. غير أن الجميع كان مشغولاً بحديث الوحدة اليمنية. ذكّرني ذلك ببيروت وشعارات الوحدة العربية فيها. وبعد تعز، انتقلت بالسيارة إلى عدن، عبر طريق وعرة وطويلة استغرقت ما بين ستّ وثماني ساعات. كان على السيارة أن تتوقّف عند أكثر من ستّ نقاط تفتيش، وفي الطريق، ما إن يعرف الناس أنني متّجه إلى عدن، حتّى يقتربوا ليكتبوا بأصابعهم على غبار السيارة كلمة «قلوسي»، وهي الأحرف الإنكليزية لاسم جبهة التحرير، أحد أحزاب الجنوب. لقد كانوا من أنصار جبهة التحرير، وقد طردتهم الحرب خارج عدن. غير أنّ دخول عدن لم

يكن يسيراً. كانت المدينة تعجّ بالمتاريس ومراكز التفتيش البريطانية السابقة. التي ورثتها الجبهة القومية، وراحت تقلّد حد الاستنساخ طريقة بريطانيا القاسية في إحكام السيطرة على المدينة والناس.

عدن، المكان الوحيد الذي زارته الملكة إليزابيث من بين كل المدن العربية، كانت الآن أشبه بمدينة مهجورة، العديد من دكاكينها ممشط بالرصاص والقنابل، والحيطان ملونة بشعارات الجبهة القومية وجبهة التحرير على السواء. لقد كان هناك حرب أهلية بين هاتين الجبهتين اليساريتين اللتين تقاتلتا على تركة الاستعمار، بعد الانسحاب البريطاني واستقلال الجنوب اليمني تحت مسمى «جمهورية اليمن الشعبية». كانت ملامح الحرب الأهلية في الشوارع والأزقّة مختلطة بآثار الزينة التي بقيت من احتفالات الاستقلال. وكانت البيوت في عدن مقفرة. لكنّها كانت لا تزال مضاءة من الداخل، كما لو أن البريطانيين نسوا أن يطفئوها أو أن يقولوا للوطنيين أين تكمن أزرار الإنارة. كانت الجبهة القومية تبسط سيطرتها على المدينة، غير أن جبهة التحرير كانت تُعِدّ العدّة لجولة حرب جديدة، بزعمائها الفارّين إلى تعز وجمهورها الذي لاحق سيارتي ليخطّ عليها رسالته إلى الجبهة القومية. فالحرب بالنسبة إلى اليمني حرفة مثل أية حرفة أخرى. واليمنيون لديهم ضمن رقصاتهم، رقصة الحرب التي توارثوها من جيل إلى جيل. لكنها في الجنوب أصبحت بحاجة إلى النقود والسلاح والتأييد.

أطول بار والبريطاني الأخير

في زيارتي الأولى لعدن عام ١٩٦٦، ذهبت لمقابلة المندوب السامي البريطاني السير ريتشارد تورنبول الذي كان لقبه «الدوق الحديدي». أتذكر أن موظفاً بريطانياً رافقني من مدخل فندق كريسنت (الهلال)، وهو الفندق الذي أقامت فيه الملكة إليزابيث خلال زيارتها عدن، واشتهر بأن فيه أطول بار في العالم. كان اسم الموظف دافيد روز. وفي الطريق قال لي: «إذا عدت إلى عدن عند الاستقلال، فقد لا تجد فيها من يستقبل الصحافيين، لأن عدن ستكون مشغولة بين الابتهاج بالاستقلال والبكاء على ضحاياه». كان صوته مليئاً بالسخرية واللؤم. فقد كان يعرف أن البريطانيين يخططون لإشعال فتيل الحرب بين اليمنيين قبل الرحيل بأسرع ما يمكن. غير أن روز لم يتوقّع أنه كان يتحدث عن نفسه في شق من الجملة التي قالها لي، ذلك أن أحد اليمنيين المناهضين للاستعمار، أطلق عليه رصاصة أصابته في ظهره، أمام مدخل الفندق، ليصبح روز واحداً من آخر قتلى البريطانيين خلال فترة الاستعمار.

تذكرت كلام روز وأنا أجول في عدن الآن. لقد بدت أشبه بمسرح صامت للرعب والخراب المنتظم. مسرح لا ينقصه سوى حبكة يكتبها ألفرد هيتشكوك ليجعل رعبه نابضاً. لقد كانت الجثث منتشرة في الشوارع، تنهشها الكلاب ولا تجد من يدفنها. ولم تعد عدن تلك المدينة التي فيها أناس من أكثر من ثلاثين جنسية مختلفة. لقد أقفل فندق كريسنت، في خطوة غبية بعد الاستقلال، واستولى اللصوص على المتاجر، وأصبحت كل بيوت المدينة مدموغة بفجوات الرصاص والقنابل. كل باب وكل واجهة كذلك. حتى إن بعض القنابل التي لم تنفجر، كانت أمام البيوت والفنادق. أما الكنيسة التي بناها الإنكليز على الطراز الغوطي، فقد تحوّلت إلى مقر لمجلس النواب على ما أعتقد. عدن لم تعد تشبه ذاتها في شيء، إذ اختلفت نتيجة المعارك عما كانت عليه قبل عام. كل سفن العالم كانت تمر بمرفأ عدن في ما مضى. وكان ميناؤها من أهم الموانئ. أمّا بعد الاستقلال، فقد غادرها قرابة مئة ألف مواطن هرباً. لقد خلفت بريطانيا أكبر عملية فوضى في تاريخها الاستعماري بعد فلسطين، ثم انسحبت. لتختم بذلك تاريخاً طويلاً من استعمار القوى لليمن، من الرومان والفرس، إلى البرتغاليين والأتراك والمصريين. وجميعهم غادروها مهزومين.

دول حضرموت وعمارتها

توجهت بعد عدن إلى وادي حضرموت. إنه وادٍ كبير، جفّ نهره منذ نحو قرن، ويشكل النخيل جلّ خضرته. تُزنِّره جبال متقاربة من الجهتين. أمّا مدنه، فبدت أشبه بالخرافة، في انعزالها وهدوئها، رخائها وبساطتها. فهي ليست محاطة إلا بواحات كبيرة من النخيل، وأبنيتها أشبه بناطحات سحاب من الطين. لم أتوقع أن أجد في حضرموت ما يثير اهتمامي. حطّت الطائرة في مطار صغير وسط الوادي، وسط الصحراء، تابع لقرية غراف الصغيرة والواقعة بين مدينتي سيؤون وتريم. شعرت لوهلة بأن ما يحدث ليس حقيقة وأنني أتوهم، ربما لفرط ما رأيت من جثث وخراب في عدن. لكن كل شيء كان هادئاً هنا، منعزلاً وبسيطاً كحلم. في غرفة من الطين مطلية بالأبيض، سألني الموظف بلباقة لافتة وهو يتفحص جواز سفري: «أين تأشيرة الدخول التي منحتك إياها الدولة الكثيرية؟». «الدولة الكثيرية؟ أنا لم أسمع بهذه الدولة من قبل»، قلت. إلا أنه لم يعلّق. وضع جواز سفري بين أوراق أخرى لمسافرين اكتظّت بهم الغرفة

مع أمتعتهم، ثم سألني بلطف: «هل جئت بهدف الزيارة أم العمل؟». «العمل؟»، جاوبت مستغرباً، إذ إنه آخر مكان يمكن أن يتخيل المرء أنّ فيه عملاً.

كنت الآن أدخل سلطنة صغيرة، سلطانها بعيد يعيش منذ أكثر من عشر سنوات على جزيرة سقطرة، تحيط بها دولة غنية نسبياً تسمى الدولة القعيطية، ودولة المهرة التي ليست لديها لغة رسمية بعد، وجبالها غنية بالنفط، ولها قبائل منتشرة بين عاد وثمود، بعضها لم يسمع بالإسلام ولا يتكلم العربية. ولم أكن قد سمعت بأيّ منها من قبل.

أوصلتني سيارة لاند روفر من المطار إلى مدينة سيؤون، التي بدت كما لو أنها تعيش بعداً آخر خارج الحرب والدم والصراعات التي كانت تدور في جارتها عدن. كانت أشبه برسمة بيوت ملونة حمراء وخضراء وزرقاء وبيضاء، ذات هندسة محلية خاصة، مصنوعة من الطين فقط، لا حجر فيها أو إسمنت. بيوت قد ترتفع إلى عشر طبقات. كما لو أنك في حكايات ألف ليلة وليلة، وتفصل بينها شوارع نظيفة. رغم كل ذلك، كنت لا أزال غير مصدّق. سألتُ السائق عمّا إذا كان هناك فندق، فأجاب: «بالتأكيد». كان فندق سيؤون أجمل فنادق اليمن وأكثرها رقياً. غرف صغيرة، يحيط بها النخيل وواحات ماء صغيرة للسباحة. كان كل شيء مهيّأً ليناسب الشعراء. ويجدر القول إن المدينة لا تزال إلى الآن تحتفظ بتقليد مبايعة الشعراء، إذ تختار منهم واحداً ليكون شاعرها الرسمي.

وضعت أمتعتي في غرفة الفندق ونزلت إلى شوارع سيؤون. كنت متحمساً لاكتشافها. التقطت عيني قصر السلطان الذي لا يمكن المرء أن يخطئه. صرح ضخم يعتبر إلى الآن من معالم حضرموت، من خمس وأربعين غرفة، فوق هضبة تُطل مباشرة على السوق والباعة.

كانت التجارة التي تميز سيؤون في ذلك الوقت هي بيع الصور. صور لسلاطين ذابت أسماؤهم، ومعها صور لزعماء مثل عبد الناصر، وأيوب خان وشاه إيران وفرح ديبا والملكة إليزابيث. دخلت أحد الدكاكين التي تبيع صوراً كهذه. وقال لي البائع: «يمكنك أن تطلب صورة لأيّ كان وستجدها هنا». ابتسمت. وبعد تفكير قصير قلت له: «حسناً، عنترة بن شداد». فأخرج لي صورة فارس أسود يمتطي حصاناً ويرفع سيفه موشكاً على قطع رأس فارس يبارزه. لم يكن هناك دليل على أنها صورة عنترة بن شداد، مع ذلك احتفظت بها ولم أطلب صورة غيرها.

سكان حضرموت لم يكونوا يعدّون أنفسهم جزءاً من اليمن. كانت علاقتهم باليمنيين قد توقفت منذ قرنين

ونصف قرن من الزمن، ومالوا مع الوقت نحو الشرق الأقصى، وأصبحت لهم عادات مختلفة. في مدينة تريم التي وصلتها باللاند روفر، وكان لها باب ضيّق احتشدت خلفه عمارات شاهقة من الطين، رأيت حشداً من الناس كانوا يطلقون النار في الهواء ابتهاجاً. فقد اصطادوا عدداً من الغزلان التي علّق الفتيان رؤوسها على حراب ورفعوها في الهواء، في تقليد قديم. غير أن ما أثار انتباهي فيها هو كثرة المساجد. سألت مرشدي الحضرمي عنها، فقال: «لدينا في تريم ٣٦٥ مسجداً. أي إن كل يوم من أيام السنة له مسجد. والسبب في ذلك أن أثرياء حضرموت يوصون ببناء مسجد على أرواحهم، بدلاً من أن يبنوا مدرسة أو مستشفى. أرجو أن يتغير الحال». بعد تريم، زرت مدينة المكلا، نافذة حضرموت على البحر والعالم. لم يكن الوصول إلى هذه المدينة ممكناً إلا عبر طريق تمرّ عبر منحدر جبلي ضيّق. ركبت الطائرة أولاً من عدن إلى الريان، القرية الصحراوية المتاخمة للمكلا، ومن هناك كان عليّ أن أستقلّ لاند روفر لبلوغ المكلا، وكان معي زميل أجنبي. لكنّنا لم ننطلق باللاند روفر إلا بعد أن انتظرنا لقرابة ثلاث ساعات في الريان ريثما يتراجع المدّ، ويصبح من الممكن للسيارات السير بمحاذاة الشاطئ. عندما وصلنا، كان المدّ قد ترك آلاف الأسماك الملونّة على الشاطئ، التي كانت عجلات اللاند روفر تسير فوقها، فيما السلاحف تقف على مقربة متهيئة لالتهام السمك، والطيور البحرية تضرب بأجنحتها زجاج السيارة. كانت المكلا كما لو أنها مقطع من رحلة خرافية.

السلطان الأخير

كانت أمامي مهمّة أخيرة الآن، هي أن أقابل السلطان، سلطان الدولة القعيطية. كان أصغر سلطان في العالم في ذلك الوقت، قبل أن يضطر إلى التنازل عن عرشه في أيلول ١٩٦٧ بعد أن بسطت الجبهة القومية اليسارية يدها على سلطنته لتجعل منه آخر السلاطين الذين حكموا الدولة القعيطية لنحو أربعمئة سنة. توجهت إلى قصره في المكلا، ولم يكن هناك من حراس على بابه سوى جندي واحد حافي القدمين وبين يديه بندقية عتيقة. لم يسألني «إلى أين؟» وأنا أعبر بوابة القصر. بدا كل شيء في غاية الهدوء، ثم ظهر شاب لاستقبالي. ظننت بداية أنه أحد العاملين لدى السلطان، إذ كان يحمل عصا من البامبو الهندي، ووقف على رأس درج من الخشب. عندما وصلت إليه صافحني وتحدث إليّ بلغة إنكليزية سليمة، قائلاً بصوت بالكاد أمكنني سماعه: «أنا السلطان». بدا مرتبكاً وهو يستقبلني كما لو أنني إنسان من عالم غريب. كان ينظر إلى الأرض ويفرك يديه ونحن نتحدث دون أن يرفع صوته. أخبرني أنّ والده كان سلطاناً وأمه ابنة عم حيدر أباد. يتكلم الأوردية وعربيته ركيكة. قال إنه تلقّى علومه في بريطانيا، وكان طموحه أن يدرس الفلسفة في أوكسفورد، إلا أن موت والده عوض حال دون ذلك. كان حزيناً وهو يحدّثني عن أحلامه بأن يواصل تعليمه. اختنق صوته وأحسست بأنه على وشك أن يبكي، فقد كان مجرّد شاب في الثامنة عشرة من عمره لا يفقه أي شيء في أصول الحكم أو السياسة.

عندما شعرت بأنه على وشك البكاء، انتقلت من مقعدي إلى الكرسي الذي بجانبه. قال لي إنه يريد أن يزيح عبء الفقر عن كاهل شعبه في القعيطي. تحدثنا قليلاً في السياسة، إلا أنه عندما جاء خادمه بالشاي غيرت الموضوع وانتقل الكلام إلى الكتب. لم يكن يطالع الشعر أو الرواية، وكان في ذلك الوقت يقرأ دستور سورية وكتاباً عن قراءة الكفّ. لم أسأله أي دستور من دساتير سورية بالضبط ذلك الذي يقرأه. لربما كان أكثر السلاطنة فقراً في العالم. فأي بيت في حيّ السراسقة في بيروت كان يحوي تحفاً أكثر قيمة مما في قصر السلطان كله. وبدا واضحاً أنه غير مدرك بعد أبعاد المأزق السياسي الذي سيكون عليه مواجهته. عندما خرجت من قصره، رحت أبحث في شوارع المكلا عن صورة له بين باعة الصور، إلا أن أياً منهم لم يكن يملك صورة لسلطان الدولة التي يعيش في كنفها. كانوا يقولون لي: «عندنا صورة لعبد الناصر أو للمشير عامر أو السلال، أما السلطان فلا». غير أن قصة بحثي عن صورة له وصلت إلى السلطان، فأرسل لي في صباح اليوم التالي صورة له عليها توقيعه. كانت تلك الصورة الوحيدة التي يمتلكها. غير أن قصتي معه لم تكن لتنتهي هنا. ففي بداية السبعينيات، حصلت على منحة دراسة في جامعة كامبريدج في بريطانيا. وفي أحد الأيام، فيما أنا جالس في المكتبة، تقدم مني شاب أسمر البشرة. قال: «ألست السيد رياض الريس؟»، أجبته: «نعم، أنا هو. من حضرتك؟»، فأجاب: «أنا غالب، السلطان الذي قابلتَه في المكلا قبل أعوام». «ما الذي تفعله هنا؟»، سألته. كان قد أصبح لاجئاً سياسياً بعد أن استولى القوميون على دولته، يتلقى راتباً من الحكومة البريطانية ويواصل تعليمه. ثم رأيته مرة ثالثة في الثمانينيات، عندما أتى لزيارة مكتبة الكشكول التي كانت تديرها زوجتي في لندن، لاقتناء بعض الكتب.

ملف

٨٦ بيروت في حوارية الرواية والعمارة
الياس خوري وجاد تابت

بيروت في حوارية الرواية والعمارة

الياس خوري

روائي وناقد وجامعي، لبنان. من اعماله «باب الشمس» (١٩٩٨) «يالو» (٢٠٠٢) «سينالكول» (٢٠١١) «اولاد الغيتو. إسمي آدم» (٢٠١٥).

جاد تابت

معمار، مخطط مدني، يعيش ويعمل بين باريس وبيروت. تشمل اعماله التاريخ الحضري، اعادة تأهيل النسيج المدني، والاسكان الاجتماعي. عضو في لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة الاونسكو.

ننشر فيما يلي الحوار بين المهندس جاد تابت والروائي الياس خوري، الذي نظمه «المركز العربي للعمارة» و«بيت الكتب» في بيروت في متحف سرسق, في ٣١ اب \ اغسطس ٢٠١٦.

الياس خوري: الرواية والعمارة

لا أعرف ما العلاقة بين الرواية والعمارة، لكنّني أعرف أنّ صداقتي الطويلة مع جاد تابت، أخذتني إلى عوالم جديدة، يقوم فيها المعماريّ بتحويل الخيال إلى حقائق لا نراها فقط بل نقيم فيها أيضاً.

فنحن نعيش في عالم ملموس رسمَه خيال مهندس، وفي هذا العالم، سواء أكان بيتاً أم مقهى أم شارعاً، نحوّل هذا الواقع إلى متخيَّل تصنعه أحلامنا. المعماري يحوّل الخيال واقعاً، بينما يقوم الكاتب بتحويل الواقع بعناصره البشرية والماديّة إلى خيال. عملان يفترقان في الهدف لكنّهما يلتقيان عند نقطة يتقاطع فيها المتخيّل بالمتخيل، بحيث تصير العمارة كتاباً نعيش بين سطوره، وتصير الرواية عمارة نعيش مع أبطالها الذين يصبحون حقيقيّين في وعينا، بل ربما أكثر حقيقية من الحقيقة التي نراها.

المتخيل هو عيوننا الخفيّة التي نعيد بها رسم ملامح العالم، كي نعطي معنى لحياة تبحث دائماً عن معناها، ولا تجده.

لا أحاول في هذه الكلمة القصيرة أن أنظّر، بقدر ما أحاول التعبير عن تجربتي في صحبة معماري كان دليلي إلى بيروت بأزقّتها المدمّرة، وتاريخها الذي طمرته الحرب قبل أن تمحوه جرّافات السلام.

وفي طرابلس القديمة، عندما كنت أكتب روايتي «سينالكول». مشيت صحبة جاد في الشوارع كأنّنا نمشي بين سطور رواية كتبها الزمن.

كنت أبحث عن أزقّة روايتي، وكان المهندس دليلي إلى عالم متخيل تحوّل إلى واقع عشت في داخله ثلاث سنوات.

علاقتي بالمهندس أخذت شكلها العملي في معركة مقاومة مشروع «سوليدير». يومها كان جاد مع عاصم سلام ومجموعة من المعماريّين يحاولون إنقاذ المدينة من هندسة الحرب والخراب، وكنت معهم على صفحات «الملحق»، التي تحوّلت إلى ميدان معركتنا التي خسرناها.

كانت الفكرة ألّا نسمح للحرب وقيَم الرأسمال المتوحّش التي التصقت بها عبر وبعد اتفاق الطائف أن تكون مهندس مدينتنا الوحيد. صحيح أنّ الحروب هي أكبر مهندس تنظيم مدنيّ في التاريخ، لكنّ الصحيح أيضاً هو أنّ البشر يعيدون هندسة ما صنعه توحّش الحروب بنكهة البعد الإنسانيّ الذي يدافع عن قَيَم الحياة. غير أنّ محاولتنا الفاشلة كانت النذير الأوّل لمسار الخراب الروحي والمادي الذي سيجتاح وطننا الصغير.

خسرنا معركة الواقع ربما، لكنّنا صنعنا مدينتنا بكلماتنا وأحلامنا.

إلى هذه المدينة المتخيَّلة ندعوكم اليوم، كي تشهدوا على الصراع الذي يدور في الكلمات والصوَر بين مدينتين، وكي تكون شهادتنا عن بيروت، صورة للمدينة التي يغيّبها اليوم وحش الباطون المسلّح، لكنّها تستعاد بكلماتنا ومرايا أرواحنا المتشظّية.

جاد تابت: أزمنة المدينة

بالإمكان قراءة المدن بوصفها تجميعاً لعدّة عوالم تتمفصل حول أنساقٍ مبنيّة ومساحاتٍ مفتوحة. ومن شأن هذه الأماكن المتنوّعة، شوارع وساحات وحارات، أن تؤلّف شذراتٍ من واقعٍ ما، كما من شأنها أن تعبّر عن أزمنةٍ أخرى أو عوالم أخرى، ماضياً أو مستقبلاً.

هكذا، تكون جادّة فؤاد الأوّل، حرفيّاً، هي اسكندريّة داريل، وساحة المدينة القديمة هي براغ كافكا ونهج نيفسكي هو سان بترسبورغ دوستويفسكي.

كما يستحيل التجوّل في الأزقّة المتفرّعة من حارة الصنادقية دون تخيّل قاهرة نجيب محفوظ أو تسلّق تلال الأشرفيّة دون استذكار جبل الياس خوري الصّغير.

من خلال سحر الإيحاء في الأسماء ولكن أيضاً عبر تبدّل واجهات البناء أو تحوّل الطّرقات أو ثبات النّصب، ترتسم تجربةٌ معماريّةٌ وثيقة الصّلة بالأدب لقدرتها على بعث ذاكرة الأماكن في الحاضر كمرآة دون طلاء يخترقها النّظر ليصل إلى عالمٍ آخر، عالم الرّغبات والتّخيّلات التي تحدّد إيقاعات أزمنة المدينة.

الياس خوري: يسمونه «الجبل الصغير» (مقتطف من «الجبل الصغير»)

يُسمّونه الجبل الصّغير، وكنّا نسمّيه الجبل الصّغير. نحمل الحصى، نرسم الوجوه، نبحث عن بركة ماءٍ نغتسل بها من الرّمل، أو نملؤها رملاً ونبكي. نركض بين حقوله أو ما يُشبه الحقول، نأخذ سلحفاةً بين أيدينا، ونمضي بها إلى حيث أوراق الشّجر الخضراء تغطّي الأرض. نخترع أشياء نقولها أو لا نقولها. يُسمّونه الجبل الصغير، كنّا نعرف أنّه ليس جبلاً، وكنّا نسمّيه الجبل الصّغير.

تلّةٌ واحدةٌ أو مجموعة تلال. لم أعد أذكر، ولم يعد أحدٌ يذكر. تلّةٌ على الطّرف الشرقيّ لبيروت سمّيناها جبلاً، لأنّ الجبال كانت بعيدة. جلسنا على منحدراتها وسرقنا البحر. الشّمس تطلع من الشّرق، ونحن نخرج من حقول القمح في الشّرق. نقطف السّنابل حبّةً حبّة لنلهو بها. كان الفقراء أو ما يشبه الفقراء يركضون أطفالاً بين حقول التّلال ليسألوا أشياء الطّبيعة عن أشيائهم. هذا الّذي نسمّيه عيداً كان يوماً ككلّ الأيّام، لكنّه يختلط برائحة البرغل والعرق، نأكلها بين أشياء الطّبيعة لنخبرها عن أشيائنا التي بقيت في الذّاكرة حلماً. كان الجبل الصّغير مجرّد حافّة نخترقها في تعجّب وكبرياء. ننسج القصص عن أحزاننا وننتظر لحظاتٍ الفرح أو الموت، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الأيّام.

يُسمّونه الجبل الصّغير، وكان يمتطي الحقول الواسعة إلى شجيرات الصّبير المنتشرة في أنحائه. كانت النّخلة الّتي أمام بيتنا تنحني من ثقل جذعها إلى اليسار. وكنّا نخاف أن تلامس الأرض أو ترتطم بها فاقترحنا ربطها بحبلٍ من حرير وشدّها إلى نافذة بيتنا. لكنّ المنزل كان يتهاوى بحجره الرّمليّ السّميك، وسقفه الخشبيّ. فخفنا أن تسقط النّخلة بالبيت حين تسقط. تركناها تنحني يوماً بعد يوم. وفي كلّ يوم أمسكها من جذعها المتشقّق وأرسم عليها صورتي.

كنّا نخاف على الجبل وعلى نباتاته. وكان يتقدّم إلى حافّة بيروت ويسقط فيها. وشجيرات الصّبّير الّتي تجرح أرجلَنا، تموت، والنخلة تنحني والجبل يتقدّم إلى حافّته.

تأتي الجرّافة

يسمّونه الجبل الصّغير. كنّا نعرف أنّه ليس جبلاً، وكنّا نسمّيه الجبل الصّغير.

هل الجبل ينحدر؟

كانت السّيّارات الكبيرة تتقدّم، تجتاحنا، وترسل أنينها في أرجاء الشّوارع. الجبل يخترق من جميع النّواحي. يقطعون الأشجار ويقيمون البنايات. آلات جبل الإسمنت أصبحت شعار المرحلة. في كلّ شارع آلة يتراكض من حولها العمّال السّوريّون والأكراد. يرمون في أحشائها الرمل والحصى والماء. فتدور على نفسها وترمي بعد ذلك الإسمنت الّذي تُبنى به البيوت العالية الحصينة. تنبتُ البنايات وكأنّها ولدت هنا وتتساقط الحجارة الرّمليّة الدّافئة والسّميكة لتأتي مكانها حجارة الإسمنت المجوّفة والباردة. والعجلة تدور. مئات العمّال يأتون من أكواخ التّنك المروّعة على المدخل الشّرقيّ لبيروت والّتي تُسمّى الكرنتينا، ليحملوا الحصى والرّمل، ويمدّوا الإسمنت على السّاحات.

تأتي الجرّافة، فتسوّي التلّة بالأرض، أو بالعلوّ الّذي افترض للأرض. وتتساقط النّخلة أمام بيتنا بين فكّي

الجرّافة. جذورها المنتشرة فوق الأرض، في بركةٍ من الحجارة والرّمل، تقتلع وتتساقط. تتمزّق كالشّرّايين الصّغيرة أمام القذائف. والأبنية الجديدةُ تعلو. جبالٌ من الأبنية والطّرقات والسّاحات.

هل الجبل ينحدر؟

السيارات الصغيرة كبرت. وأنا كبرت. والبنايات العالية أصبحت تغطي البحر. كنت أعتقد أننا سرقنا البحر. لكن رائحة الإسمنت المسلح سرقت رائحة البحر.

أسير على مفترقاته، أبحث عن طفولتي. أجد أمامي على التّلّة الّتي أسمّيها جبلاً، منحدراً صغيراً يفصل الجبل عن نهر بيروت. السّيّارات الصّغيرة كبرت، وأنا كبرت. والبنايات العالية أصبحت تغطّي البحر. كنتُ أعتقد أنّنا سرقنا البحر. لكنّ رائحة الإسمنت المسلّح سرقت رائحة البحر.

لم ينحدر الجبل.

الأصواتُ على مداخله، والأبنية تتوالد، والسّاحات تُبنى. هذا الصّوت المرتفع لم يعد صوتي. الأصوات تنحني على المداخل، والحركة أصبحت عنوانَ لحظةٍ جديدة. هذا هو الجبل الصّغير الذي لم ينحدر.

تعلو الحجارة وتعلو الرّؤوس. تعلو الموسيقى الصّاخبة وتعلو الرّؤوس. أحمل على جسدي وشماً قديماً يعود إلى الأيّام وأنتظر على حافّته.

جاد تابت: الذكريات الأولى

ليس في الذّكريات الأولى سوى صور متفرّقة، صور تتحرّك كمشاهد مختارة من أفلام سينمائيّة، تربطها محطّات الزّمن.

صورٌ لذلك البيت القديم ذي الطّراز البيروتي التّقليدي، الواقع في شارع عبد الباسط فاخوري بين محلّتَي النّاصرة والخندق الغميق. بيت من طابقين كنّا نسكن في الطّابق الأرضيّ منه، المنظّم حول دار وسطى يدخلها النّور عبر واجهةٍ زجاجيّة تطلّ على الشّارع بقناطرها الثّلاث.

عند تشييده منتصف القرن التّاسع عشر، كان هذا البيت يتوسّط بستاناً فسيحاً يُشرف على قلب بيروت القديمة. لكنّ التّوسّع السّريع للعمران أدّى إلى ضمّ الهضبات المشرفة على المدينة، فشُقّت الطّرقات وأزيلت البساتين لتفسح المجال أمام نظامٍ للبناء أكثر تراصّاً وكثافة.

وقد شُقّ شارع عبد الباسط فاخوري الّذي كان يربط الخندق الغميق بطريق الشّام بمحاذاة الواجهة الرئيسيّة للبيت.

وعندما استأجره أبي في منتصف الأربعينيات، كانت داره الوسطى تطلّ على الشّارع، تفصلها عنه مصطبة ضيّقة تتدرّج فيها بضع درجاتٍ تؤدّي إلى المدخل. وبقي من البستان القديم حديقة خلفيّة فيها بضع شجرات بلح كنّا نلعب تحتها خلال النّهار وتجتمع حولها العائلة بعد غروب الشّمس.

حائط حجري مرتفع كان يحيط بالحديقة من الجهة الخلفيّة، يفصلها عن الحي الداخلي الّذي كنّا نسمّيه «حارة المتاولة»: مجموعة من البيوت المتراصّة المنتظمة حول الممرّات الضّيّقة والأحواش الداخليّة، تمتدّ لتتّصل بأحياء البسطا ورأس النّبع. وكان أولاد الحارة يتسلّقون الحائط أحيانًا فنتلاسن معهم ويرشقوننا بالحجارة وقناني الزّجاج الفارغة.

في سنوات الصّبا الأولى، كان هذا الحائط يمثّل بالنّسبة لي حدوداً تفصل عالم بيتنا الآمن عن العالم الخارجيّ المجهول. وحتّى سنّ المراهقة، ظلّ ينتابني شعورٌ من الارتياب العميق تجاه هذا العالم الذي كان يبدو لي محفوفاً بالمخاطر. إلى أن تعرّفتُ إلى أحد شبّان المحلّة، فاستقبلني في منزله وتجوّلتُ معه في دروب الحارة واكتشفتُ أسرارها، فصرتُ أقصدها لألهو مع رفاقٍ جدد أمضي معهم وقت الفراغ.

مرّت سنونٌ عديدة كان يبدو لي فيها الحيّ الذي نسكنه وكأنّه لن يتغيّرَ أبداً، فنادراً ما كانت إحدى العائلات تغادر الحارة أو تنتقل من منزلٍ إلى آخر. والدّكاكين القليلة كانت تعرض البضاعة نفسها سنة بعد سنة. فلم نكن نشعر بمرور السّنين إلّا عبر حتميّة الزمن المدرسي، الذي كان ينقلنا من صفّ إلى آخر.

«الثورة» ومشاريع التحديث الشهابيّة

غير أنّ وجه الحيّ بدأ يتغيّر إثر ثورة ١٩٥٨ والمباشرة بتنفيذ تخطيط جادّة بشارة الخوري. ورغم أنّ العلاقة

بين هذين الحدثين قد لا تكون مباشرة، فقد ظلّا مرتبطين في ذهني حتّى الآن، وكأنّهما واقعة واحدة قلبت العالم الّذي كنّا نعيش فيه رأساً على عقب.

كان بيتنا يشكّل الحدّ الفاصل بين مواقع الدّرك المتمركزة في أعلى بناية العويني المطلّة على حديقتنا من الناحية الشّرقيّة والمتاريس التي أقامتها «المقاومة الشعبيّة» في الأحياء الدّاخليّة. وكان معظم التّراشق يحصل ليلاً، فنلجأ إلى غرفة أبي التي كانت تبدو لنا أكثر أماناً من غيرها، ونستيقظ باكراً لنخرج إلى الحديقة و«نحوّش» الرّصاصات الفارغة. وتحوّل الحيّ إلى خطّ تماس، يصعب فيه التجوّل والتّنقّل بسهولة من منطقةٍ إلى أخرى.

استمرّت الثورة لأشهر قليلة، بدا لنا وضع الحيّ من بعدها وكأنّه سيعود إلى حالته الطّبيعيّة. إلّا أنّ مجيء الحكم الشّهابّي الجديد ترافق مع تنفيذ مشاريع عمرانيّة كبرى، فما إن انتهت الثّورة حتّى تقرّر هدم جزء من «حارة المتاولة» لشقّ جادة بشارة الخوري، ثمّ تقرّر هدم الجزء المتبقّي منها بعد سنواتٍ قليلة لتنفيذ تخطيط شارع الاستقلال.

محلّ أزقّة الحارَة وأحواشها الدّاخليّة شُيّدت، بمحاذاة الشّوارع الجديدة، مبانٍ عالية لا شكل لها ولا طابع، وأزيل النّسيج العمرانيّ للأحياء القديمة دون أن يُستبدل بنظام حديث يؤمّن الحدّ الأدنى من شروط التّماسك المدنّي. فمشاريع السّتينيّات، الّتي هدفت إلى ربط أحياء المدينة ببعضها، مزّقت الوحدة الدّاخليّة لتلك الأحياء وبدّلت في طابع الأمكنة وترتيب الأوقات، لكنّها فشلت في إقامة وحدة مدينيّة بديلة.

محل أزقة الحارة وأحواشها الداخلية شيـــــــــــــــدت. بمحاذاة الشوارع الجديدة. مبان عالية لا شكل لها. وأزيل النسيج العمراني للأحياء القديمة دون أن يستبدل بنظام حديث يؤمـــن الحد الأدنى من شروط التماسك المدينـــــــــــــــي.

فالتّحديث القسري الّذي حاول الحكم الشّهابي إدخاله لم يطَل أساس البنية السّياسيّة للنّظام الطّائفي ولم يتمكّن من المضيّ في إصلاح فقدان التّوازن بين المناطق وبين مختلف الطّبقات الاجتماعيّة. وأدّى تفكّك المجتمع الريفيّ التّقليدي تحت تأثير دخول الرّأسماليّة إلى ازدياد الهجرة الريفيّة نحو العاصمة، فتفاقمت حدّة التفاوت الاجتماعي وأحيطت المدينة بحزام من البؤس ممّا أنذر بأنّ النّموذج المديني لبيروت قد دخل في طور الأزمة.

وقد أدّى فشل مشاريع التّحديث الشّهابيّة إلى التّفكّك التدريجي لحيّز المدينة ومن ثمّ إلى تفجيره.

الياس خوري: المحاية الكبيرة (مقتطف من «الوجوه البيضاء»)

جثة قرب تمثال حبيب أبو شهلا

هذه ليست قصّة، وهي لن تلفت نظر القرّاء بشكلٍ خاصّ، فالناس مشغولون في هذه الأيّام بقضايا أكثرَ أهمّيّة من قراءة القصص أو الاستماع إليها، والناس معهم كل الحقّ. لكنّ القصّة حدثت.

والحقيقة أنّها لم تحدث هكذا، فقد قرأت في أحد الصّباحات خبراً صغيراً في الجريدة «جريمة قتل مروّعة في منطقة الأونيسكو»، ولا أعلم لماذا كلّما قرأت كلمة مروّعة تقفز إلى ذهني كلمة رائعة، فانطبعت العبارةُ في ذهني هكذا: جريمة قتل رائعة في منطقة الأونيسكو. قفزت عيناي عن هذه الجريمة الرّائعة لتستقرّ على صورة القتيل.

رجلٌ في العقد الخامس من العمر، وآثار كدمات على الصّدر العاري، وجروحٌ وثقوبٌ في الوجه. لم أتوقّف طويلاً أمام الصّورة، فأحلام اللّيل المرعبة تكفيني وأنا لستُ بحاجة إلى كوابيس جديدة.

حاولتُ أن أتذكّر فلم أتذكّر الاسم، ثمّ تذكّرتُ أنّني ربّما التقيتُ هذا الرّجل في مكانٍ ما. ثمّ قرأتُ الخبر، وكان الخبر المنشور إلى جانب الصّورة صغيراً جدّاً: «العثور على جثّة رجل مجهول الهويّة في محيط منطقة الأونيسكو في بيروت، قبل تمثال حبيب أبي شهلا، وعلى الجثّة آثار جروح وكدمات وطلقات ناريّة، وقد أفاد تقرير الطّبيب الشّرعيّ أنّ الوفاة حدثت قبل ثلاثة أيّام».

ثمّ وجدتُ نفسي أنساق وراء الخبر وأتابع أخبار هذه الجثّة. فأنا منذ أن كنت صغيراً وأنا معجب بشخصيّة حبيب أبي شهلا، فهو أحد صنّاع استقلال لبنان، ثمّ إنّ تمثاله هو التّمثال الوحيد لقادة الاستقلال الّذي لم يسقط في الحرب الأهليّة، تمثال رياض الصّلح سقط، وتمثال بشارة الخوري دمّر، ولم يبقَ إلّا حبيب أبو شهلا

شاهداً على الاستقلال. وبالإضافة إلى ذلك، فأبو شهلا لم يكن شخصيّة عاديّة، والدّليل على ذلك هو أنّه مات بطريقةٍ غير عاديّة، إذ يروى أنّه مات وهو يضاجع امرأة.

قالوا لها إنّ الحرب انتهت

وفاطمة فخرو تقف أمام هذا الرّجل، وهو يتلفّت يميناً ويساراً كأنّه مرعوب، كأنّه ينتظر سكّيناً سوف تنغرس في رقبته. يتلفّت ويرفع يديه الإثنتين إلى الأعلى ويمزّق الصّور، وإعلانات السّينما. يمزّق الصّورة، يأخذها بين يديه بعد أن يقشّرها عن الحائط ويجعلكها، ثمّ يحيلها إلى نتف صغيرة ويرميها في الهواء. يضع أصابعه العشر فوق الحائط كأنّه يستند استعداداً للرّكض، لكنّه لا يركض، يبقى جامداً في مكانه كأنّه ملتصقٌ بالحائط. معطفه الأزرق يتلوّث باللون الأبيض، والقبّعة فوق رأسه كأنّه يغنّي أو كأنّه يستعدّ للغناء.

- تقف أمامه متمهّلة، يجلس على الرّصيف، ويأخذ من جيب معطفه خبزاً ويأكل. يلتفت إليها.

- الله يخلّيك شربة ماء.

- تدخل إلى الغرفة وتعود حاملةً قنّينة ماء.

لم يبق إلا حبيب أبو شهلا شاهدا على الاستقلال. فأبو شهلا لم يكن شخصية عاديـــــــــــــــــة. والدليل على ذلك هو أنه مات بطريقة غير عادية. إذ يروى أنه مات وهو يضاجع امرأة.

والشّوارع فارغة، لكنّ الحرب انتهت، كلّهم قالوا لها إنّ الحرب انتهت، ودخلت كلّ جيوش العالم إلى البلد من أجل إيقاف هذه الحرب. وهي حزينة، راحت على الّذي راح، الّذين ماتوا ماتوا، كانت تعتقد أنّ الحرب ستميت الجميع، ولن يبقى حيٌّ يُخبر، عندما سقط محمود أمامها بدمائه الّتي تنزف من كلّ أنحائه، اقتنعت بأنّ الجميع سيموتون، وهي أيضاً ستموت والأولاد سيموتون. محمود مات ولن تعودَ إلى هناك، لا تعرف أحدًا هناك، وهو لم يخبرها أين وضع المال الّذي باع به أساور تلك المرأة. لا مال ولا أقارب، والحرب انتهت، يعني ستبقى هكذا مع هذا البشير الحاراتي الّذي يتمقطع بها، ومع الاتّكال على الأستاذ نبيل، ومع الأولاد، وحسين الّذي يذهب ولا يعود، الزّيتونة مهدّمة، من أين العاهرات. لكن أين يذهب. هي لا تعرف ولا تجرؤ على السّؤال.

كان يمشي منحني الظّهر، حذاءٌ مبلّلٌ بالكلس الأبيض، سطلٌ صغيرٌ وفرشاةٌ وقبّعة من الفلّين. ويمشي إلى جانب الحيطان. تقترب منه، يمشي، تسير إلى جانبه، لا يلتفت، يراها، يقف ثمّ يكمل سيره، لا يردّ السّلام. تقف وتقرّر أن تعودَ إلى البيت. يلتفت إلى الوراء، تراه من طرف عينها، يدنو منها، النّاس في الشّارع كأنّهم يركضون، ومزامير السّيارات وأصواتٌ ترتفع من كلّ مكان، وهو يقف، ثمّ يكمل سيره، وتعود هي إلى البيت، لا تشتري شيئاً، فهي ليست بحاجةٍ إلى شيء، تعود وتنتظر. أخرجَ من جيب معطفه محاية صغيرة.

- انظري إلى هذه، سوف يعطوني محايةً كبيرة.

فتح يديه على وسعيهما.

- كبيرة هكذا؟

- ومن سيعطيك المحاية؟

- هم، أنتِ لا تعرفين، كلّكم لا تعرفون، محّاية كبيرة لكنّها لا تمحو ما هو مكتوبٌ على الحيطان، تمحو كلّ شيء، أضعها على الحائط هكذا فيختفي الحائط، لا يتهدّم، لا ضجيج ولا أصوات ولا غبار ولا ركام ولا حجارة.

أضعها على الحائط فيختفي الحائط وحده، ويختفي هكذا كما ترين، يختفي كما ترين. ونخرج، نكون ألف رجلٍ وامرأة، نخرج، ألف رجلٍ وألف امرأة يخرجون، كلّ واحدٍ يحمل محايةً كبيرة ونمحو، نمحو الحيطان والبيوت والوجوه. لا يبقى هناك شيء، كلّ شيءٍ يختفي، أنت تختفين وأنا أختفي والمدينة تختفي والصّور تختفي، كلّ شيءٍ يختفي ويصبح أبيض، أبيض مثل بياض البيضة، مثل بياض العيون، مثل الأبيض.

كلّ شيءٍ ينمحي، تسقط الأشياء هكذا كأنّها لا تسقط. والآن أحمل المحّاية، انظري، أنتِ لا ترينَ بوضوح، عيناكِ لا تريانِ بوضوح، أمّا أنا فأرى، أرى كلّ شيء. كلّ شيءٍ مثل كفّي، كفّي بيضاء، أنا طليتُها بالكلس الأبيض، لتصير بيضاء، كلّ شيءٍ مثل كفّي، لكنّكِ لا ترينَ كفّي، كفّي لا يراها أحد، كفّي مختلفة. أنا الضّابط وحولي الجنود، الجنود يخرسون في حضرتي. أمشي أمامهم فلا يجرؤ أحدٌ على التّنفّس، ثمّ أضرب أحدهم بقضيب الخيزران الّذي أحمله في يدي. لكنّكِ لا ترين يدي.

الجنود هربوا، وأنا أضحك عليهم مساكين. هم لا يعرفون وأنتِ لا تعرفين، لا أحد يعرف الحقيقة، وأنا لا أعرف الحقيقة. لكنّهم سيعطونني إيّاها، وسنكون ألف رجلٍ وألف امرأة، هل تستطيعون تخيّل عددنا، وسنمحو

العمارة والرواية

ونموت. كلّ شيءٍ يموت، كأنّنا نموت، كأنّ كلّ شيءٍ يموت، كأنّ كلّ شيء.

جاد تابت: في الرابع من آب ١٩٨٢

كان ذلك في الرّابع من شهر آب سنة ١٩٨٢، وكانت الأحياء الغربيّة في بيروت منذ ما يقارب الشّهرين تحت حصارٍ أحكمه الجيش الإسرائيلي من البرّ والبحر والجوّ. في صباح ذلك اليوم استفاقت المدينة المحاصرة وهي تتعرّض لقصفٍ عنيفٍ من المرابض المنصوبة في المرتفعات المشرفة عليها من الجنوب والشّرق مترافقاً مع هجوم للدّبابات والزّوارق الحربيّة وغارات جويّة لطائرات الفانتوم والكفير.

المدينة تعيد تنظيم حيّزها الحضري

منذ أن بدأ الحصار كان على المدينة أن تعيد تنظيم حيّزها الحَضريّ كي تتمكّن من مجابهة هذا العنف المدمِّر. فالشّوارع العريضة الّتي شُقت منذ السّتينيات باتت تُشكّل نقاط ضعفٍ تعيق حماية المدينة بوجه القوّات الغازية، فاقتضى إقفالها بإقامة الحواجز والسّواتر التّرابيّة والحفر والألغام.

أذكر صورة لتمثال حبيب أبي شهلا اقتلع من قاعدته وانغرز في رأسه عمود حديدي. جثة معدنية ملقاة على مستديرة الأونيسكو وكأنها تمثيل حرفي للمشهد الذي كان الياس خوري قد وصفه قبل سنة من ذلك في كتابه «الوجوه البيضاء».

الوظيفة البديهيّة لمثل هذه التّرتيبات هي طبعاً إعاقة تقدّم مدرّعات ودبابات العدو. لكنّ هناك وظيفة أخرى، وظيفة خفيّة، لها بُعدٌ رمزيّ. فالشّوارع والجادّات الكبرى مزّقت النّسيج القديم لأحياء بيروت التّقليديّة، فأصبح كورنيش صائب سلام يفصل مناطق المزرعة والمصيطبة وطريق الجديدة، وجادّة الاستقلال تشطر منطقتي الظّريف وكركول الدروز، كما أصبح كورنيش التلفزيون يبتر منطقة عائشة بكّار، وجادة بشارة الخوري تفصل منطقة رأس النّبع عن البسطا.

لقد كان إقفال هذه المحاور الكبرى بإقامة الحواجز والسّواتر التّرابيّة يهدف بشكلٍ رمزي إلى إعادة إحياء النسيج التقليدي للمدينة في ذاكرة سكّانها، هذا النّسيج الّذي مزّقته العمليّات الجراحيّة التي أُخضعت لها بيروت منذ السّتينيات.

نسيجٌ مفتوحٌ للسّكان لكنّه مغلقٌ للغريب والطّارئ. شبكةٌ من المربّعات لا نظامَ واضحاً للتوجّه فيها إلا للّذي يعيش في داخلها. تنظيمٌ دقيقٌ للحيّز، قائمٌ على شبكةٍ من الممنوعات والحقوق الممنوحة، يستحيل للغازي فكّ لغزها وفهم تركيبها فلا يستطيع إحكام سيطرته عليها.

في هذا الجوّ المشحون، صدر عدد جريدة «السّفير» في الرابع من شهر آب وهو يتضمّن في صفحته الأولى على ما أذكر صورةً لتمثال حبيب أبي شهلا وقد اقتُلع من قاعدته وانغرز في رأسه عمودٌ حديدي.

جثّة معدنيّة ملقاةٌ على مستديرة الأونيسكو وكأنها تمثيلٌ حرفيّ للمشهد الّذي كان الياس خوري قد وصفه قبل سنة من ذلك في كتابه «الوجوه البيضاء».

وكأنّ الخيال يسبق الواقع، أوْ كأنّ الكاتب هو المجرم الحقيقيّ كما في قصص خورخي لويس بورغيس.

سقوط تماثيل الاستقلال

شكّل سقوط تمثال حبيب أبي شهلا المحطّة الأخيرة لعمليّة إزالة جميع رموز الاستقلال من ساحات بيروت خلال سنوات الحرب.

فتمثالا رياض الصّلح وبشارة الخوري سبقا حبيب أبي شهلا في السّقوط صحيّة العنف الّذي اجتاح ربوع المدينة.

كان تمثال رياض الصلح قد شُيّد في ساحة كانت تُعرف بساحة السّور أو عسّور. باحة على شكل مثلّث قائمة مكان سور المدينة القديمة على مقربةٍ من باب يعقوب في أسفل تلّة السرايا.

على هذه الساحة، أقيمت النافورة الحميديّة التي أهداها مجلس مدينة بيروت للسلطان عبد الحميد الثّاني بمناسبة مرور خمسةً وعشرين عاماً على تولّيه الحكم. وبقيت النّافورة هذه تتوسّط السّاحة حتّى استُبدلت بالتّمثال البرونزي لرياض بك الصّلح الّذي صنعه النحّات الإيطالي مارينو مازاكوراتي والّذي شُيّد سنة ١٩٥٧ بُعيد اغتيال صاحبه في عمّان على يد مسلّحين ينتمون للحزب القومي السوري. ونُقلت النافورة بعد ذلك إلى حديقة الصّنائع حيث لا تزال هناك حتّى الآن.

أمّا تمثال الشيخ بشارة الخوري فقد تأخّر وضعُه عن شريكة أربعة عشر عاماً إذ لم يُزح السّتار عنه إلّا سنة **١٩٧١**. وقد وُضع التّمثال صنع الفنان سميح العطّار ضمن نصب شُيّد على تقاطع شارع الاستقلال وشارع بشارة الخوري الّذي يحمل اسم صاحب التّمثال على مقربةٍ من بيتنا القديم.

مع انهيار سيطرة السلطة المركزية أقام أسياد المدينة الجدد مناطق نفوذهم فقسموا الحيز المديني إلى مقاطعات مغلقة على بعضها البعض. وبلغ التشتت أواخر الثمانينيات حدا انهار فيه انقسام المدينة إلى منطقتين شرقية وغربية.

لم يُتح لتمثال الشّيخ بشارة أن يعيش فترة استقرار طويلة إذ أصيب بقذائف بُعيد اندلاع المعارك على خطوط التّماس قبل أن يتمّ تفجيره بعبوة ناسفة فيما بعد.

أما تمثال رياض الصّلح، فقد أصيب هو الآخر بعبوة ناسفة منذ اندلاع المعارك الأولى في الوسط التّجاري فنُقل ما تبقّى منه إلى قصره بالقرب من السفارة الكويتيّة سنة **١٩٧٥** وبعدها إلى دمشق إبان الاجتياح الإسرائيلي.

اختفاء تماثيل رجال الاستقلال من ساحات بيروت كان تعبيراً على أنّ نظام الدّلالات الرّمزيّة في الحيّز العام قد تبدّل جذريّاً خلال سنوات الحرب. فمنذ اندلاع المعارك الأولى في بيروت ربيع سنة **١٩٧٥**، بُترت المدينة من وسطها وانهارت فجأةً بنيتها القديمة فانفجر حيّزها من الدّاخل وتطايرت شظاياه في كلّ مكان.

ومع انهيار سيطرة السّلطة المركزية، أقام أسياد المدينة الجدد مناطق نفوذهم فقسّموا الحيّز المديني إلى مجموعة مقاطعات مغلقة على بعضها البعض. وبلغ هذا التّشتّت في أواخر الثّمانينيات حدّاً انهار فيه انقسامُ المدينة إلى منطقتين شرقيّة وغربيّة فتفتّتت كلّ منطقة بدورها إلى مجموعة مقاطعات تُديرها مليشيات متحاربة.

في هذا الحيّز المتفجّر برز نظامٌ جديدٌ للدلالات انتشر في كافّة أنحاء المدينة. إذ كان لا بدّ لكلّ فريق أن يحدّد مناطق نفوذه عبر إشاراتٍ تشهد على سيطرته وتفوّقه على الأرض.

فغطّت جدران المدينة صورُ القادة الأبطال والشّهداء الأبرار كما طليت واجهات المباني بالشعارات الّتي تمجّد بطولات هذا الفريق أو ذاك: فلان مرّ من هنا، فليتان في كلّ مكان. والغريب في الأمر تشابه نظام الدّلالات هذا في كافّة المناطق، بمعزلٍ عن الانتماءات السياسية للفرقاء وبمعزلٍ عن اختلاف مضمون الرّسالة السياسية الّتي يدلّ عليها. فكأنّ مدى المدينة بأسره قد تحوّل إلى مدى فارغ، كمجموعة إشارات لم تعُد تُحيل إلى أيّ مدلول. وكأنّ جدران المدينة قد اتّخذت استقلاليّتها فانفصلت عن جسم المباني وتحوّلت إلى ملصقاتٍ دعائيّة قائمة بحدّ ذاتها.

لم يختفِ نظام الدّلالات هذا بعد انتهاء الحرب، بل استمرّ بوتائر متصاعدة كأنّ الحرب لم تنتهِ، فاحتلّ المشهد المديني بأسره حتى أضحى وكأنّه الشّكل الأسمى للتّعبير السياسي، وإن بمظاهره الأكثر ابتذالاً.

وإذا كانت تماثيل رجال الاستقلال قد أعيدت تدريجيّاً إلى أماكنها بعد انتهاء الحرب، إلا أنّها اتخذت أشكالاً غريبة وكأنّها أضحت مجرّد كاريكاتور ساخر لرموزٍ لم يعُد لها أيّ دور سوى التّذكير بماضٍ ولّى.

فتمثال حبيب أبي شهلا الذي أعيد إلى قلب ساحة الأونيسكو يمدّ يديه إلى الأمام بحركةٍ غريبة وكأنّه يريد أن يُبوِّل. وتمثال بشارة الخوري يبدو أنه مصابٌ بتشويه في جسمه إذ هو يوحي بشخصيّات الفنّان الكوميدي الكولومبي فرناندو بوتيرو أكثر ممّا يوحي برصانة أبطال الاستقلال.

فقط تمثال رياض الصّلح أُعيدت إليه عظمته السّابقة، إذ يقف معتصماً على قاعدته وسط السّاحة التي تحمل اسمه. لكنّ الشباب الّذين اجتمعوا في الساحة خلال الصّيف الماضي احتجاجاً على هريان الطبقة السياسيّة ألبسوه سطلاً من الزّبالة فوق طربوشه فكان عليه أن يدفع ثمن تعفّن النّظام السياسي الّذي ساهم في تأسيسه.

الياس خوري: ديكور الخراب (مقتطف من «سينالكول»)

قرّر كريم أنْ لا جدوى من بقائه في بيروت. كان العمل في المستشفى بطيئاً، والمهندس أحمد الدَكيز لا همّ له سوى ملاحقة طلب الهجرة إلى كندا، فيما يواصل هذياناته عن بيروت الجديدة.

العمارة والرواية

وكريم يشعر بالوحدة في هذه المدينة المغطّاة بالغبار. بدت له بيروت مدينة رماديّة في عريها، فالباطون المسلّح الّذي صنع غابةً من الحجارة المتراكبة، بدا كمرض جلديّ من كثرة البثور الّتي نبتت عليه.

كلّ شيءٍ مريضٌ هنا، فكّر الطّبيب الآتي من هجرته الفرنسيّة.

وأنا أيضاً مريض، يجب أن أهرب قبل أن ينتشر جذام المدينة على جلدي وروحي، وأصير ملتصقاً بالمكان، لا أستطيع مغادرته ولا أريد البقاء.

ضحك طويلاً وهو يقرأ مقالاً لروائي لبناني في جريدة «النّهار»، قال فيه إنّ «لحظة الفرح الوحيدة الّتي يعيشها اللبنانيّون هي في الطّيارة. تشعر في بيروت أنّك تختنق، فتقرّر السّفر إلى باريس، ولحظة ركوبك الطّيارة تشعر بسعادة من أطلق سراحه من السّجن، لكن بعد أيّام قليلة يستبدّ بك الحنين إلى بيروت، وتشعر أنّكَ لم تعدً تستطيع الابتعاد عنها، فتكتئب، ولا يزول اكتئابكَ إلا في الطّيارة الّتي تُعيدك إلى لبنان. اللبناني كائنٌ طائر، لا يفرح إلا في الفضاء».

ضحك كريم لأنّه أحسّ أنّه على وشك السّقوط في هذه المصيدة اللبنانيّة الّتي تلغي العلاقة بالمكان، وتحوّل الفرد غريباً في كلّ الأمكنة. وفهم أنّ غراميّاته مع غزالة ومنى وشغفه الأخرس بهند، هي أعراض هذا المرض الّذي يجعله غير قادرٍ على تحديد وجهة عواطفه، كما يجعله عاجزاً عن الكلام.

وأخيراً جاء هذا المهندس غريب الأطوار، الّذي يتّصل به كلّ يوم، مدّعياً أنّه يعمل، لكنّه كان يشبّح، ويهيمن على المستمعين إليه بحديثه المتواصل عن إعادة إعمار المدينة القديمة في بيروت بعد تدميرها.

التدمير في سوليدير / تدمير المباني

كان هذا المهندس الثّلاثينيّ، الّذي قالت زوجته إنّه من أصولٍ إفرنجيّة غامضة، مشغوفاً بمشروع سوليدير، وهي الشّركة العقاريّة الّتي أسّسها الملياردير رفيق الحريري من أجل إعادة إعمار وسط بيروت الّذي هشّمته الحرب. هذا بالطّبع قبل أن يصير الحريري رئيساً للوزراء، ثمّ يدخل التّاريخ باغتياله الوحشيّ في ١٤ شباط عام ٢٠٠٥.

كان الدَكيز رئيس وحدة التّدمير، أي المهندس الّذي وضع مخطّطات تدمير جميع المباني الّتي تحيط بساحة الشّهداء، تمهيداً لشقّ شارعٍ بعرض جادّة

الشانزليزيه في باريس، يصل وسط المدينة بناطحتي سحاب تحتلّان الواجهة البحريّة، أطلق عليهما المشروع التّوجيهي للمدينة اسم برجي التّجارة العالميّة، وذلك تيمّناً بالبرجين الشّهيرين في مدينة نيويورك اللذين سيسقطان في الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١، بعد العمليّة الانتحاريّة الّتي نفّذتها القاعدة، بواسطة طائرات مدنيّة كان يقود إحداها مهندس مصري يُدعى محمّد عطا.

قال مارون بغدادي إن المخرج فولكر شلوندورف اكتشف في فيلم له القيمة التعبيرية الهائلة لديكور الخراب البيروتي. لكن اللبنانيين بهدلوه عبر عشرات الأفلام التي حولته من مكان يختزن وحشية الإنسان إلى كليشيهات بصرية مبتذلة.

لن ينسى كريم كيف ارتعش وجه المهندس اللبناني بلذّة الانتصار وهو يصف مخطّط تدمير مبنى سينما ريفولي، الّذي كان يحجب مشهد البحر عن وسط المدينة، يومها خطر في باله أن يتلفنَ لمنى ليقولَ لها إنّ زوجها مجرم.

تكلّم الدَكيز عن المشروع بسرعة، ثمّ قاد ضيفه إلى الكومبيوتر الّذي وضع فيه برنامجاً يشبه الألعاب الإلكترونيّة. أدار المهندس الكومبيوتر فظهرت بيروت بالأعشاب والشّجيرات الّتي نبتت في شقوق حيطانها، كمدينة أشباح، أو ديكورات اصطناعيّة تصلح كي تكون مدينةً لسينما الحروب في العالم.

قال مارون بغدادي إنّ المخرج الألماني فولكر شلوندورف اكتشف في فيلمه Circle Of Deceit القيمة التعبيريّة الهائلة لديكور الخراب البيروتي، لكنّ اللبنانيّين بهدلوه عبر عشرات الأفلام الّتي حوّلته من مكانٍ يختزن وحشيّة الإنسان إلى كليشيهاتٍ بصريّة مبتذلة.

قال كريم إنّ هذا المشهد يصلح ديكوراً للحظة القيامة ونهاية العالم. وكان يفكّر بالوصف المروّع الّذي قدّمته غزالة للنّهاية كما تخيّلتها جدّتها غزالة الأخرى، لكنّ الدَكيز بدا وكأنّه لم يسمع، إذ كان مشغولاً بتزبيط عناصر برنامجه الإلكترونيّ قبل أن يبدأ لعبته الّتي سيصفها كريم لشقيقه بعبارة: تدمير المدمّر.

«انظر ماذا سأفعل»، قال الدَكيز.

وفجأةً بدأت الأبنية تتهاوى واحدةً بعد أخرى. يغيب المبنى خلف كتلةٍ من الغبار قبل أن يسقط وقد تفتّت في كومةٍ من الحصىً والرّمال. أخذ المهندس في تدمير المباني في شكلٍ منهجيّ، بدأ من ساحة الدّباس فدمّر مقهى لاروندا، وسينما دنيا، ثمّ انعطف إلى سينما المتروبول، وتوغّل إلى اليمين فدمّر مبنى الشّرطة الّذي كان يُسمّى في الماضي السّرايا الصّغير، ثمّ دخل في شارع المتنبّي، هناك رأى كريم لافتة النيون على شرفة الطّابق الثّاني من مبنى بدا وكأنّ الحرب لم تمسّه، وقرأ اسم ماريكا مكتوباً بالحروف اللاتينيّة، «لا أوعا تدمّر بيت ماريكا»، قال كريم، لكنّ المهندس لم يسمح له بمتابعة عبارته، إذ تهاوى المبنى العثماني الجميل على الشّاشة.

«شو هالجنون» قال كريم، «حدا بدمّر ذاكرته؟».

«استنّ شويّ»، قال الدَكيز، «سينما ريفولي بدها تركع، ليش الكومبيوتر عم يعمل هيك، مع إنّي حطّيت كمية متفجّرات بتنزّل مدينة. هالسّينما متل الشّلكّة مسكّرا البحر كأنّها ما بدها توقع».

«بيكفّي»، قال كريم.

«وادي أبو جميل».

«رح تدمروا الوادي كمان؟».

«رح ينزل على الأرض».

«وسوق الطّويلة؟».

«قال سوق الطّويلة قال، شو هالأسواق التّافهة يلّي صارت خراب وزبالة، كلّه انمحى، وبدنا نعمّر مدينة حديثة، مولز، متل بالسّعوديّة ودبي وأميركا».

«والذكريات؟».

«قال ذكريات قال، هيدي بلاد بلا ذاكرة، لشو الذّاكرة، ذاكرة القرف والجرب c'set fini، المهندس عدنان قال هلّق وقت هندسة المتفجّرات والتّدمير، وأنا مكلّف بهالمهمّة، ولمّا تفرّج عدنان على المشروع اندوخ، قال كان لازم نفرجيه لراشد الله يرحمه، كانوا زقّه عقلاته من الفرح».

فهم كريم من أحمد الدَكيز أنّ المهندسَين عدنان وراشد كانا مسؤولين عسكريّين خلال الحرب. عدنان صار مقاولاً نجحت شركة سوليدير في استقطابه للعمل معها، وراشد مات في معركة الفنادق عام ١٩٧٦. قاتل الدَكيز حين كان في التّاسعة عشرة مع منظّمة العمل الشّيوعي، ثمّ ترك المنظّمة كي يلتحق بمنظّمةٍ ماويّة كانت ترى في الحرب الأهليّة وسيلة لإحداث تغييرٍ جذريّ في لبنان والمنطقة، وهو يشرف اليوم على تدميرٍ ما عجزت الحرب عن تدميره.

«هيدا جنون»، قال كريم.

«لا يا حكيم، هيدا يلّي شفته بعيونك اسمه illusion d'optique، يعني خدعة بصريّة، اليوم صار كلّ شي هيك، مجرّد خدعة بصريّة، ما هو لبنان كلّه على بعضه مش أكتر من خدعة بصريّة، ونحن شو عم نعمل فكرك؟ عم نعمل هلّق يلّي ما قدرنا نعمله بالحرب».

«بس إنت شيوعي؟».

«طبعًا شيوعي».

«وعم تشتغل عند مشروع رأسمالي».

«الله يخلّيك بلا هالحكي التّفنيص، أنا بدّي أعمل قرشين وهاجر على كندا، وإنسى».

قال إنّه يريد أن ينسى، فلم يجد كريم ما يُجيب به، معه حقّ أن ينسى، كلّنا نريد أن ننسى، لكنّ كريم كان مقتنعاً أنّ شرط النّسيان هو حماية الذّاكرة، يجب أن تُحفظ الذّاكرة في مكانٍ ما، كي نستطيع أن ننساها ونفتح صفحةً جديدة. أمّا حين ندمّر الذّاكرة بهذه الطّريقة الوحشيّة، فهذا يعني أنّنا نريد للذّاكرة أن تُعشّش في لاوعينا، وهكذا سوف تتجدّد الحرب كلّما اعتقدنا أنّها انتهت.

جاد تابت: ما لا يمكن أن ننساه

بالإمكان قراءة قصّة إعادة إعمار وسط بيروت على ضوء ملاحظة خورخي لويس بورغيس في كتاب الرّمل: «إن كان هناك شيءٌ لا يُمكن لنا أن ننساه، فلا نستطيع بعد ذلك التّفكير في شيءٍ آخر».

وسط بيروت كان له طابع مركب. تتشابك فيه الأنماط الهندسية والمراحل التاريخية: أحياء تعود للعصر العثماني وأخرى لعصر الانتداب. مبان تاريخية تعود للقرن السابع عشر وأخرى حديثة.

منذ حوالي ربع قرن، عندما قامت مجموعة من المثقّفين، من بينهم عاصم سلام والياس خوري وحضرة جنابي بنقد المنحى التّدميري لمشروع إعادة إعمار وسط بيروت، اعتقد البعض أنّ نقدنا كان ينبع من حنينٍ للماضي ومطالبةٍ بإعادة الوسط إلى ما كان عليه قبل الحرب.

وكأنّنا كنّا نخفي وراء كلامنا الثّوري منحًى رجعيّاً متخلّفاً يتجاهل التّحوّلات التي أحدثتها الحرب، كما يتجاهل طموح المجتمع لطيّ صفحة الماضي والتّطلّع نحو المستقبل.

لكنّ الحقيقة كانت عكس ذلك.

إذا كنّا قد انتقدنا المنحى التدميري لمشروع سوليدير فليقيننا أنّه، بسبب هذا التّدمير، سيتحوّل الوسط القديم إلى شبح ينتاب عمليّة الإعمار. فتُصبح علاقتنا بذاكرة المدينة عَلاقةً مرضيّة تمنعنا من صوغ تصوّرٍ مستقبليّ متحرّر من كوابيس الماضي.

بعد ربع قرنٍ من الإعمار، يُمكننا القول إنّ ما توقّعناه قد حصل فعلاً إلى حدٍّ بعيد.

في صيف عام **١٩٩١** قُمنا مع الياس خوري برحلةٍ في ربوع وسط بيروت قبل بدء عمليّات التّدمير. الصّور الّتي التقطتُها حينذاك تُظهر أنّه، بالرّغم من الدمار الّذي خلّفتْه الحرب، كانت بنية المدينة لا تزال قائمة: ساحة الشّهداء مع مبنى الريفولي. المعرض والصّيفي، حيث توقّف الياس طويلاً أمام مبنى مريكّا سبيريدون. الأسواق وساحة الدّباس حيث مسرح شوشو، وحيّ وادي أبو جميل...

الّذي اكتشفناه خلال هذه الرّحلة الّتي دامت يومين كاملين، هو أنّ وسط بيروت كان له طابعٌ مركّب، تتشابك فيه الأنماط الهندسيّة والمراحل التّاريخيّة: أحياءٌ تعود للعصر العثماني وأخرى لعصر الانتداب، مبانٍ تاريخيّة تعود للقرن السّابع عشر وأخرى حديثة.

في أساسِ مشروعِ سوليدير ذاكرةٌ انتقائيّة، نصّبت نفسها حاكماً مطلقاً ففصلت الحَبَّ عن الزّؤان وانتقتْ ما هو جديرٌ بالبقاء وما سيسقط في غياهب النّسيان.

شبح الأطراف المبتورة

فبالإضافة إلى الكنائس والجوامع والمصارف (إذ يبدو أنّ المصارف في لبنان تُعتبر أماكن مقدّسة مثلها مثل دُور العبادة)، وبالإضافة إلى الأحياء التي أعيد بناؤها إبّان عصر الانتداب الفرنسي على أنقاض بيروت القديمة (أي أحياء المعرض ومنطقة فوش واللنبي). بالإضافة إلى ذلك، اختارت الذّاكرة الانتقائيّة الحفاظ على بعض المباني المنفردة الّتي تعومُ وحدها في فراغ المدينة المدمَّرة.

Kodak
PHOTO

العمارة والرواية

لم يبقَ مثلاً في حيّ الغلغول المتاخم لساحة رياض الصّلح سوى مبنى وحيد طُلي باللون الزهري فبات يُشبه كعكة عيد، ينتصب وحده بين الأبراج الّتي لحظها المشروع بغية تأمين الاستثمارات المربحة.

هذا هو الحال أيضاً في معظم الوسط الجديد، حيث اقتلعت الأبنية المعزولة الّتي نجت من الدّمار عن النّسيج الّذي كان يحويها وقُطعت الجذور الّتي كانت تربطها بهذا النّسيج فأضحت كأجسام خرقاء، لا تتجانس مع الإطار المدينيّ الجديد الّذي بُنيَ حولها.

لماذا اختارت الذاكرة الانتقائيّة الحفاظ على هذه الأبنية المتفرّقة المبعثرة هنا وهناك وكأنّها سقت سهواً في سلّة الرّقيب؟

أهي مجرّد تعبير عن عقدة ذنب شبيهة ببقع الدّم على أيدي ليدي ماكبث؟

هناك ظاهرة يُسمّيها الأطباء وهْمَ الطّرف المبتور أو شبحَ الطّرف المبتور تتمثّل في آلام يشعر بها الأشخاص الّذين تعرّضوا لبترِ أحد أعضائهم كاليد أو الرّجل.

هذا الاستهتار بلتراث يترافق مع ظاهرة اتبعت في معظم الأبنية التي لم تدمر كليا إذ تمت المحافظة على الواجهات الخارجية لتلك الأبنية وحولت إلى أقنعة تقام وراءها إنشاءات جديدة لا علاقة لها بالمبنى الذي دمر.

سبب ظهور هذه الأعراض غير واضح، إذ لا يأتي الألم أو الإحساس ممّا بقي من العضو بعد البتر إنّما من الجزء الّذي لم يعد موجوداً.

ويُفسّر الأطبّاء أنّ هذه الآلام تأتي من الدّماغ أو من الحبل الشّوكي اللذين يشعران بفقدان الإشارات من الطّرف المفقود، فيُحاولان التّكيّف مع هذا الانفصال بتحفيز إشارات وهميّة تتفاعل أحياناً مع الأطراف الاصطناعيّة.

يبدو أنّ مشروع إعادة إعمار وسط بيروت يشكو من الظّاهرة الغريبة.

فمشروع «صيفي فيلدْج» مثلاً الّذي بُني على أنقاض سوق النّجارين، قد اتّخذ قناعاً تراثيّاً عبر تعميم القناطر والأشكال الهندسيّة المستوحاة من لغة تقليديّة خياليّة دون مراعاة النّسب ولا أبسط قواعد التّناسق المعماري.

هذا الاستهتار بمبادئ الأمانة للتّراث يترافق مع ظاهرةٍ اتُبعت في معظم الأبنية الّتي لم تُدمّر كلّيّاً إذ تمّت المحافظة على الواجهات الخارجيّة لتلك الأبنية وحُوّلت تلك الواجهات إلى أقنعة تقام وراءها إنشاءاتٌ جديدةٌ لا علاقة لها بالمبنى الّذي دُمّر. فشبح المدينة القديمة أصبح ينتاب واجهات العمارات الجديدة.

كيف يتجلّى شبح الأطراف المبتورة هذا في المشروع التّجاريّ الّذي شُيّد على أنقاض أسواق بيروت؟

إذا كان أصحاب المشروع قد نظروا في لحظة معيّنة في إمكانيّة إعادة بناء الأسواق ودعوة التّجار القدامى للعودة إليها، إلّا أنّ هذا الاحتمال سريعاً ما طُوي واستُبدل ببناء مشروع تجاريّ على شكل «مول» لم يحافظ على شيءٍ من نظُام الأسواق القديمة. وبالرّغم من ذلك، فإنّ شبح الأطراف المبتورة عاد للظّهور من خلال الإصرار على تسمية المول الجديد: «أسواق بيروت». إنّه فعلاً لأمرٌ مضحك أن يُقارن هذا المكان الّذي لا يختلف عن أيّ مجمّع تجاري في العالم بالأسواق التي دُمّرت. لكن يُصبح الأمر مخزياً عندما تُسمّى أجنحة المول بأسماء الأسواق القديمة: سوق أيّاس وسوق الطويلة وسوق الجميل وسوق أرواد..

ربّما أدركت شركة سوليدير فداحة المفارقة هذه، فقرّرت السّماح لسوق الطّيب مرّة في الأسبوع بإشغال المساحة القائمة بين المجمّع السينمائي الجديد والمركز التجاري قيد الإنشاء وذلك بغية استرجاع، ولو لوهلة، عجقة الأسواق القديمة وازدحامها، بعيداً عن الجوّ المعقّم للمول الجديد.

مشاريع التّنظيم المدني تُعطي المدن شكلاً من أشكال الدّيمومة. فهي تشهد على سيرورتها من خلال تحديدها لاحتمالات تطوّرها المستقبليّ كما تُظهر فيها هذا الجزء الغامض الّذي يرتسم ضمن حيّز مائع، يفصل عالم الخيال عن عالم الحقيقة.

إعادة الإعمار: مراحل وأوهام

لا بدّ إذن من استرجاع المراحل الّتي مرّ بها مشروع إعادة إعمار وسط بيروت لاستكشاف التّصوّرات الضمنيّة التي تكمن وراء الخيالات الهندسيّة الّتي اتُّخذت على الأرض وعلاقتها بشبح المدينة المُدمَّرة.

المرحلة الأولى للمشروع بدأت فور عقد اتّفاق الطّائف وامتدّت حتّى سنة **١٩٩٣**. في هذه المرحلة، كان المشروع مشحوناً بنشوة البدايات يتصوّر مدينةً جديدة لا علاقة لها بالوسط القديم، تطمح إلى منافسة دبي كمركزٍ تجاريّ معولم.

الهدم حتى عام 1983 (بشكل رئيس 1982-1983)
الهدم حتى عام 1991 (نهاية الحرب الأهلية)
الهدم حتى عام 1994 (خصوصاً في عام 1992)
الهدم حتى عام 1998 (من قِبل سوليدير)
المباني التي سيحافظ عليها

المصدر : صور جوية تصور وخرائط هايكو شميد 1998 ،© H.Schmid

لكن سرعان ما اصطدم المشروع بمعارضة داخليّة عنيفة كما اصطدم بتراجع موقع بيروت المالي خلال سنوات الحرب وصعوبة العودة إليه في مستقبلٍ قريب.

المرحلة الثانية بدأت نهاية ١٩٩٣ وتمثّلت بتغييرٍ في توجّهات المشروع نحو إبراز عوامل التّواصل معَ الوسط القديم والتّأكيد على خصائص بيروت المميّزة كمدينة متوسّطيّة تتميّز عن الخليج العربي.

وقد تبنّت سوليدير في هذه المرحلة شعار «مدينة عريقة للمستقبل» تأكيداً لهذا التّصوّر الجديد. وفي الحقيقة فقد تأسّس هذا التّصوّر إثر اتّفاقات أوسلو والمراهنة على الدّور الذي يُمكن أن تلعبه بيروت في الشّرق الأوسط الجديد.

سرعان ما انهارت هذه الآمال فدخل مشروع سوليدير في أزمة حادّة تجلّت في هبوط الأسهم وتوقّف البيع وتسريح الجزء الأكبر من العاملين في الشّركة. لكنّ أحداث الحادي عشر من أيلول في نيويورك جاءت لتنقذ المشروع وتؤسّس لتصّور جديد قائم على نموذج مونتي كارلو يستقبل أثرياء المنطقة الّذين باتوا يتردّدون على التّوظيف العقاري في الغرب، فيُقدّم لهم خدمات السّكن الفخم واللهو والتسلية تماشياً مع تخيّلات بيروت الستينيّات.

دخل هذا النموذج بدوره في أزمة حادّة بسبب أحداث سنة ٢٠٠٧ في بيروت والاعتصام الّذي شلّ الحركة في الوسط التجاري، إلى أن أتى الحلّ بعد اتّفاق الدّوحة عبر انفتاح سوليدير على استثمارات جديدة.

فإذا بقيت الاستثمارات في سوليدير إلى حدّ بعيد قبل سنة ٢٠٠٨ حكراً على فئة واحدة، أي جماعة ١٤ آذار، انفتحت بعد ذلك بشكلٍ واسع لتستقبل توظيفات جماعة ٨ آذار.

أحداث الحادي عشر من أيلول جاءت لتنقذ سوليدير وتؤسس لتصور جديد قائم على نموذج مونتي كارلو يستقبل أثرياء المنطقة الذين باتوا يترددون على التوظيف العقاري في الغرب. فيقدم لهم خدمات السكن الفخم والتسلية.

هذا ما يفسّر أنّ وزير الثقافة العوني قد سمح بتدمير موقع سبق الخيل الروماني في منطقة وادي أبو جميل، كما سمح بتدمير المرفأ الفينيقي في الزيتونة وذلك تسهيلاً لتنفيذ مشاريع استثماريّة في هذه المواقع. وهذا ما يُفسّر أيضاً أنّ جميع الفرقاء السياسيين اجتمعوا في لائحة واحدة لانتخابات بلديّة بيروت تحت رئاسة.. المدير العامّ لشركة سوليدير.

«كلّن يعني كلّن!».

الياس خوري: «عين المريسة» (مقتطف من «رحلة غاندي الصغير»)

كان أبو عبّاس اليتيم، يجلس طيلة النّهار على مصطبة مرفأ الصّيّادين في «عين المريّسة» بالشّورت والقميص قصير الأكمام، صيفاً، شتاءً، لا يتغيّر، كأنّه لا يبرد. ويعرف كلّ النّاس. «كلّهم اصدقائي» قال لأليس. قال لها إنّه لا يشتغل شيئاً. في الماضي كان يشتغل صيّاداً، أمّا الآن فلا شيء. يجلس فيأتيه الشّغل، يجلس لأنّه لا يحبّ الشّغل، فيأتي الشّغل وحده. أليس لم تحبّه في بادئ الأمر.

جاء عدّة مرّاتٍ إلى ملهى «شاهين»، كان يجلس في الصّفّ الخلفيّ وينتظرها، وعندما تنتهي من جميع الزّبائن تراه واقفاً أمامها، ويقول «يا عيني عالجمال، يلّله». لم تكن أليس تذهب معه، تنظر إليه كأنّها لا تراه وتمشي. وكلّ يوم، كانت هذه الـ«يلله»، تنتظرها على باب «شاهين». وبعد أسبوعٍ أو شهر، لم تعد أليس تذكر، وهذا ليس مهمّاً على أيّة حال، وجدت نفسها معه.

قالت أليس إنّها حين كانت معه، لم تكن معه. كانت عيناه صغيرتين كحبّتي عدس، وجبينه عريضاً، ويداه كبيرتين كبلاطتين. يأخذها إلى غرفته ويُجسلها في الخارج أمام المصطبة، يضع سلّة الفاكهة أمامها ويتحدّث. كانت أليس ترتجف من البرد الّذي يفترس عظامها، لكنّه كان يجلس جامداً كأنّه لا يشعر بالبرد. ثمّ يذهب وإيّاها إلى وراء الغرفة، إلى باحةٍ صغيرةٍ مليئةٍ بالشّموع، وهناك يبدأ في مغازلتها. كانت الباحة مسوّرة، والشّموع نصف الذّائبة تملأ المكان، ورائحة بولٍ وعفن. هناك كان يأخذها واقفة، وهي لا تعترض تتركه يقترب ويبتعد ويتمايل كأنّه ظلٌّ يتماوج وسْط أضواء الفجر الشّاحبة، الّتي تشبه الباذنجان، ثمّ يدخلان إلى الغرفة وينامان.

قالت أليس إنّها لم تكن تحبّه.

«الحب بعدين، بعد ما تخلص الحكاية، الواحد بيعرف إذا كان يحب أو ما كان يحب. بالحكاية بضيع الواحد. هلّق بعرف، طنّوس على راسي، بس هيدا، اليتيم، لا، ما كنت حبّه، بس شي تاني».

والشّيء الثّاني هو البحر. قالت أليس إنّه كان يعطيها شعوراً بالبحر.

قالت أليس إنه كان يعطيها شعورا بالبحر. رائحته كرائحة البحر. هو قال لها إن البحر ليل. وكان يسبح في بحر الليل يخلع قميصه ويقفز. وهي تراقبه كيف يضيع في بحر الليل

رائحته كرائحة البحر. هو قال لها إنّ البحر ليل. وكان يسبح في بحر الليل، يخلع قميصه ويقفز، وهي تراقبه كيف يضيع في بحر الليل. تقف خلف السّور الّذي تغطّيه الشّموع، وتنظر إلى البحر، فترى الليل. ثمّ حين يخرج من الماء والملح، يأخذها من جديد، ويتركها ترتعش بالماء والرّغبة الّتي لم تكتمل.

الراهبة الطالعة من البحر

كانت تراه في النّهار محاطاً بالسّيّاح والفضوليّين. يدخل إلى غرفته، ويُخرج منها دفتراً قديمًا مليئاً بالكتابات. يقول إنّ تاريخ «عين المريّسة» في هذا الكتاب. يقف أمام الكاميرات وهو يدلّ الصّحافيّين والأجانب على الشّموع المطعوجة ونصف الذّائبة. ولا يملّ من رواية حكاية الرّاهبة الإيطاليّة.

الرّاهبة، قال.

كانت السّفينة تغرق في عرض البحر، ويشير إلى الأفق البعيد، والنّاس ينظرون إلى أبعد نقطةٍ يبتلعها الأزرق المستدير.

غرقت السّفينة وخرجت منها الرّاهبة، خرجت وحدها، جميع النّاس رأوها، فرأوا قبّعتها المثمّنة البيضاء، وهي تطفو فوق سطح الماء. كانت تطفو كأنّها صندوقٌ أبيض، وبدأت الرّاهبة في الظّهور. كانت لا تسبح، كانت كأنّها تمشي، أي والله كانت تمشي، راهبة إيطاليّة تمشي فوق الماء.

ارتفعت القبّعة البيضاء، وبدت الرّاهبة في ثيابها الممزّقة، والنّاس يقفون هنا، ويشير إلى مكان وجود الشّموع، النّاس هنا، والرّاهبة تأتي إلى هناك، من تلك النّقطة البعيدة، كأنّها تمشي. أنا، يقول أبو عباس، كنتُ صغيراً، أبي رآها، ورحمة ترابه، أبي قال إنّها مشت، وحين وصلت إلى هنا، إلى حافّة البرّ، ركض النّاس، أحدهم جلب شرشفاً ابيض، التفّت به والتصق الشّرشف على جسمها.

وأقامت هنا، لم تطلب شيئاً، وجلست هنا، وهنا لم يكن سور، كانت الأرض رملاً وصبّيراً، ركعت قرب الصّبّير وبدأت تصلّي. ثمّ بنتْ لنفسها كوخاً وصارت تعيش بين النّاس، كأنّها طيف. قيل إنّها بنت مدرسة، والله أعلم، وكانت تذهب إلى فوق لتشرب، إلى النّبع الّذي كان هناك، ويشير بيده إلى لا مكان، ولا أحد يسأله ماذا جرى للنّبع الآن وأين هو، وهناك بنت مدرسة، كانت تعلّم الأولاد وتحفظ القرآن، فصار اسمها الرّيسة، وصار اسم المنطقة عين الرّيسة، وتحوّل الاسم بفعل التّحوير والزّمن إلى «عين المريسة».

كلّ هذا مكتوبٌ في الكتاب. هذا هو الكتاب الّذي ورثته عن أبي. تستطيعون أن تقرأوه. يضبّ الكتاب، ويقف أمام الشّموع ويبتسم.

وهذه الشّموع، نسيتم الشّموع يقول، هذه شموع النّذور، حتّى الآن، يأتي النّاس ويضيئون شموعاً للرّيسة الّتي ماتت هنا، ودفنت هنا. غالبيّة الّذين يأتون من النّساء، يركعون ويطلبون من الرّيسة ويضيئون الشّموع، وهي تستجيب.

أبو عبّاس، يروي حكايته كلّ يوم، وأليس لم تكن تصدّق شيئاً منها.

«أنت نصّاب عالمي»، قالت له.

«أنا نصّاب، هيك بدهم، بدهم أخبار، من وقت ما صارت المنطقة منطقة بارات صار لازم يكون في تاريخ، كلّهم بدهم يعرفوا التّاريخ، وشو هو التّاريخ؟ التّاريخ هو العجايب. من أيّام سيّدنا آدم، عليه السّلام، والتّاريخ عجايب».

«بس إنت بتكذب عليهم».

«إذا بكذب بصدّقوا، وإذا ما بكذب ما بصدقوا، بس أنا ما بكذب، أنا بحكي يللي سمعته، ويللي ما سمعته بحقيقي، لأنّي سمعته، مش هيك».

«طبعاً مش هيك، قل لي شو كان اسم الرّاهبة؟» سألتْ أليس.

«كان اسمها الرّيسة، وكلّ النّاس بتعرف».

«مفهوم»، قالت أليس.

العمارة والرواية

كان أبو عبّاس يعيش حكاية الرّيسة، ويقال إنّه كان يتاجر بالحشيش. قال لأليس مرّة إنّه يلحق القرش الفايش، و«القرش ما بفوش إلا عالحشيش».

الياس خوري: على شاطئ الرملة البيضا (مقتطف من «يالو»)

كان الكوهنو يأخذ عائلته الصّغيرة إلى الشّاطئ في انتظار الرّوح الّذي يهبّ حيث يشاء. وعلى شاطئ الرّملة البيضاء، وبعد أن يليّل الليل، وتنتشر النّجوم الصّغيرة الّتي تخترق الغيوم فوق البحر، ينحني الكوهنو على الماء ويشرب، يمشي قليلاً وسط مياه باردة وأمواج مرتفعة، يمسك يد حفيده بيمْناه ويد ابنته بيسراه، ويتقدّمون في البحر. وعندما ترتفع المياه إلى خصر الطّفل، ينحني الكوهنو، يتمتم كلمات غريبة بلغته الغريبة، ثمّ يملأ يديه بالماء ويشرب. يسقي الأمّ أوّلاً، ثمّ ابنها، ثمّ هو. وبعد أن يشرب كلّ واحدٍ منهم ثلاث مرّات، يمشون إلى الوراء تراجعاً. وحيث كانت يد يالو تفلت من يد جدّه، ويبرم الطّفل راكضاً إلى الشّاطئ وهو يرتجف بالبرد، كان الكوهنو يركض خلفه ويعيده إلى الماء.

يذهب الكوهنو إلى الماء. ويضع بين راحتيه كمشة من ماء البحر. يرشها على شعر ابنته. ثم يبدأ في تمشيطها. ينسدل الشعر الطويل على الكتفين. ثم يمتد إلى الظهر ويسقط على الخصر قبل أن يصل إلى الكاحلين.

«ما لازم تدير ضهرك للبحر يا ولد، حدن بدير ضهرو للرّوح؟».

وحين يصل الثّلاثة إلى الشّاطئ اليابس بالرّمل، تفتح الأمّ شنطتها وتُخرج منشفةً كبيرةً بيضاء، تنشّف بها جسم يالو بعد أن تجبره على خلع بنطلونه، وتعطيه بنطلوناً نظيفاً، ويصير الولد أزرق بالبرد والخوف وطعم الملح الّذي يحتلّ لسانه وأحشاءه.

«الميْ صارت حلوة وطيبة»، يقول الكوهنو.

«آمين»، تقول الأمّ.

«آمين» يقول يالو، منتظراً حبّة راحة الحلقوم الّتي يمتزج سكّرها النّاعم بخشونة لسانه المالح.

تقف غابي على الشّاطئ، بين يدي والدها، وتبدأ بفكّ كوكينتها. تنزع الدّبابيس من شعرها، وتضعها على حرام صوفيّ فرشته على رمل الشّاطئ، تأمر يالو بالجلوس على الحرام، وتقف في انتظار مشط الكوهنو.

يذهب الكوهنو إلى الماء، ويضع بين راحتيه كمشةً من ماء البحر، يرشّها على شعر ابنته، ثمّ يبدأ في تمشيطها. ينسدل الشّعر الطّويل على الكتفين، ثمّ يمتدّ إلى الظّهر ويسقط على الخصر قبل أن يصل إلى الكاحلين.

في ليلة الغطاس، يوم معموديّة المسيح المخلّص، كانت غبريال ابنة أفرام، تفكّ شعرها وتفْرشه تحت ضوء الليل من أجل أن يتلوّن بالأعجوبة. ويبدأ الشّعر الطّويل المليء بالدّوائر والّذي يتساقط تحت مشط الكوهنو، بالتّحوّل ذهباً.

العجيبة

قال يالو إنّ شعر أمّه يصير ذهبيّاً، ينحلّ في الماء والمشط ويتذهّب ويلتمع. الكوهنو يجبر حفيده على إبقاء عينيه مفتوحتين من أجل أن يرى كيف يتلوّن شعر أمّه بالذّهب.

«شوف العجيبة يا صبي»، يقول الكوهنو.

ويالو يرى الأعجوبة، يشعر بمذاق السّكّر المالح تحت فمه، ويرى ألواناً تخرج من بين شفتَي الكوهنو المحاطتين بلحيته الكبيرة البيضاء. الكوهنو يهتزّ بالمشط، بينما يرتسم الضّوء الخافت الّذي يخترق ليل الشّاطئ بقعاً على يديه وعينيه، والمشط يهبط ويصعد من دون توقّف. يالو الطّفل يجلس على الحرام الصّوفيّ مرتجفاً بالبرد، ويدخل في أعجوبة الماء والشّعر الذّهبيّ.

لم يسأل يالو أمّه لماذا تدير ظهرها وتنظر إلى البحر، فهو كان يعرف أنّ أمّه تتمرّى بالبحر، مرّةً في السّنة يصبح البحر مرآةً عجائبيّة، وكان الطّفل يرى أمّه، ويرى شعرها الّذي يمتدّ على المياه المالحة الّتي تصل إلى أطراف السّماء.

هكذا قال لهما الكوهنو.

قال إنّ البحر ينتهي في السّماء. «السّماء امتداد البحر يا ابني، والبحر هو مرآة العالم». فأفرام، رغم اقتناعه بكرويّة الأرض، وبكلّ الاكتشافات العلميّة التي كان يالو يدرسها في مدرسة القدّيس ساويروس في بيروت، كان يصرّ على العلاقة الخاصّة بين البحر والسّماء، وإلا فكيف فنفسّر أنّ روح الله كانت ترفرف على المياه؟ وكيف

نفسّر حكاية يونان النّبي الّذي قضى ثلاثة أيّامٍ في بطن الحوت، قبل أن يعودَ إلى الشّاطئ سالماً؟

أفرام يقول إنّ حكاية النّبي يونان هي مجرّد رمز لموت المسيح وقيامته، لكنّ الرّمز لم يكن ممكناً لولاً العلاقة الخاصّة بين الله والبحر.

«في البدء خلَق الله السّماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة، وروح الله لا ترفّ على المياه».

جاد تابت: المدينة التي أدارت ظهرها للبحر

لم تمتدّ بيروت القديمة على طول الشاطئ كما هو الحال في العديد من المدن السّاحليّة بل أدارت ظهرها للبحر وتوسّعت نحو الدّاخل.

خريطة بيروت الّتي رسمها نائب قنصل الدّنمارك سنة ١٨٧٦ وأهداها للسّلطان عبد الحميد تُظهر نواة مدينة متراصّة تنتظم حول المرفأ وتمتدّ بمحاذاة الطّرق التي تربطها بطرابلس وصيدا والشّام.

مدينة تتنكّر لواجهتها البحريّة

على مقرُبة من هذه النّواة، خليجٌ صغير يؤوي مرفأ للصّيادين: إنّها محلّة عين المريسة التي لطالما نظر إليها سكّان بيروت بحذَرٍ بسبب القصص المتعدّدة حول الجنّ والسّاحرات الّذين يقطنون بين صخورها. ثمّ منطقة رأس بيروت حيث اشترى قسّيسون قطعة أرض شاسعة لبناء الكلّيّة الإنجيليّة السّوريّة بين الصّبير والواوية. ونحو الغرب، المنارة التي بناها والي عكّا سليمان باشا سنة ١٨٢٠ لتوجيه البواخر نحو المرفأ والّتي ستبقى فعّالة أكثر من مئة عامٍ حتّى استبدل بها الفرنسيّون منارةً جديدة أكثر ارتفاعاً.

منذ أوائل القرن العشرين، ستبدأ المدينة بالامتداد نحو السّاحل الغربي حيث نمَتْ أحياءٌ جديدةٌ استأثرت بالمساحات الحرّة وشكّلت تدريجيّاً شريطاً متواصلاً على طول الشّاطئ.

خليج السّان جورج، حيث يُقال أنّ خضر قتل التّنين وحيث بُنيت أفخم فنادق العاصمة قبل أن يُلحق بمحيط سوليدير ويُحوّل إلى زيتونة باي.

كورنيش عين المريسة، على كعب تلّة الجامعة الأميركيّة، حيث استُبدلت بالبيوت الصّغيرة تدريجيّاً المباني متعدّدة الطّوابق ومن ثمّ الأبراج الّتي حاوطت مرفأ الصّيادين وشكّلت سوراً لمنظر البحر.

منطقة رأس المنارة، حيث أعطت بلديّة بيروت سنة ١٩٩٥ رخصة بناء لأحد المتموّلين سمحت له بإقامة بناء من عشرين طابقاً يحجب رؤية الفنار من البحر، وذلك بالرّغم من أن هذا الفنار كان قد أعيد ترميمه وتجهيزه حسب أحدث الشّروط العالميّة سنة ١٩٩٣. فاضطرّت وزارة الأشغال أن تبني فناراً جديداً على مقربةٍ من الشّاطئ وبقي الفنار القديم يشهد على عجز أجهزة بلديّة بيروت وعلى فسادها.

ومنطقة الرّوشة الّتي بدأت تتطوّر في أواخر الخمسينيّات من القرن الماضي وشكّلت حينذاك رمزًا لبيروت الحداثة.

وقد شهدت هذه المنطقة تطوّراً سريعاً في العشرين سنة الأخيرة، فبُنيت أبراج عالية بدّلت المشهد المديني لواجهة بيروت البحريّة جذريّاً.

لقد عرَفت العديد من المناطق السّاحليّة في العالم تطوّراً مماثلاً لما شهدتْه بيروت من تكثيفٍ للبناء وإقامة الأبراج على واجهتها البحريّة. وقد برزت هذه الظّاهرة في العديد من المدن مثل ريو دي جانيرو وكانٍ وميامي وكوستا برافا وغيرها، الّتي شهدت تطوّراً مدينيّاً مشابهاً لما شهدتْه بيروت.

لكن يلاحظ في كلّ هذه المدن أنّه تمّ الحفاظ على الشّواطئ الطّبيعيّة ومُنعت إقامة منشآت من شأنها أن تقيّد من حريّة وصول الجمهور إلى الشّاطئ والاستمتاع بما يقدّمه من خدماتٍ للجميع.

لقد لحظ القانونٌ اللبنانيّ ترتيباتٍ مماثلة تهدف إلى حماية شواطئ بيروت ومنع تشويهٍ الواجهة البحريّة للمدينة. فالمخطط التّوجيهي الّذي أقرّ سنة ١٩٥٦ نظّم المنطقتين التّاسعة والعاشرة المتاخمتين للشّاطئ فمنع البناء على أجزاءٍ واسعة من الواجهة البحريّة وحدّد معدّلات استثمارٍ وشروط بناء قاسية في الأجزاء المتبقّية منها.

لكنّ فاعليّة هذه القوانين بدأت تتراجع على مرّ السّنين عبر التّعديلات الّتي أدخلت عليها وزيادة معدّلات الاستثمار وإقرار المراسيم الّتي تسمح بالتّحايل على روح القانون، وذلك بالرّغم من أنّ المخطّط العام لتنظيم الأراضي اللبنانيّة الّذي أُقرّ سنة ٢٠٠٥ عاد من جديد ليؤكّد ضرورة حماية الشّواطئ الصّخريّة في منطقة

العمارة والرواية

رأس بيروت والبيئة الفريدة في منطقة الروشة والشّواطئ الرّمليّة في منطقتَي الرّملة البيضاء والجناح.

التعدّي على دالية الروشة والرملة البيضا

وقد برزت خلال السّنوات الأخيرة قضيّتا دالية الرّوشة والشّاطئ الرّملي في رملة البيضا لتُظهرا بشكلٍ واسعٍ على صعيد الرّأي العام الضّرورة الملحّة لحماية ما تبقّىً من الواجهة البحريّة لبيروت.

بعدما بدأت الأخبار تتوارد عن بيع عقارات المسبح الشعبي جوبه هذا الوضع بحملة تهدف إلى حماية شاطئ الرملة البيضاء كمساحة عامة. تشكل هذه الحملة، مثلها مثل نظيرتها الهادفة لحماية دالية الروشة، الفرصة الأخيرة لإنقاذ ما تبقى من شواطئ بيروت والمتنفس الوحيد لسكانها والحفاظ على الأماكن الرمزية التي تحتضن ذاكرة المدينة.

لقد شكّلت دالية الرّوشة لعقودٍ طويلة خلتْ مساحة مشتركة متاحة لجمهورٍ واسعٍ ومتنوّعٍ من سكّان بيروت، كما احتضنت نمطاً اقتصاديّاً وحيويّاً تضمّن صيد الأسماك والجولات البحريّة في القوارب، إلخ... ولطالما وجدت الأسر البيروتيّة فيها وجهةً طبيعيّة لنزهات نهاية الأسبوع وإقامة الاحتفالات لمناسبة الأعياد واشتهر الموقع بثروته الإيكولوجيّة وتنوّعه الجيولوجي والتّوازن البيئي المميّز الّذي تشكّل من خلال إيوائه للنّباتات النّادرة والطيور والحيوانات البحريّة.

ومنذ صيف ٢٠١٤، قام أصحاب العقارات بطرد الصّيادين وبناء سياج يقيّد الدّخول إلى الموقع ويحجب رؤية البحر من الكورنيش، وذلك تحضيراً لإقامة مشروع تجاري خاص، شبيه بالمشاريع الّتي انتشرت على طول الشواطئ اللبنانيّة وأدّت إلى تشويهها.

وقد جوبه هذا المشروع بحملة أهليّة هدفت إلى المحافظة على دور الدّالية كمساحةٍ مشتركة ومتاحة لكافّة سكّان المدينة وزائريها.

وعملت الحملة على إعداد أبحاث قانونيّة وبيئيّة وتنظيم النّشاطات الهادفة إلى توعية الرّأي العام. كما أقامت مباراة لاستكشاف أفكار جديدة لما يُمكن أن تصبح عليه الدّالية في المستقبل.

ونتيجةً لهذه الحملة، عمد مركز الرّقابة العالمي للتّراث World Monuments Watch إلى تسجيل موقع الدالية على قائمة المواقع العالميّة في خطر لسنة ٢٠١٦، فانطلقت إثر ذلك حملةٌ عالميّة من أجل الحفاظ على هذا الموقع الفريد.

أمّا شاطئ الرّملة البيضاء الّذي اكتسب اسمه تيمّناً بلون رماله مقابل الرّمال الحمراء التي كانت تغطّي منطقتي بئر حسن وحرج بيروت، فهو يشكّل جزءاً من حزامٍ رمليّ كان يمتدّ تاريخيّاً لأكثر من عشرة كيلومتراتٍ حتّىً شاطئ خلدة.

وإذ لم يطل التمدّد العمراني هذه المنطقة حتّى نهاية الحرب العالميّة الثانية، فقد نُقل المطار في أوائل الخمسينيّات من موقعه القديم في منطقة بئر حسن إلى موقعه الحالي في خلدة.

ممّا فتح المجال أمام إجراء عمليّاتٍ عقاريّة واسعة النّطاق في منطقتي بئر حسن والرّملة البيضاء، فتبدّلت الملكيّات وارتفعت أسعار الأراضي.

وبقي الشّاطئ الرّملي الواقع غرب الكورنيش البحري خاليًا من أيّ بناءٍ نظراً لأنّ القسم الأكبر منه يقع ضمن الأملاك البحريّة وأنّ الجزء المتبقّي يقع ضمن المنطقة العاشرة حيث يُمنع البناء. وظلّ سكّان بيروت يقصدونه لينصبوا الخيام والعرازيل ويجتمعوا فيه احتفاءً بشفاء النّبي أيوب من مرضه على هذا الشّاطئ وفق ما جاء في الروايات الشّعبيّة. كما أنشأت وزارة الأشغال العامّة مسبحاً شعبيّاً على هذا الشّاطئ هو المسبح الشّعبي الوحيد على ساحل بيروت.

وفي منتصف سنة ٢٠١٤، بدأت الأخبار تتوارد عن بيع عقارات المسبح الشّعبي وتعديل القانون بهدف السّماح بإقامة مشروع سياحيّ ضخم على هذه العقارات.

وبعد ذلك، أتت معلوماتٌ جديدة عن عزم بلديّة بيروت شراء هذه العقارات بسعرٍ خياليّ. تُشكّل هذه القضيّة مثالاً واضحًا لكيفيّة التلاعب بالأملاك العامّة وتجاهل المصلحة العامّة خدمةً لمصالح المتموّلين وأصحاب النّفوذ.

وإذ جوبه هذا الوضع الشّاذّ بحملة تهدف إلى حماية شاطئ الرملة البيضاء كمساحةٍ عامّة مفتوحة أمام الجميع، تُشكّل هذه الحملة، مثلها مثل نظيرتها الهادفة لحماية دالية الرّوشة، الفرصة الأخيرة لإنقاذ ما تبقّى من شواطئ بيروت والمتنفّس الوحيد لسكّانها والحفاظ على الأماكن الرّمزيّة الّتي تحتضن ذاكرة المدينة.

وهذا الأمر يتخطّى بالطّبع حدود العمارة والتّنظيم المدنيّ ليطاول جوهر علاقة المجتمع بنفسه وتصوّره لاحتمالات تطوّره المستقبليّة.

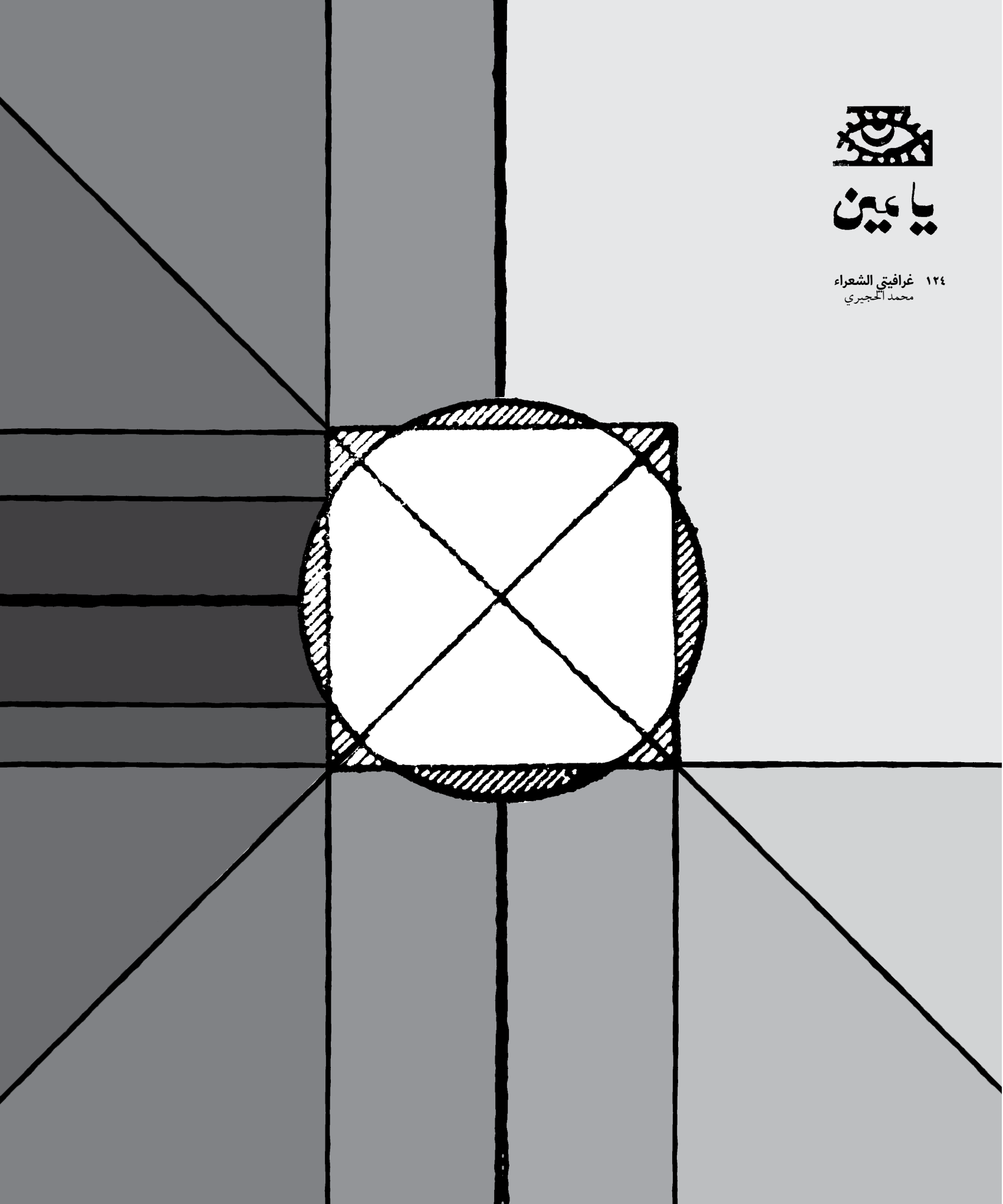

يا مين

١٢٤ غرافيتي الشعراء
محمد الحجيري

غرافيتي الشعراء

محمد الحجيري

صحفي وروائي وناقد، لبنان.

يحبّ الكثير من رواد الغرافيتي الوجوه المعروفة (فيروز، محمود درويش، صباح، لوركا، رامبو، غسان كنفاني، أمل دنقل) والشعارات أو العناوين والكلمات «المشرقطة» على الجدران لأنهم يدركون قوة الكلمة المعروفة والحاضرة في الوجدان والذاكرة. يعرفون أنّ بعض الثورات والتحركات الاحتجاجية كانت شرارتها كلمة غرافيتية على جدار، ويعرفون أنّ الغرافيتي فيض في التعبير يحكي هموم المواطن العادي.

عندما يتم اختيار قصيدة أو أبيات شعرية لرسمها وتزيينها على الجدران، يجري انتقاء جمل يغلب عليها طابع شعاراتي يرتبط بالحدث أو بالموجة السائدة والحدث ووعي الناس، المهمّ أن تصيب الهدف المرجو وترضي ذات الفنان أو المحتجّ. فالغرافيتي من الأدوات المشجّعة على الاحتجاج، وربّما الاستعراض. تنطوي الكلمة المباشرة في الغرافيتي على شيء من الغواية و«العضلات» الفكريّة وربما الاندفاع الثوري والمدني، وتختصر الكثير من التفاصيل، ربما لأن الفنان يريد إيصال رسالته من دون مواربة، يهرع إلى الجدران «الهامشية» أو «الاستراتيجية» التي تشدّ العابر. لهذه الأسباب يختار الفنان الجمل المألوفة والنافلة ويطلسها في اللحظات الخاطفة بطريقة فنية وبصمة خاصة.

في العالم العربي، قلّة من الشعراء العرب والأجانب، استُخدِمت عبارات من قصائدهم لتكون فكرة لعمل غرافيتي أو طبعة «ستنسل» (زنكو) على جدران بعض المدن والبلدات والمخيّمات. وعلى رغم أهمية بعض الشعراء وحضورهم الشعبي، لم يندفع الغرافيتيون لاستنباط جمل منهم، ربما لأنّ شعرهم لا يناسب المرحلة أو لا يتناسب مع وجهة نظرهم الثقافية والسياسية. غير أنّ الثورات العربية ساهمت إلى حدّ ما في ترويج بعض الشعر، سواء الشعاراتي منه أو الفلسفي والحكمي. لنقل إن بعض الشعر «الشعاراتي» ساهم في الترويج للثورات من خلال الغرافيتي. ولا بدّ أن يعطينا التأمّل في بعض الأعمال المرسومة انطباعاً عن بعض الشعر والشعراء على الجدران، وعن الذائقة الأدبية السائدة.

ثمّة مجموعة من الغرافيتيين في بعض البلدان العربية، استخدمت عبارات لأبي القاسم الشابّي وأمل دنقل وصلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي وبابلو نيرودا ولوركا ومحمود درويش وتوفيق زياد وأحمد فؤاد نجم. الأبنودي مثلاً، حضر في الغرافيتي المصري، وحضوره أتى كتشجيع للتثوير الاجتماعي. نقرأ من قصائده العامّيّة على رسوم الجدران عبارات «لسه النظام ما سقطش»، و«الثورة مش حكر... لا ملكك ولا ملكي/ ملك اللي يومها سند صدرُه على السونكي/ واللي الرصاصة شالت عينه ولم يبكِ». لا يحمل كلام الأبنودي أيّ تأويل خاص، كلامه ليس كليشّيه، ولا يتّسم بشعرية خاصة، وإن كان يدعو إلى تراجيديّة ما.

بين نيرودا والشابّي

من بين العبارات التي وُظّفت في غرافيتي الثورة المصرية عبارة للشاعر التشيليلياني بابلو نيرودا: «يمكنك أن تسحق الأزهار ولكن ليس بمقدورك أن تؤخر قدوم الربيع». هذه العبارة الرومنطيقية المثاليّة الثورية كانت إشارة تفاؤليّة إلى واقع التحوّلات السياسيّة التي حصلت في العالم العربي، ووظفت في مواجهة العقل الأمني والاستبدادي ولبناء الأمل في التغيير، وهي قريبة من شعار آخر كتبه الثوريون «إنْ عشتَ فعش حراً أو متْ كالاشجار وقوفاً»، ومن عبارة الروائي إرنست همنغواي في رواية «الشيخ والبحر»: «قد يتحطّم الإنسان... لكنّه لن يُهزم». الأرجح

أنّ في معظم العبارات الشعرية التي توظف في الغرافيتي شيئاً مشتركاً: أنّها تنشد الحرية والموقف وأحياناً الرمز.

اختيار قوال الشعراء لتكون غرافيتي على الجدران، يأتي تبعاً لمعايير سياسيّة و«نضاليّة» و«نمطيّة»، وأحياناً ثقافيّة وعصبويّة وثوريّة ومزاجيّة. في تونس استحضر بيت الشابي الشهير «إذا الشعب يوماً أراد الحياة...»، الذي كتب على جدران المدارس وأصبح يعبّر عن وجدان المتظاهرين ومرحلة التحولات الجديدة التي حصلت غداة سقوط زين العابدين بن علي. كأن لا شيء أقوى من العبارة الشابيّة النمطية المستهلكة، لتكون تعبيراً عن توجهات المحتجين والمتظاهرين. ثمّة تقاطع في المعنى بين عبارة نيرودا المذكورة أعلاه وبيت الشابي، لكن الفرق في الموسيقى الداخلية وروحية اللغة والصورة. ففي عبارة نيرودا شعرية «خارقة» وصورة تتكوّن في مخيّلة القارئ من غير أن يغوص الشاعر في المباشرة، وفي بيت الشابي خطابيّة جاهزة تشبه القبضات المرفوعة. وعلى هذا لم يكن مستغرباً أن يكون هذا البيت الشعري مستهلكاً ليس فقط في أعمال الغرافيتيين فحسب بل في أصوات الفنانين والملصقات الحزبية العربية عموماً والتونسية خصوصاً. فهو يردُ في خطب السياسيين وأناشيد بعض الفنانين «الثوريين»، ويستعمله الباحث عن الحرية والآتي من «سلالة الطغيان»، ليصبح مثل عبارة «القدس عروس عروبتكم» لمظفر النواب و«أناديكم» لتوفيق زياد. جمل شعاراتية تستنزَف في الاستعمالات الشعبوية والإعلامية والميديائية والسياسية، قالها شعراء وصارت ملكاً عاماً، كلافتات حزبية وعصبية. بالطبع ليس ضرورياً أن يتضمن الغرافيتي شعراً حداثوياً أو قصيدة نثر أو تفعيلة، فهو في كل الأحوال له أهداف محددة ويحمل «رسالة» محددة في ظروف معيّنة.

«لا تصالح» من القاهرة إلى دوما

توظيف قصيدة «إرادة الحياة» المدرسية التعليميّة للشابي في الحراك السياسي والثوري التونسي، يوازيها استعمال قصيدة «لا تصالح» للشاعر المصري أمل دنقل في الحراك الثوري المصري وفي الثورة السورية على جدران مدينة دوما في الغوطة الشرقية. تبدو في البداية أقرب إلى «الوصية» الواعظة، لكنّ من يقرأ القصيدة كاملة يجد نفسه أمام حكاية (حدوتة) مأسوية. استحضرت «لا تصالح» في مراحل سياسية سابقة، إذ كان دنقل قد بدأ كتابتها قبل توقيع اتفاق كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، لا لأنه يرفض السلام وإنما لأنه يرفض الاستسلام، فتحوّلت قصيدة عروبية قومية يسارية «كاريكاتورية» يردّدها رافضو التنازلات التي قدّمها السادات ثمناً للصلح مع إسرائيل. وكانت حدَّة رفضه السياسي في ذلك الوقت مقرونة بالسخرية التي كانت تدفعه إلى كتابة أسطر من قبيل: «أيّها السادة: لم يبقَ انتظارْ/ قد منعنا جزيةَ الصمت لملوكٍ وعَبْدْ/ وقطعنا شعرةَ الوالي (ابن هند)/ ليس ما نخسره الآنَ...!/ سوى الرحلة من مقهى لمقهى/ ومن عارٍ لعَارْ!».

واستحضرتْ «لا تصالح» على الجدران في كنف تحركات ميدان التحرير ضد نظام حسني مبارك وكُتبت بأشكال متعدّدة ومتنوّعة وملوّنة ومزركشة، وتناقلتها صفحات الـ«فايسبوك» لتصبح نشيد الجيل الجديد في تلك اللحظة. ولم يقتصر استعمالها على عنوانها وعبارتها الأولى الجذريّة والوعظية. فبعدما فقد الشاب المصري أحمد حرارة عينيه في تظاهرات الثورة في مصر، ثمّة من رسم طبعة «ستنسل» لوجهه الحزين مع مقطع من القصيدة الدنْقلية: «أترى حين أفقأ عينيك ثمّ أثبت جوهرتين مكانهما، هل ترى؟ هي أشياء لا تشترى». كانت قصيدة دنقل الأكثر تعبيراً عن حادثة أحمد حرارة الأليمة والمأسوية، كأنها مكتوبة لتصف حادثة هذا الشاب بالذات.

في دوما السورية رُسمت قصيدة «لا تصالح»، وتكمن أهمّية ذلك في المزاوجة بين اللوحة والمكان، فالحائط الذي اختاره الفنان ليرسم عمله، هو ما بقي من منزل دمّره قصف الطيران الأسدي. الحائط في ذلك المكان لديه لغة أقوى من الشعر، ويزيد من وقع لغته قصيدة دنقل وألوانُ الرسام. الغرافيتي، وإن كان فيه شيء من «جمالية الخراب» التي تعشقها الكاميرا، يومئ بالتأكيد إلى جوهر المأساة السورية.

صلاح جاهين: أحلام الملايين وأفراحهم

تبدو قصائد الشاعر صلاح جاهين الأقرب إلى وجدان المصريين، فهو وحده من استطاع أن يترجم مشاعر ملايين المصريين وأحلامهم وأفراحهم كلمات حية متوثّبة مليئة بالدفء والزهو والنشوة، ويتجلّى حضوره في الأعمال الغرافيتية سواء تلك التي كُتبت في الغرف الخاصة أو شوارع الثورة. أحدهم كتب في غرفته فوق سريره: «ياللي يبحث عن إله تعبده/ يبحث الغريق عن أي شيء ينجده/ الله جميل وعليم ورحمن ورحيم/ أجمل صفاته... وانت راح توجده/ عجبي!». خلال الثورة

المصرية لجأ أحد الغرافيتيين إلى رسم متظاهر يعيد رمي قنبلة مسيلة للدموع على الشرطة، مرفقة برباعية لصلاح جاهين: «غمض عينيك وارقص بخفّة ودلع / الدنيا هي الشابة وانت الجدع / تشوف رشاقة خطوتك تعبدك / لكن انت لو بصيت لرجليك... تقع / عجبي!!».

ورسم شاب يطلق على نفسه «نيمو»، غرافيتي على مبنى محافظة الدقهلية يتضمّن صورة الإعلامي باسم يوسف وجزءاً من إحدى رباعيات جاهين: «قومتوا ليه، خفتوا ليه، لا في إيدي سيف ولا تحت مني فرس». الغرافيتي كان تضامنياً مع الإعلامي الشهير بسبب الحملات عليه، وقال نيمو: «ما يفعله باسم يوسف يستحقّ التقدير والاحترام والتكريم، لو كنا في بلد يحترم المواهب والفن ويقدر النقد، لكن للأسف في دولة الإخوان أصبح كل شيء ليس له قيمة». وأضاف: «من يعارض الرئيس والإخوان يصبح كافراً، ويستحقّ الجَلد أو القتل ولم أجد أكثر من رسم الغرافيتي للتعبير عن حالة باسم يوسف».

الأبنودي أيضاً حضر في الغرافيتي المصري، وحضوره أتى كتشجيع في التثوير الاجتماعي فنقرأ من قصائده العامّية على رسوم الجدران عبارات «لسّه النظام ماسقطش» و«الثورة مش حكي.. لا ملكك ولا ملكي».

محمود درويش الأكثر حضوراً

وقبل مدّة، قدّم الفنان الفرنسي آرنست بينو رسماً جدارياً «أيقونياً» بالأبيض والأسود لصديقه الشاعر محمود درويش، يقف بكامل أناقته ووسامته وطلّته، مرتدياً بنطالاً أسود وقميصاً شبه أبيض. كأنه لم يغادر الحياة، أو كأنه يمشي باتجاه من ينظر إليه، وحول نظارته السميكة طيف من أحلام كبيرة.

حين رسم بينو صورة درويش في الأماكن العامّة بحجمه الحقيقي، كان قصده أن يبقيه جزءاً من المشهد اليومي الفلسطيني، لأنه (أي درويش) في رأي بينو «يوازي فلسطين وفلسطين توازي درويش»... لكنّنا لا ندري لماذا اختار الرسام الفرنسيّ صورة الشاعر لا شعره؟ كأنّ نجوميّة وجه الشاعر كانت أقوى من نجومية شعره بالنسبة إلى الفنان الآتي من فرنسا.

كثيرون من الفلسطينيين التقطوا صوراً تذكارية مع لوحة درويش الـ«بوب آرت»، وقد وزعها الفنان في أماكن متنوّعة، فيشاهدها المرء على الجدار العازل الذي بنتْه إسرائيل، وقرب المستوطنات، وفي الأسواق، وفي المخيّمات والقرى والمدن، وحتى في المتاجر، وذلك حتى تكتسب سياقات ومعاني مختلفة. صورة درويش لم تكن مجرّد غرافيتي أو «ستنسل» مصيرُه الزوال، بل كانت نموذجاً جديداً ومغايراً للرسم على الجدران، فآرنست بينو معروف عالمياً بتركيزه على المزاوجة بين اللوحة والمكان الذي تعرض فيه، وهو يجعل المرء يشتهي أن يلتقط صورة لرسوماته.

حضرت صورة درويش في رسم بينو الجداري، وحضر بعض شعره في غرافيتي العديد من الناشطين في لبنان والأردن وفلسطين وسورية الذين وجدوا فيه وسيلة للتعبير عن أنفسهم ومحيطهم. بعض الذين كتبوا قصائد لمحمود درويش على جدران مدينة رام الله وأماكن أخرى في فلسطين، يبدو أنّهم سمعوها بصوت الفنان مارسيل خليفة ولم يقرؤوها من خلال ديوان. فعلى أحد الجدران كتبت قصائد «في البال أغنية، يا أخت عن بلدي»، و«أحنّ إلى خبز أمي»، وثمّة من يختار جملاً لدرويش تكون بالنسبة إليه أقرب إلى الحكمة أو المبدأ مثل «وطني ليس حقيبة».

من بين الشعراء العرب يبدو محمود درويش الأكثر حضوراً في الغرافيتي الشعري لأسباب مختلفة ومتعدّدة، سياسيّة ورمزيّة وثقافيّة وأيديولوجية. فعدا حضور صورته كغرافيتي، يراوح انتقاء الغرافيتيين من شعره وفق مزاجيات مختلفة، بين مَن لديهم ذائقة شعرية ذاتية ومَن تأسرهم الكليشيهات والعبارات الطنانة. ثمّة من يختار جملاً لدرويش تكون بالنسبة اليه أقرب إلى الموقف الذي يعبّر عن الواقع الفلسطيني مثل «صامدون». ثمّة عبارات فيها بعض من ثقافة الحياة. فعلى أحد أسوار مخيّم البقعة في الأردن كتب أحد فناني الغرافيتي: «أريد قلباً طيّباً لأحشو بندقية»، و«على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة»، والجملة الأخيرة رسمت في أكثر من عمل وبأشكال مختلفة ومتباينة. ففي بيروت كتبها الفنان الشاب يزن حلواني حين رسم بورتريه لدرويش في منطقة فردان قبل أن يأتي أحدهم في الظلام ويطلي البورتريه، ولاحقاً كتبت مكانها عبارة «الزنى اجرام». لذلك قرّر يزن إعادة رسمها في تونس حيث قضى درويش جزءاً من حياته. تتميّز أعمال حلواني في أنها تجمع بين الخط العربي المنمّق والغرافيتي «الأيقوني»، محاولاً إعادة الاعتبار إلى الخط العربي قبل الغرافيتي.

ثمّة غرافيتيات درويشية يغلب عليها الطابع الشعري المحض، مثل «إنا نحب الورد لكنّا نحبّ القمح أكثر ونحب عطر الورد، لكن السنابل منه أطهر»، أو «تُنسى،

كأنك لم تكن/ تُنسى كمصرع طائر/ ككنيسة مهجورة تُنسى،/ كحب عابر/ وكوردة في الليل تُنسى»، «تنسى كحب عابر، وكوردة في الثلج، تنسى فاعلم بأنك حرٌ وحيّ حينما تنسى» (من قصيدة «الآن، إذ تصحو، تذكر»). أو «أنت بداية روحي وأنت الختام» من قصيدة «يطير الحمام»، حيث تتنوع أشكال الغرافيتي التي تستوحي شعر درويش بين وضع صورته المألوفة أو وضع رموز من التراث الفلسطيني الشعبي.

سراقب على موعد

غير أنّ حيطان بلدة سراقب شمال سورية، كان لها موعد دائم ومميّز مع قصائد درويش، وكان لتوظيف الشعر في الغرافيتي نكهة مختلفة، كأنّ من كان يكتب هناك لا يميل إلى الشعارات الشعرية والإيديولوجيا، بل كان أكثر حماسة لجمل تعبّر عن الذات والموت والحياة. استحضر ناشطو الثورة من ديوان «ورد أقلّ» قصيدة «ونحن نحب الحياة، إذا ما استطعنا إليها سبيلا»، خطّوها بألوان علَم الثورة، الأخضر والأبيض والأحمر والأسود. اختيار الكلمات الشعرية في المدينة السورية كان يأتي تبعاً لانعكاس الأحداث. في البداية كانت الثورة سلمية فكُتبت عبارة درويش التي تتغنّى بحب الحياة. لكن على رغم المناداة بالسلمية لم تنجُ الثورة من جحيم القتل النظامي وقد اختار السراقبيون من ديوان درويش «أوراق الزيتون» فكتبوا بالأحمر: «يحكون في بلادي، يحكون في شجن، عن صاحبي الذي غاب، وعاد في كفن»، و«أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كلّ الأزقة، ينشدون: صامدون، صامدون، صامدون»، و«ابتكرنا الياسمين، ليغيب وجه الموت عن كلماتنا».

كان لتوظيف شعر درويش في الغرافيتي نكهة خاصة مختلفة ربما بسبب كثرة الاختيارات وتنوعها.

كان لتوظيف شعر درويش في الغرافيتي نكهة خاصة مختلفة ربما بسبب كثرة الاختيارات وتنوعها، اذ تحوّلت بعض كلماته مثل «صامدون» و«حاصر حصارك» و«أحنّ إلى خبز أمي»، كليشيهات بسبب استعمالها السياسي والحزبي والثوري، أما معظم العبارات الأخرى فبقيت في إطارها الشعري، إذ بقي للجمل زخمها لأنّ فيها شيئاً من الغموض ومن تجربة درويش في مرحلة ما بعد القصيدة المباشرة المنغمسة في همّ القضية.

ثمّة غرافيتي يستحضر عبارة «مَنْ أَنا لأخيّب ظنّ العدم؟» من قصيدة «لاعب النرد» التي يرثي فيها درويش نفسه. لعابر أن يسأل ما دخل هذه العبارة الذاتية بـ«الثورة السورية»؟ الأرجح أنّ من يكتبها هو أكثر ثورية في طروحاته الفردية والأدبية، وهو لا يميل إلى الشعارات المباشرة والكليشاوية. فمثل هذه العبارة، حتى وإن كُتبت على جدار في إطار فن الشارع، تبقى نخبوية، ولا تفهمها إلّا قلة قليلة من المتابعين الفعليين لمسيرة الشاعر.

ولا يقتصر الأمر في سراقب على جملة واحدة، فشبّان الغرافيتي اختاروا عبارات لدرويش من ديوان «كزهر اللوز أو أبعد» الذي يحضر فيه الموت بكل وطأته: «فافرح، بأقصى ما استطعتَ من الهدوء، لأنّ موتاً طائشاً ضلّ الطريقَ إليك. من فرط الزحام، وأجّلك»، و«أنت تخوضُ حروبكَ، فكِّر بغيركَ. لا تنس مَنْ يطلبون السلام». أشعار درويش على جدران سراقب، تنتمي إلى المعنى، وساهمت بشكل فاعل مع الرسوم الأخرى في كسر «السيطرة الغامضة» التي فرضتها ثقافة البعث من خلال نشر الصور التي تقدّس آل الاسد والحاكم. حين حضر شعر أمل دنقل ومحمود درويش على الجدران السورية، كان إشارة إلى تحوّل ما في الشارع السوري، حيث كان الإعلام السوري الأسدي يقصر الشعر على عبارة للجواهري في مديح الأسد: «سلاماً أيها الأسد»، ترد في موسيقى نشرات الأخبار البعثية.

درويش الذي كرّس الكثير من شعره للقضية الفلسطينية، حضر بقوة في الحراك السوري كأنّ كلّ القضايا تتشابه في لحظة الشدّة، وما قاله عن واقع فلسطين في محنتها، ينطبق على سورية التي تعيش أزمتها، فنجد أحد السوريين يختار عبارة «ذهب الذين تحبهم ذهبوا/ فإما أن تكون أو لا تكون» ليكتبها على أحد الجدران، أو عبارة «فأنت الآن حرّ فحرّ»، كأنّ هذه الجمل الشهيرة تعبّر عن كل شخص في هذا الشرق.

محمود درويش الذي باتت قصائده وصورته لوحات جدارية في الأماكن العامّة من نابلس إلى سراقب، لطالما كتب مواقفه الصارخة في وجه معنى الجدران السياسية التي زرعتها إسرائيل في الأراضي الفلسطينية، وفي قصيدة «لوحة على الجدار» يربط درويش الحائط بالموت الجماعي، يورد عبارات مثل: «كانت الجدران تستعصي على الفهم». ذلك الجدار السياسي الإسرائيلي الذي كتب

عنه درويش تختلف معانيه عن الجدران التي يكتب عليها شباب الغرافيتي قصائد درويش نفسه، لكن ما يمكن قوله هو أن شباب الغرافيتي في رسوماتهم الجدرانية غالباً ما يطمحون إلى هدم جدران الخوف في أنظمة الطغيان.

جدران لم تنسَ غسان كنفاني ولا سعيد عقل

يمكننا أن نضيف إلى شعراء الغرافيتي الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني الذي اغتاله الموساد الإسرائيلي عام ١٩٧٢ في منطقة الحازمية (شرق بيروت)، يعتبر الأكثر حضوراً في رسوم الغرافيتي من بين الأدباء العرب، خصوصاً في المخيمات الفلسطينية. يبدو بالنسبة إلى مريديه ذلك المناضل والسياسي قبل أن يكون أديباً له قصصه ورواياته. أحد أقوال كنفاني التي وظفت في الكتابات الغرافيتية عبارة «لن أموت حتى أزرع في الأرض جنتي»، وهي كتبت في مخيّم الدهيشة الفلسطيني بصيغة أخرى «لن أرتدّ حتى أزرع في الأرض جنتي». باتت هذه العبارة الغيفارية شعاراً للحالمين بتحرير فلسطين، لكنّها لم ترقَ إلى مستوى عبارة «لماذا لم يطرقوا جدران الخزان؟» التي يعتبرها بعض النقاد أشهر جملة في الأدب الفلسطيني فضلاً عن كونها إحدى أكثر الجمل إثارة للجدل وهي وردت في رواية «رجال في الشمس» وباتت أشهر من الرواية نفسها، واختيرت لتكتب كغرافيتي على خزان مياه في مشهد رمزي.

غسان كنفاني الذي اغتاله الموساد الإسرائيلي يعتبر الاكثر حضورا في رسوم الغرافيتي من بين الأدباء العرب خصوصا في المخيمات الفلسطينية.

من الرسوم الجدارية اللافتة في بيروت، غرافيتي للشاعر سعيد عقل في منطقة الجميزة - مار نقولا، لرسام جديد ربما نجهله حتى الآن. تنضمّ إلى سلسلة غرافيتيات المشاهير المنتشرة على جدران بيروت، واللافت أنّ الرسام بدأ متماهياً من جنون عظمة سعيد عقل وحبه لذاته، فاختار إلى جانب الرسم عبارة «سئل نزار قباني من أشعر شعراء العربية، فقال: سعيد عقل إذ قبل وإلا فالمتنبي».

هذه الرسوم القليلة والمتنوعة، أصبحت معالم سياحية وثقافية في مناطق بيروت وغيرها، تستقطب العديد من المهتمين والمثقّفين وبعضها أزيل بسبب التحوّلات السياسية والميدانيّة. هي لغة المدينة الجميلة والقابل للتحول.

يا عين

الصرا
الصر

يامين

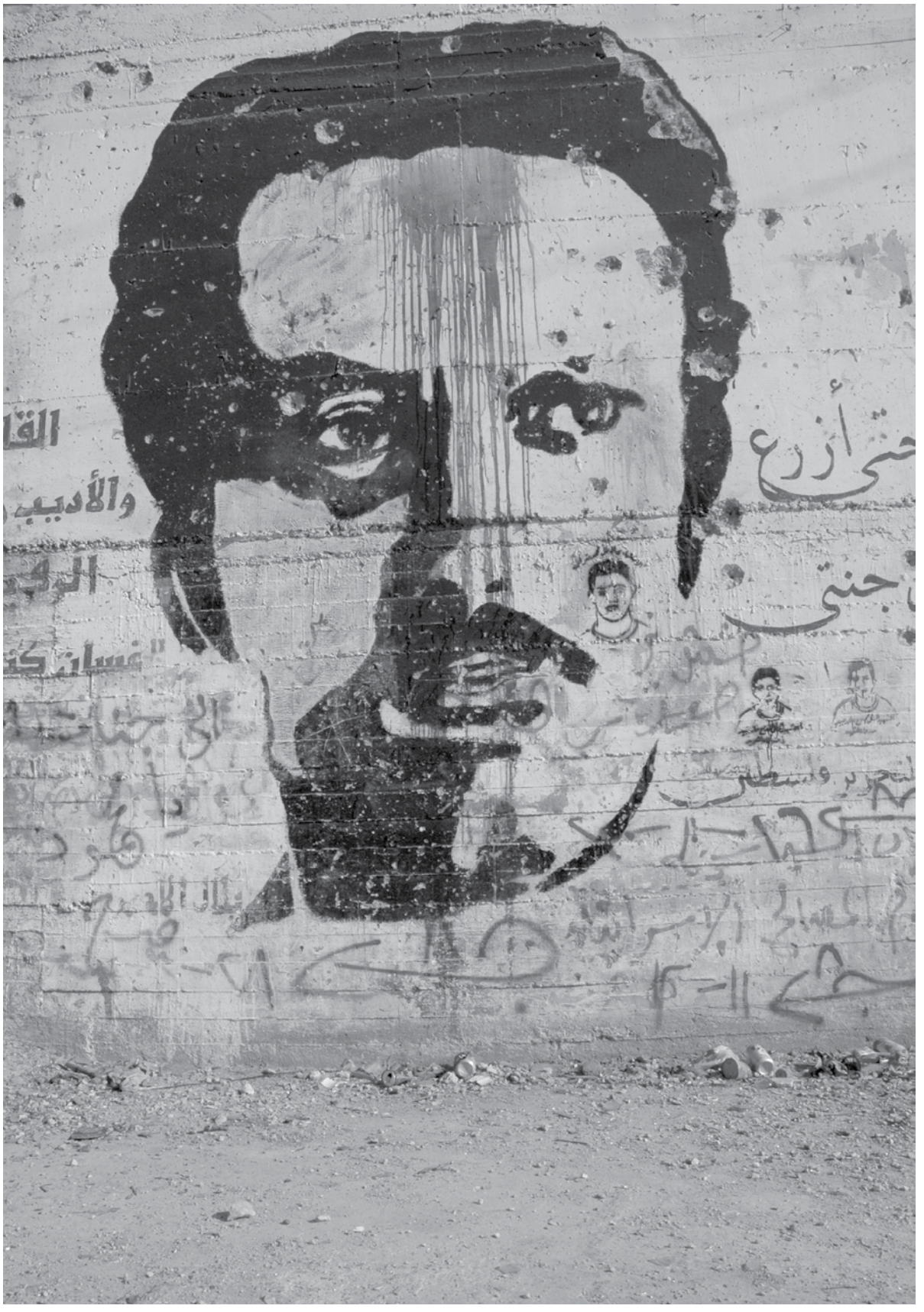

MAR NICOLAS
RUE 60
RUE SAINT NICOLAS
WWW.FB.COM/PHAT02
@THEPHAT2
LIQUITEX
SAÏDAK (1912-2014)
سُئِل نزار قباني.. مَن أشعر
شعراء العربية ..فقال:
سعيد عقل إذا قِيل
والد خالِ المتنبي

يا عين

أترى حين أفقأ عينيك
ثم أثبت جوهرتين مكانهما
هل ترى؟
هي أشياء لا تشترى..

القدس فلسطين

لا تصالح
على الدم

لا تصالح

فليس سوى أن تريد
أنت فارس هذا الزمان العنيد
وسواك المسوخ

لا تصالح

لا تصالح على الدم حتى بدم

لا تصالح .. ولو قيل رأسٌ برأس
أكلُّ الرؤوس سواء ؟؟!

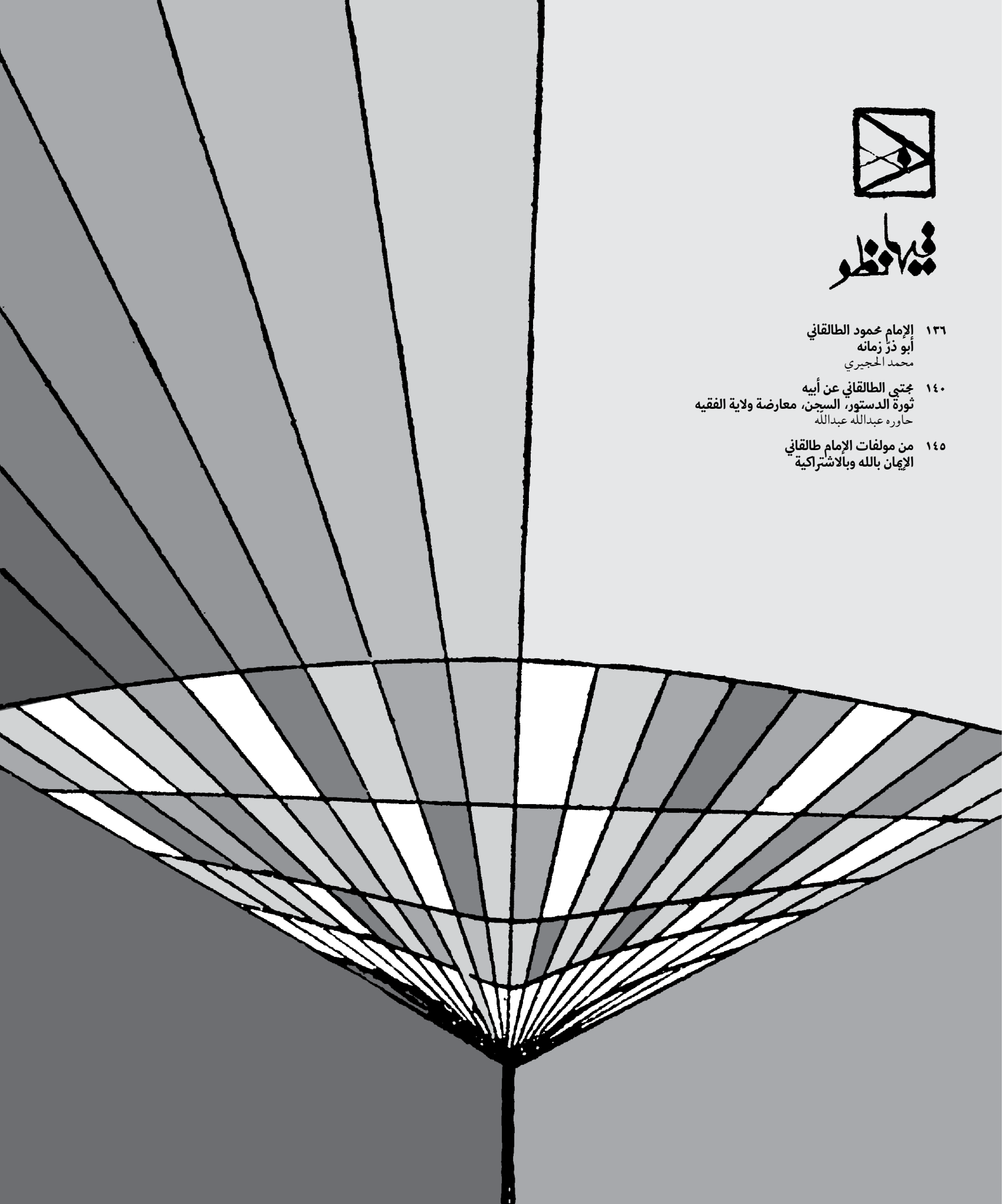

فيما نظن

١٣٦ **الإمام محمود الطالقاني**
أبو ذرّ زمانه
محمد الحجيري

١٤٠ **مجتبى الطالقاني عن أبيه**
ثورة الدستور، السجن، معارضة ولاية الفقيه
حاوره عبدالله عبدالله

١٤٥ **من مولفات الإمام طالقاني**
الإيمان بالله وبالاشتراكية

الإمام محمود الطالقاني
أبو ذرّ زمانه

وُلد السيّد محمود الطالقاني في طالقان في ٤ آذار / مارس ١٩١١. والده السيّد أبو الحسن الطالقاني من أبرز معارضي ديكتاتوريّة رضا شاه بهلوي وزميل آية الله مدرسي. ولم يكن كغالبيّة رجال الدين الذين يعيشون من الضرائب الدينيّة بل كان يعمل في تصليح الساعات ويعيش هو وعائلته من هذه المهنة.

دخل السيّد محمود الكتاتيب في قريته، ثمّ أدخله والده إلى مدرسة إسلاميّة في طهران ليتلقّى فيها العلوم الابتدائيّة، وعند بلوغه العاشرة أرسل إلى المدرسة «الفيضيّة» في قم. ثمّ شرع في دراسة الفلسفة والحكمة على الرغم من أنّ دارسي هذه العلوم كانوا يُتّهمون بأنّهم «مثقّفون» وليسوا رجال دين حقيقيّين (جرياً على القول «من تفلسف تزندق»).

قطع دراسته بسبب وفاة والده، لكنّه تنحّى عن أخذ مكان أبيه في مسجده بحي شعبي جنوبي طهران وقد آثر إكمال دراسته ومتابعة اهتماماته السياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة. ونال درجة الاجتهاد في الدين من الآيات الكبار في قم والنّجف.

عام ١٩٣٩ استقرّ السيّد محمود في العاصمة وبدأ بتشكيل حلقات من الشباب لمناقشة المقولات الدينيّة والسياسيّة الوطنيّة والتقدميّة، وإلقاء الخطب في المجالس الدينيّة التي تنتقد نظام الشاه. اعتقل وحُكم عليه بالسجن لثلاثة أشهر بتهمة إهانة النظام. وكان للفترة التي قضاها في السجن الأثر العميق في نفسه لأنّه رأى بأمّ العين أنواع التعذيب والإعدامات بحقّ المعارضين السياسيّين، ما أدّى إلى ترسيخ نفوره من النظام الديكتاتوريّ. ومن ناحية أخرى فقد هيّأ له الاعتقال فرصة التعرف عن كثب إلى الكثير من السجناء السياسيّين، ومنهم الشيوعيّون من أعضاء «مجموعة الـ٥٣» الذين سوف يؤسّسون حزب توده لاحقاً، وبينهم أبرز منظّريهم الدكتور آراني.

عام ١٩٤١ احتلّ الحلفاء إيران بقيادة بريطانيا وخلعوا رضا شاه عن العرش لميوله النازيّة، وأحلّوا محلّه ابنه محمد رضا بهلوي الذي سرعان ما خلق جوّاً من الانفتاح النسبي لم يدم طويلاً أُطلق خلاله السجناء السياسيّون، فنشأت أحزاب وتنظيمات سياسيّة جديدة ونقابات متعدّدة في كافّة المجالات وسعى كلّ تيّار سياسيّ إلى توسيع نشاطاته وقاعدته الاجتماعيّة. ومن أبرز تلك التيّارات:

- تيّار وطنيّ ديمقراطيّ بقيادة الدكتور محمد مصدّق و«الجبهة الوطنيّة».
- تيّار شيوعيّ نشأ مع تأسيس حزب توده. إستطاع هذا التيّار استقطاب عدد كبير من الطلاب والعمّال وشارك في تأسيس اتحادات ونقابات عمّاليّة وطلابيّة. وتوسّع نفوذه في أنحاء إيران وخصوصاً في المناطق التي كانت تسيطر عليها القوّات السوفياتيّة في شمال إيران.
- تيّارات دينيّة سياسيّة: كان التيّار الدينيّ التقدّمي والديمقراطيّ ضعيفاً في ذلك الوقت ويعمل في إطار الجبهة الوطنيّة بقيادة مصدّق، ويحاول عقد الصِّلات بينها وبين التيّارات المعارضية الدينيّة.
- تيّار دينيّ محافظ يمثّل قسماً من البازار والتجّار بزعامة آية الله كاشاني، وقد لعب دوراً مزدوجاً خلال حركة تأميم النفط. وقف في البداية إلى جانب الحركة الوطنيّة ولكنّه غيّر موقفه عشيّة الإنقلاب الأنكلو - أميركي في العام ١٩٥٢ وإنحاز إلى الشاه.
- تيّار سلفيّ إرهابيّ بزعامة نوّاب صفوي الذي يطالب بإجراء الشريعة ويستخدم أسلوب الاغتيالات لتصفية معارضيه، ومنها محاولة اغتيال الدكتور فاطمي وزير

خارجيّة مصدّق والمؤرّخ الإيرانيّ الشهير أحمد كسروي، وعدد من رؤساء وزراء الشاه أيضاً.

عام ١٩٤٤، أسّس محمود الطالقاني مع محمد مطهري وعلي شريعتي «حركة عباد الله الاشتراكيّين» التي تقول بأنّ الإسلام عقيدة عالميّة، قادرة على تقديم أجوبة لكلّ قضايا الشعوب المضطهدة. وقد ارتكزت عقيدتها على الاشتراكيّة بما هي نظام اقتصاديّ ينافح عن العدالة الاجتماعيّة والتوحيد في الفلسفة. وأبرز مقولات الحركة أنّ إلغاء الملكيّة الفرديّة لوسائل الإنتاج هو أسرع طريق لوأد الاستغلال والفقر والحرمان. وقد جهرت الحركة بخلافها مع الماركسيّين بسبب نزعتهم الماديّة في الفكر وإن كانت تستدرك بأنّهم مثاليّون في الأخلاق (علي راحنيمه، طوباوي إسلامي: سيرة سياسيّة لعلي شريعتي، لندن، ٢٠٠٠ ص٢٦) وكان الطالقاني قد كتب مقالة بعنوان «الإسلام والمُلكية» دافع فيها عن فكرة الملكيّة الجماعيّة على أنّها بمثابة ركن من أركان الدين في الإسلام. ومن مؤلّفاته في تلك الفترة أنّه أعاد نشر كتاب «تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة» لآية الله نائيني، مع تقديم وتعليقات. وآية الله نائيني من قادة ثورة العشرين في العراق ومن منظّري الثورة الدستوريّة في إيران. ويعدّ كتابه أوّل وثيقة فقهيّة في الدفاع عن الدولة الدستوريّة وخوض الصراع الفكري والفقهي ضدّ المراجع الدينيّة المؤيدة للاستبداد وعلى رأسهم الشيخ فضل الله نوري. وأغلب المدافعين عن ولاية الفقيه في إيران الآن هم من أنصار هذا الأخير.

ومع انتصار الثورة الدستوريّة كثّف الإمام الطالقاني نشاطه من أجل نشر «إسلام آخر» يؤيّد الديمقراطيّة والحركة الوطنيّة، ودعا إلى التمسّك باستقلال إيران وحقّها في تقرير المصير وفي اعتماد سياسة عدم الانحياز التي ينتهجها ناصر ونهرو وسوكارنو وغيرهم. وأيّد بحماسة تأميم النفط، وقال «لا نريد النفط لنجوع، ولكن لكي نعيش مستقلّين أحراراً». وقد أسّس مع الدكتور سحابي والمهندس مهدي بازركان حركة «نهضة الحريّة».

وبعد الانقلاب الأميركي الذي أعاد الشاه واستشراس الحكم الفرديّ الديكتاتوري وجهاز السافاك الرهيب، مال الطالقاني إلى الاعتقاد بأنّه لا بدّ من العمل المسلّح لإسقاط النظام. ولمّا انتقل قسم شباب «نهضة الحريّة» إلى خيار حمل السلاح العام ١٩٧٠ وتشكّلت منهم «منظّمة مجاهدي الشعب»، رعاهم وكان بينهم العديد من تلامذته. وكان الطالقاني شديد الإعجاب بماو تسي تونغ وفيديل كاسترو. ويروي علي شريعتي عنه هذه النادرة: ذات مرّة سأله أحد الطلبة عن رأيه بعمليّة مسلّحة في قرية سياحكال ضدّ مركز للدرك في تموز/يوليو ١٩٧٠. أعلنت العمليّة بداية الكفاح المسلّح لإسقاط نظام الشاه، وانبثقت منها منظّمة «فدائيّي شعب إيران» الماركسيّة اللينينيّة، أجابه شريعتي بنادرة قال: «في طريقه إلى المنفى قضى الإمام الطالقاني ليلته في مشهد. خلال إقامته القصيرة تلك، سئل عن رأيه في ما إذا كان فيديل كاسترو سوف يذهب إلى الجنّة أم إلى النار. أجاب طالقاني على السائل الفضوليّ: إن لم يصعد كاسترو إلى الجنّة، فكيف لكائن هزيل مثلك أن يصعد إليها؟ وما إن روى شريعتي النادرة، حتى غادر المكان» (راحنيمه، ٢٦٢).

كان منفاه في بلوشستان ثمّ في كرمان قبل أن يُعتقل العام ١٩٧٥ ويبقى في السجن إلى حين انتصار الثورة الإسلاميّة. خلالها أعلن الطالقاني تأييده لحركة الإمام الخميني. ولمّا خرج من السجن بدأ التعاون بينه وبين آية الله الخميني الذي لَقّبه بـ«أبي ذرّ زمانه» وكلّفه بأن يؤمّ صلاة الجمعة في طهران ودعاه إلى ترؤس «مجلس قيادة الثورة الإسلاميّة» السري. ولمّا تشكّلت حكومة مهدي بازركان تولّى الطالقاني منصب نائب رئيس الوزراء فيها. وانتخب الطالقاني نائباً عن طهران في مجلس الخبراء الأوّل. وتولّى عدّة مهمّات حسّاسة خلال تلك الأشهر الحاسمة، منها التفاوض مع الحركة الكرديّة، والوساطة مع «منظّمة مجاهدي الشعب». بدأ الخلاف بينهما في نيسان/أبريل ١٩٧٩ حول موضوع ولاية الفقيه وقضايا الأقليّات والقضيّة الكرديّة وحقوق المرأة خصوصاً. لكنّ محور الخلاف دار مدار طبيعة السلطة، فقد عارض الطالقاني ولاية الفقيه واقترح صيغة للحكم تقوم على سلطة المجالس الشعبيّة تشارك فيها كلّ القوى التي شاركت في الثورة. خلال ذلك، اعتقل حرّاس الثورة ولديه بتهمة الشيوعيّة والانتماء إلى «منظّمة مجاهدي الشعب». خلفه آيه الله منتظري في رئاسة مجلس قيادة الثورة وليس معروفاً ما إذا كان استقال من ذاك المنصب أو أقيل.

توفّي الإمام محمود الطالقاني في ظروف غامضة في طهران في ٩ أيلول / سبتمبر ١٩٧٩ ودفن في مقبرة بهشتي زهراء.

مجتبى الطالقاني عن أبيه
ثورة الدستور، السجن، معارضة ولاية الفقيه

حاوره عبدالله عبدالله

مناضل يساري، لبنان.

◆ هل لك أن تعطينا فكرة عن السنوات الأولى من حياة والدك: مكان الولادة، الأهل، المهنة، أصل العائلة إلخ؟

■ وُلِد آية الله محمود الطالقاني عام ١٩١١ في قرية في طَالقان وهي منطقة في جبال البورز على بعد حوالي ١٠٠ كلم إلى الشمال الغربي لطهران. نشأ في أسرة عُرِفت بعلمائها، والده آية الله أبو الحسن الطالقاني، وهو عالم دين ورجل سياسيّ كان من أصدقاء آية الله مدرّسي ويُعتبر من المناهضين لسياسة رضا شاه.

درس محمود الطالقاني في الحوزة الدينيّة في قم، وسافر بعد ذلك إلى النجف في العراق لإكمال دراسته، ورجع عند إنهاء تعليمه إلى طهران.

◆ متى بدأ الإمام نضاله السياسي؟ وكيف؟ وأين؟ وما هي المراحل التي مرّ بها وصولاً في النهاية إلى الثورة؟

■ بدأ الطالقاني نشاطه السياسي ضد ديكتاتوريّة رضا شاه في الثلاثينيّات من القرن الماضي. يذكر أن حكم رضا شاه بهلوي مرّ بعدّة مراحل.

«ففي بداية حكمه نادى بالجمهورية، ولكن بعد الانقلاب العسكري الذي دعمته بريطانيا بوضوح، وإثر اكتشاف النفط في إيران، كان البريطانيّون بحاجةٍ إلى سلطة مركزيّة قوّية لحماية آبار النفط واستخراجه حسب اتّفاق (دارسي)»، بالإضافة إلى محاربة المدّ الشيوعي في إيران ومحاصرة الاتّحاد السوفييتي في حينه وقمع الحركات الثوريّة.

في بداية حكمه، خدع رضا شاه الكثير من المثقفين، ولكن بعد استقرار سلطته أقام سلطته السوداء في البلاد.

كان والدي من أنصار الحركة الدستوريّة التي أطلقت في بداية القرن الماضي، وكان يعتبر ثورة الدستور حركة ديمقراطية لا تتناقض مع الدين والإسلام، على اعتبار أنّ الديمقراطيّة جزء من الإسلام، وفي هذه النقطة بالذّات كان الإمام خارج السرب كثيراً بالقياس إلى العديد من علماء الدين. وكان يدخل في خانة رجال الدين المشاركين في ثورة الدستور والمدافعين عنها، ومنهم آية الله نائيني، وقد ترجم الطالقاني كتابه الشهير «تنبيه الملّة وتنزيه الأمّة» ووضع له مقدّمة في الدفاع عن أهداف ثورة الدستور وتنتقد السلفيّين والرجعيّين الدينيّين وأنصار الشيخ فضل الله نوري الذي أعدمه ثوّار بسبب دفاعه عن ديكتاتوريّة محمّد علي شاه وروسيا القيصريّة.

يُذكر هنا أيضاً أنّ الحركات الدينيّة في إيران منذ ثورة الدستور ومروراً بحركة تأميم النّفط الإيراني بزعامة الدكتور محمّد مصدّق شهدتْ تيّارات متعدّدة، وقد انقسمت الثّورة إلى المناهضين للدستور والمدافعين عن تطبيق الشريعة مثل الشيخ فضل الله نوري، والمدافعين عن الثورة مثل آية الله بهبهاني ونائيني، وهذه التيّارات انقسمت خلال حركة تأميم النفط إلى:

- تيّار آية الله كاشاني، وكان من رجال الدين المرتبطين بالتجار (البازار)، وهو تيّار وسطي.
- تيّار سلَفيّ إرهابيّ «فدائيّي الإسلام»، وترأسه نواس صفوي، يطالب بتطبيق الشريعة ويؤمن بضرورة استخدام العنف ضد نظام الشاه وحكومة مصدّق على حدّ سواء. وقد اغتال هذا التيار عدّة نواب ووزراء في حكوم مصدق، من بينهم وزير الخارجيّة، والكاتب والمؤرّخ الشهير أحمد كسْروي. ومن هذا التيّار خرجت نظريّة ولاية الفقيه وتخرّج العديد من أنصار آية الله الخميني وخامنئي وغيرهم.
- تيّار تنويري ليبرالي وديمقراطي، منه تيّار «نهضة الحريّة» بزعامة نوري بازركان ووالدي، وهو التيّار الذي ضمّ علماء الدين الوطنيّين المدافعين عن حركة مصدّق.

اعتُقل والدي عدّة مرّات، وأمضى سنين كثيرة في السجون، وعلى عكس الكثير من رجال الدين السياسيّين، كان منفتحاً فكريّاً ويناقش الجميع، وفي كلّ مرّة يدخل السجن كانت هذه التجربة تضيف إليه الجديد.

في المرّة الأولى التي اعتقل فيها أثناء حكم رضا شاه، التقى في السجن بالدكتور آراني وهو من منظّري ومؤسّسي الحزب الشيوعي الإيراني، ورغم أن اللقاء كان لفترة قصيرة، إلّا أنّها أثّرت فيه وأثّر فيه الدكتور آراني بشكل مباشر، فقد اطّلع الإمام على إرث الحركة الماركسيّة وأُعجب به، واستمرّت لقاءاته مع الماركسيّين والتيّارات الفكريّة المتعدّدة في السجون وخارج السجون.

ينبغي أن ننوّه إلى أنّ الإمام من خلال نشأته في طالقان كان يلتقي بالفلّاحين الفقراء وتأثّر بمعاناتهم، وفي طهران عاش في منطقة شعبيّة وارتبط بهموم الطبقات الشعبيّة، وهو ما دفعه عندما كان إماماً لمسجد هدايت في طهران للاهتمام بالشباب بنحو خاصّ وأن يكون هذا المسجد منبراً للدفاع عن قضايا المستضعفين. وقد تحوّل هذا المسجد إلى مركز للمعارضة الإيرانيّة للشاه فيما بعد.

هنا يكمن عداؤه لنظام رضا شاه ومحمّد رضا ونضاله ضدّ السلطة السياسيّة والطبقيّة حينذاك، وانحيازه إلى حكومة مصدّق وثورة الدستور. كان يرى في مصدّق رجلاً ديمقراطيّاً ووطنيّاً، وعندما أمّمت حكومته النفط كان من أوّل الداعمين لهذا القرار والمدافعين عنه. ورافق طالقاني تجذير شباب «نهضة الحريّة» وانحيازهم إلى جانب الكادحين ونضالهم ضدّ الأمبرياليّة وتحوّل العديد منهم إلى «مجاهدي الشعب الإيراني»، واستكمل نضاله إلى جانب مجاهدي خلق أو مجاهدي الشعب حتى لحظة انطلاق الثورة.

◆ ما هي مساهمات الإمام الفقهيّة؟

■ لم يكن للإمام أيّة مساهمات فقهيّة لأنّه كان يعتقد أنّ ذلك من اختصاص المراجع. وهو لم يكن مرجعاً بالمعنى التقليدي أو الديني للكلمة. كما أنّه كان ينتقد الفقه التقليدي باعتباره لا يلبّي متطلّبات العصر.

والمعروف أنّ علم الفلسفة كان ممنوعاً تداولُه في الحوزات في حين كان طالقاني يريد إصلاح المؤسّسة الدينيّة والفقهيّة. ومن خلال تطوّره الفكري إلى جانب مؤسّسي منظّمة «مجاهدي الشعب» اقتنع فكريّاً بكثير من الأطروحات الماركسيّة كعلم «الثورة» واعتبار الإمبرياليّة والطبقات المسيطرة على أنّها العراقيل الأساسية – يسمّيها «سدود في سبيل الله» أمام التطوّر وأمام «المشيئة الإلهيّة المنحازة إلى جانب المستضعفين المسحوقين» ووجوب إزالتهم.

◆ ماذا عن ولاية الفقيه: متى وكيف طرحت؟

■ طُرحت مسألة ولاية الفقيه في بداية سبعينيّات القرن المنصرم في الدروس الخارجيّة لآية الله الخميني في النجف في العراق، وقد طبَع طلبته هذا الدرسَ في كرّاس صغير. وعندما كان الإمام طالقاني في المنفى اطّلع على هذا الكرّاس وقال لي إنّ ولاية الفقيه نظريّة خاطئة لأنّها تتناقض مع الديمقراطيّة ولن تؤدّي إلّا إلى الاستبداد الديني. في ذلك الحين كانت مسألة ولاية الفقيه لا تزال وجهة نظر هامشيّة بين وجهات نظر عديدة يتبعها قلّة من أنصار الخميني ذاته.

◆ ماذا عن القضيّة الاجتماعيّة في الإسلام؟

كما أسلفت، كان الإمام مدافعاً عن الطبقات الشعبيّة والفلّاحين الفقراء. واستنبط من القرآن [ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين] (القصص ٥).

وكان جلُّ جهد الإمام إخراج الدين من العزلة ودمجه في الحركة الاجتماعيّة وتنقيته من الخرافات والتفسيرات الرجعيّة والسلفيّة والاستبداديّة. وكان يرى إلى المجالس الشعبيّة أعلى مراحل الديمقراطيّة التي يطالب بها الإسلام تحت اسم «الشورى».

وبالنسبة إلى مسألة الحريّات، كان يعتبر أنّ الحريّة من صلب الإسلام والإنسان، ولها معنى واسع، وعلى الإنسان أن يبقى حرّاً حتّى يظلّ إنساناً، ومن الطبيعي أنّه كان يعارض تطبيق الشريعة بشدّة. وانتقد بقوّة فرض إلزاميّة وضع الحجاب على المرأة الذي حاول الخمينيّون تطبيقه في الأشهر الأولى بعد الثورة.

◆ متى تعرّف الوالد إلى الإمام الخميني وفي أيّة ظروف؟

■ لم يتعرّف والدي إلى الإمام الخميني قبل الثورة بشكل مباشر، لكنّه أيّد معارضته للشاه ومرجعيّته الدينيّة، مع الكثير سواه من المراجع، ليعطي للخميني نوعاً من الحصانة منعاً لإعدامه إثر خطابه الشهير ضدّ الشاه. بعد اتخاذه هذا الموقف بدأت العلاقات بينهما، واستمرّت عبر الرسائل بعدما نُفي الخميني إلى النجف.

◆ ماذا عن شخصيّات المعارضة الأخرى؟

■ كان الوالد، بوصفه قطباً للمعارضة ضدّ الشاه، يستقطب كافّة التيّارات المعارضة الدينيّة والوطنيّة

والديمقراطيّة إضافة إلى «مجاهدي الشعب» وشخصيّات «نهضة الحريّة»، ومنهم بازركان والدكتور سحابي والدكتور سامي وقيادات «الجبهة الوطنية» والكتّاب والصحافيين والشعراء ورجال الدين المعارضين للشاه مثل الدكتور بهشتي ورفسنجاني وخامنئي ومنتظري وغيرهم.

◆ كيف تصف علاقة الوالد مع علي شريعتي؟

■ كان يلتقيه ويلتقي والده باستمرار. وكان والده من مؤيدي مصدّق في مشهد وخطيباً في جامع «هدايت» في طهران وهو الجامع الذي كان والدي إماماً فيه كما أسلفنا.

الدكتور علي شريعتي كان خطيباً في حسينيّة الإرشاد في طهران. وقد هاجمه كثير من رجال الدين وكذلك الشاه أيضاً. تحوّلت الحسينيّة إلى مركز لاستقطاب المجاهدين والتيارات الدينيّة المعارضة. للدكتور علي شريعتي مدرسته، لكنّه تأثّر أيضاً في والدي، فكلاهما كان يميّز بين التشيّع الصفوي الذي خدم النظام، والتشيّع العلوي الذي كان يخدم الشعب حسب رأيهما. وكان الوالد وعلي شريعتي متفقيْن على ضرورة مكافحة مثلّث «الذهب والقوّة والتزوير» وكان شريعتي يترجمه على أنّه «رأس المال والاستبداد ورجال الدين المزوّرين» ومن هذا المنطلق كان والدي والدكتور شريعتي والمجاهدون يكمّل بعضهم بعضاً في جبهة الدينيّين التقدميّين الوطنيّين والديمقراطيّين.

◆ ما هي علاقة الإمام بالمجاهدين وفدائيّي خلق؟

■ كان والدي عضواً في اللجنة المركزيّة لحركة «نهضة الحريّة»، اعتقل وحكم عليه عشر سنوات بالحكم النافذ قضاها في سجن « قزل قلعة» وسجن « قصر» المركزي. بعد إطلاق سراحه في اواخر الستينيّات، بدأ شباب «حريّة إيران» يتجذّرون في مواقفهم السياسيّة، حيث تجاوزوا شعار الملكيّة الدستوريّة نحو إسقاط النظام الملكي والنضال ضدّ الإمبرياليّة والانحياز إلى جانب الكادحين. وبعد أحداث **١٩٦٣** [١]، توصّلوا إلى قناعة أنّه لم يعد مجال للعمل السلمي ضدّ النظام، ويجب البحث عن أساليب جديدة، فقاموا بتأسيس حركة «مجاهدي الشعب» التي تبنّت نهج الكفاح المسلّح سبيلاً للخلاص. أمّا «فدائيّو الشعب» فكانت المجموعة الأولى منها إطاراً جبهوياً للقوى الماركسيّة الثوريّة.

كان والدي على اتصال مباشر مع «المجاهدين» باعتبار أنّه نظر إليهم على أنّهم تلامذته فكريّاً وتنظيميّاً، حيث كان التأثير متبادلاً بينهما. وقبل أن يصبح التنظيم علنيّاً كانوا يرسلون له بعض الكتب والكرّاسات لإبداء الرأي فيها. بالطبع لم تكن العلاقة علنيّة تحسّباً لجهاز السافاك الإيراني.

حتّى عند نفي والدي في المرّتين الأولى والثانية وخلال الفترة التي كان فيها تحت مراقبة أمنيّة دائمة، كان يتّصل بالمجاهدين من خلالي ومن خلال وسائط أخرى، لذا أستطيع القول إنّه كان الأب الروحي للمجاهدين خلال فترة الكفاح المسلّح في عهد الشاه.

عندما أعلنت منظّمة مجاهدي الشعب انتسابها إلى الشيوعيّة، أصبحتُ شيوعيّاً وأرسلت إلى والدي في السجن رسالة شرحت له فيها كيف أصبحت شيوعيّاً بعدما كنت مسلماً متديّناً، ودعوته إلى اعتناق الماركسيّة. كان ذلك العام **١٩٧٦**. وقد نشر رجال الدّين الرسالة بعد الثّورة قصد التشهير بالوالد.

◆ هل لك أن تحدّثنا عن سيرة الوالد عشيّة الثورة؟

■ كان الوالد في السجن عشيّة الثورة أي في الفترة من العام **١٩٧٤** إلى العام **١٩٧٩**. وعندما أطلق سراحه، أصبح منزله في طهران عمليّاً مركزاً للثورة، ومن هناك كان يتمّ التوجيه السياسي وتمويل الإضرابات ولاسيّما إضرابات عمّال النفط. الكثير من الجنود كانوا يفرّون ويسلّمون أسلحتهم في المنزل قبل مجيء الخميني.

وفي أول تاسوعه (التاسع من محرم)، نزل إلى الشارع على رأس مظاهرة مليونيّة، وفي يوم عاشوراء الذي تلاه نزل من جديد الملايين إلى الشوارع الإيرانيّة.

أثناء تلك الأحداث، وعشيّة الثّورة راح الأميركيّون يبحثون عبر الجنرال هايدر عن مخرج بعدما وصلوا إلى قناعه أنّ الشاه قد انتهى. رجّحوا الخميني وبازركان بديلاً للشاه من أجل أن لا يكون هناك أيّ تغيير حقيقي، وكانوا يعتقدون أنّهم بواسطة الإسلاميين سوف يستكملون الحزام الأخضر حول السوفيات من جنوب إيران، وأنّهم من أفضل القوى المرشّحة لقمع اليسار في إيران والحيلولة دون شراكتهم في السلطة.

في هذه الفترة وقعت انتفاضة مسلّحة غير متوقّعة في طهران بتاريخ ١٠ شباط / فبراير **١٩٧٩**. استسلم الجيش بعد يومين وأصدرت قيادته بياناً تضمّن الإعلان عن عدم تدخّلها في السياسة. بعد ذلك ألقى والدي خطاباً من إذاعة طهران كان الأوّل من نوعه، حيث طلب من المحتجّين عدم التعدّي على الممتلكات الخاصّة والعامّة. وبالفعل لم تحدث سرقات أو اعتداءات أو أيّ شكل من أشكال التجاوزات. لكنّ الذي حصل كان

١ شهد شهر حزيران/ يونيو ١٩٦٣ تظاهرات شعبيّة عارمة في معظم المدن الإيرانيّة ضدّ اعتقال الإمام الخميني على أثر خطاب ألقاه هاجم فيه الشاه وإسرائيل. هاجم المتظاهرون مراكز الشرطة ومكاتب السافاك (المخابرات) والوزارات واستدعى الشاه الحرس الإمبراطوري لقمع الانتفاضة وقد سقط نتيجة ذلك مئات القتلى والجرحى واعتقل المئات أيضاً. وُضع الإمام خميني في الإقامة الجبريّة لعدّة أشهر قبل أن يطلق سراحه ويعود إلى قم.

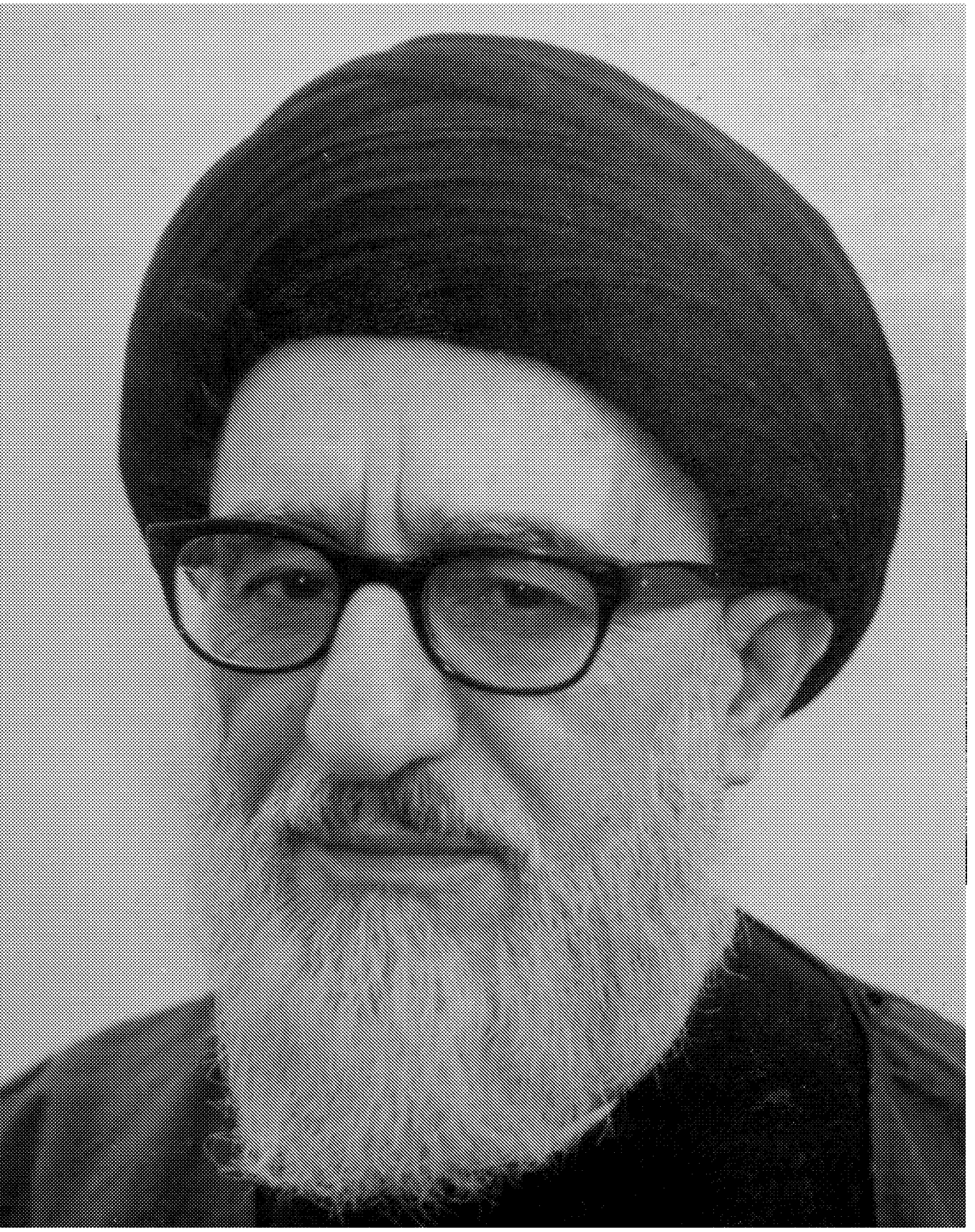

مصادرة اكثر من ٣٠٠ ألف قطعة سلاح من الجيش والشرطة وتوزيعها على الشعب والمتظاهرين.

كان والدي يعمل جاهداً على ألّا يكون البديل عن الشاه رجلاً من رجال الدين، وكان يدفع القوى الوطنيّة حينذاك لتأسيس جبهة موحّدة. بعد الثورة كان قلقاً خصوصاً من رجال الدّين الذين كانوا يُعدّون أنفسهم للقبض على السلطة عبر قمع المعارضين الآخرين الذين شاركوا في انتصار الثورة، حيث تعرّض للتهجم من قبلهم وحدث شرخ كبير في العلاقة فيما بينهم خصوصاً مع رفاقه السابقين.

كان مؤمنا بالنظام الانتخابي وبمنح المرأة حق الانتخاب والترشيح. وعارض ارتداء المنديل الشرعي باعتبار أن الحجاب في الإسلام ليس فريضة. وكذلك عارض تصدير الثورة إلى الخارج وخصوصا إلى العراق. لاسيما من منطلق طائفي.

بعد الثّورة، ظللتُ دائماً مع والدي، ولكنْ كنت أحاول عدم الظهور حتى لا أسبّب إحراجاً له. كنت مسؤولاً عن حراسته في المنزل. وقد اختطفَنا حراسُ الثورة أنا وأخي. وتعرّضنا للاستجواب والاتهام بالنجاسة والتهديد بالإعدام قبل أن يُطلَق سراحُنا.

في البداية كان هناك نوع من التنسيق بين مكتبه ومكتب الخميني، لكن والدي لم يكن لديه أيّ طموح سياسي. بعد مرور شهر على الثورة، وفي أوّل ظهور علنيّ ألقى خطاباً تضمّن قوله أنّ جميع من شارك في الثورة عليهم أن يشتركوا في إدارة شؤون البلاد، وهذا كان مشروعه السياسي الذي عرضه على الخميني واختلفا عليه. آمن الإمام بنظريّة المجالس الشعبيّة، واعتبرها الشكل الأمثل لإدارة الحكم في البلاد، وكان ينادي بقيام «الجمهوريّة الديمقراطيّة الإسلاميّة» كما سمّاها، وكان هذا بديلاً عن طرح الخميني، فعارض ولاية الفقيه من منظور سياسي وديني لأنّه اعتبر ذلك تأسيساً لاستبداد رجال الدين. وكان مؤمناً بالنّظام الانتخابي وبمنح المرأة حقّ الانتخاب والترشيح، وعارض ارتداء المنديل الشرعي باعتبار أن الحجاب في الإسلام ليس فريضة، وكذلك عارض تصدير الثورة إلى الخارج وخصوصا إلى العراق، لاسيما من منطلق طائفيّ، وركّز كلّ جهوده لمنع اندلاع الحرب الأهليّة في إيران والحرب مع العراق، وكانت له علاقات مميّزة مع كوبا والجزائر وليبيا والحركات الثوريّة في العالم. وساند القضيّة الفلسطينيّة منذ زمن حكومة مصدّق، حيث دعم موقف حكومة الأخير في قطع العلاقات مع الكيان الصهيوني.

أمّا موقفه من المكوّنات القوميّة المختلفة في إيران من عرب وكرد وبلوش، فقد دعاها إلى انتخاب مجالس محليّة كوسيلة لحلّ مشكلة كلّ واحدة منها وإقرار حقوقها في الحكم الذاتي وتقرير المصير وتنظيم أمورها، علماً أنّه كان من مؤيّدي اللامركزيّة.

في أيّامه الأخير، كان الوالد قلقاً من ثلاثة أخطار: انقلاب مضادّ يقوم به الجيش بدعم أميركي، اندلاع حرب أهليّة بين الإسلاميّين واليسار والأكراد والتركمان والعرب مع السلطة المركزيّة، عودة الديكتاتوريّة تحت اسم الدين. وقد ألقى بهذا الصّدد خطاباً ناريّاً وكان خطابه الأخير، أكّد فيه أنّ الشعب هو مصدر السلطات وصاحب الثورة، وعلى رجال الدين أنْ يعودوا إلى مساجدهم. وهدّد أيضاً بفضح ملفّات تتعلّق بقضيّة الأكراد وبتجاوزات السلطة الجديدة.

◆ تقول إنّ الوالد قضى اغتيالاً ولم يُتوفّ وفاة طبيعيّة. هل لك أن تشرح ذلك؟ من تتّهم؟

■ كنت دائماً ملازماً لوالدي، ولكن لضرورات عائليّة ذهبت مع والدتي إلى مشهد، استغلّ المتشدّدون غيابي فأبعدوا الحرس عنه وقطعوا خطّ الهاتف، وعندما أصيب بعارض صحّيّ، كان هناك أربعة مستشفيات قريبة من المنزل لم يُنقل إلى أيّ منها. وعندما طلبت العائلة تشريح الجثّة لمعرفة سبب الوفاة الحقيقيّ رفضت السلطات بحجّة أنّ المتوفّى رجل دين! وأعلنوا أنّ الإمام توفّي بسبب ذبحة قلبيّة.

في هذه الفترة سُرقت وثائق من مكتب الإمام والدي واغتيلت شخصيّات أخرى تبنّت مواقف ضدّ ولاية الفقيه، منها آية الله لاهوتي وآية الله شريعتمداري.

لست وحدي من يقول إنّ الوالد قضى اغتيالاً. وهناك شخصيّات أخرى من النظام اعترفتْ بأنّ الإمام لم يمت ميتة طبيعيّة وإنّما اغتيل اغتيالاً، منها الشيخ جعفر شجوني. والأرجح أنّ المتشدّدين اغتالوه، بعد ما حظي من شعبيّة واحترام كبيرين من قبل الشعب الإيراني. ومع مقتل آية الله الطالقاني نَحَت الثورة الإيرانيّة نحو الاستبداد بقيادة الخميني.

من مولفات الإمام طالقاني
الإيمان بالله وبالاشتراكية

من دستور حركة عباد الله الاشتراكيين (١٩٤٤)

المادة الاولى

تقول انه على الاعضاء الايمان بالله وان يتشاركوا في مثال اجتماعي واحد، هو الاشتراكية.

المادة الثالثة

عبادالله الاشتراكيون هم المدافعون عن الحقوق الحقيقية للعمال والفلاحين والكادحين وهم الاعداء الاصيلون لكل نوع من انواع الدكتاتورية والاستغلال والكولونيالية.

المادة الخامسة

الاصلاحات ذات المعنى لا بد ان تبدأ بتحسين الاخلاق الفردية والتوجهات الفردية.

المادة الثامنة

الدفاع عن سيادة ايران الوطنية واستقلالها.

المادة التاسعة

تدعو الحركة الى النضال ضد كل التشريعات غير الديمقراطية (المادة التاسعة) وفي المادة التاسعة الى تأييد كل الحركات المناوئة للاستعمار (المادة العاشرة).

المادة الثانية عشر

حق العمل لكل الافراد السليمي الاجسام وان يجري تعويضهم حسب قيمة عملهم.

المادة الثالثة عشر

مصادرة كل ثروة جمعت بطريقة غير شرعية ووضعها في خدمة العمال والفلاحين وسائر الشغيلة.

المادة الخامسة عشر

تأميم كل الموارد الطبيعية بما فيها المناجم.

المادة السابعة عشر

بتوزيع الارض على الفلاحين وتنظيم النشاط الزراعي بناء على خطة اشتراكية.

المادة التاسعة عشر

توسيع الملكية العامة وتأميم الصناعات الثقيلة بالاولوية.

المادة عشرين

يدعو الدستور المجتمع الى فرض رقابته على الانتاج والتوزيع من اجل تأمين الحاجات الاساسية لجميع الناس.

المادة الثالثة والعشرين

تقضي هذه المادة المتعلقة بالقضايا الاخلاقية بمنع استهلاك الكحول والمخدرات وممارسات الرشوة والبغاء التي تهدد النسيج الاجتماعي وتوهنه.

المادة الرابعة والعشرين

تنطوي على تعهد بمعارضة الافكار المادية مثل معارضتهم الافكار الخرافية، في اشارة مزدوجة للتمايز عن رجال الدين الرجعيين وعن الشيوعيين.

المادة الخامسة والعشرين

دعت فيها الحركة الى احترام حقوق المرأة من اجل بناء جيل جديد اكثر تماسكا[١].

١ علي راحنيمه، **طوباوي إسلامي: سيرة سياسيّة لعلي شريعتي**، لندن، ٢٠٠٠.

من تقديم الامام الطالقاني لكتاب اية الله نائيني «تنبيه الأمة و تنزيه الملة»

«منذ ذلك اليوم الذي فتحت فيه عيني على هذا المجتمع، رأيت شعبا تحت وطأة الحراب والسياط ، كل يوم يمرّ علينا ننتظر به وقوع حادث ما، ما الذي سيحدث اليوم؟ من قتل؟ من اعتقل؟ ومن أبعد؟ ما المؤامرة التي تحاك ضد هذا الشعب؟ حتى بالنسبة لوالدي الذي كان عالما من اعلام الدين كنا لا نصدق بعودته إلى البيت بعد خروجه منه. وهكذا عشت أيام الطفولة تلك مملوئة بالخوف والرعب والقلق.

في الفترة التي كنت أدرس في مدينة قم كان الشعب يعيش اياما عصيبة يخاف فيها الواحد من الآخر نتيجة لإشتداد الظلم والإستبداد وكانت اموال وارواح واعراض الناس عرضة للنهب من قبل عملاء الإستبداد. وأثرت هذه الوضعية تاثيرا سلبيا على نفسيتي الذي كان يولد لدي امراض ابتليت بها حتى الأن وكنت ابحث بيني وبين نفسي واتساءل اليس هذه النقاشات التفصيلية التي تشمل فروع الدين واحكامه من اجل سعادة الفرد والمجتمع ام لا؟! هل هذا الشعب الذي يستعبده فرد أو جماعة ويحكَم بهذه القساوة من الظلم والطغيان سيذوق طعم الحرية ويرى السعادة يوما ما ؟!

الا يجب ان نسخّر قوانا الفكرية والعملية من اجل بناء مجتمع لا يبنى على الأنانية والفردية؟

من ناحية اخرى كنت ارى أناسا يرتدون زيّ رجال الدين يجعلون مستبداً ظالما على ظهر الجماهير ويمدّون له يدَ المساعدة، متوسلين بعض آيات وأحاديث دينية؛ واناسا آخرين يلتزمون الصمت والحذر ويعلنون ولائهم له. عندها يصل الطاغية إلى هدفه ويمتلك زمام الجماهير ويسحق كل ما تحلم به الجماهير. وبعدها يلتمسون الدعاء الى الله لانفراج الأزمة ومجيء إمام العصر؟!

رسالة مجتبى الطالقاني الى والده عن اعتناقه الشيوعية

«آمنت بالخطب الموجزة للمجاهدين وبكتاب «شينخت». في الوقت ذاته، لم آبه كثيرا للطقوس الدينية ولنزعة الانانية الضيّقة في مدرسة علوي[٢]. كان الجو العام في مدرسة علوي شديد العداء للشيوعية. مهما يكن، سرعان ما انجذبت الى الاسلام النضالي – خصوصا عندما بدأ شريعتي وآخرون يحللون الاسلام بطريقة مختلفة (علماً ان المهندس بازرغان كان قد سبقهم الى ذلك). ولكن ما ان بدأ الحماس الاول يتلاشى، حتى ادركتُ ان تعليمهم لن يريني الطريق ويضيء قضايا النضال الاساسية. كثيرون شعروا الشعور ذاته واستمروا في النشاط في اطار حسينية الارشاد. في ذلك الوقت لم اكن استطيع ان افهم كيف لاناس يفكرون مثل تفكيري، الى حد كبير، ان يستمروا باعتماد الطرائق القديمة، طرائق ما عدت احسبها نضالية. حينها ظهر الكفاح المسلح وظهرت المنظمة [منظمة مجاهدي لالشعب]. وكان ذلك نقطة تحوّل اساسية للكثيرين الذين يفكرون مثل تفكيري. كان طبيعيا ان يجذبني ظهور منظمة ايديولوجيتها ماركسية واسلامية في آن معا»[٣].

٢ زميل دراسة لعلي شريعتي في فرنسا وشريكه في ترجمة كتاب «معذبو الارض» لفترانتس فانون.
٣ راحمينه، ص ٣٢٠.

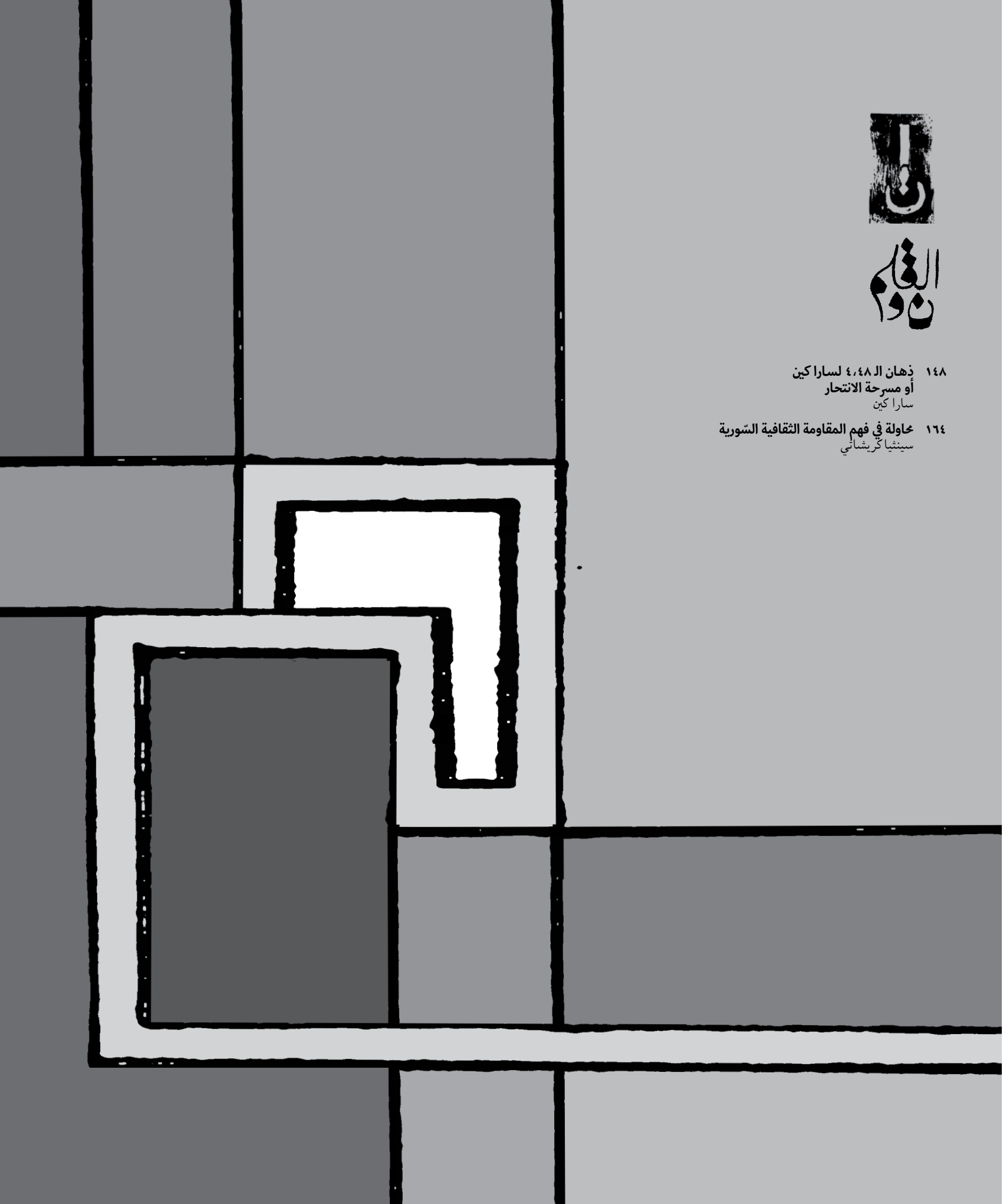

١٤٨ **ذهان الـ ٤،٤٨ لسارا كين أو مسرحة الانتحار**
سارا كين

١٦٤ **محاولة في فهم المقاومة الثقافية السّورية**
سينثيا كريشاني

ذهان الـ ٤،٤٨ لسارا كين
أو مسرحة الانتحار

عرضت مسرحية ذهان ال ٤,٤٨ للمرة الأولى في في ٢٣ حزيران / يونيو ٢٠٠٠، وننشر هنا ترجمة أسامة غنم لها.

الممثلون: دانييل ايفانز وجوماك اينس ومادلين بوتر
اخراج : جيمس ماكدونالد
سينوغرافيا : جيريمي هيربرت
اضاءة : نايجل. ج . ادواردز
صوت : بول آرديتي

(صمت طويل جداً.)
لكن لديكِ أصدقاء.
(صمت طويل.)
لديك الكثير من الأصدقاء.
ماذا تقدمين لأصدقائك ليصبحوا داعمين الى هذا الحد؟
(صمت طويل.)
ماذا تقدمين؟
(صمت.)

وعيٌ مُدّعَم يقطن صالةَ ولائمَ معتمةً قرب سقف ذهن تتحرك أرضيتهُ مثل عشرة آلاف صرصور عندما يدخلُ شعاعُ نورٍ اذ تتحدُ كل الأفكارِ في لحظةِ توافُقِ الجسدُ فيها لم يعد ينفّر بما أن الصراصيرَ تحتوي حقيقةً لا ينطقُ بها أحدٌ قط
عشت ليلةً كُشف فيها كل شيء لي.
كيف سأستطيع التكلم من جديد؟
الكائن ثنائي الجنس المحطم الذي - التي[1] وثق فقط في نفسه يكتشف أن الغرفة في الواقع تعجُ ويتضرع ألا يستيقظ قط من الكابوس
وكانوا كلهم هنا
من الأول حتى الأخير
وكانوا يعرفون اسمي
فيما كنت أفر بخطى قصيرة مثل خنفسة على ظهور كراسيهم
تذكر[2] النور وصدق النور
لحظة[3] وضوح قبل الليل الأبدي
لا تدعني أنسى

أنا حزينة
أشعر أن المستقبل بلا أمل وأن الأشياء لا يمكن أن تتحسن
أنا برمة وغير راضية عن كل شيء
أنا كشخص اخفاق كلي
أنا مذنبة، أنا معاقبة
أنا أرغب بالانتحار
أنا كنت قادرة على البكاء قبلاً لكنني الآن في مكان أبعد من الدموع
أنا فقدت الاهتمام بالآخرين
أنا لا أستطيع اتخاذ قرارات
أنا لا أستطيع أن آكل
أنا لا أستطيع أن أنام
أنا لا أستطيع أن أفكر
أنا لا أستطيع قهر وحدتي، خوفي، قرفي
أنا سمينة
أنا لا أستطيع أن أكتب
أنا لا أستطيع أن أحب
أخي يحتضر، حبيبي يحتضر، أنا أقتلهما كليهما
أنا أشق طريقي نحوموتي

سارا كين

مخرجة مسرحية بريطانية (١٩٧١-١٩٩٩) تتناول اعمالها الحب والاحباط والعنف. انتحرت في ال٢٨ من العمر بعد انتهائها من كتابة مسرحية «ذُهان ٤، ٤٨».

أسامة غنم

مخرج مسرحي واستاذ جامعي، سورية. مدير «مختبر دمشق المسرحي». اخرج اعمالا لهارولد بنتر، وصموئيل بيكيت، وآخرين.

١ تنحت كين كلمة من كلمتين: herself وhimself والكلمة hermself.

٢ تستخدم كين الحرف الكبير في بداية الكلمة لذا ارتأينا أن نجعل الكلمة أكبر بقليل.

٣ الملاحظة عينها.

أنا مذعورة من الأدوية
أنا لا أستطيع ممارسة الحب
أنا لا أستطيع أن أنيك
أنا لا أستطيع أن أكون وحدي
أنا لا أستطيع أن أكون مع الآخرين
أردافي ضخمة جداً
أنا أكره أعضائي التناسلية
في ال ٤.٤٨
عندما يقوم اليأس بزيارته
سأشنق نفسي
على صوت تنفس حبيبي
أنا لا أريد أن أموت
أنا غدوت شديدة الكآبة لحقيقة كوني فانيةً لدرجة أنني قررت الانتحار
أنا لا أريد أن أعيش
أنا غيرانة من حبيبي النائم وأحسده على غيبوبته الصناعية
عندما سيستيقظ سيحسدني على ليلة تفكيري البيضاء وكلامي الذي لا تستطيع الأدوية عجنه ببعضه
أنا أسلمت نفسي على الموت هذه السنة
سيسمي البعض هذا تساهلا زائدا مع الذات
(محظوظون هم لعدم معرفتهم حقيقته)
البعض الآخر سيعرف واقع الألم البسيط
هذا يغدو حالتي الطبيعية

١٠٠
٩١
٨٤
٨١
٧٢
٦٩
٥٨
٤٤
٣٨ ٣٧
٢٨ ٢١
١٢
٧

لم يطل الأمر، لم أكن هناك لمدة طويلة. لكن وأنا أحتسي قهوةً سوداء مُرّة ألتقط تلك الرائحة الدوائية في غيمة تبغ قديم ويلمسني شيء ما هناك في ذلك المكان الذي ما زال ينشج وينفتح جرح من قبل سنتين مثل جثة ويزأر عار مدفون منذ زمن بعيد ألمه الوسخ الآخذ بالتعفن.

غرفة من وجوه لا تعابير لها تحدق بنظرة فارغة في ألمي، نظرة خالية من أي معنى لدرجة أنه لا بد من وجود نية سيئة خلفها.

دكتور هذا ودكتور ذلك ودكتور ما هذا الذي كان ماراً فقط وفكر أن يظهر هنا ليسخر أيضاً. محترقةً في نفق ارتياع حار، إذلالي يكتمل إذ أرتجف بلا سبب وأتلعثم بالكلمات ولا أجد شيئاً لأقوله عن «مرضي» الذي على كل حال يتلخص بمعرفة أن لا فائدة من فعل أي شيء لأنني سأموت. وأنا مسمّرةٌ في مكاني بصوت العقل الطب النفساني الناعم ذاك الذي يخبرني انه توجد حقيقة موضوعية جسدي وعقلي فيها هما واحد. لكنني لست هنا ولم أكن قط. دكتور هذا يدون ما قلت ودكتور ذلك يحاول همهمة متعاطفة. يتفرجون عليّ، يحاكمونني، يشمون الفشل المُقعِدَ الذي يفوح من جلدي، اليأس الذي ينشب براثنه وكلَ الذعر المستَهلك الذي يبللني حتى العظام إذ أحدق ملتاعة في العالَم وأتساءل لماذا يبتسم الجميع وينظرون إلي وهم يعرفون في سرهم عاري المؤلم.

عار عار عار.

اغرقي في عارك العاهر.

أطباء مبهمون، أطباء حساسون، أطباء غريبون، أطباء لكنتَ ظننتَهم مرضى منتاكين لولم يثبت لك العكس، يسألون ذات الأسئلة، يتحدثون بدلا عني، يقدمون علاجات كيميائية لقلق فطري ويحمون ثقوب مؤخرات بعضهم حتى أرغب بالصراخ من أجلك، الطبيب الوحيد الذي لمسني بإرادته قط، الوحيد الذي نظر إلي في العينين، الوحيد الذي ضحك على نكاتي السوداء أقولها بصوت القبر المحفور حديثاً، الوحيد الذي سخر عندما حلقت رأسي، الوحيد الذي كذب وقال إنهُ سُر لرؤيتي. الذي كذب. وقال إنه سر لرؤيتي. أنا وثقت بك، أنا أحببتك، وليس فقدانك هو ما يؤلمني، بل تلفيقاتك الشرموطة الوقحة المتنكرة بقناع ملاحظات طبية.

حقيقتك، كذباتك، لا حقيقتي وكذبي.

وفيما كنت مقتنعة بأنك مختلف وأنك ربما حتى أحياناً أحسستَ بالحزن الذي يشع في وجهك وينذر بالانفجار، كنت أنت تحمي ثقب مؤخرتك أيضاً مثل كل مَنْيك فانٍ غبي آخر.

بالنسبة لعقلي هذه خيانة. وعقلي هو موضوع هذه الشظايا الحائرة.

لا شيء يستطيع إخماد غضبي.
ولا شيء يستطيع إرجاع إيماني.
ليس هذا عالماً أرغب بالعيش فيه.

هل أعددت أي خطط؟
سآخذ جرعة زائدة، أقطع معصمي ثم أشنق نفسي.
كل هذه الأشياء معاً؟
لا يمكن هكذا أن يفهم الأمر خطأً على أنه نداء استغاثة.
(صمت.)
لا يمكن أن تنجح.
بالطبع ستنجح.
لا يمكن أن تنجح. ستبدأين بالشعور بالنعاس بسبب الجرعة الزائدة ولن يكون لديك الطاقة لتقطعي معصمك.
(صمت.)
سأكون واقفة على كرسي مع أنشوطة حول عنقي.
(صمت.)
لوكنتِ وحيدة أتظنين أنك من الممكن أن تؤذي نفسك.
أخشى أنني قد أفعل ذلك.
هل يمكن أن يحميك ذلك؟
أجل. إنه الخوف الذي يبقيني بعيدة عن سكك القطارات. فقط أرجو من الله أن يكون الموت هو المحطة الشرموطة الأخيرة. أشعر كأن عمري ثمانين سنة. أنا متعبة من الحياة وعقلي يريد أن يموت.
هذه استعارة، ليست الواقع.
إنه تشبيه.
ليس الواقع.
ليس استعارة، إنه تشبيه، لكن حتى لو كان كذلك، الخاصية المعرفة لاستعارةً هي كونها حقيقية.
(صمت طويل.)
لست في الثمانين.
(صمت.)
هل أنتِ؟
(صمت.)
هل أنتِ؟
(صمت.)
أم أنك؟
(صمت طَويل.)
هل تحتقر كل الناس التعيسين أم أنها أنا بشكل خاص؟
أنا لا أحتقرك. ليس خطأك. أنتِ مريضة.
لا أظن ذلك.
لا؟
لا؟ أنا مكتئبة. الاكتئاب غضب. إنه ماذا فعلت، من كان هناك ومن تلوم.
ومن تلومين؟
نفسي.

الجسد والروح لا يمكن أن يتزوجا أبدا
أحتاج أن أصبح مَن أنا أساساً وسأجأر إلى الأبد على هذا التنافر الذي حكم علي بجهنم
الأمل الصلد لا يمكن أن يرفعني
سأغرق في الاكتئاب
في بركة نفسي السوداء الباردة
بئر عقلي الغير مادي
كيف أستطيع العودة الى الشكل
الآن وقد اختفى فكري الشكلاني؟
ليست حياة أستطيع قبولها.
سيحبونني لذلك الشيء الذي يدمرني
السيف في أحلامي
غبار أفكاري
المرض الذي ينتشر في طيات عقلي
كل مديح يأخذ قطعة من روحي
نق تعبيري
أتخامد بين أهبلين
لا يعرفان شيئاً
دائماً مشيت حرة
الأخيرة في سلالة طويلة من مرضى السرقة الأدبية
(تقليد علماني)
السرقة هي الفعل المقدس
على دربٍ ملتوٍ نحو التعبير
كومة من إشاراتٍ الاستفهام تقشر الانهيار العصبي
مجرد كلمة على صفحة وها هي الدراما
أكتب للموتى
لمن لم يولدوا
بعد الرابعة و٤٨ لن أتحدث ثانية
لقد وصلت إلى نهاية هذه الحكاية الكئيبة والمنفرة لوعي محجور عليه في هيكل ذبيحة غريبة وصيرته بليداً عقلية الأغلبية الأخلاقية الخبيثة
لقد كنت ميتة لمدة طويلة
عودة إلى جذوري
أغني بلا أمل على الحد

ASAP RVSP [٤]

أحياناً ألتفت حولي وألتقط رائحتك ولا أستطيع أن أتابع لا أستطيع أن أنتاك وأتابع دون أن أعبر عن ذلك الألم الجسدي رهيب البشاعة عن ذلك التوق الشرموط لدي إليك. ولا أستطيع أن أصدق أنني أشعر بهذا نحوك وأنت لا تشعر بشيء. ألا تشعر بشيء؟

(صمت.)

ألا تشعر بشيء؟

(صمت.)

وأخرج في السادسة صباحاً وأبدأ بحثي عنك. إذا حلمت برسالة عن شارع أو حارة أو محطة أذهب إلى هناك. وأنتظرك.

(صمت.)

أتعلم، أنا حقاً أشعر كما لوأنه يتم التلاعب بي.

(صمت.)

لم تكن لدي مشكلة قط طوال حياتي في إعطاء شخص آخر ما يريد. لكن ما من أحد قط كان قادراً على القيام بذلك لي أنا. لا أحد يلمسني، لا أحد يقترب مني. لكنك الآن لمستني في مكان عميق بشكل عاهر لدرجة أنني لا أستطيع أن أصدق ولا يمكنني أن أكون هكذا لك. لأنني لا أستطيع أن أجدك.

(صمت.)

كيف هو شكلها؟

وكيف سأتعرف عليها عندما أراها ؟

هي سوف تموت، هي سوف تموت، سحقاً: هي سوف تموت هكذا بكل بساطة.

(صمت.)

أتظن أنه من الممكن لمرء أن يولد في الجسد الخطأ؟

(صمت.)

أتظن أنه من الممكن لمرء أن يولد في الحقبة الخطأ؟

(صمت.)

كس أمك. كس أمك. كس أمك لأنك رفضتني لأنك لست هناك، كس أمك لأنك تجعلني أشعر بأني خراء، كس أمك لأنك جعلت الحب المنيك والحياة تنزف حتى النهاية مني، كس أم أبي لأنه ناك حياتي للأبد وكس أم أمي لأنها لم تهجره، لكن وقبل كل شيء، كس أمك يا رب لأنك جعلتني أعشق شخصاً ليس موجوداً.

كس أمك كس أمك كس أمك.

آه يا إلهي، ماذا حدث لذراعك؟

بترتها.

هذا فعل غير ناضج ويتسول الاهتمام تسولاً.

هل أراحك؟

لا.

هل خفف التوتر؟

لا

هل أراحك؟

(صمت.)

هل أراحك؟

لا.

لا أفهم لماذا فعلت ذلك؟

اسأل إذاً.

هل خفف التوتر؟

(صمت طويل.)

هل أستطيع أن أنظر؟

لا.

أرغب بالنظر، لأرى إن كان ملتهباً.

لا.

(صمت.)

فكرت أنك ربما ستفعلين ذلك. الكثيرون يفعلون ذلك. يخفف التوتر.

هل فعلته قط؟

...

لا. أكثر عقلاً وحساسية ومنيكة من أن تقوم بذلك.

لا أعرف أين قرأت ذلك، لكنه لا يخفف التوتر.

(صمت.)

لماذا لا تسأل لماذا؟

لماذا بترت ذراعي؟

أترغبين في إخباري؟

أجل.

إذن قولي لي.

اسألني

لماذا؟

(صمت طويل.)

لماذا بترت ذراعك؟

لأنه شعور شرموط رائع. إنه شعور شرموط عجيب مفاجئ.

هل أستطيع أن أنظر؟

يمكنك أن تنظر. لكن لا تلمس.

٤ الرجاء الإجابة بأسرع ما يمكن.

(ينظر) ولا تظنين أنك مريضة؟

لا.

أنا أظن. ليس خطأك. لكن يجب أن تتحملي مسؤولية أفعالك. أرجوك لا تقومي بهذا مرة أخرى.

أخشى فقدانها هي التي لم أمسس قط
الحب يبقيني عبدة في قفص من دموع
أقضم لساني الذي لا أستطيع مخاطبتها به قط
أشتاق للمرأة التي لم تولد قط
أقبل امرأة عبر السنين التي تقول إننا لن نلتقي قط
كل شيء يمر
كل شيء يفنى
كل شيء يبوخ
فكرتي تبتعد مع ابتسامة قاتلة
تاركة قلقاً غير متسق
يهدر في روحي
لا أمل لا أمل لا أمل لا أمل لا أمل لا أمل لا أمل لا أمل
أغنية لمحبوبتي، تلمس غيابها
أعماق قلبها، لمعة ابتسامتها

بعد عشر سنين ستبقى ميتة. عندما سأعيش مع ذلك، عندما سأتعامل مع ذلك، عندما ستمر بضع أيام عندما لن أفكر حتى بذلك، ستبقى ميتة. عندما سأكون سيدة عجوز تحيا في الشارع ناسية اسمي ستبقى ميتة، ستبقى ميتة، لقد انتاك الأمر وانتهى ويجب أن أقف وحدي

حبي، حبي، لماذا هجرتني؟
إنها الأريكة حيث لن أستلقي قط
وما من معنى للحياة في ضوء فقدانها
بنيت لأكون وحيدة
لأحب الغائب
اعثر علي
حررني
من هذا الشك الأكال
اليأس التافه
الهول في وضعية الراحة
يمكنني أن أملأ فضائي
أملأ زماني
لكن لا شيء يستطيع ملأ هذا الفراغ في قلبي
الاحتياج الحيوي الذي يمكنني أن أموت من أجله

انهيار

لا لوات ولا لكنات.

لم أقل لو أو لكن، قلت لا.

لا يمكن لا يجب قط يجب علي دائماً لا ينبغي لا يجدر. الما لا يمكن التفاوض عليه.

ليس اليوم.

(صمت.)

أرجوك. لا تطفئ دماغي عبر محاولتك تقويتي. اسمع وافهم، وعندما تشعر بالاحتقار لا تعبر عنه، على الأقل ليس لفظياً، على الأقل ليس لي.

(صمت.)

لا أشعر بالاحتقار.

لا؟

لا. ليس خطأك.

ليس خطأك، لا أسمع سوى هذا، ليس خطأك، إنه مرض، ليس خطأك، أعلم أنه ليس خطأي. قلت لي هذا مرات عديدة لدرجة أنني بدأت أعتقد أنه خطأي.

ليس خطأك.

أعرف.

لكنك تسمحين به.

(صمت.)

ألا تفعلين؟

ما من دواء على الأرض يجعل الحياة ذات معنى.

تسمحين بحالة العبث اليائسة هذه.

(صمت.)

تسمحين بها.

(صمت.)

لن أكون قادرة على التفكير. لن أكون قادرة على العمل.

لن يعرقل شيء عملك مثل الانتحار.

(صمت.)

حلمت أنني ذهبت إلى الطبيبة وأعطتني ثماني دقائق لأعيش. كنت قد جلست في غرفة الانتظار لنصف ساعة عاهرة.

(صمت طويل.)

أوكيه. فلنفعلها، فلنأخذ هذا العقار، لنقم بفصد الدماغ الكيماوي، فلنطفىء الوظائف العليا لدماغي وربما سأغدو أكثر قدرة بنثرة عاهرة على العيش.

فلنفعلها.

مشهد من مسرحية «٤.٤٨»، إخراج تد هافمان، ليريك هامرسميث، المملكة المتحدة، ٢٠١٦

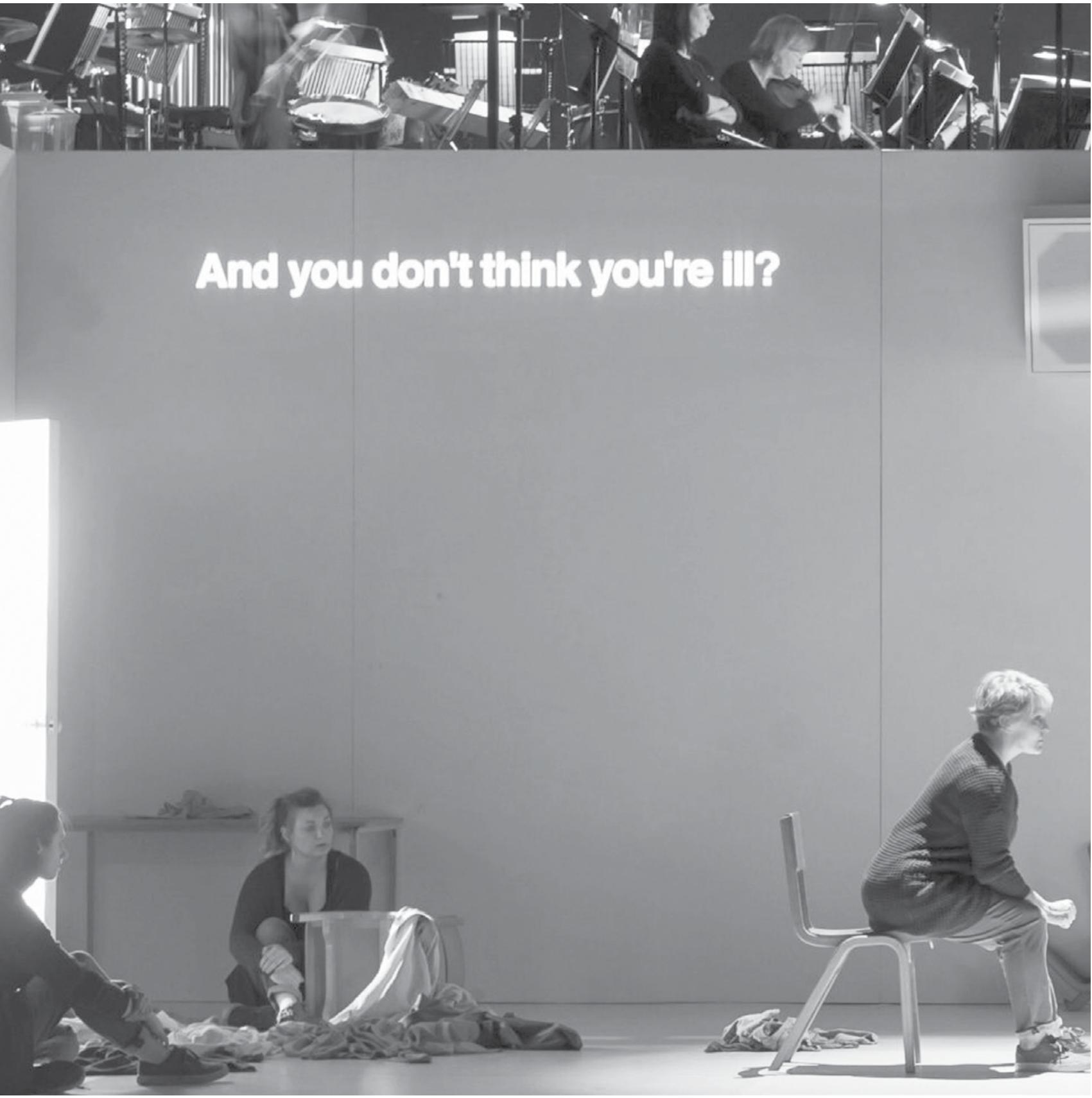
And you don't think you're ill?

تجريد لدرجة المزعج
ما لا يمكن قبوله
غير الملهم
غير القابل للاختراق
غير ذي جدوى
غير موقر
غير ديني
لا يمكن غفرانه
كره
خلع
انتفاء الصفة
تفكيك
لا أتخيل
(بوضوح)
أن روحاً واحدة
ربما
يمكنها
يجب عليها
أو
وإذا حصل هذا
لا أظن
(بوضوح)
أن روحاً أخرى
روحاً مثل روحي
ربما
يمكنها
يجب عليها
أو
غير محتَرم
أعلم ماذا أفعل
جيد جداً
لستُ خطيباً بالفطرة
لا عقلاني
لا يمكن اختصاره
لا يمكن أن يلتئم
لا يمكن التعرف عليه
خارج عن سكته
مضطرب
مشوه
شكلٌ حر
مظلم حتى
حقيقي عادل صحيح
أي أحد أو أحدٌ ما
كل كل واحد الجميع
الغرق في بحر المنطق
حالة الشلل الوحشية هذه
ما زلت مريضة

أعراض: لا تأكل، لا تنام، لا تتحدث، لا رغبة جنسية، يائسة، تريد الموت.

التشخيص: حزن مرضي.

سيرترالين، ٥٠ مغ. أرق متعاظم. قلق حاد، أنوركسيا (خسران ١٧ كغ)، تزايد في الأفكار الانتحارية، خطط ونوايا. معطلة بعد قبولها في المستشفى.

زوبيكلون، ٧٠٥ مغ، نامت. أوقف اثر طفح جلدي، حاولت المريضة مغادرة المستشفى ضد الرغبة الطبية. منعت من قبل ثلاث ممرضين ذكور بحجمها بمرتين. المريضة تهدد وهي غير متعاونة. أفكار عصاب اضطهاد – هلوسات بأن فريق المستشفى يحاول تسميمها.

ميليريل، ٥٠ غرام. متعاونة.

لوفيرامين، ٧٠ مغ، زيد إلى ١٤٠ مغ، ثم ٢١٠ مغ. زيادة وزن ١٢ كغ. فقدان ذاكرة قريبة. ما من رد فعل آخر.

جدال مع طبيب شاب اتهمته بخيانتها على إثره حلقت رأسها وجرحت ذراعيها بموسى حلاقة.

المريضة وضعت بالعناية الاجتماعية بعد وصول مريض بسيكوباتي إلى عيادة الطوارئ بحاجة أكبر منها لعناية المستشفى وسريره.

سيتالوبرام ٢٠ مغ. نوبات ارتجاف صباحية. لا ردود أفعال أخرى.

لوفيبرامين وسيتالوبرام أوقفا عندما ضاقت المريضة ذرعاً بالأعراض الجانبية وغياب أي تحسن ملحوظ. أعراض التوقف عن العلاج:

غثيان واضطراب. بقيت المريضة تسقط، تدوخ وتمشي أمام السيارات، أفكار هذيانية – تظن أن أحد الأطباء هوالمسيح الدجال.

فلوكسيتين هيدروكولوريد، الاسم التجاري بروزاك، ٢٠ مغ، ضوعف إلى ٤٠ مغ. أرق، شهية غير منتظمة، (فقدان وزن ١٤ كغ)، قلق حاد، عدم قدرة على النشوة الجنسية، أفكار انتحارية تجاه عدد من الأطباء وصانعي الأدوية. أوقف.

المزاج: منتاكة من الغضب.
التأثير: غاضبة جداً.
تورازين: ١٠٠ مغ. نامت. أهدأ.
فينالافاكسين: ٧٥ مغ، رفع إلى ١٥٠ مغ. ثم ٢٢٥ مغ. غثيان، انخفاض في ضغط الدم، صداع. لا ردود فعل أخرى. أوقف.

رفضت المريضة السيروكسات. هيبوكوندريا

ذكر لطرف في العين متكرر وفقدان شديد للذاكرة كدليل على اضطراب في تقدير المسافات متأخر وجنون متأخر.

رفضت كل علاج لاحق.

١٠٠ حبة أسبرين وزجاجة كابرنييه سوفينيون بلغاري. كابيرنيه سوفينيون، ١٩٨٦. استيقظت المريضة في بركة من القيء وقالت: «نم مع كلب وستستيقظ مترعاً بالبق» آلام معدة حادة. ما من رد فعل آخر.

تنفتح فتحة الأرضية
ضوء عار
التلفزيون يتحدث
مترع بالعيون
أرواح البصر
والآن أنا خائفة جداً
أرى أشياء
أسمع أشياء
لا أعرف من أنا
اللسان ممدود خارجاً
فكر مشلول
تجعد ذهني التدريجي
أين أبدأ؟
أين أتوقف؟
كيف أبدأ؟
(بما أني أنوي الاستمرار)
كيف أتوقف؟
كيف أتوقف؟
كيف أتوقف؟
كيف أتوقف؟
كيف أتوقف؟ جرعة ألم
كيف أتوقف؟ تمزق رئتي
كيف أتوقف؟ جرعة موت
كيف أتوقف؟ تعصر قلبي
سأموت
ليس بعد
لكنها
أرجوك...
نقود...
زوجة...
كل فعل هورمز
يسحقني ثقله
خط من نقاط على عنقي (حنجرتي)
اقطع هنا
لا تدع هذا يقتلني
هذا سيقتلني ويحطمني
يرسلني إلى جهنم
أتوسل إليك أن تنقذني من هذا الجنون الذي يأكلني
موت إرادي
فكرت أنه يجب ألا أنبس بحرف قط مرة أخرى
لكنني الآن أعرف أن هناك شيئاً أكثر سواداً من الرغبة
لعله سينقذني
لعله سيقتلني
صفير كئيب هو صرخة انفطار القلب حول الزبدية الجهنمية في سقف عقلي
غطاء من الصراصير
أوقف هذه الحرب
ساقاي فارغتان
لا شيء ليقال
وهذا هو إيقاع الجنون

لقد حرقتُ اليهود بالغاز، قتلت الأكراد، قصفت العرب، نكت أطفالاً صغار وهم يتوسلون إلي لأرحمهم. حقول القتل حقولي، الكل ترك الحفلة بسببي، سأمتص عينيك المنيوكتين وأرسلهما إلى أمك في علبة. وبعد موتي سأولد من جديد متجسدة في طفلك لكن مع فارق أنني سأكون أبشع بخمسين مرة. سأجعل حياتك جحيماً حياً أنا أرفض أنا أرفض أنا أرفض أبعد نظرك عني
لا بأس
أبعد نظرك عني
لا بأس أنا هنا
أبعد نظرك عني

نحن محرومو الكنيسة

منبوذو العقل
لم أنا مضروبة؟
رأيت رؤى للرب
وسيحصل
ثبتوا أنفسكم
لأنكم ستحطمون قطعاً
سيحصل
حملقوا في نور اليأس
لمعان القلق
وستجرون إلى الظلمة
إذا حصل نسف
(وسيكون هناك نسف)
سيصاح باسم المعتدين من على الأسطحة
خافوا الرب
ومكر دعوته
حكة على جلدي، هياج في قلبي
ملاءة من صراصير نرقص عليها حالة الحصار الجهنمية هذه
سيحصل كل هذا
كل كلمات نفسي المنتن
تذكر النور، وصدق لنور
المسيح ميت
والرهبان في نشوة
نحن الخسيسون
الذين نخلع قادتنا
ونحرق البخور لبعل
تعال الآن، دعنا نفكر معاً
سلامة العقل موجودة في جبال بيت الرب على أفق الروح التي تتراجع بصورة أبدية
الرأس مريض، برقع القلب ممزق
اذرع الأرض التي تمشي عليها الحكمة
عانق كذبات حلوة –
جنون العاقلين المزمن
يبدأ الخلع

في ٤,٤٨
عندما تزور الصحة العقلية
لساعة واثنتي عشر دقيقة أنا في عقلي السليم
وما أن تذهب، سأكون ذهبت من جديد،
دمية متشظية، مهرج غروتسكي.
الآن أنا هنا أستطيع رؤية نفسي
لكن عندما استلب لهذيانات سعادة باطلة،
السحر المجنون لمولد السحر هذا،
لا أستطيع لمس ذاتي الجوهرية.
لماذا تصدقني عندها وليس الآن؟
تذكر الضوء وصدق الضوء
لا شيء أهم من هذا
كف عن الحكم انطلاقاً من المظاهر وخذ حكماً صائباً
لا بأس. ستتحسنين.
كفرك لا يداوي شيئاً
أبعد نظرك عني.

تنفتح فتحة الأرضية
ضوء عار
طاولة كرسيان ولا نوافذ
ها أنذا
وها هوجسدي
يرقص على زجاج
في زمن حادث حيث لا توجد حوادث
لا خيار لديك
الخيار يأتي لاحقاً
اقطع لساني
اقتلع شعري
قطع أوصالي
لكن دع لي حبي
أفضل أن أخسر ساقي
أن تقتلع أسناني
أن تسمل عيني
على أن أخسر حبيبي
المع اخفق شق احرق الوي اضغط ربت شق المع اخفق اضرب احرق كوم اخفق ربت اخفق اضرب اخفق المع احرق ربت اضغط الوي اضغط اضرب اخفق عوم احرق اخفق احرق
لن يحدث هذا أبداً
ربت اخفق اضرب اقطع الوي اقطع اضرب اقطع كوم اخفق الع اضرب الوي اضغط المع اضغط ربت اخفق الوي احرق اخفق ربت المع ربت كوم احرق اضغط اخفق احرق المع
لا شيء إلى الأبد
(لكن لا شيء)
اقطع الوي اضرب احرق اخفق ربت كوم ربت اخفق

احرق اضرب احرق المع ربت اضغط ربت الوي اخفق كوم اقطع احرق اقطع اضرب اقطع اضغط اقطع كوم اقطع اخفق احرق ربت

ضحية، جاني، متفرج

اضرب احرق كوم اخفق المع اخفق احرق اقطع الوي اضغط ربت اقطع المع اخفق ربت اخفق اضرب اخفق المع احرق ربت اضغط اخفق الوي اضغط اضرب المع اخفق احرق اخفق المع

الصباح يجلب الهزيمة

الوي اقطع اضرب اقطع كوم اخفق المع اضرب الوي ربت اخفق اضرب اقطع اضغط المع اضغط ربت اخفق الوي احرق اخفق ربت المع ربت كوم احرق اضغط احرق المع اخفق اقطع

ألم جميل

يقول أنا موجودة

اخفق اضرب اقطع ربت الوي اضغط احرق اقطع اضغط اقطع اضرب اخفق المع اضغط احرق اقطع ربت اخفق كوم المع اخفق ربت اضغط احرق اقطع اضغط اقطع اضرب المع اخفق احرق

وغداً حياة أصح

١٠٠
٩٣
٨٦
٧٩
٧٢
٦٥
٥٨
٥١
٤٤
٣٧
٣٠
٢٣
١٦
٩
٢

سلامة العقل تقبع في مركز الاضطراب. هناك حيث ينفصل الجنون محترقاً عن الروح المنقسمة.

أعرف نفسي.

أرى نفسي.

حياتي عالقة في شبكة عقل يحيكها طبيب ليدعم الاتزان في **٤,٤٨** سأنام.

أتيت إليك آملة أن أشفى.

أنت طبيبي، مخلصي، قاضيي كلي القدرة، كاهني، إلهي، جراح روحي.

وأنا مهتديتك إلى الاتزان العقلي

لتُحقِقَ الأهداف والطموحات

لتتجاوزَ العوائق وتصِلَ إلى مستوى عال

لتُعزِز تقدير الذات عبر تمرين الموهبة الناجح

لقهر الممانعة

لتكون لك سيطرة وتأثير على الآخرين

لأدافع عن نفسي

لأدافع عن فضائي النفسي

لدعم الأنا

لتحظى بالاهتمام

لتُرَى وتُسمَع

لتوجد، تُدهِش، تبهِر، تَصدُم، تحيَر، تمتِع، تُسَلي أوتُغرِي الآخرين

لتتحرر من الكوابح الاجتماعية

لتقاوم الاكراه والتضييق

لتكون مستقلاً وتتصرف بحسب رغبتك

لتتحدى العرف

لتتجنب الألم

لتتجنب العار

لتمحو إذلال الماضي بمواصلة الفعل

لتحافظ على احترام الذات

لتقمع الخوف

لتتجاوز الضعف

لتنتمي

لتُقبَل

لتتقرب وليكونَ تبادلٌ ممتعٌ مع الآخرين

لتتحادث بطريقة ودودة، لتروي قصصاً، تتبادل مشاعر، أفكار، أسرار

لتتواصل، لتتحادث

لتضحك وتمزح

لتفوز بعاطفة الآخر المشتهى

لتلتزم وتبقى مخلصاً للآخر

لتنتشي بتجاربِ حسية مع الآخر الغارق
لتُطعم، تُساعد، تُحمي، تُريح، تُعزي، تَدعَم، تُمرِّض أوتَشفي
لتُطعَم، تُساعَد، تُحمى، تُراح، تُعزى، تُدعَم، تُمرَّض أوتُشفى
لنصنع سوياً علاقة ممتعة، ممتدة، تعاونية ومتبادلة مع آخر، مع ند
لتُسَامَح
لتُحَب
لتكون حراً

لقد رأيتَ أسوأ ما لدي.
أجل.
لا أعرف شيئاً عنك.
لا.
لكنني أحبك.
أنا أحبك.
(صمت.)
أنت أملي الأخير.
(صمت طويل.)
أنتِ لا تحتاجين لصديق تحتاجين لطبيب.
(صمتَ طويل.)
أنت مخطئ جداً.
(صمت طويل جداً.)
لكن لديكِ أصدقاء.
(صمت طويل.)
لديك الكثير من الأصدقاء.
ماذا تقدمين لأصدقائك ليغدوا داعمين إلى هذه الدرجة؟
(صمت طويل.)
ماذا تقدمين لأصدقائك ليغدوا داعمين إلى هذه الدرجة؟
(صمت طويل.)
ماذا تقدمين؟
(صمت.)
لدينا علاقة مهنية. أظن أن لدينا علاقة جيدة. لكنها مهنية.
(صمت.)
أشعر بألمك لكن لا يمكنني أن أحمل حياتك في يدي.
(صمت.)
ستكونين على ما يرام. أنتِ قوية. أعرف أنك ستكونين أوكيه لأني أحبك ولا يمكنكِ أن تحَبي أحداً لا يحب نفسه. الناس الذين أخاف عليهم هَم أولئك الذين لا أحبهم لأنهم يكرهون أنفسهم لدرجة أنهم لا يدعون أحداً آخر يحبهم. أيضاً، لكنني فعلاً أحبك. سأشتاق لك. وأعلم أنك ستكونين أوكيه.

ماغدالينا سيليك في مشهد من مسرحية «٤.٤٨»، إخراج غريغور جارزينا، مسرح روزمايتوسكي، وارسو، ٢٠٠٢، تصوير ستيفان أوكولوفيتز، تلفزيون ورادیو وارسو

(صمت.)
معظم زبائني يريدون قتلي، عندما أخرج من هنا في نهاية النهار أحتاج أن أذهب إلى البيت إلى حبيبي وأن أسترخي. أحتاج إلى أن أكون مع أصدقائي وأسترخي. أحتاج إلى أن يكون أصدقائي فعلاً مع بعضهم البعض.
(صمت.)
أكره هذا العمل الشرموط وأحتاج لأن يكون أصدقائي عاقلين.
(صمت.)
أنا آسف
ليس هذا ذنبي.
آسف، كانت هذه غلطة.
ليس هذا ذنبي.
لا. ليس ذنبك. أنا آسف.
(صمت.)
كنت أحاول أن أشرح
أعرف. أنا غاضبة لأني أفهم، وليس العكس.

معلوفة
مدعمة
مزبولة
جسدي يتدهور
جسدي يتناثر قطعاً
ما من امتداد أبعد من الامتداد الذي وصلت إليه مسبقاً
ستحصل دوماً على قطعة مني
لأنك حملت حياتي بين يديك
هاتين اليدين القاسيتين
هذا سينهيني
ظننت أنه صامت
حتى عم الصمت
كيف ألهمتَ هذا الألم؟
لم أفهم قط
ما هوالذي ليس من المفترض أن أُحس به
مثل طير يحلق في سماء منتفخة
عقلي يمزقه البرق
إذ يرتمي من وراء الرعد
تنفتح فتحة أرضية
ضوء عار
ولا شيء
لا شيء
لا شيء يرى
ماذا أشبه أنا؟
طفلة النفي
من حجرة تعذيب إلى أخرى
تَتَابعُ أخطاءٍ كريهٌ دون غفران
وقعتُ في كُل خطوة على الطريق
اليأس يدفعني إلى الانتحار
القلق الذي لا يستطيع الأطباء أن يجدوا له دواء
ولا يهتمون بأن يفهموه
آمل ألا تفهم قط
لأنني أحبك
أحبك
أحبك
ساكنة هي المياه السوداء
عميقة مثل الأبد
باردة مثل السماء
ساكنة مثل قلبي إذ مضى صوتك
سأتجمد في جهنم
طبعاً أحبك
لقد أنقذت حياتي
تمنيت لو أنك لم تفعل
تمنيت لو أنك لم تفعل
تمنيت لو تركتني وحيدة
فيلم أبيض وأسود من نعم أو لا نعم أو لا نعم أو لا نعم أو لا نعم أو لا نعم أو لا
لطالما أحببتك
حتى عندما كنت أكرهك
ماذا أشبه أنا؟
تماماً مثل أبي
آه لا آه لا آه لا
تنفتح فتحة أرضية
ضوء عار
يبدأ الانقطاع
لم أعد أعرف أين أنظر بعد الآن
متعبةٌ من البحث في الزحام
لتخاطر
والأمل
شاهد النجوم
تنبأَ بالماضي
وغَيِر العالم بكسوف فضي

الشيء الوحيد الدائم هوالتدمير
سنختفي كلنا
محاولين ترك علامة تدوم أكثر من ذاتي
لم أقتل نفسي من قبل فلا تبحث عن سوابق
ما جرى قبلاً كان مجرد البداية
خوف دوري
هذا ليس القمر إنها الأرض
ثورة
إلهي الحبيب، إلهي الحبيب، ماذا عساني أصنع؟
كل ما أعرفه
هو الثلج
واليأس الأسود
لم يبق مكان لأميل إليه
تشنج أخلاق عاجز
البديل الوحيد للجريمة
أرجوك لا تشرّحني لتعرف كيف متّ
سأخبرك كيف متّ
مائة حبة لوفبرامين، خمسة وأربعين زوبليكون، خمسة وعشرون تيمازيبام، وعشرون ميلليريل
كل ما كان لدي
نبتلع
نقطع
نشنق
قضي الأمر
انظروا لخصي
الفكرة المخصية
الجمجمة
مسترخية
أسر
انتشاء
انقطاع
روح
سيمفونية فردية
في الـ ٤,٤٨
الساعة السعيدة
عندما يزور الوضوح
عتمة دافئة
تبلل عيني
لا أعرف أي خطيئة
هذا مرضُ أن تغدو عظيماً

هذهِ الحاجة الحيوية التي قد أموت من أجلها
أن أُحب
أنا أموتُ من أجل شخص لا يهتم
أنا أموتُ من أجل شخص لا يعلم
أنت تحطمني
تحدث
تحدث
تحدث
حلبة من عشرة ياردات لفشل
أبعد نظرك عني
وقفتي الأخيرة
لا أحد يتحدث
صادقوا علي
اشهدوا علي
شاهدوني
أحبوني
خضوعي الأخير
هزيمتي الأخيرة
ما زالت الجبانة ترقص
الجبانة لن تتوقف
أظن أنك تفكر بي
بالطريقة التي أرتأيها لتفكر بي بها
الفترة الأخيرة
نقطة النهاية الأخيرة
اعتني بأمك الآن
اعتني بأمك
الثلج الأسود يسقط
في الموت تعانقيني
لن أتحرر أبداً
ليس عندي أي رغبة بالموت
ما من منتحر كانت لديه هكذا رغبة
تفرّج عليّ أتلاشى
تفرّج عليّ
أتلاشى
تفرّج عليّ
تفرّج عليّ
تفرّج
إنها ذاتي التي لم ألتقِ بها قط، تلك الملصوق وجهها على قفا عقلي
أرجوكم ارفعوا الستارة

محاولة في فهم المقاومة الثقافية السّورية

سينثيا كريشاتي

جامعية من لبنان.

أذكر المرّة الأولى التي شاهدت فيها فيلماً لعمر أميرالاي، منذ أربع سنوات. كان هذ الفيلم بعنوان «طوفان في بلاد البعث». لم أستطع أن أصدّق أنّ فيلماً صُوّر بعد بضع سنوات فقط من ربيع دمشق المقموع بدا منطقياً، بخلاف كلّ شيء آخر كنت أقرأه، وأراه، وأشاهده، وأسمعه بشأن سورية. «طوفان في بلاد البعث» (عام ٢٠٠٣) عبارة عن عملٍ فنيّ خالد. يختتم هذا الفيلم ثلاثيّة أميرالاي بشأن «سدّ الطبقة»، سدٌ ترابيّ شيّده نظام الأسد على نهر الفرات بين عامَي ١٩٦٨ و١٩٧٣، يقع على مسافة أربعين كيلومتراً من المنبع من مدينة الرقّة. عندما اندلعت الثورة السوريّة عام ٢٠١١، التجأ آلاف الأشخاص الذين هُجّروا من المناطق المجاورة كحلب وحمص وإدلب إلى الرقّة. في البداية، كانت قوّات نظام البعث تسيطر على المدينة التي سقطت بعدئذٍ على التوالي في أيدي الجيش السوري الحرّ، ثمّ جبهة النصرة وأخيراً تنظيم الدّولة الإسلامية في العراق وسورية. ومنذ ذلك الحين، أفضى التدخّل العسكريّ ضدّ تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق وسورية إلى جعل كلّ دولة في العالم تقريباً تقصف الرقّة يوميّاً، وكنتيجة لانتشار القوى كافّةً على الأرض وفي الجوّ، تُذبح الرقّة بصمت.

في حين عبّر أميرالاي عن إعجابه بمشروع حزب البعث التّحديثي في سورية في فيلمه الأول عن سدّ الطبقة بعنوان «فيلم محاولة عن سدّ الفرات» (عام ١٩٧٠)، شكّلت أفلامه اللاحقة («الحياة اليوميّة في قرية سوريّة» عام ١٩٧٤، و«طوفان في بلاد البعث» عام ٢٠٠٣) فِعلَ ندم إذ إنّه انتقد من خلالهما سياسات الحكومة الفاشلة ورفض نظام البعث تحمّل مسؤوليّة ذلك. أثناء مشاهدة فيلم «طوفان في بلاد البعث» بشكلٍ خاص، ومن خلال المِحَن التي مرّ بها سكّان قرية الماشي في منطقة منبج، ومدرستها الرسميّة، أدركت العواقب العميقة والمقلقة المترتّبة عن أربعين عاماً من حكم حزب البعث في الريف السوري حيث يُفترض أنّ النظام ادّعى تنفيذ مشروع تحديثيّ بيْد أنّه بنى تحالفات متينة وقويّة مع زعماء القبائل التقليديّين. «طوفان في بلاد البعث» فيلم شاعريّ، وجميل ومرعب يُنذِر مسبقاً بالأحداث. أذكر أنّ نظرات أولاد قرية الماشي أسَرتْني وأنا مدركةٌ تماماً أنّ ثمّة ما يغلي تحت هذا الوجه الذي يبدو هادئاً. لا أحد عرف كأميرالاي كيف يمتصّ المأساة من خلال الكاميرا، وينقلها إلى المشاهدين الذين أسر اهتمامهم. توفّي أميرالاي في شباط / فبراير عام ٢٠١١، قبل أسابيع قليلة من اندلاع الثورة السوريّة. أثار فنّ أميرالاي وما زال جدالات اجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة حادّة في الأوساط السوريّة، وفي المجتمعات السوريّة والشرق أوسطيّة عموماً.

في السنوات الأخيرة، ازدهر الإنتاج الثقافيّ السوريّ الثوريّ بداية في بيروت، وبخاصّة في العامين الأوّلين بعد بدء الانتفاضات، ولاحقاً في مدنٍ مختلفة في أنحاء أوروبا كافّة، مثال باريس أو برلين، التي تؤوي مئات الفنّانين والمثقّفين المنفيّين. في المقاهي والشوارع، يطلق الناس دعاباتٍ حتى، مفادها أنّ العاصمة الألمانيّة باتت الآن «العاصمة العربيّة للثقافة». ومحمد العطار، الكاتب المسرحيّ السوريّ الشابّ المعروف، عضو في هذا المجتمع النابض بالحياة، وبيروت سبق أن استضافت العديد من مسرحيّاته المقتبسة عن الثورة السوريّة. بدأت عروض العطار المسرحيّة في المدينة في أيار / مايو عام ٢٠١١، مع «انظر إلى الشارع... هكذا يبدو الأمل»، بمناسبة استضافة مركز بيروت للفنّ مهرجان «نقاط لقاء ٦».

بما أنّ الثورة كانت في بداياتها، عمل العطار على مجموعة من «بوستات» الثوّار السوريّين وصورهم

على موقع فايسبوك، أرفقها بمقاطع من مقالات كتبتها الروائيّة المصريّة أهداف سويف. عام ٢٠١٢، قدّم العطار مسرحيّته «فيك تطلّع بالكاميرا؟» على خشبة مسرح دوّار الشمس في حيّ الطيّونة في بيروت، وذلك في عرضٍ استثنائيّ لليلة واحدة. وعام ٢٠١٣، عمل مع المخرج عمر أبو سعدة على مسرحيّة «حميميّة» التي عرضت للمرة الأولى على مسرح بابل في الحمرا، كجزء من مهرجان «أشغال داخليّة» الذي تنظّمه جمعيّة «أشكال ألوان»، الجمعيّة اللبنانيّة للفنون التشكيليّة التي تدعم الأعمال الفنيّة المعاصرة وتنتجها. تتابع مسرحيّة «حميميّة» حياة ممثّلٍ سودانيّ داكن البشرة يهرب من العنف في دمشق بعدٍ عام ٢٠١١، ويعود إلى موطنه بعدما أمضى عشرين عاماً في سورية. وأخيراً وليس آخراً، عام ٢٠١٤، عُرضت مسرحيّة العطار «أنتيغونا السوريّة» لثلاثة أيّام على مسرح المدينة في الحمرا. باستعمال مأساة سوفوكليس كنقطة انطلاق للمسرحيّة، تطرّق العطار وهو أحد الناشطين في مسرح المضطهدين، إلى مواضيع الحرب السوريّة من خلال تقديمه، وعلى خشبة المسرح، نساء سوريّات لاجئات يعشن الآن في مخيّمات صبرا وشاتيلا والبرج.

في حين عبر أميرالاي عن إعجابه بمشروع حزب البعث التحديثي في فيلمه الأول عن سد الطبقة، شكلت أفلامه اللاحقة فعل ندم إذ إنه انتقد من خلالهما سياسات الحكومة الفاشلة ورفض نظام البعث تحمل مسؤولية ذلك.

في وقتٍ سابق من هذا العام، اختتمت ليلى ربيع، الفنّانةً في المسرح المعاصر وفرقتها المسرحيّة «Grenier Neuf» ثلاثة أسابيع من الإقامة في «مانشن Mansion» في بيروت، من خلال عرض عملهم قيد التنفيذ على نصوص كتبها العطار، وذلك بالتعاون مع «أرصفة زقاق»، برنامج النقاشات الشهريّة، وورش العمل، وعروض الفنانين الدوليّين، من تنظيم الفرقة المسرحيّة والجمعيّة الثقافيّة اللبنانيّة «زقاق». قدّمت مسرحيّة «وقائع ثورة يتيمة» التي عُرضت أمام جمهور بيروت المتعطّش، المحشور على مقاعد مؤقّتة في القاعة الرئيسيّة الضخمة في «مانشن» المزوّدة بتجهيزات صوتيّة قويّة، أداءً لمدّة ساعة ونصف الساعة لثلاثة نصوص مؤثّرة كتبها محمد العطار: «أونلاين» (عام ٢٠١١)[١] و«فيك تطلع بالكاميرا» (عام ٢٠١١)[٢]، و«يوسف مرّ من هنا» (عام ٢٠١٣)[٣].

تحديات ومصاعب

كثيرة هي التحدّيات التي تواجه تقديم أعمالٍ مماثلة في بيروت اليوم. فإلى جانب التوتّرات الاجتماعيّةً والطائفيّة والاقتصاديّة والجغرافيّة السياسيّة التي تنعكس في أنحاء المدينة كافّة، كان على ليلى ربيع أن تتنقّل بين صيغ ومحتويات مختلفة. عُرضت مسرحيّة «وقائع ثورة يتيمة» باللغتين الفرنسيّة والعربيّة. كذلك، كانت الشخصيّات تترجم بالتزامن مونولوغات وحوارات من اللغة العربيّة إلى الفرنسية أثناء أداء مسرحيّة «أونلاين». بالمقابل، عندما تمّ الإبقاء على اللغة الفرنسيّة باعتبارها اللغة الوحيدة أثناء أداء («فيك تطلّع بالكاميرا؟» و«يوسف مرّ من هنا»، شعر الكثير من الحضور، ممّن لا يجيدون الفرنسيّة، بالنفور ونهضوا وغادروا قبل انتهاء المسرحيّة.

كان تصوير المراسلات التي تبادلها شريف وسلمى عبر البريد الإلكتروني في «أونلاين» رائعاً ومحزناً جدّاً لكنّه فقد قوّته أحياناً بسبب الترجمة الفوريّة المربكة إلى اللغة الفرنسيّة. وقد بدا أنّ اختيار اللغة العربيّة في أداء «أونلاين» يخدم هدفاً معيّناً. فبذلك، حاولت ليلى ربيع أن تعبّر عن أنّ سلمى، التي شاهدت تطوّر الثورة وقلقت على رفاقها من منزلها في باريس، كانت عالقة بين عالمين. الفرنسي من أجل الأمان الذي تقدّمه فرنسا، والعربيّ من أجل الثورة، والشكّ، وخطر أن تجوب شوارع دمشق بحثاً عن أصدقاء وأحباب مفقودين. وبذلك أصبح أداء المسرحيّتين الأخريين باللغة الفرنسيّة فقط مثيراً للشكّ. هل كانت مسرحيّة «وقائع ثورة يتيمة» موجّهة إلى جمهورٍ فرنسي غير عربي وحسب، أو في أحسن الأحوال إلى جمهورٍ عربي يتحدث اللغة الفرنسية؟ تساءلت عن الهدف من تنظيم عرضٍ مماثل في بيروت ودعوة الجمهور إلى التفاعل معه.

في مسرحية «فيك تطلّع بالكاميرا؟» كان استخدام الكاميرات الموجّهة إلى زيد، وفرح والجمهور، وإدراج عرضٍ مباشر على جدران «مانشن» الشاهقة التي تكاد تلامس السماء خلاباً. لقد جذب اهتمام الجمهور إلى التبرّؤ من نورا. فالرّوابط العائلية التي تجمع بين الشابّة نورا وشقيقها غسان اللذين ينتميان إلى الطبقة الرّاقية تآكلت ببطء مع وقوفها في صفّ الثوّار فيما استمرّ هو بدعم النّظام. في الفيلم الذي كانت تحاول إعداده مع معتقلين

سابقين تعرّضوا للتّعذيب وهم رهن الاعتقال، كانت لا تزال تجهل أيّ قصّة تريد أن تحكي. كشفت أحاديثها عن صراعاتها الشخصيّة أكثر منه عن صراعاتهم. كانت تتمرّد على والدها وشقيقها قبل أيّ شيء آخر.

يؤكّد أداء ليلى ربيع في مسرحيّة «يوسف مرّ من هنا» أنّ عمل «غرونييه نوف» ما زال بالفعل قيد التطوير. كتبت ربيع أنّها لم تعش تحت الحصار، والقنابل ووحشيّة النظام. وقد صوّرت الكاميرا ما كانت تكتبه وعُرضت رسائلها القصيرة على جدران «مانشن» ليقرأها الحضور. قالت ربيع إنّها لم تتمكّن من السفر إلى المناطق الشماليّة في سورية لتعيش مجدّداً رحلة فارس، فهي مثله غريبة في سورية. مع زملائها، تتساءل عن شرعيّتها وعن حقّهم في أن يخبروا قصّة الثورة التي استحالت الآن حرباً أهليّة.

تمثّل العروض التي قدِّمت كأعمالٍ قيد التطوير فرصة لدراسة الفنّ لا كأداة إنّما كممارسةٍ. فهي تسمح كما يخبرنا ريموند وليامز الناقد الثقافي من ويلز «باكتشاف طبيعة ممارسة معيّنة وشروطها». على الرغم من أنّ أداء «غرونييه نوف» كان جديراً بالثّناء، خصوصاً أنّ الكثيرين من أعضاء الفرقة غرباء عن سورية، شابته عيوبٌ بالغة الأهميّة أيضاً. فاختيارها النصوص واقتباسها إيّاها لا يتخطّى الادّعاءات السائدة في صفوف الصّحافيّين والباحثين على حدّ سواء بشأن الثورة. كذلك، هي تتبنّى التفسير الشائع للظروف، والأسباب والنتائج، والذي ينحصر بثلاثة مفاهيم سائدة: كسر حاجز الخوف، والشجار بشأن سرد الأحداث، وذاتية السوريّين المثقّفين الذين ينتمون إلى الطّبقة الوسطى، والأقلّيات الدينيّة. في حين أنّ هذه المفاهيم الثّلاثة جميعها بالغة الأهمّية، إنّ الثورة السوريّة والحرب الأهليّة التي تلتْها أكثر تعقيداً بكثير اجتماعيّاً وثقافيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً. فضلاً عن ذلك، جغرافيّاً، انحصرت النصوص بدمشق، إقطاعيّة الأسد، والمثلّث قرب الحدود السوريّة التركيّة وهو الآن بمعظمه تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق وسورية. يستطيع الفنّ تقديم المزيد على مستوى التحقيق، واكتشاف الوقائع، والاعتراف بها، وحتى توقع سير الأحداث.

في نهاية العرض، لم أستطع الكفّ عن التفكير في قرية الماشي، التي تقع تحديداً في المنطقة حيث اختفى صديق فارس في «يوسف مرّ من هنا». إلى جانب فارس وصراعات «غرونييه نوف» مع مسائل مرتبطة بالشرعيّة، وحقّها، كفرقة أجنبيّة، في التأمّل في هذه الثورة الّتي

مشهد من العرض الأول لمسرحية «فيك تطلع بالكاميرا؟» في سيول، كوريا الجنوبية، أيار / مايو ٢٠١٥، كتابة محمد العطار وإخراج عمر ابو سعدة

استحالت حرباً أهليّة، تساءلت عن مصير عائلة دياب الماشي، عضو البرلمان صاحب فترة الخدمة الأطول في العالم من عام ١٩٥٤ وحتى وفاته عام ٢٠٠٩، وأولاده الستّة عشر، وأحفاده الثلاثمئة، وابن أخيه الذي كان مدير المدرسة الابتدائيّة التي كان يديرها لصالح النظام في منبج. ماذا عن المدرسة؟ في مقالة بعنوان «عن انعتاق الكلام»، نشرت في مجلّة «بدايات» في ربيع عام ٢٠١٣، تذكّر العطّار بنفسه المدرسة وطلّابها. كذلك، رأى من خلال فيلم أميرالاي أنّ ترويض هؤلاء مهمّة مستحيلة وأنّ الثورة باتت وشيكة.

قد يساعد الفن في تفسير التغيرات الماضية، وإنتاج وهم سياسي جديد، نرى فيه انعكاسات عن أنفسنا إنما أيضا إسقاطات لما يمكن أن تؤول إليه الأوضاع.

يعرّف ريموند وليامز الهيمنة الثقافيّة على أنّها:«مجموعة كاملة من الممارسات والتوقّعات، تعييناتنا للطّاقة، وفهْمنا العاديّ لطبيعة الإنسان وعالمه. إنّها عبارة عن مجموعة من المعاني والقيَم التي فيما يتمّ اختبارها كممارسات، يتمّ تأكيدها بشكلٍ متبادل كما يبدو. وهكذا تشكل إحساساً بالواقع لدى معظم الناس في المجتمع»[٤]. أمّا ما نحتفظ به من أحداث، والطريقة التي نفسّر فيها الماضي، ونتخيّل أنفسنا في المستقبل، بما في ذلك الأشكال البديلة إنّما المقبولة للحياة الاجتماعيّة والثقافة، فتحكمها الثقافة (الثقافات) السائدة في عصرنا. في السنوات التي سبقت ربيع دمشق، أجرت الباحثة الأميركيّة ميريام كوك بحثاً بشأن معنى الثقافة ودورها في ظلّ ديكتاتوريّة الأسد الوحشيّة. فابتكرت مصطلح «النقد المفوَّض»[٥] المثير للجدل، وهو النّقد الّذي يتقبّله النظام والّذي يُستعمل لتشريع ورسم صورة ليبراليّة عن نفسه أمام المجتمع الدولي. عملياً، استُعمل النقد المفوَّض رغم ذلك كمنفذٍ من قبل الكثيرين. كذلك، أدّى عمر أميرالاي نفسُه دوراً بارزاً في ربيع دمشق الذي قمعه النّظام.

على المستوى العمليّ، إنّ الأعمال الفنيّة الّتي تنتجها تجمّعات الفنّانين العرب الذين يقدّمون أعمالهم بشكلٍ أساسيّ إلى الجماهير الغربيّة في طور الازدياد. كذلك، تسعى الثقافة السائدة في أوروبّا إلى إجراء اختيارٍ واعٍ وتنظيم، وتعزيز الثقافات الناشئة بطريقة تعزّز هيمنتها الخاصّة. يُذكر أنّ المقاومة الثقافيّة مضلّلة أكثر من أيّ وقتٍ مضى إنّما قد تتمحور حول بعض العناصر التي يمكن تحديدها. يستطيع الفنّانون أن يتخيّلوا العلاقات والمجتمع ويعيدوا تشكيلهما. قد يساعد الفنّ في تفسير التغيّرات الماضية، وإنتاج وهمٍ سياسيّ جديد، نرى فيه انعكاسات عن أنفسنا إنّما أيضاً إسقاطات لما يمكن أن تؤول إليه الأوضاع. في أبعاده الاجتماعيّة والسياسيّة، يستطيع المرء أن يأمل أن يخاطب الفنّ سكّان المنطقة في المقام الأوّل، ولعلّ بيروت هي الأمثل على هذا الصّعيد.

في تقريرٍ حديث، قدَّر المركز السوريّ للأبحاث السياسيّة أنّ ١١،٥ في المئة من الشعب السوري قُتِل أو جُرِح خلال السنوات الخمس الماضية. بالنسبة إلى الجمهور الغربي، يوازي ذلك ثمانية ملايين شخص في بريطانيا. حجم المأساة هائل في أيّ عملٍ فنّيّ هذه الأيّام. لكن مرّة أخرى، قد يكون الفنّ أكبر من الحياة.

المراجع:

١ عُرضت مسرحية «أونلاين» كمجموعة من الرسائل الإلكترونية بين شريف، وهو أحد الثوار، وسلمى. تدور أحداث المسرحيّة في نيسان/ أبريل عام ٢٠١١. ينقل شريف إلى صديقته، وحبيبته المبعدة كما يبدو سلمى بدايات الثورة في دمشق. يضع ثقته بها ويخبرها عن مخاوفه وشعوره بالذنب حيال تخلّيه عن رفاقه الذين اعتقلوا. يخبرها أنّه مشتاق إليها. فترد عليه بدفء وقلق. لا تريد أن يصيبه أي مكروه، وهي تحبّه. شريف وسلمى ثنائيّ مفكّك. تفصل المسافات بينهما فيعيشان في عذاب في خضمّ الثورة الناشئة. يتوقف تبادل الرسائل الإلكترونيّة بينهما بشكلٍ مفاجئ عندما يخبر أمير، صديقٌ وثائرٌ آخر، سلمى أنّ شريف تعرّض للاعتقال.

٢ تروي مسرحية «فيك تطلّع بالكاميرا» قصة غسان، ونورا، وفرح، وزيد. نورا شابّة من الطبقة الراقية تطلّقت حديثٌ. بصفتها مخرجة طموحة، تحاول تجسيد تجارب أولئك الذين سجنوا واعتقلوا وتعرّضوا للتعذيب خلال الأيام الأولى من الثورة في دمشق. شقيقها غسان، محام نافذ يقف بشدّة إلى جانب نظام البعث ولا يتّفق مع مشروع شقيقته وطموحاتها. أمّا فرح وزيد فهما مناضلان ثوريّان. فرح شابّة مسيحيّة اعتقلت بالقرب من باب توما، الحيّ المسيحيّ التاريخيّ في دمشق، بسبب توزيعها المنشورات، فيما زيد شاب تلقّى ثقافة إنكليزيّة وهو بارع في أمور التكنولوجيا كما أنّه قادر على السخرية من سجّانيه. حتّى إنه يخبر نورا أنّ سجّانيه لم يتمكّنوا من فهم كلمة المرور للولوج إلى حاسوبه لأنّها باللغة الإنكليزيّة، لغة لا يتكلّمونها ولا يفهمونها.

٣ تستعيد مسرحيّة «يوسف مرّ من هنا» رحلة فارس، مهاجرٍ سوري كان يعيش في دبي. يعود فارس إلى سورية للبحث عن صديقه الذي فُقِد في الرقّة. يسافر بالقرب من الحدود التركيّة السوريّة، بمحاذاة البحيرة التي شكلها سدّ الفرات. يزور منبج وحلب وأخيراً الرقّة قبل أن يقرّر أن الوقت قد حان بالنسبة إليه للمغادرة وعدم العودة أبداً.

٤ Williams, Raymond. Culture and Materialism: Selected Essays. Verso 2005. P.43

٥ ميريام كوك: Cooke, Miriam: Dissident Syria. Making Oppositional Arts Official, جامعة ديوك، عام ٢٠٠٧.

كتاب

١٧٠ **أنا القارئ وهذه كتبي**
طريف الخالدي

١٨٩ **السلطة والخطاب بين «الديني» و«السياسي»**
«سطوة النص» لبسمة عبد العزيز
ضياء الدين محمد

١٩٧ **السماء ليست كاملة**
دفاتر سفر إلى فلسطين
إرمغارد إملهاينز

أنا القارئ وهذه كتبي

طريف الخالدي

مؤرخ واستاذ جامعي فلسطيني. من اعماله «الانجيل برواية المسلمين» وترجمة القرآن الى الانكليزية.

صرفتُ من العمر مع الكتب زمناً أطول بكثير من ذاك الذي صرفته مع الناس. ولربما السببُ أنني وجدت في الكتاب نوعاً من السلوى لم أجدها عند معظم الناس فقلّ بذلك عدد الأصدقاء وازداد عدد الكتب التي صادقتها. وتقدّم بي العمر فترسّخت عزلتي وأضحى عالمي الحقيقي هو عالم القراءة والكتابة. ويصف فخر الدين الرازي أخلاق سنّ الشيخوخة فيقول إنّ منها الشك في أكثر ما يقال، والامتناع عن الأحكام الجازمة، والجبن والخوف والعلم بعواقب الأمور وشهوة الأكل والوقاحة والغضب وحب السلامة. لست أدري كم من تلك الأخلاق أتحلى بها اليوم لكنني أجد في بعضها وصفاً نفسياً بالغ الدقّة لأخلاق الشيخوخة. ولا ريب عندي أنّ الشك والامتناع عن الأحكام الجازمة والعلم بعواقب الأمور كلّها أمور تأتي في غالب الأحيان من التجارب التي يقع عليها المرء في الكتب. فلو لم تكن للكتب فائدة سوى هذين الأمرين لكانت الفائدة عميمة النفع. أمّا ما تبقى من فوائد للكتب فليس ثمّة ما أحيل إليه القارئ أفضل وأجزل وأعمق فكراً من الجزء الأول من كتاب «الحيوان» للجاحظ.

ولا مناص من الاعتراف بأنّ الوحي المباشر لهذه الذكريات جاء من كتب عدّة آخرُها كتاب صدر عام ٢٠١٤ للناقد والأكاديمي البريطاني جون كاري بعنوان «**البروفسور غير المتوقّع: سيرة في أكسفورد**» والذي يسرد فيه مؤلفُه حياتَه الأدبية ويأتي فيه على الكتب التي تركت تأثيرها في خياله وعقله. فراقت لي فكرة هذه الكتاب الذي أهدته لي ابنتي، وهي أيضاً أستاذة جامعية، وشجّعتني على السير على خطاه. ووجدتُ أنّ الإنسان الذي يمضي جلّ حياته في البحث والتعليم والكتابة الأكاديمية يكون في الغالب على هامش الحياة العامة والأحداث الجسام. فإذا كان ثمّة من فائدة تُرجى من تجارب حياةٍ منعزلة كهذه فهي تكمن في استعراض ما مر بذاك الإنسان من الكتب والنظريات التي شغلته عبر السنين. أمّا ذكرياته الأخرى فهي قد لا تهمّ سوى الأولاد والأحفاد وبعض الأصدقاء المقربين، هذا إذا اهتمّوا بها أصلاً.

القدس، حوالي العام ١٩٤٣

كنت على ما أظن في الخامسة حين بدأت بتعلّم القراءة. وكان كتابي الأول بدعةً بين كتب القراءة في ذلك الزمن إذ كان يستند إلى نظرية جديدة في تعليم القراءة تقضي بأن يبدأ الطفل بتعلم كلمات كاملة وليس بحروف الهجاء. لا أدري مصدر هذه النظرية وهل كانت مستوردة من الغرب أم لا، لكنّ والدتي قالت لي فيما بعد إنّ العلّامة الفلسطيني الكبير خليل السكاكيني بالاشتراك مع والدي هو الذي طوّر هذه النظرية لتلائم الطفل العربي. والسكاكيني من أبرز كتّاب فلسطين، ومذكّراته بعنوان «كذا أنا يا دنيا» هي من أهمّ وأمتع المذكّرات في العالم العربي في القرن العشرين. وهو يستعيد تاريخ فلسطين في النصف الأول من ذاك القرن على شكل يوميات يختلط فيها الجدّ بالهزل وتبقي لنا صورة تنضح بالحياة عن المجتمع الفلسطيني، رجاله ونسائه وشخصياته المختلفة ومثقّفيه.

أعود إلى الكتاب. فقد انتشر هذا الكتاب في مدارس فلسطين. وهكذا كانت أولى الكلمات التي تعلّمتها هي «راس، روس» و«دار، دور». ثمّ انتقلنا بعد قليل إلى كلمات من أربعة أحرف أذكر منها «وادي» و«ساري». وفي زمن قصير صارت القراءة متعة كبرى خصوصاً حين وصلنا إلى أول نكتة في الكتاب: «آه ما أطيب كرابيج حلب!». «وهل أكلت منها؟». «لا، لكنّ معلمي أكل منها وقال إنّها طيّبة». ها ها ها! ثمّ ازدادت المتعة عندما أصبحت قادراً على قراءة عناوين الصحف التي كانت تصلنا إلى المنزل وهما

صحيفتا «فلسطين» و«الدفاع». وكانت تلك العناوين تنقل أخبار الحرب العالمية الثانية التي لم أعرها كبير اهتمام، بل الأخبار التي استحوذت على خيالي آنذاك كانت مغامرات الشقيّ الصقلي سلفاتوري جوليانو عبر جبال جزيرة صقلية ووديانها وإفلاته العجائبي المستمرّ من البوليس الإيطالي. ويبدو أنّ هذا الافتتان الطفولي بالأشقياء استمرّ زمناً طويلاً، إذ عمدتُ قبل بضع سنين إلى كتابة بحث مشترك عن الشقيّ البقاعي الشهير ملحم قاسم (ولا بد من الاعتراف بأنّ زميلتي الدكتورة ميسون سكرية هي التي كتبت الجزء الأكبر من ذاك البحث).

وكانت أولى الكتب التي قرأتُها هي قصص الكاتب المصري كامل الكيلاني الذي كان رائداً من روّاد كتابة قصص الأطفال في عالمنا العربي، وكان أيضاً صديقاً لوالدي. رافقتني كتب الكيلاني لسنوات عدّة. كان الكيلاني يختار من باقة عريضة من القصص العالمية ويسكبها بأسلوب مبسّط لكنّه فصيح العبارة. وما زلت أذكر من بينها قصة «العندليب والوردة» التي أحزنتني جداً إذ تنطّح العندليب فغرز قلبه حتى الموت في شوكة ليصبغ حبيبته الوردة باللون القاني الذي كانت تشتهيه. وعلمتُ فيما بعد أنّها من قصص أوسكار وايلد.

من كامل الكيلاني إلى جرجي زيدان

مدرستي الأولى كانت «مدرسة الأمة»، ورئيسها المربّي الفلسطيني الكبير شكري حرامي الذي كانت نظرة واحدة منه تكفي لإسكات أعلى الصفوف ضجيجاً. كان يعلّمنا التاريخ، ولربما كنتُ حينها أسعى جاهداً إلى نيل رضاه فأصبح التاريخ منذ ذلك الزمن السحيق مادّتي المفضّلة. وواكب ذلك الشغف بالتاريخ انتقالي من كامل الكيلاني إلى جرجي زيدان الذي التهمتُ رواياته التهاماً، من العبّاسة أخت الرشيد إلى الأمين والمأمون إلى فتح الأندلس إلى المملوك الشارد إلى صلاح الدين ومكائد الحشاشين، إلى غيرها وغيرها من الروايات التي لم أعد أتذكّرها اليوم. لا ريب أنّ جيلاً كاملاً من الشباب العربي تربّى على تلك الروايات الفاتنة التي أنعشت التاريخ العربي وجعلتْ منه قصصاً حيّة تزخر بشخصيّات يكاد المرء أن يراها ويلمسها ويخاطبها ويفرح لأفراحها ويبكي لفقدانها. وكانت رواياته سريعة الحركة، مُحكمة الزمان والمكان، تتعاقب فيها المشاهد بشكل سينمائي آسر يخطف أنفاس القارئ ولا يسمح له بتركها جانباً حتى في أوقات الطعام أو النوم. لست أدري إذا كانت ثمّة دراسة أدبية معمّقة لهذه الروايات لكن مثل هذه الدراسة ضرورية، في نظري، لفهم هذا السحر العجيب الذي صاغ به زيدان قصصه. لن أناقش هنا تاريخيّة تلك القصص، ولا مصدر إلهامها الذي قد يكون الروايات التاريخيّة الغربيّة لأمثال السير والتر سكوت، لكن لا ريب أنّ براعة زيدان تتفوّق على براعة سكوت في استحضار الماضي، فقد قرأت فيما بعد روايات والتر سكوت ووجدتها طويلة جداً ومملّة ويلزمها تركيز شديد وصبر مديد لمتابعة أحداثها.

الهجرة من فلسطين

كنت في العاشرة من عمري حين هُجّرنا من منزلنا في القدس ولجأنا كما لجأ مئات الآلاف من شعبنا الفلسطيني إلى المهاجر هرباً من الإرهاب الصهيوني. لم أع الأمر في البدء، لكنّ هذه المأساة تجلّت تدريجياً في نوع من أنواع الهرم الذي أصاب العائلة بأسرها، كلٌّ على طريقته. أصبح العلم والتعلّم أمراً غاية في الأهميّة، فتقلّصت مساحة الطفولة وحريّتها. هرم والدي بسرعة وتوفّي بعد ضياع فلسطين بقليل، وازداد الإحساس بأنّ العلم أمر عظيم الشأن وأنّه أولوية الأولويّات. لم أستوعب هذا الأمر في البدء، بل لربّما تدهور مستوى ما كنت اقرأ، فانتقلت من جرجي زيدان إلى قصص أرسين لوبين المترجمة إلى العربية والتي كانت رائجة في بيروت في تلك الآونة. أرسين لوبين (كنّا نلفظ الاسم على وزن «ستين سبعين»): ذاك اللص الجنتلمان الذي يبرع في الاختفاء وتفادي الشرطة وكأنّه نسخة مدينيّة من الشقيّ سلفاتوري جوليانو أو من روبن هود، ثمّ يفضح مَن هم أكثر منه إجراماً، بل ويمدّ يد المساعدة أحياناً للضعفاء والمساكين. ولربما كان على كل حال أنموذجاً نجده في أدبيّات لغات متعدّده على شكل اللصّ الظريف المحتال الذي يجد فيه الأطفال فسحة لمخيّلتهم وسعيهم إلى الالتفاف والتحايل على عالم الكبار.

هذا التدهور في مستوى القراءة تجلّى كذلك في شغفي المتعاظم بمجلات «الكوميكس» الأميركية، ومنها مغامرات «توم ميكس» و«جين أوتري» وهما من فصيلة الكاوبوي. ثم انصبّ هذا الشغف خصوصاً على مغامرات الطفلة «ليتل لولو» وشلّتها أي صديقها البدين «تبي» وعدوّهما «إيغي» وباقي الشخصيات. لم تكن هذه المجلات مترجمة بعد، فاضطررت إلى قراءتها بالإنكليزيّة التي لم تكن صعبة على كل حال. كانت «ليتل لولو» تستحضر عالماً صغيراً هو عالم ضواحي المدن الأميركية الجميلة يسرح فيها هؤلاء الأطفال بحرّية تامّة ومغامرات شيّقة لا تنتهي. وانتقلت

من بعدها إلى مجلّة تدعى «كوميكس كلاسيكس» التي كانت تحوّل القصص الغربية الكلاسيكيّة إلى شرائط مصوّرة كأنّها صندوق الفرجة. أزعج الأمر بعضَ أفراد العائلة الذين رأوا فيها مسخاً للروايات الكلاسيكيّة، لكنّ العجيب أنّ هذه الكوميكس هي التي شجّعتني فيما بعد على الرجوع إلى الروايات الأصليّة. كذلك وصلتنا في تلك الآونة أيضاً المجلات المصرية المصوّرة ومنها «المصوّر» و«آخر ساعة» و«الإثنين» التي اشترك الأهل فيها، فأقبلتُ عليها بنهَم، وكنت أنتظرها كالولهان من أسبوع إلى آخر.

من بين المسرحيات التي طبعت نفسها في مخيلتي مسرحية أنتيغوني لسوفوكليس التي وجدت فيها بطولة روحية جسدتها فتاة في مقتبل العمر تحدت ظلم حاكم متسلط يتظاهر بالتمسك بفرائض الدين.

وسرعان ما تدخّل الأهل: ما هذا أرسين لوبين؟ وما هذه الكوميكس؟ وماذا سيحلّ به إذا استمرّ على هذا المنوال المتدهور؟ تدخّل عندئذ أخي أسامة، رحمه الله، الذي قرّر أنّ الدواء الناجع لإنقاذي من الانحطاط يكمن في التحوّل إلى الشعر العربي القديم والذي كان يحفظ منه الآلاف من الأبيات. بدأ بتعليمي شيئاً من العَروض، وما زلت أذكر أنّ أوّل البحور التي رسختْ في ذهني بسبب موسيقيّته هو البحر الوافر: مفاعلتن مفاعلتن فعول. ووجدت فيه نغماً جميلاً سهلاً على الحفظ، فنظمت فيه بضعة أبيات أتغزّل فيها بوالدتي، إذ كنت في ذلك الحين في صميم مرحلة أوديب الفرويديّة. هذا النظم الخنفشاري شجّع أخي على أنْ يحملني على حفظ الشعر، فكان أوّل ما حفظته (وكان يدفع لي ربع ليرة عن كلّ بيت أحفظه) هو قصيدة المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة:

طوى الجزيرة حتى جاءني
نبأ فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

ثمّ انتقلنا إلى أبي تمّام وفتْح عمّوريّة ثمّ إلى أبي فراس والحمامة النائحة، ثمّ إلى الحطيئة و«طاوي ثلاث»، ثمّ إلى ما لا أذكر من قصائد غرزت فيّ حبّاً للشعر لم تزدْه الأيام إلّا رسوخاً. وحين أصبح التاريخ مهنتي ومصدر رزقي اكتشفت في الشعر ليس فقط جماليّته بل أهميّته الفائقةَ في استرجاع صور وذهنيّة الزمن الماضي، الأمر الذي لم نعرْه بعدُ ما يستحقّ من اهتمام. فالشعر للمؤرخ هو المدخل إلى ذهنيّات عصر ما، فإذا أردنا استعادة صورة ماضٍ ما، لا بدّ لنا من دراسة شعره (وفنّه كذلك). ونجحنا قبلً بضع سنين في عقد مؤتمر دولي في الجامعة الأميركيّة حول الشعر والتاريخ صدر فيما بعد في كتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان «**الشعر والتاريخ: أهمّية الشعر في إعادة بناء التاريخ العربي**». غريبٌ حقاً أمر هذه البذور التي تُغرس في الطفولة فنجدها قد أينعت في زمن الكهولة.

اليونانيّة واللاتينيّة في إنكلترا

في العام ١٩٥١ قرّر الأهل إرسالي إلى مدرسة داخلية في إنكلترا، ولعلّ قرارهم هذا جاء من شعورهم بأنّ عمليّة إنقاذي لم تكن قد اكتملت والله أعلم. وكنت متحمساً للالتحاق بمدرسة كهذه لأنّني كنت قد قرأت، ولربما في «كلاسيكس كوميكس»، قصة «**توم براون وأيامه المدرسيّة**» التي صدرت في عهد الملكة فكتوريا عام ١٨٥٧ وأضحت نموذجاً فيما بعد لقصص المدارس الداخلية في إنكلترا. ولا حاجة للقول إنّ أيّامي في تلك المدرسة لم تكن تشبه أيّام العزيز توم براون إلّا في وحشيّتها ونظامها الهرمي العسكري المخيف، أمّا مغامراته المشوّقة فلم أحْظ منها بأيّ نصيب خلال السنوات الأربع التي قضيتها في ذاك المعتقل. لن أستجدي دموع القارئ في وصف ما عانيت، لكنْ لا بدّ من الاعتراف بأمرين، أوّلهما تعلّم اللاتينيّة واليونانيّة، وثانيهما الطاقة لاحقاً على تحمّل كافّة صعاب الحياة (تقريباً!) بالمقارنة مع صعاب تلك الأيّام.

كان تعلّم اللاتينيّة واليونانيّة أهمّ ما استفدته من مدرستي، وكانت هاتان اللغتان في تلك الأيام ما زالتا تحظيان في إنكلترا بقدْر كبير من الاحترام والتقدير العلمي. وكان التخصص فيها على مستوى الشهادة الثانوية (A Level) وبالتاريخ اليوناني والروماني يعني الانضمام إلى نخبة الطلبة. كان تعلّم هاتين اللغتين يعني الانفتاح على حضارتين كان لهما تأثير عميق وواسع على الحضارة الأوروبيّة من جهة والحضارة العربية الإسلامية من جهة أخرى. ولم يكن تعلّم اللاتينيّة أمراً صعباً خصوصاً لأن إلمامي بالصرف والنحو ساعدني على فهم أصول الصرف والنحو اللاتيني، فالمرفوع والمنصوب والمجرور نجده في اللاتينيّة كما علم العروض اللاتيني يشبه في الكثير من نواحيه ما يقابله في العربية. وبقيت اللاتينيّة إلى حدّ ما في الذهن حتى اليوم، أمّا اليونانيّة فوجدتها أصعب وأكثر تعقيداً، وسرعان ما طمس الزمن معالمها، رغم أنّنا كنّا نقرأ في الصف مسرحيّات

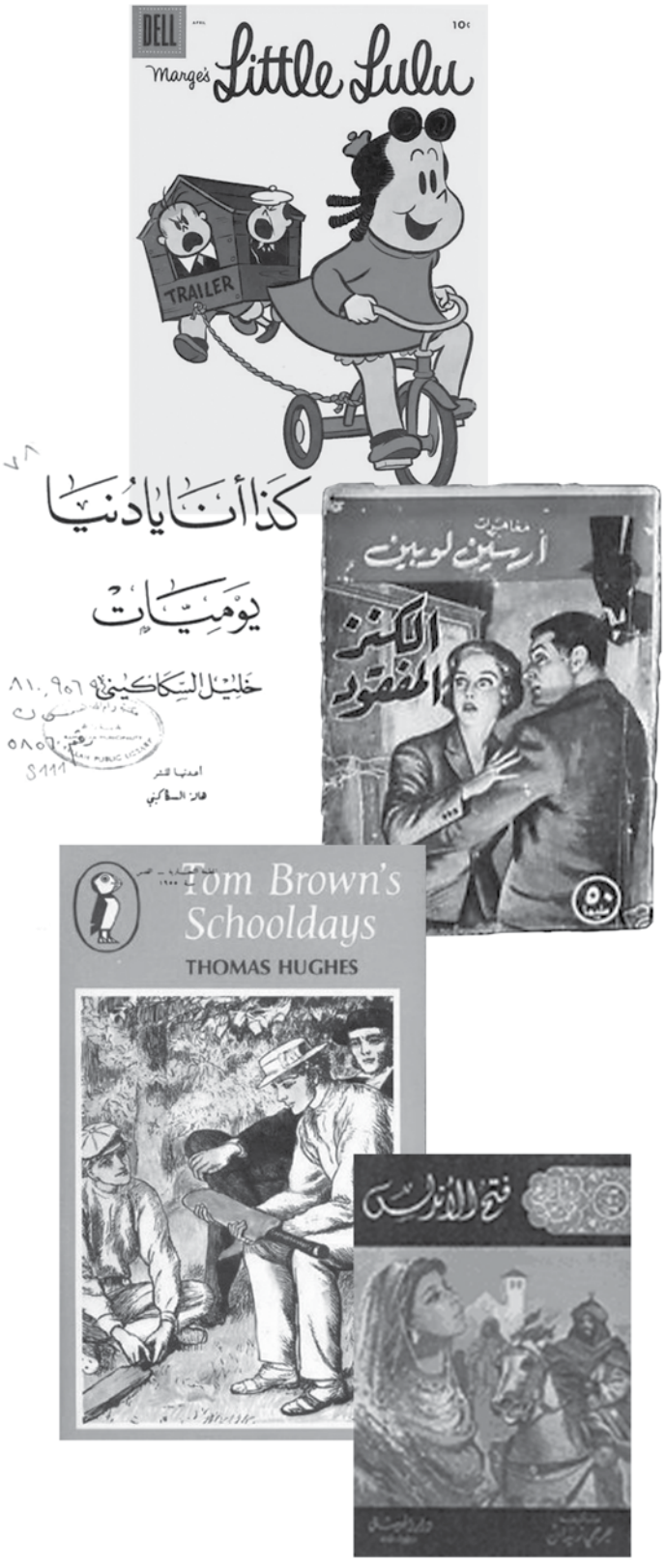

إيسكلس ويوريبديس وسوفوكليس، وتواريخ ثيوسديس وزنوفون، وبعض محاورات أفلاطون، والبعض من كتاب الأخلاق لأرسطو، وفي إلياذة هوميروس. وكان التركيز في الصفّ على ترجمة النصوص بدقّة وليس على التحليل الأدبيّ. ومن بين المسرحيّات التي طبعت نفسها في مخيّلتي مسرحية **أنتيغوني** لسوفوكليس التي وجدت فيها بطولة روحية خارقة جسّدتْها فتاة في مقتبل العمر تحدّت بشجاعة ليس فقط الدور الذي فرضها عليها المجتمع كفتاة بل أيضاً ظلم حاكم متسلّط يتظاهر بالتمسّك بفرائض الدين.

أمّا الأدب اللاتيني فكان أوّلاً يتمثّل في كتاب يوليوس قيصر حول الحروب ضدّ بلاد الغال، ثمّ تدرّجنا إلى تاسيتوس مؤرّخ روما في عصره، الذي وجدتُه أصعب بكثير في لغته لكنّه إمام المؤرّخين الساخرين. وما زلت أردّد إلى اليوم جملته الشهيرة بعدما دمّر الرومان مدن بريطانيا: «يجعلون منها قاعاً صفصفاً ويسمّونها سلاماً»، فكأنه يصف ما فعلتْه وتفعله إسرائيل في فلسطين. ولعلّ أكثر ما رسخ في الذهن هو **إلياذة** فرجيل التي أعجبتني فخامة ألفاظها لا دعايتها الإمبراطوريّة، والتي كنت أرى فيها إعجاباً مبطّناً من جانب الإنكليز وكأنّ فرجيل في نظرهم يبشّر بفضائل الإمبراطوريّات على البشريّة. أمّا الصراع بين أثينا وإسبرطة فكان يوحي إلينا من جانب أساتذتنا أنّه يماثل الصراع بين إنكلترا الأثينيّة الليبرالية الديمقراطية وألمانيا الإسبرطيّة المحافظة الأوتوقراطيّة.

خلال تلك الأعوام الأربعة وما تبعها من سنوات ثلاث في جامعة أكسفورد، كانت الوالدة، رحمها الله، ترسل إليّ وإلى أختي رندة رسائل أسبوعيّة بالعربيّة بأسلوبها البديع والبسيط الذي كانت تشتهر به، وكانت تنتظر الردّ الذي كثيراً ما تأخر وكثيراً ما كان مزيجاً مضحكاً من الفصحى والعاميّة. وهكذا تلاشت العربيّة عن الشاشة، كما يقال في يومنا هذا، وأضحت الإنكليزيّة هي جلّ ما أقرأ، ولربّما بعض الفرنسية من حين لآخر. وكانت مادّة تخصّصي في الجامعة هي التاريخ. وكان منهاج التاريخ في الجامعة يومئذ ينصبّ في الغالب على تاريخ إنكلترا في القرون الوسطى، وكأنّ ما كان يحدث في أوروبا أو بيزنطة أو في العالم العربي والإسلامي في تلك العصور لا علاقة له بإنكلترا على الإطلاق.

هوى كتابة التاريخ

وكان الأستاذ الوحيد بين أساتذة التاريخ الوسيط في أكسفورد الذي يأتي في محاضراته العامّة على ذكر ما وراء إنكلترا من حضارات وأمم هو المؤرخ الشهير السير ريتشارد

سشرن الذي كتب فيما بعد كتاباً صغيراً بعنوان «**نظرات غربيّة حول الإسلام في العصور الوسطى**» حلّل فيه الفترات التاريخيّة لتلك النظرات. وكتابه هذا لا يزال في رأيي المنطلق لأية دراسة حول هذا الموضوع، رغم صدور العديد من الكتب التي تعالج الموضوع نفسه فيما بعد. وبعد انقضاء سنوات عديدة قُيّض لي أن أجتمع به على فنجان شاي، فأخبرته عن تجاربي الخائبة أيّام التلمذة، وأخبرني أنّ المنهاج قد تحسّن منذ أيّامي تلك. وكنت في تلك الآونة أخطّط لدراستي حول كتابة التاريخ عند العرب، فاستشرته لأنّ كتابة التاريخ الأوروبي كانت أحد اهتماماته الرئيسية، وأردتُه أن يشير عليّ ببعض ما صدر في ذلك المضمار لأغراض المقارنة ففعل. وكان طويلاً نحيلاً ودوداً يشبه القدّيسين الذين كان يكتب سيَرهم كالقديس إنسلم وغيره.

لم يبق في الذهن الكثير ممّا قرأته في الجامعة من كتب تعود إلى عصور إنكلترا الوسطى سوى ربما كتاب «المبجّل بيد» (توفي في ٧٣٥) بعنوان «**التاريخ الكنسي للشعب الإنكليزي**» وقصصه المشوّقة عن القدّيسين والقدّيسات وحياة الرهبان في أديرتهم، خصوصاً قصة الراهب كدمون ونزول الوحي عليه بطريقة تذكّر بنزول الوحي على الرسول العربي. ولفتني أيضاً ذكره لمعركة بلاط الشهداء والتي تُعرف في أوروبا بمعركة «بواتييه» أو «تور» حيث مُني الفاتحون العرب بهزيمة على يد شارل مارتل، وهي أوّل إشارة لتلك الواقعة في المصادر الأوروبيّة، وكثيراً ما يشار إليها على أنّها من معارك التاريخ الفاصلة التي أوقفت الزحف العربي نحو أوروبا ومنعت العرب من احتلالها، لكنّ العرب ظلّوا يرسلون الحملات العسكرية نحو أوروبا على امتداد قرنين من الزمن على الأقل بعد تلك المعركة. أمّا ما عدا كتاب «المبجّل بيد» فلا أذكر أية مصادر أخرى لتاريخ إنكلترا الوسيط. تحسّنت الأمور بعض الشيء في السنتين اللاحقتين، فاخترت مادّة الثورة الفرنسيّة ثمّ مادّة الحرب الأهليّة الأميركية. قرأت الكثير حول الثورة الفرنسية، وأذكر منه الآن كتاب جورج روديه بعنوان «**الجمهور في الثورة الفرنسيّة**» الذي أحدث ضجّة في أوساط المؤرّخين في تلك الأيام لاستخدامه في سجلّات البوليس في باريس لدراسة الجذور الاجتماعية للجماهير. وما زلت أذكر دهشتي حين قرأت تحليل المؤلّف لاقتحام الباستيل، وأنّ الجماهير التي اقتحمته كانت تبحث عن الخبز وليس عن الحرّيّة. أمّا الحرب الأهليّة في أميركا فكان أستاذ المادّة أستاذاً أميركيّاً زائراً اسمه دافيد دونالد، اشتُهر فيما بعد بكتابه عن الرئيس الأميركي لنكولن. كان دونالد أستاذاً جافّاً يؤمن إيماناً مطلقاً بالوثائق من بيانات ومعاهدات وقوانين ومناظرات في الكونغرس وما شابه. وكنّا نجتمع معه كل أسبوع في حلقة دراسية لنقرأ عليه أبحاثنا، وأذكر أنّني كتبت بحثاً عن الولايات الجنوبية الأميركية قبيل الحرب الأهليّة وحاولت أن أبرهن أنّ تلك الولايات صاغت لنفسها قوميّة ضيّقة مستقلّة في زمن كانت فيه القوميّات تكتسح أوروبا، وكانت هذه القوميّة من أسباب نشوب الحرب الأهليّة الأميركية. لم يرُق الأمر له، فالتاريخ بالنسبة إليه من صنع النُخب في المكان الأول. وهذا ما يفسّر شهرته ككاتب سِيَر فيما بعد.

أصبح من الواضح لديّ أنّ اهتماماتي لم تعد تنصبّ على التاريخ بحدّ ذاته بل على كتابة التاريخ وفلسفته والتي وجدت فيها مادةً غزيرة للتحليل والخيال والبحث. وضعتُ التاريخ جانباً وأقبلت على دراسة كتابته ومنطلقاته الفكريّة، ولم تكن تلك المواضيع تروق لمؤرخي الإنكليز في تلك الأيام فقد كانت النظريّات التاريخيّة تأتي إليهم في الغالب من أوروبا ومن فرنسا وإيطاليا بالتحديد. لا أدري مَن الذي نصحني بأن أقرأ كتاب بينيدتو كروتشة «**التاريخ كقصة الحريّة**» إذ كاد هذا الكتاب بسبب صعوبته أن يقضي نهائياً على اهتماماتي الجديدة. لكنّني ثابرت على قراءته بعناد الشباب الذي لم أعد أتحلّى به اليوم، ففهمت ما نسبته حوالي عشرة بالمئة من نظريّاته، وما رسخ في الذّهن هو شعاره الشهير أنّ كلّ تاريخ هو تاريخ معاصر وأنّ وعي المؤرّخ هو الذي يصنع التاريخ. كان كروتشه عدواً للنظريّات الكبرى في التاريخ، ومن أهمّها بالطّبع النظريّة الماركسيّة، وعدوّاً لكلّ محاولة لصوغ قوانين للتاريخ أو جعله علماً يشابه العلوم الطبيعيّة. وانتقلت فيما بعد إلى كتاب المؤرّخ الهولندي بيتر خيل وكتابه «**نابليون: مع وضد**» وهو دراسة لمؤرخي الإمبراطور الفرنسي وصل خيل فيها إلى نتيجة مفادُها أنّ التاريخ جدالٌ لا نهاية له وأنّ أجيال المؤرّخين المتعاقبة تجد فيه ما يلائم أهواءها، وأنّ الوصول إلى ما قد نسمّيه الحقيقة في التاريخ أمر يلامس الاستحالة. وكما كتاب خيل كذلك استهواني في تلك الفترة كتاب المؤرخ البلجيكي هنري بيرين بعنوان «**محمد وشارلمان**» الذي طرح فيه نظريّة قوامها أنّ الفتوحات العربيّة الإسلاميّة هي التي أغلقت أبواب أوروبا التجاريّة، ممّا أدّى إلى نشوء النّظم الإقطاعية فيه الممثّلة في مملكة شارلمان، أي إنّ «محمّداً» أدّى إلى «شارلمان». ووجدت في هذه الكتب نظريّات قد نصفُها بالجمال لما فيها من تأويلات بسيطة تلخّص التاريخ تماماً كما لخّص أينشتاين قوانين الفيزياء بمعادلة بسيطة جميلة.

والخلاصة أنّ هذه الكتب وغيرها مع مشاربها المختلفة

هي التي استحوذت على فكري بالكامل، فلمّا جاء زمن الامتحانات النهائيّة حصلتُ على علامة ممتازة في موضوع كتابة التاريخ وعلى علامات متوسطة في الموادّ التاريخية البحتة. وكانت النتيجة درجة الشرف الثالثة أي ما يعادل درجة C. وخاب ظنّ العائلة في «نبوغي» كما كان قد خاب من قبل، ولم أشعر أنني استرجعت البعض من صدقيتي في أكسفورد سوى بعد تخرّجي بخمس وعشرين سنة، وذلك حين دُعيت إلى إلقاء محاضرة جورج أنطونيوس السنوية في مركز دراسات الشرق الأوسط في أكسفورد، وكان موضوعها «فلسطين في العصور العربية الوسطى»، فنالت إعجاب الراحل الكبير ألبرت حوراني وغيره من المؤرّخين، فاكتفيت بهذا الإعجاب من جانب «الأكسفورديين». وشعرت بأنّني قد «انتقمت» أخيراً من جامعتي!

في الجامعة الأميركية في بيروت

وطفقت بعد التخرج أبحث عن وظيفة. وكانت الجامعة الأميركية في بيروت هي الوجهة الطبيعية إذ كانت جامعة والدي وأعمامي جميعهم، وكان لي فيها أخوان وأخت بين أعضاء التدريس. وساعدني أحد الأقرباء فاستقبلني عميد كليّة الآداب والعلوم المرحوم الدكتور فريد حنانيا، وقرّ الرأي على أنْ ألتحق بدائرة الثقافة العامة كما كانت تسمى في ذلك الزمن General Education. ولا بد من بعض الكلمات عن هذه الدائرة لمَا كان لها من عميق الأثر على علاقتي بالكتب وتوجّهي فيما بعد باتجاه تاريخ الفكر. أتت فكرة هذه الدائرة من أميركا ومن جامعة كولومبيا بالذات، وكانت مبنيّة على مبدأ تربويّ قوامُه أنّ الطالب أو الطالبة، مهما كان موضوع اختصاصهم، لا ينبغي أن يغادروا الجامعة دون أن يكونوا قد اطّلعوا على بعض أمّهات الكتب في الحضارة الغربيّة، قديمها وحديثها. وانتقلت الفكرة هذه إلى بيروت وتمّ إنشاء هذه الدائرة قبل التحاقي بها، عام ١٩٦٠، بحوالي خمس سنوات. وكانت النصوص المقرّرة تنقسم إلى أربعة اقسام تاريخية: قديم ومتوسط وحديث ومعاصر، وتمتدّ على مدى سنتين من الدراسة. وكانت تلك النصوص عبارة عن مقتطفات يقرأها الطلّاب كلّ أسبوع. وكان الأسبوع يبدأ بمحاضرة عامّة لجميع الطلّاب حول النّصّ المقرّر يتبعه بعد الظهر اجتماع للأساتذة للنقاش حول المحاضرة والنص. ولم تكن معظم النصوص القديمة والمتوسطة غريبة عنّي على عكس معظم النصوص الحديثة والمعاصرة. لكنّني وجدتُ أنّ كافّة هذه النصوص تستوجب الكثير الكثير من الإعداد والتحضير كي تُقدّم إلى الطلاب في سياقها الفكريّ والتاريخيّ. ما هي أهمّية هذا النصّ؟ وكيف نقرأه؟ وما قيمته لزماننا هذا؟ وماذا وكيف ولماذا وإلى آخره من مشاكل تأويل النصوص التي لا تنتهي.

وما زلت إلى اليوم أقع في مكتبتي على بعض الكتب التي كنت ألجأ إليها في ذلك الزمن للتنوير والاستلهام. ومن بين أوائل الكتب التي أنجدتْني كتاب الفيلسوف البريطاني برتراند راسل بعنوان «**تاريخ الفلسفة الغربية**»، فكان في البدء نعم المُنجد إذ كان شمولياً في تغطيته التاريخيّة، أي من أفلَاطون وصولاً إلى معاصريه مثل برغسون وغيره. نشر راسل كتابه في أميركا في الأربعينيات، ويعترف في مذكّراته لاحقاً بأنّ القصد من كتابته كان الربح المادّيّ ليس إلّا. وهو كتاب يتوجّه نحو القارئ العاديّ والطلبة المبتدئين بأسلوب مشوّق مبسّط مليء بتعاليق وتهكّمات راسل نفسه حين يوجز أو يختصر ما يمرّ به من فلسفات لا يستسيغها. لم يعدْ لهذا الكتاب كبير أهمية في يومنا الحاضر، وذلك بسبب سطحيّته وتاريخيّته المتعثّرة. لكنّه كان لي في البدء مُعيناً ونصيراً يلخّص نظريّات فلسفيّة كانت ستستغرق من وقتي الكثير لفهمها. ولا ريب أنّ تلخيصات راسل تلك قد شابَها الكثيرُ من التشويه، لكنّني وجدتُ فيما بعد أنّ سوء الفهم في بعض الحالات قد يؤدّي إلى إثراء المعرفة بما يوازي حُسن الفهم.

وتبع راسل العديدُ من الكتب التي أنجدتني والتي قد أعود إلى البعض منها فيما بعد. ورسخت النصوص المقرّرة في الذهن وأصبحت بالنسبة إليّ جزءاً أساسيّاً من تكويني الثقافي، فقد كان تعليم هذه النصوص سنةً بعد سنة يرسّخ فهمها ويعمّقه. وبعدما كان الاعتماد في السابق على ما قد ينجد الفهم ككتاب راسل وغيره، أصبح لديّ من «الخبرة» في تعليمها ما يكفي لتأويل تلك النصوص تأويلات شخصيّة تستند إلى العديد من النظريّات الأدبيّة المختلفة وتندمج في قالب مؤلّف من مصادر نظريّة متعدّدة. وهكذا، تكوّن لديّ مخزون لا بأس به من الإلمام بتاريخ الفكر، واستقرّ عندي التصميم أنّ تاريخ الفكر هو ما سأصرف إليه اهتمامي في المستقبل. والفضل في هذا كلّه يعود إلى دائرة الثقافة العامّة وإلى اجتماعات الأساتذة الأسبوعيّة والنقاشات التي كانت تدور فيما بيننا حول النصوص وحول أفضل السبل لفهمها وإيصال هذا الفهم لتلاميذنا.

الإلياذة والأوذيسة وأفلاطون وأرسطو

في البدء كان هوميروس! كانت الوالدة رحمها الله قد ترجمت الإلياذة والأوذيسة عن النص القصصيّ لهاتين الملحمتين

الذي صاغه الكاتب الإنكليزي ألفرد تشرش، وكنت قد قرأت هذه الكتب ثمّ قرأنا البعض منها بلغته الأصليّة في المدرسة الإنكليزيّة، فكانت القصة بخطوطها العريضة معروفة لديّ عندما وصلت في اخر المطاف إلى تدريسها. وصورة البطل تختلف اختلافاً بيّناً بين الملحمتين يتجسد في الاختلاف بين أخيليوس وأوديسيوس، ثمّ في مغزى البطولة عند غيرهما من الشخصيات التي تزخر بها تلك الملحمتان. هل للبطولة معنى واحد عند هوميروس؟ هذه اللحظات الإنسانيّة البحتة في خضمّ المعارك بين الإغريق وأهل طروادة: ماذا تعني في سياق الملحمة ككل؟ خذ مثلاً الزيارة التي يقوم بها ملك طروادة بريام إلى أخيليوس يتوسّل فيها إليه أن يردّ له جثمان ابنه البطل هكتور الذي كان أخيليوس قد قتله وحلف أنْ يجعله طعماً لجوارح الطيور. هي ملحمة قد نراها ظاهرياً وكأنّها تمجّد الحرب والبطولة الحربية، لكنّ هذا اللقاء بين الأب المفجوع والبطل المتوحش ينتهي إلى بكاء الإثنين معاً تفجّعاً على عبثيّة الحروب وما تخلّف من المآسي والأحزان. هذه اللحظات الهوميريّة وغيرها الكثير في الإلياذة تجعل من هوميروس شاعراً يلحظ أدقّ المشاعر الإنسانية وأصدقها وأكثرها عمقاً، فتصبح الملحمة سجلاً لا للحروب فحسب بل لما يواكب هذه الحروب من انفعالات النفس البشرية وعذاباتها. أوْ خذ مثلاً اللحظة التي تقف

لم يسلم أرسطو من النقد. فالجاحظ مثلا يفند العديد من نظرياته حـــــــــول الحيوان. ونحن اليوم نفتقد روح النقد تلك. والتي تجلت عند أسلافنا فجعلت منهم أندادا لأرسطو وأفلاطون.

فيها هيلين الفاتنة على أسوار طروادة مع الملك بريام، وهو والد عشيقها باريس الذي اختطفها من زوجها الإغريقي، هيلين التي من أجلها دارت هذه الحرب الماحقة. تقف هيلين فتشير إلى أبطال الإغريق، وهم زملاء زوجها وحلفاؤه، وتعرّف الملك إلى أسمائهم واحداً واحداً. تندب هيلين حظّها البائس فيواسيها الملك ويضع اللوم على الآلهة الذين يعبثون بمصائر البشر كالأطفال مع اللُعَب، فنجد أنّ البطولة الحقّة هي البطولة البشريّة التي يتهدّدها الموت وليست الخوارق التي تأتي بها تلك الآلهة الخرقاء السخيفة التي لا تموت. أمّا الأوذيسة فهي ملحمة من صنف آخر تماماً، ملحمة الحنين إلى الأوطان، ملحمة الخضوع إلى الاختبار والتجارب والآلام والدموع، من خلال رحلة نخالها قد لا تنتهي لكثرة ما فيها من العوائق والتعرّجات والإغراءات. وما زلت أجد فيها إلى اليوم صورة ملحميّة لمعاناة شعبي الفلسطيني وأملّا لا يخبو أبداً في العودة.

أفلاطون الإلهي وأرسطو... ماذا؟ الدنيوي؟ يا مَن «يدّعي في العلم فلسفةً»! لم يسبق لي أن تفلسفت ولن أتفلسف الآن، بل جلّ ما أستحضره في الذهن اليوم هو بعض النصوص من هذا الثنائيّ الجليل الذي لا ريب قد دخل في سماء الأبديّة. فيما يختصّ بأفلاطون، لم أقتنع بحججه حول ضرورة وجود الكمال في عالم المُثُل من خلال انعدامه في هذه الدنيا، بل إنّ تعدّد هذه الكمالات من شأنه في رأيي أن يخلق ما هبّ ودبّ من كمالات متناقضة. كما لم أقتنع برفضه القاطع للنظام الديمقراطي، فالفارابي مثلاً يرى في هذا النظام بعض الميزات، ويختلف مع أفلاطون حول هذا الموضوع. لكنّ لغة أفلاطون هي في القمّة من البلاغة والحسّ الأدبي، فمحاوراته قد ينالها من سهام الفلاسفة ما ينالها لكنّها تبقى على الدهر مثالاً أدبيّاً لا نظير له في البساطة والوضوح وعمق الرؤية. خذ مثلاً النص الذي في «جمهوريته» حول مساواة النساء بالرجال. هذا النص الذي كُتب قبل زماننا الحاضر بألفين وخمسمئة سنة، لا يزال إلى اليوم يمتلك رونقاً أدبيّاً ومنطقيّاً وعاطفيّاً يضاهي النصوص المقدّسة. فيا ليته يُدرّس في مدارسنا منذ الصفوف الابتدائية كي تترسّخ هذه المساواة في ضمير الناشئة العربية. أمّا أرسطو، وهو المعلّم الأوّل، فقد سعى الفارابي وغيره «للجمع بين رأيي الحكيمين» ولا أدري إذا كان سعيه هذا ناجحاً غير أنّ مروحة اهتمامات أرسطو أوسع من اهتمامات أفلاطون وخصوصاً في مجال الطبيعة. لا يمتلك أرسطو موهبة أفلاطون الأدبيّة، فأسلوبه جافّ ومختصر، ولا يحضرني الآن أيّ نصّ من كتبه سوى بعض النّتَف من كتابه في الأخلاق. لكنْ علينا أن نعترف بأنّ أرسطو هو في كل مكان، وأنّه جزء أساسيّ من تراثنا الفلسفي والعلمي العربي. لم يسلم أرسطو من النقد، فالجاحظ مثلاً يفنّد العديد من نظريّاته حول الحيوان، ونحن اليوم نفتقد روح النقد تلك، والتي تجلّت عند أسلافنا فجعلت منهم أنداداً لأرسطو وأفلاطون. ولا يحضرني اليوم أيُّ كتاب نقديّ عميق كتَبه مفكّر عربي معاصر وخلق أسلوباً عالمياً جديداً في التفكير سوى كتاب «الاستشراق» للراحل إدوارد سعيد.

باستطاعتي طبعاً الرجوع إلى أرشيف الدائرة لأستذكر النصوص المقرّرة في ذاك الزمن السحيق، لكنّني لا أسعى هنا إلى التعليق عليها كلّها بل فقط تلك النصوص التي حفرت بعض الأخاديد في الوجدان والذاكرة. وهكذا

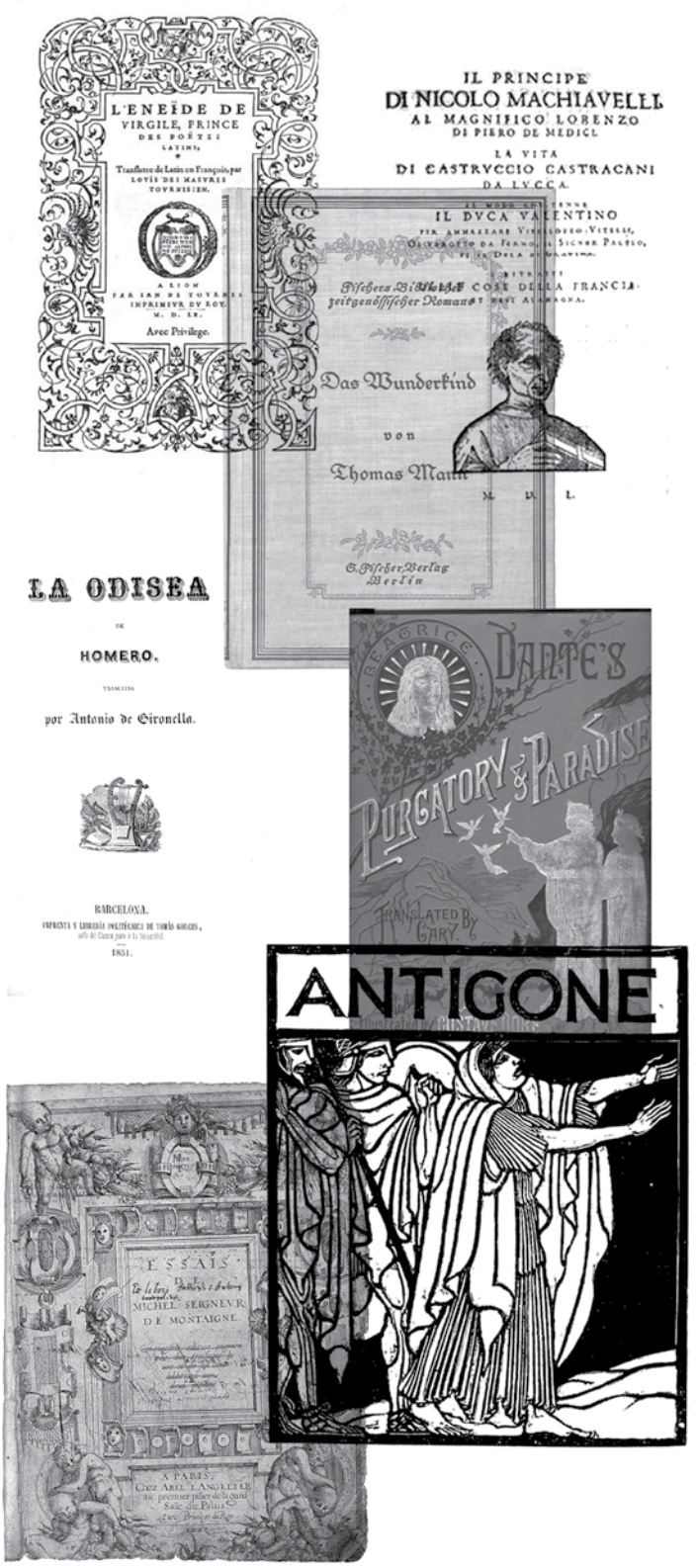

يحضرني الآن بعد هوميرس والإلاهيّان أفلاطون وأرسطو قصيدة لوكريشيوس الروماني (القرن الأوّل بعد الميلاد) الرائعة «حول طبيعة الأشياء» والتي تذهل القارئ العصري بعصريّتها وبرفضها القاطع للفكر الديني الذي تنعته بـ«الميثي»، وبتركيزها على العقل. هاك ما جاء من أبيات في مقدّمة الفصل الثاني من القصيدة أردتُ ترادها بلغتها الأصليّة لما فيها من إيقاع موسيقيّ، وهي على وزن مفتعلن فعلن فعلن فعلن فعلاتن:

سوافِ مَري مَغنو توربَنتِبس ايكورا فَنتيس
اي تِررا مغن التيريوس سبِكتارِ لابورِم

نون كويا فِكساري كويمكوامسْتْ يوكوندا فولُبتاس
سَد كويبس إبسه مَليس كارياس كويا كيرنري سواف است

يا لها من بهجةٍ حين تعصف الرياح في مياه البحر المتلاطم
أن نشهد من الشاطئ ما يعانيه الغير من متاعب

لا للتشفّي والالتذاذ بمشاهدة عذابات الآخرين
بل البهجة أن ندرك ما فاتنا نحن من تلك العذابات

نجد هنا في لوكريشيوس صورة العاقل الذي يقف على شاطئ الأمان حراً طليقاً من كافّة الأساطير التي «تعصف» بالإنسان. وتتبع تلك الدعوة إلى التعقّل نظريّةُ حول الكون ترى فيه مجرّد ذرّات من أصناف متفاوتة في النعومة والخشونة وهي تلتحم لتشكّل الأجساد والأرواح ثمّ تنحلّ، في دوران لا ينتهي. والموت ليس سوى الانحلال فلا داعي يدعو إلى الخوف من عقاب في جحيم ولا إلى أمل في جنة، بل العاقل هو الذي يتحرّر من تلك الأوهام وينصرف إلى السعادة التي يعرّفها على أنّها السعادة الفكريّة العقليّة المتحرّرة من التعصّب الديني والماورائيات، والمنكبّة على دراسة الكون دراسة «علميّة» بحتة. فالتعصب الديني هو الذي يجلب على البشر معظم المآسي والشرور. أمّا هذا العالم الذي نعيش فيه فليس إلّا عالماً واحداً من بين عوالم عديدة. وللشاعر أيضاً رأيٌ كان له تأثيره العميق في الفكر السياسي الأوروبي أي ما جاء عنده حول نشوء المجتمعات الإنسانيّة وقيامها على أساس «عقد اجتماعي».

ترى ما الذي يجعل من هذه النصوص الكلاسيكيّة الموغلة في القدم، أعجميّة كانت أم عربية، نصوصاً تستحوذ على الذهن في يومنا الحاضر؟ لعلّ الجواب الأسرع هنا أن

نقول إنّ هذه النصوص تخاطبنا بشكل مستقبلي أي أنها تستوجب القراءة المتجدّدة والتأويل المستمرّ في كلّ عصر من العصور. يقول الأديب والشاعر الأميركي الكبير عزرا باوند إن النصوص الكلاسيكيّة هي «كالأخبار «الصحفية» التي تبقى دوماً أخباراً». ولربما أعود لاحقاً إلى هذا «التفلسف» وإلى تعريفٍ أدقّ للنصوص التي نسمّيها اليوم كلاسيكيّة.

أعود إلى النصوص المقرّرة والتي ما زالت حاضرة في الذهن، فأصلُ الى ثيوسيديدس الإغريقي (ت. حوالي ٤٠٠ ق.م.) وتاريخ الحروب البلبونيسيّة. يؤرّخ هذا الكتاب لحروب عاصرها المؤلف ولعب فيها دوراً عسكرياً فاشلاً أدّى به إلى النفي من مدينته أثينا. وفي مقدّمته «المستقبليّة» يقول المؤرّخ إنّ تاريخه يستند إلى أحداث شاهدها بنفسه أو استقى أخبارها من ثقات، وإن تاريخه يختلف جذرياً عن باقي التواريخ التي ينعتها بالأساطير أو بالشاعريّة، الأمر الذي يمنح تاريخه في رأيه فائدة كبرى وعِبراً شتّى لأهل السياسة، فيصفه بأنّه «ذخر للأبدية». لن أخوض هنا في الجدال القائم حول ما إذا كان ثيوسيديدس هو فعلاً أوّل المؤرّخين «الموضوعيّين» أم أنّه هو نفسه أديبٌ بل شاعري الهوى، فأنا لست خبيراً في هذا الموضوع، لكن لا يمكن لأي قارئ أن يتجاهل النفحة «التراجيديّة» في بعض أحداثه ومنها، على سبيل المثال وصفه لخطاب بركليس الزعيم الأثيني في ذكرى شهداء الحرب، أو وصفه الدقيق للطاعون الذي اجتاح أثينا، أو قصة المناظرة التي دارت بين الأثينيين وأهل جزيرة ميلوس إبان حصارهم لها، أو قصة الحملة العسكرية الأثينية ضدّ جزيرة صقلية، أو قصة صعود الديماغوجي كليون ليصبح حاكم أثينا الفعلي. فهذه الأحداث جميعها لربما لم تكن قد جرت تماماً كما وصفها، لكنّها جميعها سُكبت في قالب تراجيديّ واضح يميّز بين القول والفعل، بين الحقّ والقوّة، بين المبادئ والتطبيق، بين الغريزة والتعقّل. وهكذا نجد أنّ خطاب بركليس الذي يمجّد فيه أخلاق الأثينيين يتبعه مباشرة وصف الطاعون حيث نجد تلك الأخلاق العالية قد انحلّت بالكامل. أمّا المناظرة مع أهل جزيرة ميلوس فتذكّرني أكثر ما تذكّرني بديبلوماسيّة السيّد هنري كيسنجر في الشرق الأوسط والمبنيّة على ميزان القوى فحسب لا العدالة، والحملة العسكرية ضدّ صقلية هي أشبه ما تكون بالمغامرات العسكرية الأميركيّة في كافّة أرجاء المعمورة منذ فييتنام وحتى يومنا هذا، وصعود الديماغوجي كليون إلى سدّة الحكم يذكّر بصعود طوني بلير ورونالد ريغان في بريطانيا وأميركا. فأخبار ثيوسيديدس هي فعلاً من صنف «الأخبار التي تبقى دوماً أخباراً».

دانته والنهايات السعيدة

أصِلُ إلى دانته الليغييري (ت. ١٣٢١ م.) وإلى الكوميديا الإلهية. والكوميديا في زمن دانته لم تكن تعني القصة الضاحكة، إذ لا مكان للضحك إطلاقاً عند دانته بل تعني القصة التي لها نهاية سعيدة. هذه القصيدة بأجزائها الثلاثة هي رحلة، ولعلّها حِجّة، في العالم الآخر، تبدأ بالجحيم وتصل إلى المطْهر أو البرزخ لتنتهي في الفردوس. وهي ذات نطاق شاسع الطول والعمق والامتداد، في قالب هندسيّ معماريّ محكم البناء. هي رحلة أرادها الشاعر أن تمتلك درجات متعدّدة من الرمزيّة، إذ إنّ عالمنا هذا ليس إلّا صورة أو رمزاً للعالم الآخر. تبدأ الرحلة مع الشاعر الذي يجد نفسه تائهاً في غابة، هي غابة الضّلال والشكّ. ويذكّرنا الأمر بكتاب «المنقذ» للإمام الغزالي، فلو شاء الإمام أن يكتب تجاربه في رحلته الروحيّة شعراً لوجدنا دانته متعاطفاً معه في الكثير من الأمور. كما أنّ العديد من الباحثين من أوروبيين وغيرهم قد لمّحوا إلى التقارب بين أبي العلاء في رسالة الغفران وبين كوميديا دانته. وما زلت أذكر أنّ أحد زملائي في الدائرة يومئذ، وهو الأستاذ ريتشارد لوماي، أطلعني على بعض الجمل القصيرة في دانته والتي استعصت عبر العصور على فهم الخبراء، وأثبت أنّها باللغة العربية. هذه العلائق بين دانته والحضارة العربية ما زالت كما يقول المَثَل الإنكليزي «تنتظر خروج المحلَّفين» لكي نصل إلى القطْع بصحّتها، لكنّها بلا شكّ جديرة بالملاحقة العلميّة.

جحيم دانته هي حفرة على شكلٍ مخروطيّ مقلوب رأساً على عقب داخل الأرض، نجمت عنْ طرد الربّ لإبليس من الجنّة. وهذه الحفرة هي في الوقت ذاته حفرة حقيقيّة ورمزيّة تنتشر على جوانبها الداخليّة ما يشبه الخنادقِ اللولبيّة حيث تأوي الأصناف المختلفة من الخاطئين، بدءاً من مرتكبي الصغائر (خطايا الجسد) في أعالي الحفرة ووصولاً إلى الكبائر (خطايا العقل) في قاعها. كل خطيئة من تلك الخطايا لها عذاب يناسب الخطيئة المعيّنة بحيث يتعرف كل خاطئ على حقيقةِ خطيئته (أو كما جاء في القرآن الكريم «وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون» «ذوقوا ما كنتم تعملون»). فخطايا الجسد كالحبّ المحرّم مثلاً، يعاقَب مرتكبوه بوضع المحبّين في دوامة من الأعاصير، فكما أنّ الحبّ المحرّم قد عصف بهم في الدنيا، كذلك تعصف بهم الرياح في الآخرة. وهكذا دواليك.

وفي القاع نجد إبليس في بحيرة من الجليد يقضم باستمرار رأسَي يهودا الأسخريوطي الذي خان المسيح (=الكنيسة) وبروتوس الروماني الذي خان يوليوس قيصر (=الإمبراطوريّة أو الدولة). فالخيانة، وهي أعظم الخطايا عند دانته «تجلّد» الأحاسيس البشرية كلّيّاً. ورحلة الشاعر تأخذه من خندق إلى آخر أعمق منه برفقة الشاعر الروماني فرجيل الذي هو المرشد والدليل، والذي يشرح لدانته بالتفصيل تركيب الجحيم وبُنيتها. يلتقي الشاعران بعدد لا يحصى من الناس من معاصرين وقدماء، فمنهم من يعبّر عن نوع من التوبة ومنهم من لا يزال مصرّاً على خطيئته حتى بعد الموت، وهم في الوقت ذاته أحياء وأموات (أو كما جاء في القرآن الكريم «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت») ولا أمل لديهم في الخروج من الجحيم فهم فيها خالدون.

لنا نحن العرب حصة في ملحمة دانته. إذ نجد في مكان اسمه «ليمبو». حيث لا عذاب ولا أمل. بعض الفلاسفة القدماء كأرسطو وأفلاطون. ثم بعض فلاسفة العرب كابن رشد. وكذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان مثالا للشهامة في زمن دانته.

أمّا المطْهر فهو جبلٍ مخروطيّ الشكل في المقلب الآخر من الكرة الأرضيّة نجمَ عن حدوث حفرة الجحيم. وهذا الجبل له أيضاً خنادق لولبيّة خارجيّة يجتازها صعوداً كلّ من له أمل في الوصول إلى القمّة ومن ثمّ إلى الفردوس. ويقول البعض إنّ هذا المطهر هو أقرب أجزاء الكوميديا إلى الواقع، إذ نحن هنا بصحبة أناس ما زالوا يأملون الوصول إلى الجنّة من خلال التخلّص التدريجيّ من الخطايا وتطهير النفس البشريّة من شوائبها. وفي القمّة نصل إلى الفردوس الأرضيّ حيث تنطلق النفس المطهّرة إلى الفردوس الأعلى. أمّا الفردوس الأعلى أي الجزء الثالث من الكوميديا، فهو على شاكلة وردة (أو لربما مسرح رومانيّ دائريّ الشكل) نجد فيه القدّيسين على طبقاتهم بالنسبة إلى قربهم من العرش. وهذا الجزء الأخير لم ينل على مرّ الزمن من إعجاب القرّاء ما ناله الجحيم والمطْهر، فهو كالصورة الثابتة التي لا حراك فيها، فيما الأوّلان في حراك وغليان مستمرّين.

هذه إذاً «البانوراما» الشاملة لكوميديا دانته، وقد لا يكون من الصعب أن يتصوّر المرءُ ما تحفل به هذه الملحمة الشعرية من حوادث ولقاءات وحوارات وحِكَم وصوَر ومشاهد وخُطب، منها اللاهوتي ومنها العلميّ ومنها السياسي ومنها الأخلاقي وإلى ما هنالك، فهي عالم دانته الأوروبي القروسطي بأسره. ولنا نحن العربَ حصّة في تلك الملحمة، إذ نجد مثلاً في مكان اسمه «ليمبو»، حيث لا عذاب ولا أمل، بعضَ الفلاسفة القدماء كأرسطو وأفلاطون، ثمّ بعض فلاسفة العرب كابن رشد، وكذلك السلطان صلاح الدين الأيّوبي الذي كان مثالاً للشهامة في زمن دانته. أمّا الرسول العربي الكريم فهو، وبصحبة عليّ عليه السلام، في خندق الذين شقّوا الكنيسة أي أنّ الإسلام في نظر دانته هو هرطقة مسيحيّة.

كنت في العام **١٩٨٣** في زيارة لإيطاليا فودْت أن أزور بعضَ الأرض التي كتب عنها دانته، فاستقللت باصاً ريفياً إلى بلدة «غوبيو»، ثمّ إلى أعلى الجبل الذي فيه كنيسة القدّيس «أوبلدو». دخلت إلى الكنيسة فوجدت نفسي وحيداً تماماً، وأمامي وعلى بعض الارتفاع من أرض الكنيسة تابوت زجاجي يرقد فيه القديس المذكور وجسده ما زال سالماً من الفساد. انتابتني هيبة المشهد ولربما بعض الفزع، فلم أنتظر الباص للعودة مجدداً إلى البلدة بل هرولت نزولاً في منحدر شديد من الأرض فيه جدول صغير، وإذا بي أقع في منتصف الطريق على لوحة من المرمر الأبيض نُقشت عليها بعض أبيات دانته:

بين نهر توبينو والماء المنحدر من القمة المختارة التي يرقد عليها القدّيس أوبلدو تروي المياه من الجبل بساطاً يتدلّى من الأرض خصيباً

فاكتفيت بهذا اللقاء المباشر مع عالم دانته إذ كان الأمر بالنسبة إليّ وكأنّه كشْف أو حال، أي كذاك الذي يأتي على أهل التصوّف، رغم أنّني لست منهم في العادة. أمّا أبيات دانته التي رسخت في الذهن فهي كثيرة وما زلت أردّدها أحياناً لنفسي أو لمن يتلطّف ويصغي إليها، فمنها مثلاً:

نسّون ماجيور دولوري كيه ريكوردارسي دل تمبو فيليشه نيللا ميزيريا

لا عذاب أفدح من أن نتذكّر تلك الأوقات السعيدة ونحن في حال البؤس

أو التبرير الذي جاء على لسان باولو وفرنشسكا لممارستهم الحب الحرام بعد قراءة كتاب عن الحبّ:

غليوتو فو إل ليبرو اي كيه لو سكريزه كل جيورنو بيو نون في ليغغممو افانتي

قوّاد ذاك الكتاب وقوّاد أيضاً مؤلّفه!
وفي ذاك اليوم لم نعد نقرأ

أو البيت الأخير من الكوميديا:

لامور كيه موفي إل سوله ايه لالتريه ستلله
الحب الذي يحرّك الشمس والنجوم الأخرى

مكيافيللي وأقرانه العرب

ومن دانته إلى نيكولو مكيافيللي (ت. **١٥٢٧** م.) وكتابه «**الأمير**» ذائع الصّيت، والذي يراه العديدون أنّه بمثابة الدستور لما يُسمى اليوم سياسة الأمر الواقع. هو كتاب صغير الحجم، لا تستغرق قراءته سوى ساعات قليلة، غير أنّه أحدثَ في زمانه ضجّة كبرى سرعان ما حملت بعض معاصريه الأوروبّيين على وصفه بأنّه من عمل الشيطان. ففي الأدب الإنكليزيّ المعاصر له نجد على سبيل المثال أنّ لفظة «العجوز نك» (مختصر نيكولو) أضحت مرادفة للشيطان. يقع الكتاب في ستة وعشرين فصلاً قصيراً، تتضمّن مقدّمته رسالةَ إهداءٍ إلى لورنزو دي مديتشي حاكم فلورنسا آنئذ، ويقول فيها مؤلّفه إنّه توخّى البساطة في الأسلوب بعدما اكتسب خبرة طويلة الأمد في الشؤون العامّة وقرأ الكثير عن تاريخ اليونان والرومان. وهو كتاب ينتمي إلى صنف أدبيّ عرفته العديد من الآداب في الشرق والغرب ويسمى في العادة «نصيحة الملوك» أو «مرايا الأمراء». ولدينا في التراث العربي والإسلامي أمثلة عديدة من هذا الصنف الأدبي، من أشهرها «**الفخري في الآداب السلطانية**» لابن طباطبا (ت. ٩٣٤ م.) و«**سراج الملوك**» للطرطوشي (ت. **١١٢٧** م.)، ولعل أشبهها بكتاب «**الأمير**» هو كتاب «**سياست نامه**» بالفارسية للوزير السلجوقي الشهير نظام الملك (ت. **١٠٩٢** م.). ولهذه الكتب، بما فيها «**الأمير**»، بُنية متشابهة في الغالب فهي تمزج بين الحكمة والشواهد التاريخيّة لتصوغ منها النصائح الملكية المختلفة والموزّعة على فصول، لكلّ فصل منها موضوع خاصّ يتّصل بشأن من شؤون الحكم والحاكم، وهذه المواضيع كثيراً ما نجدها متشابهة في تلك الكتب.

لا أدري لماذا تسبب كتاب مكيافيللي في خلق تلك الموجه العاتية من الكراهية له. ألم يكن الناس في زمانه يعرفون حق المعرفة أن الحكام يتبعون في سيرتهم ما نسميه اليوم منطق الدولة؟

يقول مكيافيللي في الفصل الثاني إنّ الذي يرث الحكم من والده أو أجداده لا يحتاج إلى النصح بقدر ما يحتاج له مَن يمارس الحكم لأول مرة، فكتابه يتوجّه على الخصوص إلى الحاكم الجديد حين تكون مشاكل الحكم أكثر تعقيداً وصعوبة. وهذا الحاكم الجديد غالباً ما يحتاج إلى استعمال القسوة والعنف فتأتي النصيحة بأن يستعملها الحاكم مرّة واحدة وعلى نطاق واسع، أمّا جود الحاكم وكرَمُه فقطرةً بعد قطرة. ويوجز مكيافيللي العلاقة مع الشعب كما يلي: «هل من الأفضل أن يكون الحاكم مرهوب الجانب أم أن يكون محبوباً؟ الجواب أن يكون الإثنين معاً، لكن إذا كان لا بدّ من الاختيار فالأفضل أن يكون مرهوباً. لكن ينبغي ألّا يكون مكروهاً من الشعب، ومن السهل تفادي الكراهية إذا امتنع الحاكم عن انتهاك حُرُماتهم أو التعدّي على أملاكهم». ويصف أخلاق البشر كما يلي: «إنّهم في الغالب عاقّون ومتقلّبون وكذّابون وخادعون وجبناء وجشعون، فهم يمحضونك الولاء ما دمت تحسن معاملتهم، لكن ما إن يقترب منك الخطر حتى ينقلبوا إلى أعداء». وقبل كل شيء على الحاكم ألّا يعتدي على ممتلكات شعبه إذ «سرعان ما ينسى الإنسان فقدان والده لكنّه لا ينسى أبداً فقدان ممتلكاته».

وهكذا نقترب بالتدريج إلى الفصل الثامن عشر، وهو الفصل الأعظم شهرةً في الكتاب والذي خلق للمؤلّف سمعته السيّئة في زمانه. يبدأ الفصل بوصف مجازيّ للحاكم الذي يصفه بأنّه يجب أن يكون نِصفُه بشرياً ونصفه الآخر وحشياً، كما ينبغي أن يتّعظ بالثَعلب والأسد فيكون كالثعلب في اكتشاف الفِخاخ والمكائد وكالأسد في طرد الذئاب عنه. ونأتي إلى الفقرات الشهيرة وهي كما يلي: «لذا فإنّ الحاكم الحصيف لا يمكنه ولا ينبغي له أن يفي بوعوده حين تنتفي الأسباب التي جعلته يعطي الوعد في السابق. فلو كان البشر كلّهم أخياراً لما صحّت هذه النصيحة، لكن بما أنّ البشر جديرون بالازدراء ولا يفون بوعودهم، لا ينبغي للحاكم أن يفي بوعوده لهم. وبما أنّ المظهر والشكل هو الأمر الأهمّ في العلاقات العامّة، فعلى الحاكم أن يظهر بمظهر الشخص الحنون الودود التقيّ الذي يفي بالوعد لكنْ عليه أيضاً أن يعرف كيف يتصرّف على العكس من ذلك تماماً حين تدعو الحاجة». من هنا فإنّ

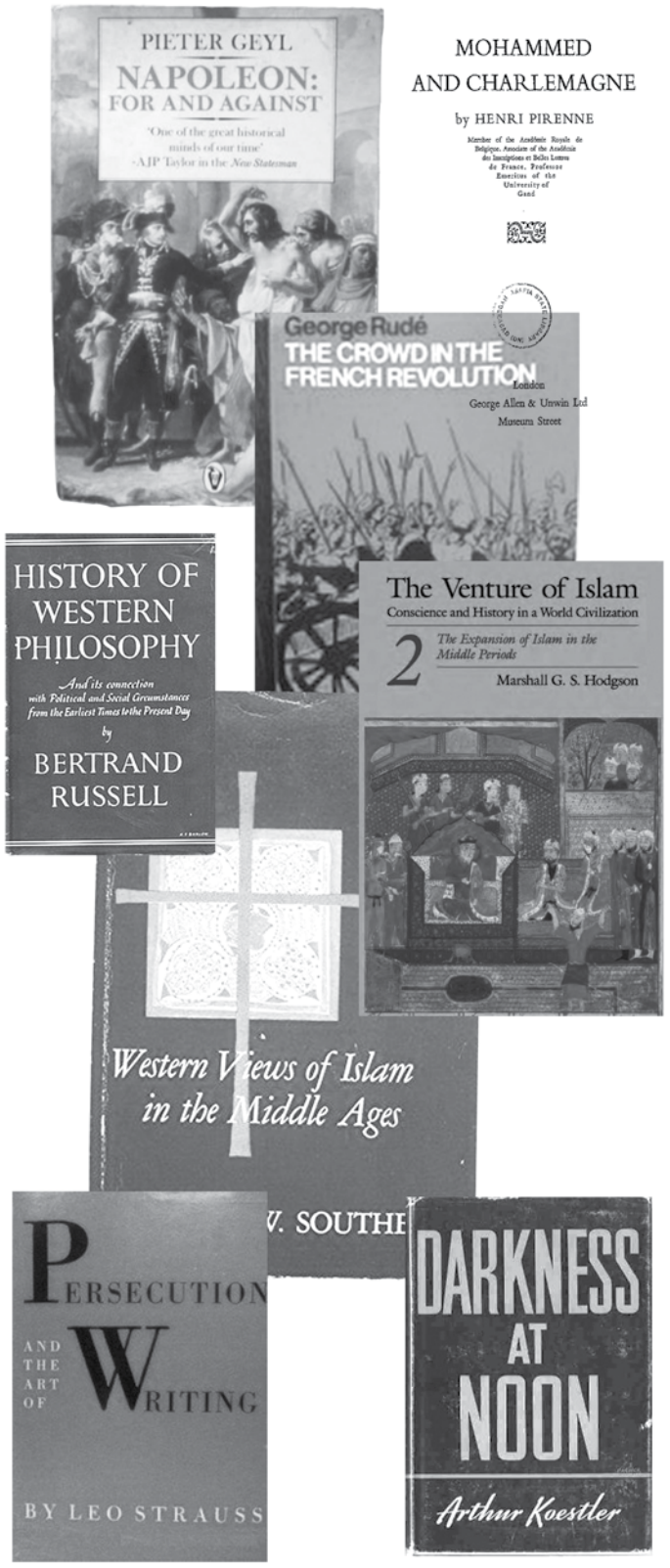

«الحاكم الجديد لا ينبغي أن يلتزم بما يمنح الناس السمعة الطيّبة لأنّه إذا كان له أن يحافظ على سلطانه ودولته فهو كثيراً ما يضطر إلى التصرّف بما يتعارض مع النيّة الحسنة وعمل الخير واللطف وشعائر الدين».

ليست هذه الآراء بمجملها غريبة عمّا نجده في تراثنا السياسي وخصوصاً في كتب «**مرايا الأمراء**»، فهذا الطرطوشي مثلاً، يخبرنا أنّ عبد الملك بن مروان حين وصل إلى سدّة الخلافة وضَع المصحف في حُجْره وخاطبه قائلاً: «هذا فراقٌ بيني وبينك». لكنّ الأقرب إلى آراء مكيافيللي هو ما نجده في كتاب الوزير نظام الملك حيث يقول ما يلي: «على السلطان أن يباشر الحرب ضدّ الأعداء لكن بأسلوب يترك مجالاً للصلح، كما عليه أن يعقد الصداقات والمعاهدات لكن بأسلوب يمكن له أن يفسخها، وأن يفسخها لكن بأسلوب يمكن له أن يعقدها من جديد». فمنطق الدولة كما نجده في هذه النصوص يتقدّم على كلّ ما عداه بما في ذلك شعائر الدين وأحكامه إذا لزم الأمر. لا أدري لماذا تسبّب كتاب مكيافيللي في خلق تلك الموجه العاتية من الكراهيّة له. ألم يكن الناس في زمانه يعرفون حقّ المعرفة أنّ الحكّام يتبعون في سيرتهم ما نسمّيه اليوم منطق الدولة؟ أم هل كانت الكنيسة في ذلك الزمن قد بدأت تشعر بفقدان سلطانها مع قيام دول أوروبية جديدة عسكرية الطابع بالكامل ومصممة على انتهاك كافّة الأعراف وصولاً إلى غاياتها، فشنّت الكنيسة على الكتاب وصاحبه تلك الحملة الشعواء؟ أم هل كان التاريخ الإيطاليّ في عصره مزيجاً من البابوية والسياسة كما في أيام البابا إسكندر السادس بورجيا، فأراد مكيافيللي أن يفصل بين الأمرين بوضوح وصراحة تامّين لم تكن مألوفة من قبل؟ لن أحاول الإجابة عن هذه الأسئلة بل أتركها لأصحاب الاختصاص، مع التأكيد على أهميّة هذه النصوص في الفكر السياسيّ الأوروبي والفكر العربي الإسلامي على حد سواء. فالتاريخ العربي كثيراً ما يشي بوجود توتّر واضح بين الشريعة والسياسة، بين منطق الفقيه ومنطق السلطان.

دي مونتين الذي يذكّر بالجاحظ

ومن مكيافيللي إلى ميشيل دي مونتين (ت. ١٥٩٢ م.)، هذا العبقري الذي يخاطبنا عبر الزمن وكأنّه من معاصرينا من خلال أدب المقالات التي كتبها حول شتى المواضيع، فيذكّرنا في بعض الأحيان بذاك العبقري الآخر أي بالجاحظ. إذ كلاهما عنده فضول لا ينضب للمعرفة، معرفة الإنسان والمجتمع والطبيعة والأدب. كلاهما

يستخدم أسلوب «الرسالة» أو «المقالة» لتلخيص مفاهيمه وإيجازها لجعلها على درجة عالية من التكثيف. كلاهما ينتقد طروحات عصره بشكل يمزج الجدّ بالهزل. سأعود فيما بعد إلى الجاحظ وألتفت الآن إلى مونتين.

ازداد مع الزمن عدد الأساتذه العرب وازدادت مطالبتنا بإدخال التراث الشرقي والعربي إلى المناهج. ونجحنا. فقد أدخلنا إلى المنهج ملحمة غلغامش وأدخلنا الجاحظ والغزالي وابن خلدون والطيب صالح وغيره.

لكلٍ منّا مقالته المفضّلة من مقالات مونتين، ومقالتي المفضّلةً هي التي بعنوان «حول آكلي لحوم البشر». يقول مونتين إنه استجوب أحد الذين أبحروا إلى تلك القارّة الجديدة (أميركا اللاتينية اليوم) ودرسوا عادات أهلها عن كثب، ويسرد مونتين ما قاله له هذا الرحّالة ليستنتج أنّ أولئك الذين يسمّيهم الناس آكلي لحوم البشر هم في الواقع أكثر اهتماماً بالطبيعة وأكثر عطفاً على بعضهم البعض، وأشدّ تمسّكاً بالتعقّل في علاقاتهم الاجتماعية من معاصريه هو. وتنتهي المقالة بجملة قد تكون من أكثر الجمل سخرية في الأدب الأوروبّي «لا بأس في كل هذا الذي سبق، ولكن ما الفائدة؟ إنّهم لا يلبسون البنطلون»!!! ولعلّ مونتين أول كاتب أوروبي وجد في المجتمعات المسمّاة «بدائية» أحوالاً وعادات جديرة بالاحترام، وذلك قبل العصر الأوروبي الإمبريالي الذي طرح غطاء العنصرية والتسلّط على كلّ ما هو غير أوروبي. ومن أمثال تلك الجملة الساخرة ما يقوله حول علاقة الكلمات بالأشياء ليبرهن أنّ الحياة الاجتماعية فيها الكثير من التكلّف. فالكلمات التي تدلّ على أمور طبيعية كالخراء والضراط والتبوّل والأعضاء التناسليّة وممارسة الجنس وما شابه تُعتبر كلمات غير مهذّبه في التخاطب الاجتماعي، أمّا الكلمات الدالّة على أمور غير طبيعيّة كالقتل والسرقة والاغتصاب والزنا وما شابه فهي مقبولة تماماً في الكلام المهذّب. وكمثال آخر على سخريته ما زلت أذكره هو الآتي «عندما أُداعب قطّتي، هل أنا الذي يداعبها أم هي التي تداعبني؟» ولعلّ في هذا المثال ما يتعدّى السخرية إلى الفلسفة، لكنّني لن أخوض في هذا البحث. هذا إذاً هو مونتين الذي أحببتُه والذي كان بالنسبة إليّ من أكثر النصوص التي وجدتها قابلة للتعليم والشرح والاستحسان من جانب التلامذة: هذا ما أرجوه على كل حال.

في صيف العام ٢٠١٥ وجدت نفسي أنا وزوجتي في مدينة بوردو الإفرنسيّة فقرّرنا أن نزور قصر (شاتو) مونتين وبرجه الشهير القريب من بوردو والذي انعزل فيه ليكتب معظم مقالاته. وبعد مغامرة مشوّقة لا داعي إلى سردها، وصلنا أخيراً إلى المكان فوجدنا أنفسنا وحيدين تماماً، ممّا أثار دهشتنا: مونتين وبرجه بدون أيّ زائر على الإطلاق؟ وفي عزّ الموسم السياحي؟ كان الأمر عجيباً حقاً، فهل تخلّى الإفرنسيّون عن زيارة أحد أهمّ كتّابهم وفلاسفتهم؟ هل لم تعد مقالاته من بين النصوص المقررة في مدارس فرنسا؟ لم أجد الجواب عن هذه التساؤلات ولكن سُعدنا كثيراً على كل حال لأنّ البرج كلّه كان بتصرّفنا. ووصلنا أخيراً إلى الغرفة العليا في البرج حيث مكتبُه وحيث الكتابات الشهيرة باليونانيّة واللاتينيّة المرسومة على ألواح السقف الخشبيّة التي كان يستلهمها لكتابة مقالاته. هل كان مونتين يداعبنا أم نحن الذين نداعبه؟ وهنا أيضاً جرى اتصال روحي معه كذاك الذي جرى مع دانته.

أنتقل إلى العصور الحديثة في المنهج الدراسي لدائرتنا. لم أجد في تلك النصوص الحديثة من المتعة ما وجدته في العصور القديمة والمتوسطة. ولعلّ السبب أنّ تلك النصوص وخصوصاً النصوص المعاصرة، كانت تخضع إلى نقاش مستمرّ من جانب زملائي في تدريس المنهج. فقد كان من الصعب بل المستحيل أن نحدّد ما هو نص «كلاسيكي» حديث وما هو نص تخطّاه الزمن فلم يعد له قيمة كبيرة في عصرنا الحاضر. أذكر على سبيل المثال رواية توماس مان «الجبل السحري» وهي رواية طويلة جداً خصّصنا لها أسابيع عدّة في صفوفنا. هل تستأهل كلّ هذا الوقت؟ إنّها صورة بانوراميّة للمجتمع الأوروبي في أوائل القرن العشرين وفيها عدد كبير من الشخصيّات التي تمثّل شتّى أنواع الإيديولوجيّات في ذاك الزمن، وتتخلّلها نظرات ولحظات وإشارات ينبغي لفهمها اطّلاعٌ عميق على الميثولوجيا الإغريقيّة. استبدلناها فيما بعد برواية أخرى للكاتب ذاته وهي أقصر بكثير، أيْ «موت في البندقيّة» حيث يمازج بين الموت والفنّ لكن في السياق الإيديولوجي ذاته. وأذكر مثلاً رواية «الظلام في وضح النهار» للكاتب آرثر كستلر الذي «يفضح» النظام الستاليني من خلال قصة سجين آمَن بالمبادئ الشيوعية «الديمقراطية» لكنّه رفض تحوّلها إلى الديكتاتورية. كان النقاش حول هذه النصوص حامياً في الكثير من الأحيان،

خصوصاً عندما كنا نرى في البعض منها دعاية أوروبية/أميركيّة واضحه ككتاب كستلر. فقد ازداد مع الزمن عدد الأساتذه العرب وازدادت مطالبتنا بإدخال التراث الشرقي والعربي إلى المناهج، ونجحنا في هذا المسعى إلى حدّ كبير. فقد أدخلنا إلى المنهج ملحمة غلغامش وأدخلنا إليه الجاحظ والغزالي وابن خلدون وغيرهم، وأدخلنا الطيب صالح وغيره إلى النصوص الحديثة فبات المقرّر ككلّ أقرب إلى الشموليّة الحضاريّة من ذي قبل، إذ كان في السابق أوروبيّ الطابع بالكامل.

لم أذكر من النصوص إلا ما ورد الآن إلى الذهن، فعددها كان كبيراً. وكان هذا المقرر لا يُستحسن من قبل التلامذة لأنّه كان من الموادّ المفروضة عليهم. غير أنّ الغريب في الأمر أنّني صادفت الكثيرين من متخرّجي الجامعة الذين اعترفوا أمامي بأن هذا المقرّر كان من بين أكبر ما خلّفته الموادّ الجامعية من أثر في حياتهم فيما بعد. وها نحن اليوم نجد أنّ هذا المقرّر قد تقلّص إلى حدّ كبير ولم يعد مفروضاً، فقد حاربته الكلّيات الأخرى وأضحى مصيره معلّقاً مع مصير سائر العلوم الإنسانية في الجامعات في الشرق والغرب. عسى أن يأتي اليوم الذي تعي فيه كلّيات الهندسة والطبّ والتجارة، كما يعي أهل التلامذة، أنّ الفكر الناقد الذي هو في صلب وظائف العلوم الإنسانية يعني أنّ وجود هذه العلوم (الأدب، التاريخ، الفلسفة، العلوم الاجتماعية) في جامعاتنا العربيّة بل وتدعيمها يؤدّي حتماً إلى أطبّاء ومهندسين ورجال أعمال، ذكور وإناث، أكثر قدرةً على التفكير النقديّ والتحليل المنطقيّ والتخيّل الخلّاق، مما يؤدّي إلى استنباط أسلم وأسرع لحلّ المشاكل التي تواجههم في أعمالهم المختلفة.

الدكتوراه في جامعة شيكاغو

وفي العام ١٩٦٦ بدأت مرحلة جديدة من سيرتي مع الكتب. فقد آن الأوان للتفكير الجدّي بالمستقبل العلميّ أي بالحصول على الدكتوراه. لم يكن لديّ أدنى شك في أنّ مهنة التعليم قد أصبحت مهنتي ولم يكن من الممكن أن أصعد السلّم الأكاديمي بدون تلك الشهادة. وبعد مخاض حصلت على منحة جامعيّة من جامعة شيكاغو في أميركا. وكنت أنا من بين فريق من الزملاء الذين سافروا إلى أوروبا وأميركا في طلب الدكتوراه، فتفرّقنا في ربوعها. وكان عليّ أنْ أختار في مجال الدراسات العربيّة الإسلامية بين التاريخ الوسيط والحديث، فاخترت الوسيط بدون تردّد يُذكَر واتجهت نحو تاريخ الفكر، والفضل في هذا الاختيار للسنوات الستّ التي أمضيتها في دائرة الثقافة العامّة وللأعوام التي قضيتها في المدرسة البريطانيّة بصحبة اليونان والرومان. وبما أنّني كنت منذ أيامي الجامعيّة في أكسفورد أبدي اهتماماً خاصاً بفلسفة التاريخ وكتابته، عقدتُ العزم على انتقاء موضوع يتّصل بكتابة التاريخ عند العرب.

وفي تلك الأيام كان في جامعة شيكاغو كوكبة لامعة من الأساتذة في الدراسات العربيّة الإسلاميّة، منهم محسن مهدي العراقي، وويلفرد ماديلونغ الألماني، وياروسلاف ستتكيفتش الأوكراني، والأستاذ العبقري مارشل هودغسن الأميركي صاحب كتاب «**مسعى الإسلام**». وكان محسن مهدي هو الذي اخترته للإشراف على أطروحتي بسبب كتابه عن ابن خلدون. اقترح عليّ في البدء أن أكتب عن ابن حيان القرطبي، ثمّ استقرّ الرأي على المسعودي (ت. ٩٥٦ م.). وكان محسن مهدي من أتباع الفيلسوف ليو شتراوس وكتابه الشهير «**الاضطهاد وفنّ الكتابة**» الذي تنطّح لتحليل كتابة الفلسفة إبّان العصور الوسطى الدينيّة التي اضطهدت الفلسفة. وكتاب مهدي عن ابن خلدون، كما كتاباته اللاحقة عن الفارابي، تنضح بالأفكار «الشتراوسية» أي كيفيّة كتابة الفلسفة في العصور الوسطى التي سادها الدين، ووجوب التنقيب الدقيق عن المضمَر ضمن المصرح عنه في النصوص. وهكذا نجد أنّ ابن خلدون في رأي مهدي هو في الحقيقة فيلسوف مُقنّع. لم ترق لي تلك النظريّة إذ إنّ كلّ كتاب «كلاسيكيّ» يتضمّن في الواقع كتباً عدّة وليس ثمّة من «مفتاح» واحد يفكّ رموزٍ مثل تلك الكتب. كما أنّ نظريّات شتراوس لم تُلاق قبولاً فيما بعد عند معظم مؤرّخي الفكر.

وكان برنامج الدكتوراه في ذلك الزمن يستغرق حوالي سنة ونصف السنة، ويتطلّب حضور ندوات دراسيّة عليا أي ما يسمّى «سمينار»، وذلك قبل البدء بكتابة الأطروحة، حيث على الطالب اختيار شريحة واسعة من مختلف المواضيع في الدراسات الإسلاميّة، كعلم الكلام والأدب والجغرافيا والتاريخ وعلم السياسة وإلى ما هنالك، وكانت معظمها بالنسبة إليّ مواضيع جديدة لكنّها ذات صلة مباشرة وغير مباشرة بالمسعودي وبكتابة التاريخ. وهكذا وجدت نفسي أمام بحر زاخر من النصوص التي عكفتُ على قراءتها بشغف كبير. فالسنوات الستّ التي كنت قد أمضيتها في دائرة الثقافة العامّة جعلتني أنظر إليها نظرة التحليل المقارن أي نظرة تضع تلك النصوص في سياقها

العالميّ، لا لرصد التأثير من هنا وهناك، فالتأثير الفكريّ ليس شيئاً ميكانيكيّاً ينتقل من مفكّر إلى آخر، بل لأنّ تلك النصوص العربيّة كانت في الواقع تخاطب العالم بأسره، شرقاً وغرباً. فالمسعودي مثلاً، يطمح إلى كتابة تاريخ العالم وليس فقط عالمه الإسلامي، وكذلك الأمر مع العديد من تلك النصوص التي تفترض أنّ القرآن الكريم هو دعوة إلى اكتشاف عالم المعرفة وليس دعوة إلى حصر العلم والانغلاق والاكتفاء بما جاء به التنزيل: القرآن بداية وليس نهاية. هذا على ما أظنّ هو الذي منح حضارتنا في تلك العصور حيويّتها وزخمها العظيمين. بل وقد أُضيف أنّه يمكننا أن نقسم مفكّري الإسلام إلى فريقين: فريق يرى أنّ القرآن نهاية المعرفة وأخر يرى أنّه بدايتها.

وعالميّة الحضارة العربية الإسلامية في عصور ما قبل الحداثة هي التي أرّخها مارشال هودغسن في كتابه بمجلّداته الثلاثة، المشار إليه أعلاه، والذي ما زلت إلى اليوم أرى أنّه أهمّ تاريخ لحضارتنا كتَبَه مؤلف غربي. كان هودغسن إنساناً غريب الأطوار، بل به مَسّ من جنون العبقريّة. كانت مسيحيّته عميقة الجذور وكان ينتمي إلى فرقة «الأصدقاء» أي «الكويكرز». وكان من أوّل الذين دعَوا إلى نبذ النظرة الأوروبيّة نحو تاريخ العالم وإلى فهم الحضارة الإسلامية من منظار عالميّ شامل، فقد كان التاريخ العالمي أحد اهتماماته الرئيسية. وكان له اهتمام خاصّ بالتصوّف الإسلاميّ لم أشاركه فيه. وانجذب إليه فريق من التلامذة أصبحوا جزءاً من عائلته، وكان يمضي معهم الساعات الطوال في حلّ مشاكلهم فكريّةً كانت أم عاطفيّة. ويستخدم هودغسن في كتابه عبارات واصطلاحات خاصّة به يرى أنّها ضرورية لفهم تاريخ الإسلام، فيفرّق مثلاً بين الإسلامي والمؤسلم (Islamic; Islamicate) أي بين ما هو دينيّ وما هو حضاريّ، فيجعل دائرة المفهوم الحضاري أوسع بكثير من دائرة الديني، الأمر الذي يتطلّب نظرة وكتابة عالميّة لتاريخ الإسلام.

الجاحظ الأوسع أفقاً من ابن رشد

الجاحظ (ت. ٨٦٩م.) أوّلاً، لعلّنا لا نخطئ إذا سمّينا الجاحظ «ميكروكوزم» أيْ عالَماً صغيراً. فالجاحظ أحدثَ شرخاً فكرياً عميقاً في الثقافة العربية، بل قد نقول إنه صاغ لها مفاهيم تختلف جذريّاً عمّا جاء من قبل. جال الجاحظ على مختلف العلوم في عصره، وجال أيضاً على معتقدات مجتمعه فوضعها كلّها تحت مجهر العقل والتجربة والبحث، ونقَلها من الانبهار بالماضي إلى الانبهار بالمستقبل وما قد يأتي به العقل من اكتشافات لا تنتهي. وفي هذا الصدد يقول: «لأنّ الإنسان وإن أُضيف إلى الكمال وعُرف بالبراعة وغمر العلماء فإنّه لا يَكمُل أن يحيط علمُه بكلّ ما في جناح بعوضة أيّام الدنيا ولو استمدّ بقوّة كل نظّار حكيم واستعار حفظ كلّ بحّاث واع وكل نقّاب في البلاد ودرّاسة للكتب». جناح بعوضة ؟! غريب حقاً هذا المثل لكنّه يعكس بدقّة ذاك المزيج العجائبي من الخيال والتعقّل عند الجاحظ. ومع أنّ معظم المتنوّرين العرب في يومنا هذا يجعلون من ابن رشد مثالهم الأعلى في التعقّل فإنّهم لم يلتفتوا بما يكفي لنورانيّة الجاحظ الذي أرى في مؤلفاته المختلفة آفاقاً علميّة أوسع من آفاق ابن رشد. فقد كان للجاحظ اهتمام عميق بالحضارات العالميّة وكان يرى أنّ حضارته العربية الإسلاميّة وريثة الحضارات السابقة وموطن الحكمة الأخير. أمّا الأمم التي تُذكّر باستمرار بكتاباته فهي الهند واليونان وفارس، التي انتقل تراثها الحضاريّ من لغة إلى أخرى ومن جيل إلى آخر «حتى انتهت إلينا وكنّا آخر مَنْ ورثها ونظر فيها». لكنّ تقدّم العلوم والمعارف عند الجاحظ ليس بالأمر المحتوم، فالعقل البشريّ يبقى عرضةً لأمراض لعلّ أفدحها هو التقليد الذي يحجب التبصّر والنظر. والدين الذي يؤخذ بالتقليد والتعصّب لا بالعقل والنّظر هو العامل الأبرز في خمول الحضارات وانحلالها، والجاحظ لا يستثني حضارته من هذا الخطر.

وأينما يمرّ الجاحظ نلمح بصمات فكره المتألّق النقديّ الذي كثيراً ما يلجأ إلى السخرية لتفنيد الآراء البالية أو اللاعقلانيّة. إنّه المثال الأبرز في تاريخنا الفكريّ لما نسمّيه اليوم «المثقّف الملتزم» أي المثقّف الذي يجول بالنظر في مشاكل عصره من سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة وأدبيّة ليرسم لها حدودها ويفكّك خطابها ويضعها في سياقها التاريخي، ولا يتركها إلّا بعد أن يزيل ما علق بها من أوهام أو تزمّت أو تقليد. فالجاحظ هو الباب الذي نلج منه إلى حضارتنا في أحد عصورها النيّرة. ولم تزدني الأيام إلّا إعجاباً بعبقريّته. وفي إحدى محاورات أفلاطون التي يصف فيها أيام سقراط الأخيرة التي امضاها في السجن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام بتهمة إفساد أخلاق الناشئة، يعلّل سقراط حكم الموت الصادر بحقّه ويصوغ المثل التالي: هناك ذبابة تحوم حول حصان كسول عظيم الحجم، فتلسعه هنا ثم تلسعه هناك إلى أن يأتي اليوم الذي ينفد فيه صبر الحصان فيضرب الذبابة بذيله ويسحقها. والذبابة هي طبعاً سقراط نفسه، أمّا الحصان فهو مدينة أثينا. وأنا كلّما اتأمّل هذا المثال أجده يعبّر

بدقّة عن الدور الذي لعبه الجاحظ في عصره، فهو يلسع في كل مكان، يستنطق الخاصّة والعامّة، ويحاجج الناس في آرائهم، وإذا لم يجد مَن يناظره حقاً فهو يخترع الخصم لكي يصل الجدال إلى خاتمته العقلية. ومن حُسن الطالع أنّ حياته لم تنته كما انتهت حياة سقراط. وإذا أردنا أن نصف الجاحظ لإنسان غربي فقد نقول إنه مزيج من سقراط ومونتين مع نفحة من فولتير. لكنّ كلّ هذه التشبيهات لا تفيه حقّه، فقد أرخى بظلاله على العصور اللاحقة ولم نتجاهله نحن العرب إلا في العصور الحديثة، رغم أنّنا نملك اليوم تحقيقات علميّة لمؤلّفاته لم تكن متوفرة من قبل.

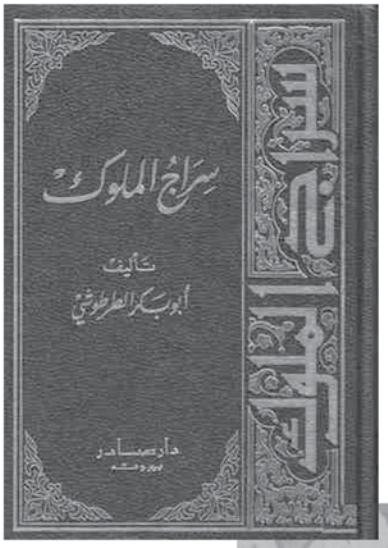

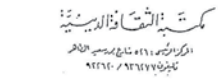

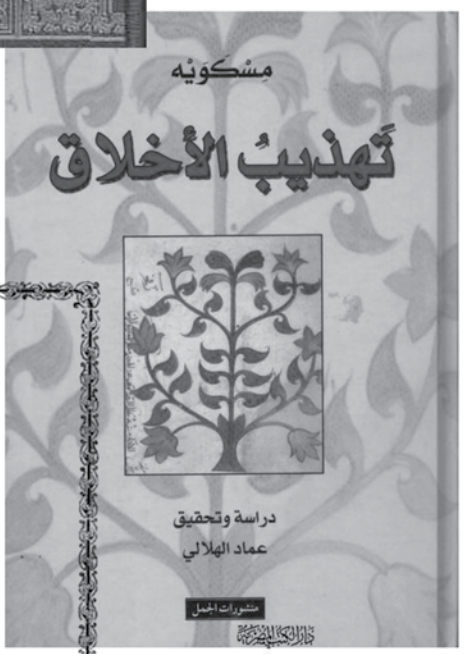

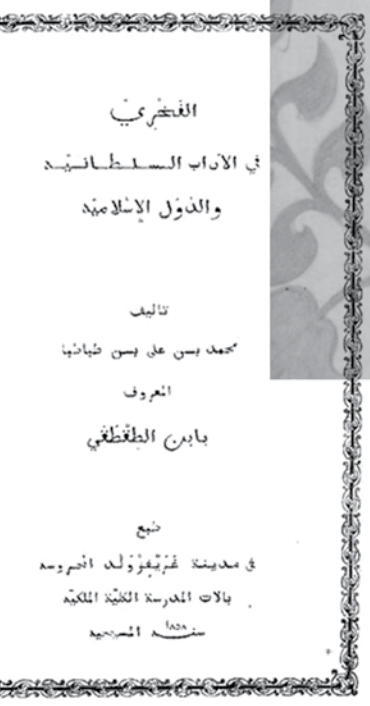

الأطروحة عن المسعودي

كان الجاحظ إذاً هو الكاتب الذي أدخلني بالفعل إلى عالم المسعودي الذي اخترته موضوعاً لأطروحتي. فالجاحظ يخيّم على تاريخ المسعودي كما يخيّم على ما لا يحصى من الأعمال الفكريّة في عصورنا المسمّاة «ذهبية» وأنا أضع كلمة «ذهبية» بين علامتَي اقتباس لأنّني لست متأكداً تماما من صحّتها، وأعني بها الفترة بين القرنين التاسع والسادس عشر للميلاد على وجه التقريب. على كل حال، من يقرأ المسعودي يلاحظ فوراً أنّ آفاق مؤلّفاته تتعدّى السرد التاريخيّ البحت لا لتشمل فقط تاريخ العالم كما عرفه معاصروه بل أيضاً العديد من العلوم المتّصلة بالتاريخ كالجغرافيا وعلوم الطبيعة والمعرفة التاريخيّة وعلم الكلام وتواريخ الأمم، القديمة منها والمعاصرة. ونجد عنده كذلك تعريفات شتى للمصطلحات المستخدمة، كالأمّة مثلاً، أو كالتجربة والنظر والعادة، الأمر الذي أدّى بابن خلدون فيما بعد إلى وصفه بـ«إمام المؤرخين» رغم انتقاده الظالم له في رأيي بأنّه ينقل «أخباراً مستحيلة». وعلى كلّ حال فإنّ الولوج إلى عالم المسعودي يعني الولوج إلى عالم شبيه بعالم الجاحظ، وذلك بسبب انفتاحه الواسع على شتى أصناف المعرفة. لذا فقد كان اختيار المسعودي موضوعاً لأطروحتي اختياراً ميموناً لأنّه فتح أمامي نافذة واسعة جداً على علوم الإسلام وحضارته في ذلك العصر.

وجدت نفسي إذاً أمام سيل جارف من المؤلّفات التي كان عليّ أن أتفحّصها بالإضافة طبعاً إلى تفحّص نصّ المسعودي حتى تكتمل الصورة أمامي. لم يكن الأمر بالسهل إطلاقاً، وكثيراً ما انتابتني حالات من اليأس يعرفها جيداً كلّ من جاهد ويجاهد في كتابة أطروحة الدكتوراه. فلمّا حلّ زمن الكتابة كنت كلّما أضع أمامي ورقة بيضاء

لأبدأ بالكتابة يبدو بياض الصفحة وكأنه انعكاس لبياض أفكاري، فتمضي الساعات بل الأيام الطوال في التأمّل وفي استقبال شلّال من الأفكار التي لا علاقة لها بما أنا فيه. لم أعد أذكر الآن ما الذي أنقذني في نهاية الأمر ممّا يُسمّى في يومنا هذا «عائق الكاتب» أو «عقبته» فلعلّه كان عدم انتظار الوحي بل الشروع في الكتابة كيفما اتفق والعودة إليها لاحقاً وبعد صفاء الذهن لتصحيحها. وها هو الجاحظ يأتي من جديد ليسعفني في هذا الموقف إذ يقول: «وينبغي لمن كتب كتاباً ألّا يكتبه إلّا على أنّ الناس كلّهم له أعداء وكلّهم عالم بالأمور، وكلّهم متفرّغ له، ثمّ لا يرضى بذلك حتى يدعَ كتابَه غُفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير فإنّ لابتداء الكتاب فتنة وعُجباً، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه فيتوقّف عند فصوله توقّفَ من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب». صدرت الأطروحة لاحقاً في كتاب بالإنكليزية، فكان أوّل كتاب لي فحضنتُه عند صدوره بحرارة لا تقلّ إلّا قليلاً عن حرارة احتضاني لأولادي. أراني لا أستطيع أن أبعد عنّي شبح الجاحظ فقد عقدْنا مع بعض الزملاء مؤتمراً دوليّاً حول الجاحظ صدر لاحقاً في كتاب عام ٢٠٠٩ عن المعهد الألماني للدراسات الشرقية في بيروت ونال قسطاً وافراً من التقدير النّقدي كما نال جائزة الكتاب العالمي من الجمهورية الإسلاميّة في إيران.

لم أجد في نصّ المسعودي ما يمكن أن نسمّيه بُعداً «شتراوسياً» أي نصاً آخر مستتراً أو مضمراً. كان المسعودي على ما بدا لي شيعياً في العقيدة، لكنّ شيعيّته لم تكن مضمرة ولا مستترة بل كانت واسعة الآفاق ومنفتحة على علوم العصر بالكامل. فهو يختار الأفضل من النظريّات والفلسفات والمذاهب الفكريّة لتفسير الظواهر التاريخيّة والعلميّة التي يتناولها في نصوصه. هذا الاستقلال الفكريّ هو الذي منح تواريخه ميزتها الكبرى لدى كافّة المذاهب والفرق الإسلاميّة رغم فقدان العديد من مؤلّفاته. ويبدو لي أنّنا عندما نتناول تاريخنا الفكريّ في هذه الأيام فإننا كثيراً ما نعمد إلى وضع المفكّرين الكلاسيكيّين في صناديق فكريّة ضيّقة، فهذا شيعيّ وهذا سنّيّ وهذا معتزليّ وهذا أشعريّ وهذا حنفيّ وهذا شافعيّ وهذا صوفيّ، وهذا متكلم وهذا فيلسوف وهذا فقيه وهذا أصوليّ وهذا إخباريّ وإلى ما هنالك من تصنيفات، ولا نأخذ بعين الاعتبار أنّ العديد منهم كانوا انتقائيّين واصطفائيّين في تفكيرهم، خصوصاً أنّ القسم الأعظم منهم كان قد نهل من معين الأدب ونظرته الموسوعيّة إلى العلوم.

وعندما أستعيد إلى الذهن ما قرأت من مؤلّفات ذات صلة بأطروحتي عن المسعودي ولا بدّ من الفصل بين ما كان منها هامّاً وما كان ثانوياً حتى لا أغرق في لجّةٍ من الكتب يحضرني اليوم من بين الكتّاب البارزين ابن قتيبة (ت. ٨٨٩ م.) وكتاب «**عيون الأخبار**» الذي أعود إليه مرّات عدّة كلّ سنة لِما فيه من حكمة وأدب وشعر وظرف وسخرية. ولعلّ المقدّمة التي خطّها لكتابه من أجرأ ما كتب عن دور الأدب في تكوين الخلق القويم والابتعاد عن التديّن المصطنع والرياء إذ يقول فيها: «فإنّ هذا الكتاب وإن لم يكن في القرآن والسنّة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام دالٌّ على معالي الأمور ، زاجر عن الدناءة، ناهٍ عن القبيح، باعث على صواب التدبير... وليس الطريق إلى الله واحداً ولا كلّ الخير مجتمعاً في تهجّد الليل وسرد الصيام... بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة وصلاح الدين بصلاح الزمان... وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين، وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنّك الخشوع أو التخاشع على أنْ تصعّر خدّك وتعرّض بوجهك، فإنّ أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنّما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب».

ثمّ يستشهد ببعض الأقوال التي جاءت على لسان الرسول الكريم وأبي بكر وعليّ وفيها ذكْر للعورة لكي يُثبت أنّ هذا الأمر يجري «على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجيّة والرغبة بها عن لِبسة الرياء والتصنّع». هذا الدفاع عمّا قد نسمّيه «الأدب المتحرّر من الأعراف» مهّد الطريق أمام العديد من المجموعات الأدبيّة التي تبعتْه وإنْ لم تكن جميعها على نفس المقدار من الجرأة والابتعاد عن التصنّع. ولا ريب عندي في أنّ طيف الجاحظ يحوم حول ابن قتيبة و«عيونه» رغم انتقاده للجاحظ، فهو تلميذ الجاحظ، شاء أم أبى، ويدين له بالكثير، لا سيّما بالجرأة في التعبير والأسلوب وفي تحرّر الفكر ومكانة الأدب المحوريّة بين العلوم.

تُرى ما الذي يجعل من هذه الأعمال الأدبيّة صروحاً تبقى وتدوم على مرّ الزمن؟ لماذا نعود إلى الجاحظ وابن قتيبة والمسعودي وابن خلدون وغيرهم مراراً وتكراراً، ونكتشف عند كل قراءة متجدّدة أموراً لم نلحظها من قبل؟ قد أعود إلى هذا الموضوع لاحقاً وقد لا أعود، لكنّني أرى في هذه الأعمال الكلاسيكيّة ميزة مشتركة هي ميزة تخطّي الحدود مع ما يواكب ذلك من نبذٍ للتقليد وتحدٍ للتقاليد واستنطاقٍ للمحظورات بهدف الإبقاء على

الأبواب مفتوحة أمام كافّة الأسئلة، فليس من سؤال له جواب نهائيّ. هذا هو المغزى من وراء مثال جناح البعوضة عند الجاحظ والطرق الكثيرة إلى الله عند ابن قتيبة، وهذه المزايا على ما أعتقد هي التي تميّز تلك الأعمال الأدبيّة الخالدة المعذرة من القارئ على هذا الاستطراد.

اليعقوبي، المقدسي، مسكويه والطبري

اليعقوبي (ت. حوالي **٨٩٧** م.)، المطهّر ابن طاهر المقدسي (كتب حوالي **٩٦٦** م.)، مسكويه (ت. **١٠٣٠** م.): ثلاثة من أبرز مؤرّخي ذاك العصر اللامع. قرأت أعمالهم بتمعّن في تلك الآونة وأعود إليهم كلّما تسنح الفرصة أو يقودني البحث. لم نعد نملك مقدّمة اليعقوبي لتاريخه فقد أطاحت بها يد الزمان مع ما أطاحت من أعمال، لكنّه كان أوّل من التفت من المؤرخين إلى تاريخ العالم الثقافي قبل مجيء الإسلام، وذلك بشكل مفصّل ودقيق. كما أنّ لليعقوبي اهتماماً عميقاً بعلوم عصره الطبيعيّة ومنها مثلاً علم أحكام النجوم والطب والجغرافيا «وله طبعاً كتاب شهير في الجغرافيا» وغيرها من العلوم نستبينها في ثنايا تاريخه. وله أيضاً رسالة موجزة بعنوان «**مشاكلة الناس لزمانهم**» يفصّل فيها بالأمثلة التاريخيّة المتعدّدة كيف أنّ المسلمين في كلّ عصر «تبع للخليفة يسلكون سبيله ويذهبون مذاهبه ويعملون على قدر ما يرون منه ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله». وهو كأنّه يرمي إلى توضيح المثل السائر أنّ «الناس على دين ملوكهم».

أرى في هذه الأعمال الكلاسيكية ميزة مشتركة هي ميزة تخطي الحدود مع ما يواكب ذلك من نبذ للتقليد وتحد للتقاليد واستنطاق للمحظورات بهدف الإبقاء على الأبواب مفتوحة أمام كافة الأسئلة. فليس من سؤال له جواب نهائي.

يبدأ تاريخ اليعقوبي في الجنّة مع آدم وحواء، وينقل فيه ما جاء عن أهل الكتاب بشكل ينمّ عن معرفة حميميّة بكتب العهد القديم والإسرائيليّات عموماً، ومن ثمّ بكتب العهد الجديد والأناجيل الأربعة. وينتقل بعد ذلك ليسرد تواريخ الأمم الأخرى، كملوك بابل والهند واليونان والفرس والصين ومصر القديمة واليمن مع التركيز على ثقافاتهم وأحكامهم وشرائعهم وعلومهم المختلفة، كالجغرافيا والطب والنجوم وآراء مشاهير علمائهم، ويفصّل ما جاء في كتبهم فكأنّه أرشيفٌ كامل لعلوم العالم القديم ومقولاته. ويأتي في نهاية الجزء الأوّل إلى عرب الجزيرة فيفصّل دياناتهم وثقافتهم وشعراءهم كمقدّمة لتاريخ الإسلام. وحين يصل اليعقوبي إلى فجر الإسلام ومولد الرسول وسيرته ثمّ سِيَر الخلفاء فيما بعد، نجد أنّه يعتمد بشكل أساسي على لائحة من المؤرخين يذكر أسماءهم في البدء وكأنّه مؤرّخ أكاديميّ معاصر، ويذكر أنّ غايته هي «جمع المقالات والروايات» في كتاب مختصر. ولعلّ ما يميّز تاريخه هو الاستعانة المستمرّة بالمنجّمين كأمثال ما شاء الله والخوارزمي لتحديد الطوالع والقرانات عند حدوث الأمور العظام. كما أنّ ميوله الشيعيّة واضحة تماماً. من هنا فإن اهتماماته الثقافيّة والعلميّة كما وتشيّعَه تجعله المؤرّخ الأقرب فكراً وأسلوباً إلى المسعودي. كلاهما ينتمي إلى ما قد نسمّيه المدرسة الأدبيّة في كتابة التاريخ التي تتميّز بحذف الأسانيد وبالاهتمام الواسع بالتاريخ الثقافي.

أما المطهّر ابن طاهر الذي لا نعرف عنه ولا عن حياته شيئاً، فكتابه بعنوان «**البدء والتاريخ**» هو من أعجب ما كُتب في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) بل من كلّ ما كُتب حول التاريخ وصولاً إلى ابن خلدون. فهو تاريخٌ له برنامج فكريّ محدّد يفصّله في مقدمة طويلة جداً لها منحى فلسفيّ وكلامي واضح وتنتمي بدون أدنى شكّ للفكر المعتزليّ. وهذا بحدّ ذاته أمر مثير للاستغراب إذ نحن لا نعلم أنّ للمعتزلة كبير اهتمام بالتاريخ بل إنّ البعض منهم كالنظّام كان يشكّك ببعض المبادئ الأساسية في علم الحديث كالتواتر مثلاً، أي الأخبار التي ينقلها الجمهور الغفير عبر الزمن ويعتبرها أهل الحديث صحيحة بالضرورة. أمّا صديقنا الجاحظ فهو يرى أنّ الأمم المتحضّرة لا تنزلق نحو السخف إلّا حين تعتنق الدين الذي هو التقليد بعينه وحين تُغلّب العصبيّة على التعقّل، فهو يحذّر على الدوام من قبول الأخبار العجائبيّة أو المنافية للطبيعة. والمطهّر يصوّب سهامه الفكريّة في عدّة اتجاهات معاً. فهو يرمي إلى إثبات أنّ العالم حادث وليس أزليّاً (من هنا كلمة البدء في عنوانه) أي إنّ سهامه تصيب الفلاسفة الدهريّين كأبي بكر الرازي وغيره، لكنّه يحيل القارئ على كتب الرازي في الخواصّ الطبيعية إذا أراد ترسيخ علمه في الطبيعيّات. ويصوّب سهامه نحو الأشاعرة وأصحاب الحديث والقُصّاص وغيرهم ممّن كانوا يتقبّلون الحوادث الخارقة للطبيعة والمعجزات، إذ يرى أنّ ذلك من شأنه

أن يفسح المجال للطاعنين في المعتقدات الدينيّة فيضع حدوداً صارمة لتقبّل المعجزات. من هنا فإن واجب المؤرّخ هو الدفاع عن الدين ضدّ الملحدين والفسّاق والباطنية، وعلم الكلام المعتزلي هو الدرع الواقي ضدّ هجمات الهراطقة. على المؤرخ إذاً أن يكتب التاريخ بدقّة المتكلّم ومنطقه.

لم يحظ المقدسي بالاهتمام الذي يستحقّه، لا في الماضي ولا في الحاضر. حتى إن كتابه الذي حققه مستشرق فرنسي في أوائل القرن العشرين مليء بالأخطاء. فقد أشار عليّ في الماضي الدكتور إحسان عبّاس، رحمه الله، أن أتصدّى لتحقيقه من جديد استناداً إلى مخطوطة في إسطنبول. وحصلت على تلك المخطوطة وبدأت العمل لكن الشواغل منعتني من إتمامه، وأنا عازم اليوم على تقديم ما أملك من أوراق إلى أحد الباحثين الشباب لإكمال ما بدأت به. فالمقدسي حقاً من أعمق مؤرّخي العرب والمسلمين ولا يجوز أن يبقى كتابه بدون تحقيق علميّ.

آما مسكويه فحياته معروفة بتفاصيلها، إذ كان من كبار كُتّاب الدولة البويهية (القرنين العاشر والحادي عشر م.) وعاصر العديد من أحداثها، ممّا أضفى مزيّة عظمى على تاريخه. وكان أيضاً فيلسوفاً رغم أنّ الفلاسفة في عصره وفي اللاحق من الزمن لم يعتبروه فيلسوفاً بل متفلسفاً. لن أناقش هذا الأمر رغم أن كتابه «**تهذيب الأخلاق**» فيه بعض الأفكار الأصيلة. ما يهمّني هنا هو كتابه في التاريخ بعنوان «**تجارب الأمم**». لهذا الكتاب مزيّة بارزة لكونه تاريخاً مفصّلاً لزمانه ولأحداث شاهدها بنفسه وحاول جاهداً أن يستخلص عِبَرها خدمةً لأصحاب الدول وذوي السلطان. إنه تاريخ سياسيّ بامتياز يذكّرنا في مراميه العليا، وإن لم يكن في مضمونه وأسلوبه، بكتاب «**الأمير**» لمكيافيللي. المراد هو استصفاء العبر السياسية من التاريخ دون الالتفات إلى أي شيء آخر.

يزخر كتاب «**تجارب الأمم**» بوقائع تاريخيّة يُشار إليها بعناوين فرعية كالآتي: خدعة، دهاء، رأي سديد، حزم، حيلة، مكر، مكيدة، اتفاق حسن، وحشة، سياسة وغيرها. ويتبع كل حادثة تاريخية فصل بعنوان «السبب في ذلك» أي التنبيه إلى سبب النجاح أو الفشل في عمل سياسي أو عسكري ما.

عماد الأمر في كل ذلك على ما يسمّيه مسكويه «التدبير» أي تدبير أمور الدولة العامّة والقدرة على استباق الأزمات وعلى استحضار ما يلزم من الموارد للتعامل معها. ومن أهّم مكوّنات التدبير في رأيه القدرة على حسن إدارة الموارد المالية، إذ كثيراً ما يؤدّي سوء تلك الإدارة إلى انهيار الدول. ومن أهمّ مكوّناته أيضاً التدبير الحربي وأهمّية الاستعداد للحروب وما يتبع ذلك من نظام ينظّم عمل العيون والجواسيس، فالدهاء هو ضرورة قصوى في التصدي للعدوّ، والصبر والنفَس الطويل ضروريّان لإنهاك العدوّ. لذا فإن حسْن التدبير يتطلّب الاهتمام اليوميّ المستمرّ والإشراف الدائم على المصالح والموارد وسير الأمور العامّة. ولقارئ مسكويه أن يستنتج أن السياسة لا تجري في مجرى الأخلاق، وأنّ التاريخ لا يكشف عن فائدته إلّا إذا عصرناه عصراً لكي نستبين منه كيف تُبنى الدول وكيف تنهار. هنا أيضاً نلمح ما يجمع مسكويه بمكيافيللي. فهو يقول لنا إنه نبَذ من كتابه كلّ ما له علاقة بتواريخ الأنبياء إذ ليس فيها أيّة فائدة قد تفيد الزمن الحاضر، فتلك التواريخ تزخر بالمعجزات وبالنصر الإلهيّ ولا تتضمّن من التجارب ما قد يفيد الحاكم أو السلطان في يومه الراهن. وهذا بحدّ ذاته رأي جريء للغاية، إذ كيف يجرؤ مفكّر من أهل الإسلام على أن يقول لنا إنّ سيرة الرسول لا تتضمّن أيّة فوائد دنيوية؟

تملّكني الإعجاب بهذه النصوص التاريخية وغيرها الكثير كالطبري (ت. ٩٢٣ م.) مثلاً الذي يرى أنّ المعرفة التاريخيّة لا تأتي إلّا من «أخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس»، فهو ينقل بأمانة تامّة كلّ ما وصل إليه من أخبار، ويسمّي الناقلين على اختلاف مشاربهم، ولا يتدخّل في تمحيصها إلّا في النادر، فنحن حينما نقرأ الطبري فكأنما نقرأ هوامش كتاب تاريخي ما وليس نصّه. وحين أنجزت أطروحتي عن المسعودي، علمت في قرارة نفسي أنّ الكتابة التاريخية هي محور اهتماماتي العلمية، وأنّ النهاية لا تتمّ إلّا حين أنجزُ كتاباً شاملاً في هذا الموضوع. وحالفني الحظ فنشرت ذاك الكتاب الشامل بعد كتاب المسعودي بعشرين عاماً، وعنوانه في ترجمته العربية «**فكرة التاريخ عند العرب: من الكتاب إلى المقدّمة**».

ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم خمد اهتمامي بالموضوع وطفقت أجري في حقول جديدة وأدبية متعدّدة. فأصبحت كلما أنجزُ كتاباً أو مقالاً يزول اهتمامي به على الفور ولسان حالي معه «رافقتك السلامة، يا عزيزي، ولا ردّك الله».

السلطة والخطاب بين «الديني» و«السياسي»
«سطوة النص» لبسمة عبد العزيز

ضياء الدين محمد

باحث وجامعي، مصر.

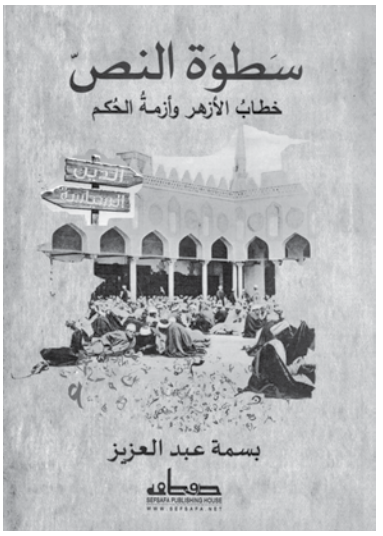

سطوة النص: خطاب الأزهر وأزمة الحكم
بسمة عبد العزيز
صفصافة للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى، ٢٠١٦

لم تكن العلاقة بين المؤسسة الدينية ومؤسسة الحكم في مصر ذات طابع ثابت طوال الوقت، بل كانت تمرّ بمنعطفات وتعرجات يفرضها السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي دائم التغير، والذي يحيط بالمؤسستين ويفرض عليهما التفاعل معه بأشكال مختلفة. ولعل ذلك السياق قد بلغ في فترة زمنية بعينها ذروة من التعقّد والتأزم في الفترة من يونيو/ حزيران إلى أغسطس/آب ٢٠١٣، حيث عاشت مصر أزمة حكم حادّة، فرضت على جميع الأطراف الفاعلة في المجتمع التدخل (أو التورّط) في الأزمة. وكتاب «سطوة النص» يدرس تلك الفترة في تجلياتها الخطابية من خلال دراسة خطاب الأزهر إبّان أزمة الحكم في مصر.

ودراسة خطاب مؤسسةٍ ما إبان أزمة تكشف عن أشياء عديدة، منها: اختبار الأداء الخطابي للمؤسسة وقدرتها على توظيف الخطاب في التعامل مع الأزمة، والعلاقات المتشابكة للمؤسسة مع أطراف الأزمة، ومَواطن التأثير والتأثر وتبادل الأدوار والصراعات الخطابية التي تخوضها المؤسسة في ساحة الصراع الخطابي، كما تمثل دراسة خطاب المؤسسة في الأزمة فرصة للكشف عن التحيّزات الخطابية وأفعال الإقصاء والتهميش التي يمكن أن يمارسها الخطاب أو تمارس عليه.

وترجع أهمية كتاب «سطوة النص» إلى كونه محاولة للنزول بالمعرفة الأكاديمية إلى الواقع المعيش بغية فهمه، خصوصاً إذا كان ذلك الواقع يمثّل فترة كان الصراع، بكل مستوياته، عنوانها، ابتداءً من الصراع اللفظي، انتهاءً إلى الصراع الدموي العنيف، بالإضافة إلى كونها فترة راهنة يعيش المجتمع المصري تداعياتها وأصداءها حتى الآن.

اعتمدت الكاتبة في كتابها على أدوات منهجية تنتمي إلى التحليل النقدي للخطاب. وبدت الأدوات مناسبة إلى حد كبير لأسئلة الكتاب من جهة، ولطبيعة المادة المدروسة من جهة أخرى، وللاحتياجات المعرفية للواقع من جهة ثالثة. والكتاب بذلك يعدّ بحثاً تطبيقياً نموذجياً في تحليل الخطاب، يصلح كمثال أكاديمي يُحتذى من حيث الاستيعاب النظري، والتتبع المتأنّي للظواهر، ودقّة التحليلات، كما يعدّ مثالاً يحتذى في اشتباكه مع الواقع الاجتماعي المصري الذي كُتب فيه وعنه.

ويظهر في الكتاب فهم عميق للتحليل النقدي للخطاب، سواء على مستوى المفاهيم النظرية، أو على مستوى الأدوات المنهجية والإجراءات. «ويشير مصطلح الخطاب في الكتاب، وتبعاً لمدرسة التحليل النقدي للخطاب، إلى شكل من أشكال الممارسة الاجتماعية، تُستخدم فيه اللغة بنوعيها المقروء والمكتوب، حيث تتولّد علاقة جدلية بين حدث خطابي معيّن من ناحية، والمواقف والمؤسسات والهياكل الاجتماعية التي تعدّ إطاراً له من ناحية أخرى، وحيث يتشكل الحدث الخطابي من خلالها ويسهم أيضاً في تشكيلها»[1].

التحليل النقدي للخطاب: مفهومه وغايته في واقعنا المصري يتعرّض المواطن، كغيره في كافة المجتمعات، إلى العديد من الخطابات في حياته اليومية. وتزداد الخطابات كثافة في أوقات الأزمات. ولا نستطيع الجزم ببراءة الخطابات من أغراض الهيمنة على وعي متلقّيها، لاسيما إذا كان منتج الخطاب من حائزي السلطة أو ممّن يسعون إلى حيازتها، وخصوصاً إذا كان سياق إنتاج الخطاب وتداوله سياق أزمة يبلغ فيها الاستقطاب بين الأطراف ذروته.

ما يسعى «سطوة النص» إلى إنجازه هو المساهمة في الحدّ من تأثيرات الهيمنة التي تسعى الخطابات إلى فرضها على المتلقّي. وذلك من خلال استخدام أدوات منهجيّة ناجزة تنتمي إلى حقل التحليل النقدي للخطاب، وتعتمد في الأساس على التحليل التفصيلي للظواهر اللغوية، استناداً إلى مسلّمة مفادها أنّ اللغة بإمكانها، إذا استُعملت على نحو معيّن، أن تكون أداة للسيطرة. إنّ التحليل النقدي للخطاب بهذا المفهوم ينتمي إلى دائرة العلوم النقدية التي أشار إليها عالم الاجتماع الألماني يورغن هابرماس، والتي تأتي في الترتيب الثالث بعد العلوم الطبيعية والعلوم التأويلية؛ «وكل تلك العلوم هي نتاج اهتمامات معرفية مشتركة لدى جميع البشر. الاهتمام الأول تقنيّ فنيّ يتمثّل في معرفة البيئة المحيطة وفي السيطرة عليها والتحكّم فيها. وقد أدّى هذا الاهتمام إلى قيام العلوم الطبيعية. والاهتمام الثاني عمليّ يتمثل في قدرة كلّ منّا على فهم الآخرين، وعلى العمل المشترك والتعاون في مناشط الحياة. وهذا هو الاهتمام المسؤول عن قيام العلوم التأويلية. أمّا الاهتمام الثالث فهو اهتمام تحرّري ينطوي على الرغبة في تخليص أنفسنا من كلّ ما يعمل على تشويه عمليّات الاتصال والفهم. وهو الاهتمام المسؤول عن قيام العلوم النقدية»[2].

ولقد ظهر التحليل النقديّ للخطاب (critical discourse analysis) منذ تسعينيات القرن العشرين بوصفه توجّهاً جديداً في تحليل الخطاب في الأوساط الأكاديميّة في أوروبا الغربية. ومع نهاية القرن كان يمثّل أحد أكثر توجّهات تحليل الخطاب استقطاباً للباحثين. «ويحدّد فان دايك (أحد مؤسسي التحليل النقدي للخطاب) موضوع التحليل النقدي للخطاب بأنّه دراسة الكيفيّة التي يقوم بها النصّ والكلام بتقنين وإنتاج ومقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولا مساواتها. وأنّ المحلّل النقديّ للخطاب يسعى إلى فهم اللامساواة الاجتماعية والكشف عنها تمهيداً لمقاومتها. ومن ثَمّ فإنّ التحليل النقديّ للخطاب له توجّه عامّ يستهدف توعية البشر بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والبُنى الاجتماعيّة، تلك التأثيرات التي لا يعيها البشر غالباً.

ويقدّم نورمان فايركلوف تفصيلاً أكبر لأهداف التحليل النقدي للخطاب. ففي مقدّمة كتابه التأسيسي «**اللغة والسلطة**» الصادر في **١٩٨٩**، يحدّد أهداف الكتاب في هدفين: الأوّل هو المساعدة في تصحيح التبخيس الشائع لأهمية اللغة في إنتاج علاقات السلطة وترسيخها. أمّا الثاني فهو المساعدة في زيادة الوعي بالكيفية التي تسهم بها اللغة في إنجاز هيمنة بعض البشر على بعض، لأن الوعي هو الخطوة الأولى نحو التحرّر. هذا الوعي يُمكّن من مساعدة البشر على إدراك المدى الذي تعتمد فيه لغتهم على الخاصة على المسلّمات الشائعة، والطرائق التي يمكن لعلاقات السلطة أن تشكل بواسطتها هذه المسلمات الشائعة. ويرى فايركلوف أنّ الوعي الذي يحقّقه الاطّلاع على نماذج من استخدام اللغة أداة للقهر والهيمنة يمكن أن يكون حافزاً على المقاومة والتغيير... ويتحقّق الوعي عن طريق التحليل النقدي للظواهر اللغوية والسيميوطيقية للخطاب، مثل المفردات والنحو والعلاقات النصية واللون والصورة... إلخ[3].

«الديني» و«السياسي» في براح التاريخ

يمكن اعتبار كتاب «**سطوة النص**» دراسة لعلاقات التفاعل الخطابيّة بين كيانات حائزة للسلطة أو تسعى لحيازتها. ويمكن تمييز كيانين رئيسيين من بين هذه الكيانات هما: الأزهر،

١ **بسمة عبد العزيز، سطوة النص: خطاب الأزهر وأزمة الحكم**، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، القاهرة (٢٠١٥) ص ٤٢.

٢ عماد عبد اللطيف، «بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته»، ضمن *«power and role of the intellectual»* تحرير: سلوى عبد العزيز كامل. منشورات قسم اللغة الإنكليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة (٢٠٠٦) ص ٣٢.

٣ عماد عبد اللطيف، «من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي»، **مجلة ثقافات**، كلية الآداب بجامعة البحرين، ٢٠٠٩، ص ٦٩، ٧٠.

المؤسسة الدينية الرسمية صاحبة سلطة التمثيل الديني، والتي لديها أيضاً سلطة توجيه اجتماعيّ، ومؤسسة الحكم، صاحبة السلطة الفعليّة في الدولة على اختلاف ممثليها من مرحلة إلى أخرى في نطاق الفترة الزمنية المدروسة.

وفي خطوة ضرورية قامت الكاتبة بتأسيس السياق العام المحيط بالخطاب المدروس، حيث «لا يمكن تجاهل الأثر المتراكم للظرف السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ على مُنتِج الخطاب، ولا يمكن النظر إلى النصوص بمعزل عن الظروف التي مهّدت لها، والمعطيات التي تفاعلت معها، وأسهمت في تشكيلها، وأدّت إلى إخراجها على النحو الذي وصلت فيه إلى المتلقّي»[٤]. ورغم اهتمام الكتاب بالراهن، إلّا أن الوعي بتاريخية العلاقة بين المؤسسة الدينية ومؤسسة الحكم كان متوفراً، وكان طابع تلك العلاقة التاريخية هو التقارب في أغلب الأحيان، ذلك التقارب الذي – بعبارة الكاتبة – يجد لنفسه «براحاً عبر التاريخ». وإلى جانب الإشارات عن العلاقة التاريخية بين الأزهر ومؤسسة الحكم في مصر، بإمكاننا الذهاب في تتبع علاقة الدين بالحكم إلى أبعد من ذلك، منذ أدرك رجل الحكم (صاحب السلطة الفعلية) حيازة رجل الدين سلطةً مناوئةً له، لكنّها من نوع آخر، وهي السلطة المعرفيّة الدينيّة. ولم يكن من الممكن ألّا تتقاطع السلطتان وكلتاهما تستهدف الفضاء السلطوي ذاته، وهو الجماهير.

أدرك رجل السلطة أنّ ثمّة مُنازعاً ينازعه سلطته (في سيطرته على الجماهير) ويمنعها من الاكتمال، فكان الحلّ في اجتذاب تلك السلطة (المعرفيّة) إلى مجال السلطة السياسيّة وإدماجها فيه، بل وجعلها غطاءً أيديولوجيّاً لها، تضفي عليها الشرعيّة والصدقيّة. غير أنّ مهمّة السلطة السياسية لم تكن سهلة في ظلّ وعي رجل الدين بسلطته المعرفيّة وعدم موافقته على التخلّي عنها لصالح سلطة أخرى. فالمحكّ في النهاية هو الجماهير، هم مانحو السلطة ومصدر شرعيتها. من هنا ظهر في التاريخ الإسلامي اتجاهان أو طائفتان من رجال الدين (أو علماء الدين): طائفة استجابت لنداءات رجلِ السلطة وإغراءاته وصارت تمثّل دعماً له يُضفي على حكمه الشرعية والقبول لدى الجماهير في مقابل العطايا وبذل المال والتقريب في المجالس الخاصة ومناصب القضاء، (وكلّها إمّا كانت إغراءات للاستمالة أو مكافآت على الولاء) وطائفة أخرى تأبى التخلّي عن سلطتها المعرفيّة وتقف في مواجهة السلطة أو تفضّل أن تكون بمعزل عنها.

ويذكر التاريخ محاولات عديدة من الحكام لاستمالة العلماء، منذ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان والتابعي الشهير سعيد بن المسيّب «الذي تمثّل في رفض ابن المسيب مصاهرة الخليفة عبد الملك بن مروان الذي رغب في أن يزوّج وليّ عهده من ابنة ابن المسيّب مستغلّاً في ذلك مكانة هذا الأخير ونفوذه «العلمي» بين الناس، خصوصاً في مجتمع المدينة. فأبى ابن المسيّب هذا الجاه، بل وأسرع من يومه إلى تزويج ابنته لأحد تلامذته الفقراء، فحنق عليه الخليفة. وقد بلغ الأمر بالفقيه أن صار يستعيذ بالله من هذا الاستغلال مفاضلاً بين سلطته المعرفيّة وبين صولة صاحب السلطة الفعليّة والسياسيّة. وقد نجم عن ذلك الموقف الممتدّ عبر التاريخ أدبيّات خُصّصت للحديث عن محَن العلماء في رفضهم الرضوخ لأصحاب السلطان مثل «كتاب المحن» لأبي العرب التميمي، وكذلك الحديث عن العلماء الذين رفضوا تولّي منصب القضاء مخافة أن يتحوّلوا إلى أدوات في يد السلطة الحاكمة، مما جعل أبو عبد الله الخشني القيرواني يخصّص باباً في كتابه «قضاة قرطبة» عنوانه: «باب من عرض عليه القضاء فأبى». وكان من العلماء من يستعيذ بالله من «مذهب لا ينتصر إلّا بصولة، إنما المذهب ما نصره دليله، والدّيّن من خلص الدلالة من الدولة»[٥].

ولعل العبارة الأخيرة، المنسوبة لابن عقيل الحنبلي، تُكثّف طبيعة العلاقة بين السلطة الدينية (صاحبة الدلالة) والسلطة السياسيّة (صاحبة الدولة). فالسلطة السياسيّة تريد حيازة «الدلالة» لتُكسِبها الشرعية والقبول لدى الجماهير، غير أنّ كثيراً من رجال الدين الواعين بسلطتهم المعرفية دافعوا عن «الدلالة» ضدّ «الدولة»، وآخرين قبلوا الصفقة وجعلوا «الدلالة» في خدمة «الدولة» داعمة لها، ما عرّض أولئك المتعاونين مع السلطة إلى هجوم شديد وتشكيك في نزاهتهم العلميّة والدينيّة من قِبل العلماء الرافضين، وظهرت عبارات «علماء السلطان» و«فقهاء السلطان»، بل وصل الأمر إلى ما يمكن أن يكون «مقاطعة علمية» لأولئك العلماء، فلم يكن رواة الحديث يأخذون برواية أبي يوسف القاضي، من أصحاب أبي حنيفة، وذلك «لغلبة الرأي عليه مع صحبة السلطان، وتولّيه القضاء».

واستمر الاتجاهان (الرافض

٤ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ٥١.

٥ عبد المجيد الصغير، **المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية: قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (٢٠١٠) ص ٢١٠، ٢١١.

والمتعاون) في التواجد عبر التاريخ حتى اللحظة الراهنة. ذلك الاستمرار، بجذوره التاريخيّة، هو ما جعل الكثيرين يصنّفون مؤسسة الأزهر ضمن «علماء السلطان»، بل ويدفع في اتجاه إقامة مؤسسات دينية مناوئة تعلن في بياناتها الافتتاحية أن الدافع من وراء إنشائها خلْق جبهة علمية حرّة لا تخضع لإملاءات سياسية، وأبرز مثال على ذلك مؤسسة «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين»[٦].

سؤال الهويّة في زمن الأزمة

استقرّت العلاقة بين الأزهر والدولة على أن يكون ثمّة تقاسم للسلطة بينهما، فللدولة سلطة التمثيل السياسي والحكم، وللأزهر سلطة التمثيل الديني، وترسيخه باعتباره المرجعية الدينية، والممثّل الشرعيّ والوحيد لدين الدولة. عكست تلك القسمة إدراك مؤسسة الحكم قوّة الأزهر كمؤسسة دينية لديها سلطة التوجيه الاجتماعي المستمدّة من الدين، كما عكس إدراك الأزهر ضرورة احتياجه إلى مؤسسة الحكم لتضمن بقاءه في سدّة التمثيل الديني بلا منازع. وفي عمق المؤسستين بنية ذهنية تنبني على السلطة الأبوية، تلك البنية التي تعرّضت لاهتزاز عنيف في مطلع عام ٢٠١١ مع الحراك الثوري، الذي وضع مُنتجي الخِطاب الدينيّ (الأزهري) شبه الجامد في حال مِن الارتباك، وقد انعكست تلك الحال على ما أُنتِجَ مِن نصوص، ولأن الخطابَ الدينيّ هو الأكثر تأثراً بفكرةِ السُلطةِ الأبويّة التي يجب أن تحظى بالطاعةَ والاحترامِ والتقدير، ولأن المؤسسة الدينيّة تمثّل في حَدّ ذاتها أحد وجوه السُلطة الأبويّة، ولأن علاقات السُلطة لا تُشجّع بطبيعة الحال مِثلَ هذا الحِراك، فقد استجابت له المؤسسة الدينيّة بالرفض في البداية، ثم بالقبول الاضطراريّ وعلى استحياء، ثم بالارتداد ومُعاوَدة الرفض مع كلِّ هزّة جديدة. لقد بدا في فترة مِن الفترات أنّ حماسة الجماهير يُقابلها تَمسُّك المؤسسة الدينيّة بما دَرَجَت عليه مِن تبجيل لأوجه السُلطة، وربما باتت خائفة مِن ثورة مُتَجَدِّدَة قد تعني انهيار سلطتها الاجتماعية تمامًا[٧].

باتت المؤسسة الدينية في حاجة إلى استنفار قدراتها الخطابية لمواجهة التغيّرات المتلاحقة بعد عقود من الركود. وكانت الأزمة الجوهرية وراء كل التغيرات هي الحكم، والحكم يستدعي بالضرورة، كما يتطلّب، الحديث عن الشرعية، والشرعية مفهوم ينتقل متسرباً من الدين إلى السياسة وينجم عن تحققاته الواقعية آثار اجتماعية فارقة. عادت ثنائية «الدولة والدلالة» لتصبح هي عمق أزمة الحكم في علاقتها بمؤسسة الأزهر. والسؤال الآن: كيف تمّت صياغة خطاب الأزهر إبان الأزمة؟ وكيف تمّ استخدام اللغة لتحقيق أغراض الخطاب ووظائفه؟ وكيف تفاعلت الخطابات المتصارعة على ساح الصراع الخطابي في الأزمة؟

ثمّة تساؤل لافت يطرحه كتاب «سطوة النص» عن هوية المتحدّث في خطاب الأزهر، هل هو شخص شيخ الأزهر، أم الأزهر كمؤسسة؟ وهو ما سيترتب عليه حسابات كثير من المواقف، خصوصاً في أوقات الأزمات. هل يُحسب هذا الموقف أو ذاك على شيخ الأزهر (بصفته وشخصه) أم على المؤسسة كلّها بما تمثّله من ثقل رمزيّ لدى الجماهير؟

يكشف تحليل خطاب الأزهر أنّ العلاقة بين الشيخ والمشيخة لم تسر على منوال واحد، بل إن الهويّتين كانتا تنفصلان وتتّصلان وفق مواقف خطابيّة عديدة، فقد كان التماهي بين الهويات سمة خطابية بارزة في خطاب الأزهر، كما ظهر الفصل بين الهويات كسمة أخرى مضادة. وقد تتبعت الكاتبة الآليات اللغوية المستخدمة في صنع ذلك التماهي، وقدّمت تحليلات وتفسيرات لا يعوزها الإقناع في الغرض من وراء ذلك التماهي، فآليات مثل الاستعارة وإعادة بناء السياق، واستخدام الضمائر والتسميات والتورية والحذف والتعريف والتنكير والأفعال والأساليب وغيرها أدّت وظائف بلاغيّة بالغة التأثير تصبّ في تحقيق أغراض الخطاب، والتي كان جزء كبير منها هو إنشاء الهوية.

وإنشاء الهوية خطوة تأسيسيّة ضرورية لممارسة السلطة، فالهوية هي «من أكون؟» والسلطة هي «ماذا من حقي أن أفعل؟». ولعلّ غرض إنشاء الهوية بما ينطوي عليه من تثبيت لهوية قائمة وتمييز للهوية عن هويات أخرى، يعدّ غرضاً منطقياً جداً في وقت عنوانه الأزمة، فالأزمة تُخلخل الهوية، كما تهدّد الوجود. وقد مثّل إنشاء الهوية دفاعاً خطابياً ضرورياً من أجل الدفاع عن الوجود.

دمج الهويات: تنازع أم استيعاب؟

أداة الخطاب هي اللغة، وهي مجلى ممارساته، وتساهم اللغة بشكل كبير في إكساب الخطاب هويته، وخطاب المؤسسة يمثّل هويتها. ويستثمر الخطاب ذخيرة لغوية تراكمت مع الوقت وصنعت مجالاً لغوياً خطابياً يحدّد هوية الخطاب ويميّزه عن غيره. ورغم وضوح الهوية الخطابية

٦ انظر صفحة التعريف على الموقع الإلكتروني الرسمي للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين: http://iumsonline.org/ar/aboutar/ltaaryf/

٧ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ٢٠٩.

لمؤسسة الأزهر، وهي الهويّة الدينيّة، فإنّ خطاب الأزهر إبان أزمة الحكم دخل في علاقات تفاعليّة مع غيره من الخطابات كالخطابات السياسيّة والقوميّة والحقوقيّة. وفي الكتاب تتبّع دقيق لتداخل الخطابات، الذي يعكس بدوره تداخل الهويات، ممّا جعل هويّة الأزهر متعدّدة الأوجه. فلقد ظهر من خلال تحليل مُقتطفات الخطب والبيانات مَحَلّ الدراسة أنّ ثمّة أدواراً متنوّعة أدّتها المؤسّسة الدينيّة في فترة قصيرة، تراوحت ما بين دور اللاعب السياسيّ، ودور المرجعيّة الدينيّة، وكذلك دور القائد القوميّ، والأخير يمثل دوراً لافتاً للانتباه كونه يأتي مُتجاوزاً للانتماء الدينيّ، وهو انتماء أصيل استحال في بعض المرّات تجاوزُه. طَرَحَت هذه الأدوار وجود هُويات ثلاث مُتمايزة، أمكن البحث عنها وتتبُّعها عبر الخطاب، واستخلاص الشواهد الدالّة عليها، والأدوات التي أسهمت في بلورتها وتأكيدها، وقد لاحظت أن الإشارات الزمنية على سبيل المثال، لعبت دوراً بارزاً في إنشاء هُوية اللاعب السياسيّ، بينما جاءت الإشارات الجامعة وإشارات الوطن لتعكس مُحاولة إنشاء وإرساء هُوية قومية صريحة، فيما أبرزت بعض الحُجَج وطريقة استخدام أدوات التعريف، مَلامِحَ الهُوية الدينية[٨].

ويطرح الكتاب سؤالاً عن الغرض من تعدّد أوجه الهوية. وعمّا إذا كانت الهويات في حالة تكاتف أم تنازع. ويكشف التحليل أن العلاقة بين الهويات تراوحت بين التكاتف والتنازع، غير أنّ الضرر الناتج من وجود هويات متنازعة في الخطاب (لاسيما الهويتين، القومية التي تعترف بحدود جغرافية ووطن وشركاء

٨ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ١٢٦.

في الوطن، والهوية الدينية التي لا تعترف بالحدود الجغرافية وترى الرابط الأوحد بين أبنائها هو العقيدة) أوقع الخطاب في تناقض وارتباك شديدين.

وبمواصلة البحث في أسباب الهوية متعددة الأوجه، يمكن اعتبار مصدرها، ليس فقط الاستجابة لتحديات اللحظة، وسعي المؤسسة إلى صنع تحالفات غير تقليدية، وإنما اعتقاد راسخ بأن خطاب الأزهر قادر على استيعاب أي خطاب ودمجه، فالدين يشمل كل شيء، والأزهر مؤسسة الدين، وربما هذا ما يفسر، على مستوى الممارسة الفعلية، الاحتكام إلى الأزهر كمرجعية في العديد من المسائل غير الدينية، أو التي لا علاقة واضحة لها ومباشرة بالدين، وذلك كالرجوع إلى الأزهر بشأن نشر كتاب أو عرض فيلم سينمائي أو ما شابه.

من يتحدث باسم الدين؟

بالرغم من وقوع مؤسسة الأزهر في أزمات خطابية عديدة منذ الحراك الثوري في مطلع عام ٢٠١١، فإن دعمه للسلطة السياسية لم يتوقف سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، ذلك أن السلطة السياسية لم تنازع الأزهر يوماً في سلطة التمثيل الديني، أمّا حين آلت السلطة إلى جهة تسعى، وفق قابلية جماهيرية معيّنة، إلى أن تكون سلطة تمثيل ديني بديلة (ممثلة في جماعة الإخوان المسلمين)، هنا أصبحت مؤسسة الأزهر العريقة أمام معركة وجود، وهو ما انعكس على خطابها الذي خاضت فيه صراعاً خطابياً عبر آليات التسمية وإطلاق النعوت والحذف.

يبدو البيان الصادر عن مشيخة الأزهر في التاسع عشر مِن يونيو/ حزيران بمثابة نموذج قابل للتناول في هذا الصدد، إذ تقوم المؤسسة الدينية خلاله بالدفاع عن دورها باعتبارها المتحدّث الرسميّ باسم الدين، وفي مَعرِض الصراع تُوَجِّه الانتقاد لجماعاتٍ دينية ترى نفسها على الجانب الآخر الأحقّ، والأولى بهذا الأمر. لقد جاء البيان داعماً لخطاب جماعات المُعارضة الساعية إلى إنهاء حُكم الرئيس محمد مرسي، والداعية في هذا الإطار إلى الحشد ضدّه، وقد استخدم مؤيّدو الرئيس الحُجَّة الدينية في مُحاولة لإجهاض هذه الدعوة، وأعلن بعضهم تكفير مَن يعتزمون التظاهر، ومِن ثمّ رد الأزهر عليهم بفتوى مُضادة تبيح التظاهر والخروج على الحاكم.

يَصِفُ بيان الأزهر جماعات التأييد الدينية بالفرق المُنحرفة، وبالقِلّة الطارئة على ساحة العلوم الشرعية والفتوى، مستخدماً الأدوات والأساليب اللغوية المتاحة للتحقير مِن شأنها، ويلاحظ أن الأزهر لا يسمي مَن يُشير إليهم، رغم تداول فتاواهم وأسمائهم عبر وسائل الإعلام المختلفة، ورغم أن أغلبهم دعاة أو رجال دين ينتمون إلى جماعات وأحزاب وتيارات دينية معروفة، وهو ما يبدو وسيلة للإيحاء بأن الأشخاص المقصودين أقل شأناً مِن أن تقوم المؤسسة الدينية بتسميتهم، كذلك يبدو الانتقاد الموجّه إليهم عنيفاً بصورة غير معهودة، بما قد يعكس حال التوتر الشديد على الساحة السياسيّة، وبما قد يشير أيضاً إلى أنّ سعي مُنتِج الخطاب لتأكيد مكانته جعل توصيفاته حادّة صادمة، وهو ما يشكل عن جدارة أحد شواهد الصراع على التمثيل بين المؤسسة الدينية الرسمية مِن ناحية، والتيارات الدينية التي لا تتمتع بالمكانة والسُلطوية نفسها مِن ناحية أخرى[٩].

ثمة شاهد آخر يمكن الحديث حوله في مسألة الصراع على التمثيل، ويتعلق بغياب التسميات المُباشرة للجماعات الدينية في غالبية النصوص الصادرة عن شيخ ومشيخة الأزهر، ويمكن القول إنه لم يأت ذِكرٌ صريح لجماعة الإخوان المسلمين في أي مِن البيانات والخُطب سواء حين كانت في موقع السُلطة، أو حين انتقلت إلى موقع جماعات المعارضة، رغم أنها لعبت الدور الرئيس في أزمة الحُكم، ومثلت طرفاً فاعلاً في المشهد السياسيّ فيما بعد، وقد اقتصر الأمر على تمثيل أعضائها بمفردات مِن قبيل (البعض)، أو (الضحايا)، و(القتلى والمصابين) في المناسبات التي كلّلتها أحداث عنف، ويُستثنى مِن هذه الملاحظة نصّان هما البيان الذي أشير فيه صراحة إلى (حزب الحرية والعدالة) الذي يُعَدّ الذراع السياسية لجماعة الإخوان المسلمين، دون أن يُسمي الجماعة نفسها، وكذلك الخطبة التي أشار فيها الشيخ الطيب إلى (أبناء مصر من جماعة الإخوان والمتحالفين معهم)، ويلفت الانتباه هنا أنه أجرى تعديلا على التسمية بحيث استبعَد منها لفظة (المسلمين)، وربما جاء هذا التعديل حرصًا منه على عدم تكريس الرابطة الكائنة بين الدين من ناحية، والجماعة مِن ناحية أخرى، وكذلك على عدم توطيد خطابها المصبوغ في مُجمله وفي مُختلف جوانبه بالهُوية (الإسلامية)، ومِن ثمّ إضعاف موقفها خطابياً في مسألة الصراع الجاري على قدم وساق.

٩ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ١٣٣، ١٣٤.

بدا أن لامتناع المؤسسة الدينية عن تقديم الدعم إلى السُلطة السياسية في فترة حُكم الرئيس محمد مرسي أسباباً مُتعدِّدَة، ربما كان من بينها تلك المواقف المُتعاقِبة التي أظهرت السُلطة من خلالها الرغبة في خَوض الصراع لتقتنص وحدُها حَقَّ التمثيل الدينيّ، وربما أمكن الاستشهاد هنا بمحاولاتها تهميش دور الأزهر على مستويات عِدة، منها على سبيل المثال تجاوُز الحكومة التي شكلها الرئيس مرسي لهيئة كبار العلماء في عدد من القرارات والقوانين التي كان مُفترضاً أن تُعرَضَ عليها قبل إقرارها، وربما انعكس التوتر بين الطرفين، السُلطة والأزهر، في بعض المظاهر الشكلية والبروتوكولية أيضاً، والتي امتدّت إلى عدم تخصيص مَقاعد مُلائمة لمسؤولي الأزهر في المناسبات الرسمية الكبرى وإلى تجاهُل الرئيس مُصافحة شيخ الأزهر في إحداها، وقد عدَّ كثيرون الأزمات التي أحاطت بالأزهر منذ تولّي جماعة الإخوان المُسلمين للحكم -والتي تناولتها في الجزء الخاص بالأوضاع الداخلية للمؤسسة الدينية- بمثابة مؤامرات هدفها إضعاف شيخ الأزهر وإبعاده عن دوره ومكانته، وقد مَثّل هذا الطرح في حدّ ذاته تأكيداً واضحاً على وجود صراع بين الطرفين[١٠].

استجابات الخطاب: التنوّع الكاشف

يناقش كتاب «سطوة النص» علاقات السلطة بين مؤسسة الأزهر ومؤسسة الحكم من جهة، وبين مؤسسة الأزهر وجماعات المعارضة الدينية من جهة أخرى. تلك العلاقات التي تكشف عبر تحليل الخطاب سلوك المؤسسة الدينية إبان أزمة الحكم من خلال ما سمّاه الكتاب: «استجابات الخطاب». فالخطابات تتفاعل فيما بينها، وكل خطاب يحوي نقيضه في بنيته العميقة، وكان خطاب الأزهر في كثير من الأحيان استجابة لخطاب السلطة، ولخطاب جماعات المعارضة الدينية.

وتنوعت الاستجابات، فكانت استجابة «الدعم» هي الأبرز، حيث دعم خطاب الأزهر خطاب السلطة في قرار عزل الرئيس محمد مرسي، وإن جاء خطاب شيخ الأزهر وقتها بصيغة المتكلّم المفرد، ممّا يعيد طرح إشكالية هوية منتج الخطاب بين الشيخ والمشيخة. وكانت استجابة «الرضوخ» لخطاب السلطة بطلب تفويض الشعب في محاربة الإرهاب المحتمل، والرضوخ هنا يعني استحداث الموقف أو تغييره وفقاً لضغط السلطة الحاكمة، مما جعل خطاب الأزهر يبدو مُرتبكاً ومفاجأ، كما كشفت استجابة الرضوخ عن التهميش والإقصاء اللذين مارسهما خطاب السلطة على خطاب الأزهر، حيث افتتح شيخ الأزهر الخطبة التي ألقاها عقب خطبة وزير الدفاع بيوم واحد بالعبارة التالية: (إن الأزهر الشريف وقد استمع إلى دعوة المصريين...)، وهي عبارة احتوت على شاهدٍ خطابيٍّ مؤثر، عكس عملية تهميش واضحة. تمثّلت في استخدام الفعل (استمع)، الذي أوضح أن الأزهر بكامل عُلمائه ورجاله قد علم بالقرار المُتعلّق بدعوة المصريين إلى تفويض وزير الدفاع مثله مثل المُتلقّي العاديّ، عن طريق القنوات الإعلامية، وهو ما عنى أن السُلطة السياسية اختارت عدم التشاور مع المؤسسة الدينيّة بشأن هذا القرار رغم ما له من وقْع وأهميّة، ورغم وجودها الفاعل على الساحة السياسيّة، كما عنى أيضاً استبعاد الشيخ الطيب خارج دائرة السُلطة واتخاذ القرار، وقد تأكدت فكرة التهميش والإقصاء خلال المُقابلة التي أجريتها مع أحد مستشاري شيخ الأزهر، والتي ذكر خلالها أن الشيخ الطيب لم يعلم مُسبَقًا بأمر التفويض ولم يُؤخذ رأيه فيه، ولم يَجر إخباره بما اعتزم وزير الدفاع[١١].

والإقصاء نفسه مارسه خطاب الأزهر ضد خطاب جماعات المعارضة الدينية، فقد عَمَدَ خطابُ المؤسسة الدينيّة من خلال بعض النصوص إلى رسم صورة سلبية لآخرين، ووصمهم وتشويه خِطابهم، ومن ثمّ خضعَ هؤلاء الآخرون بشكلٍ أو آخر إلى عملية نبذ وإقصاء، لا على مستوى المَوقف الخطابيّ فقط بل وعلى المستوى الاجتماعيّ أيضاً، وعلى سبيل المثال احتوى البيان الصادر عن مَشيخة الأزهر في التاسع عشر من يونيو/ حزيران على شواهد خطابيّة مُتعدّدة استجاب فيها الأزهر إلى خطاب بعض الجماعات الدينيّة بالإساءة، حيث وَجَّه إليها انتقاداً مُباشراً حَطّ فيه من شأنها، واعتبر أفرادها غير مؤهلين للإدلاء بآرائهم، وقد أكد على رفض خطابهم من كافة المسلمين لا من الأزهر فقط، باعتباره انحرافاً عن الدين: (هذا هو رأي الفرق المنحرفة عن الطريق الصحيح للإسلام، وهو كلام يرفضه صحيح الدين ويأباه المسلمون جميعاً...). ويُلاحَظ استخدام أداة التعريف (ال) في (يأباه المسلمون) وهو استخدام يحمل عنفاً لغوياً ظاهراً، فأداة التعريف تنجز وظيفة مُهمّةً عبر استبعاد أصحاب الرأي المرفوض من الإطار الذي يضمّ جُموع المسلمين، بحيث تنزع عنهم

١٠ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ١٣٦.

١١ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ١٨٠.

انتماءهم الدينيّ، وتُضافُ إليها مُفردة (جميعاً) التي لا تترك فرصة لخروج أي شخص عن رأي المؤسسة الدينيّة طالما رغب في الاحتفاظ بهُويته كمُسلم، ويُلاحَظ أن خطاب المؤسسة الدينيّة يُقدّم المُسلمين على أنهم كتلة واحدة توافَقَ أعضاؤها على الأفكار والأحكام والصفات والمواقف ذاتها، وهو الأمر الذي يُيسّر إبعاد الخارجين على هذا التوافُق ونبذَهم، وربما أسهم هذا التهديد المُبطن في حَفز المُتلقي على الأخذ بالفتوى الدينيّة التي تبنّاها الأزهر في خطابه، ونبذ الفتاوى التي حوتها الخطابات الأخرى. إنّ قيام المؤسسة الدينيّة بتقرير مَوقِف المُسلمين جميعهم، وإعلانها عن رفضِهم للرأي المُضاد لرأيها دون أن تأتي بسند يدعم استئثارها بالحديث باسمهم، أو بدليل على كونِ هذا الرفض هو موقفهم الفعليّ، لهو بمثابة شاهد خطابيّ لافت للانتباه، يشير إلى هيمنتها المُفرِطة، ويؤكد في الوقت ذاته انتهاجها مُمارسات الإقصاء، والنبذ، والاستبعاد تجاه الآخرين الذين يقعون منها مَوقع الخصوم[١٢].

غير أن ثمة استجابات تتسم باختلاف نوعي عن الاستجابات السابقة، حيث نجد استجابة «الممانعة»، وهي استجابة امتنع فيها خطاب الأزهر عن دعمه وتأييده المعتادين للسلطة، بل انتقل إلى مساءلتها ومهاجمتها ولو بشكل مستتر، ولكن ملحوظ، وذلك مع أحداث العنف المعروفة بأحداث «النصب التذكاري» وكذلك ما عُرف بأحداث «الحرس الجمهوري» استنكر الأزهر عبر إصداره بياناً في السابع والعشرين من يوليو/ تموز، سقوط أعداد من الضحايا في أحداث النُصُب التذكاريّ، لكنّ المَوقف اشتمل على ما هو أبعد من الاستنكار، فثمّة تعريض وتوبيخ، وانتقاد مُوَجَّه ضِمناً إلى السُلطة من خلال الحديث عن القانون: (مقاومة العنف والخروج على القانون لا يكون إلا في حدود القانون...) ، حيث يفهم المتلقّي أنّ ثمّة خرقاً للقانون قد حدث خلال مواجهة أشخاص لجأوا إلى العنف، وهم بطبيعة الحال أعضاء جماعات المعارضة الدينيّة، ومِن المُتفق عليه أن المُكَلّف بالتصدي لمرتكبي العنف والخارجين على القانون هو السُلطة بأجهزتها الأمنيّة، وعليه، تشير العبارة في سياقها وفي إطار الحدث، إلى أنّ قوّات الأمن قد تجاوزت حدود القانون في مواجهتها مع الأشخاص المتظاهرين أمام النُصُب التذكاريّ، ويتعزز التوبيخ والانتقاد باستخدام أسلوب النفي والاستثناء، حيث يقصر الأزهر الأساليب المباح للسُلطة استخدامها على تلك التي أقرّها القانون، لتصل رسالة مُباشِرة بأن ارتكاب العنف من قِبل بعض جماعات المُعارضة، لا يبيح للسُلطة الردّ بعنف مكافئ غير مُلتزم بالأطر القانونية وغير مُقيَّد بها.- يلاحظ أيضاً أنّ ثمّة مَطلباً مُباشراً بعدم التغاضي عن مُعاقبة المسؤولين: (إنزال العقوبة الفورية بالمجرمين المسؤولين عنه أياً كانت انتماءاتهم أو مواقعهم)، ويلاحظ هنا استخدام الأزهر لتوصيف المجرمين أشار إلى إدانة صريحة، تقف في مواجهة خطاب السُلطة الذي راح يبرِّر الواقعة. لقد أبرزت العبارتان استياء الأزهر من ملابسات الحدث، كما عكستا استجابة مُمانعة واضحة، أفصحت المؤسسة الدينية من خلالها عن رفضها لخطاب السُلطة الساعي مرة أخرى إلى تحميل الخصوم مسؤولية تفاقم الأوضاع، وسقوط مزيد من القتلى[١٣].

ومن الممكن فهم استجابة الممانعة في ضوء ما تقدّم عن تاريخ العلاقة بين الدين والحكم أو بين السلطة المعرفية والسلطة الدينية باعتبار تلك الاستجابة وسيلة دفاعية لجأ إليها الخطاب إنقاذاً لصورة المؤسسة أمام الجماهير (الفضاء الحقيقي للصراع على السلطة)، فلم يكن بمقدور المؤسسة الدينية العريقة بما لها من سلطة اجتماعية راسخة أن تدعم السلطة السياسية حتى مع احتمال تورّطها في أحداث عنف أدّت إلى سقوط ضحايا، هنا اختارت المؤسسة الحفاظ على سلطتها المعرفية وإعلان الرفض والوقوف من السلطة موقف المسائِل.

تكشف الاستجابات المتنوّعة لخطاب الأزهر عن دور يمكن وصفه بأنّه دور سياسيّ إلى حدّ كبير. كما تكشف عن أن خطاب الأزهر لم يكن سوى ممارسة لدور المؤسسة في حيازة السلطة والدفاع عنها، وهو ما يطرح تساؤلات عن الهوية الدينية للمؤسسة، وهل ثمّة هويّة دينيّة خالصة؟ وهل ثمّة هوية دينية يمكن أن تحتفظ بنفسها كما هي في أوقات الأزمات؟ كما يطرح تساؤلات عن الاستخدام النفعي للدين ودور الأزهر فيه، وغيرها من التساؤلات التي يثيرها كتاب «سطوة النص». وفي تقديري أنّ قيمة العمل البحثي الحقيقي أن يثير من الأسئلة أكثر مما يقدّم من الإجابات، فـ«الأسئلة مبصرة، والإجابات عمياء»، كما أنّ الأسئلة تمثّل أفقاً مفتوحاً لمزيد من جهود البحث، خصوصاً إذا كانت هذه الجهود منضبطة بضوابط علميّة ومنهجيّة كما في كتاب «سطوة النص».

١٢ المرجع نفسه، ص ١٨٢.

١٣ بسمة عبد العزيز، **سطوة النص**، ص ١٨٦.

السماء ليست كاملة
دفاتر سفر إلى فلسطين

إرمغارد إلماينز
ناقدة فنيّة، المكسيك.

الأجساد منفصلة عن رغباتها

يشكل كتابي «السماء ليست كاملة: دفاتر سفر إلى فلسطين» (للنشر ٢٠١٧) مجموعة من الملاحظات، الرسائل والخواطر، كتبتها خلال إقامتي في مدينة رام الله في الضفة الغربية (فلسطين المحتلة) وأسفاري إليها بين الأعوام ٢٠٠٧ و٢٠١٦. في البداية، كان هدفي من الزيارة هو أن أحذو حذو ما تبقّى من حركات التضامن الغربيّ مع نضال شعوب العالم الثالث، والتضامن بين شعوب ما كان يُسمى بالقارات الثلاث (التريكونتيننتال)، خلال سنوات الستينيّات والسبعينيّات. فخلال تلك الفترة، باشر فنانون، ناشطون، سينمائيون وأدباء من دعاة مناهضة الإمبريالية بزيارة البلاد التي اندلعت فيها الثورات (مثل كوبا، الجزائر، فلسطين، موزمبيق، تشاد، الصين الماويّة، تشيلي، وإلخ) وهذا لتأكيد دعمهم لها ولمساندتها في إسماع صوتها في العالم. ولكن، وبعد أن صار التعامل مع فشل هذه الثورات وكأنه أمر بديهي (أي لم يعد من الممكن تصوّر انتصارها، إذ كان المُراد منها هو السيطرة على الحكم وإنشاء النظام الاشتراكيّ)، فإن إطارا جديداً بات بتكوّن لصياغة العلاقة التضامنية مع البلاد المستعمَرة المسمّاة «النامية» والتي تعاني مع النزاعات الكارثية، وهو إطار منظومة الأعمال الخيرية. تفترض هذه المنظومة أن سكّان المناطق المهمّشة والهامشيّة، باعتبارها مناطق حربيّة أو منكوبة، هم بحاجة إلى المساعدة في ممارسة حقّهم بتقرير مصيرهم، وهم بحاجة لبنية تحتية لكي يتمكّنوا من توفير الخدمات الأساسية لأنفسهم. بكلمات أخرى، حسب منظومة الأعمال الخيرية (والتي تمارسها المنظمات غير الحكومية المدعومة من قبل الحكومات، المنظمات الدولية والشركات) إن ضحايا الاضطهاد والحرب يطالبون بالتعويض والمساعدة المادية والنفسية بحكمهم ضحايا لا يقدرون على مساعدة أنفسهم. وللأمانة، فإن الفضول الذي انتابني للتعرّف على الفلسطينيّين والإسرائيليّين استلزم تجاوز ديناميكيّة منظومة الأعمال الخيريّة، الصحافة الاستقصائية، التبادل الثقافي أو أي من تلك الفضاءات القائمة أصلًا والتي تقوم بتوفير مساحات معروفة الملامح والحدود للتعبير عن التضامن بشكل فعليّ مع القضية الفلسطينيّة، مثل الـInternational Solidarity Movement (حركة التضامن العالميّة، ISM) أو المنظمات غير الحكومية، والتي عددها بات لا يعد ولا يحصى. لست بعربيّة أو يهوديّة، وأعي مخاطر الأنثروبولوجيا، والاستشراق والاستعمار عند التعامل مع قضية مثل قضية فلسطين. لذلك، فلقد بذلت جهدا مضنيا من أجل تجاوز وجهة نظر الأجنبيّ، «الآخر»، ومن أجل التغلّب على الصدمة الناتجة عن ارتطامي بواقع قاسٍ ومؤلم. وجدتني أعيش، على المستوى الشخصيّ والمباشر، شتى أشكال القوّة والسلطة، وهي أشكال متطورة للغاية في مستوى التعقيد، الفاعليّة، والألم، بالإضافة إلى كوني شاهدة على أزمة التنظيمات السياسيّة على المستوى العالمي.

بهدف صياغة الصراع الذي يعيشه الفلسطينيون قرّرت أن أمارس أشكالًا تجريبيّة من الكتابة تمزج ما بين الرواية الشفوية، الكتابة عن الوضع الراهن، والتاريخ المكتوب. الغاية من وراء تجميع هذه النصوص هو تزويد قرائي بصورة تعكس واقع الحياة في ظل أحد الصراعات السياسيّة الأكثر إلحاحاً في أيامنا. أروي تجربتي في الأراضي المحتلّة عن طريق سرد الخواطر، الرسائل، النصوص التجريبيّة، المقالة النقدية، الكتابة

الأدبية، النقد الفنّي، ووصف المشهد، بالإضافة إلى تسجيل اللقاءات والعلاقات مع الأصدقاء، المناقشات الفكرية... أي مجمل التجارب التي يفرض الاحتلال نفسه فيها كشيء ملموس. فور وصولي فلسطين باشرت بعمليّة عبور الجسور التي تربط بين الثقافتين العربيّة واللاتينيّة، مما جعلني أتكيّف مع الجو بسرعة وأبني علاقات مع أناس أصبحوا، بالنسبة لي، أصدقاء عمر: أدباء، شعراء، أساتذة، سينمائيين، طلبة، ربات بيوت، فنانين، أطفال.

في سنوات التسعينيات، حصل الفلسطينيون على مساحة وصوت يصوغون نضالهم فيه ضمن وهم يوطوبيا التعددية الثقافية التي جلبتها العولمة.

بالإضافة إلى عملية البحث عن آثار ما تبقى من حركة التضامن المناهضة للإمبريالية مع المقاومة الفلسطينيّة في سنوات الستينيّات والسبعينيّات، عاينت أيضاً موضوع «الإمبراطوريّة» وإعادة تأسيسها، وكيف تقوم النظريّات الليبرالية بالتأكيد على مبدأ التسامح واحترام الرأي والرأي الآخر كأساس للديمقراطيّة داخل الأمبراطورية. ما هي المساحة التي تمنحها هذه النظريّات لفلسطين على مستوى الخطاب؟ ففي سنوات التسعينيّات، حصل الفلسطينيّون على مساحة وصوت يصوغون نضالهم فيه ضمن وهم يوطوبيا التعدديّة الثقافيّة التي جلبتها العولمة (لكن هذه المساحة وهذا الصوت، كما سأوضّح فيما بعد، لم يكونا مطلقين، بل كانا مشروطين، نسبيّين، مؤقتين، وناقصين). ففي سنوات العصر الذهبي التي عاشتها اليوطوبيا الليبراليّة العالميّة للتعّدديّة الثقافيّة، مُنح للجميع منصّته، منها تستطيع كلّ مجموعة أن تعبّر عن وجهة نظرها، إن كانت على المستوى الإثنيّ، الدينيّ، التاريخيّ، القوميّ، أو الجندريّ.

نهاية عصر الخطاب الليبرالي

لكن، في عام ٢٠٠١، شهدنا ما وقع من استنفاد القوة الراديكالية الكامنة التي احتواها الخطاب الليبراليّ ذاك. فبالتالي، ما شهدناه كان نهاية عصر الخطاب الليبرالي. في ذلك العام كان صعود يوطوبيا التعدّدية الثقافيّة إلى القمّة وهبوطها في آن واحد. بينما، في

شهر آذار/مارس، سمحت الحكومة المكسيكيّة بدخول الجيش الزاباتي للتحرّر الوطني فضاء مدينة المكسيك العاصمة في إشارة منها إلى ضمان حقّ الجيش الزاباتي بالسيادة والوجود، وهذا ما حدث علناً باسم التسامح وتقبّل الآخر، دلّت في المقابل هجمات الحادي عشر من أيلول في مدينة نيو يورك على نهاية عصر التسامح وإمكانيّة التعايش بين المضادّين المرئيّين: أي بين المُضطَهِد والمُهَيمِن. فالهجمات بدورها زادت من ظاهرة كراهية الأجانب، وأذاعت التعصّب والأصوليّة عند الديانات التوحيديّة الثلاث. وفي الوقت نفسه، لقد بدأ يتشكل انقسام جديد للعالم كنتيجة لهيمنة الرأسماليّة الماليّة وإعادة ترتيبها للامتيازات الاقتصاديّة في العالم، حيث بدأ ينقسم العالم إلى الـ١٪ من سكانه، من جهة، والـ٩٩٪ من جهة أخرى. بدأت تتشكّل نماذج جديدة من العبوديّة، الاضطهاد، السيطرة، الرقابة، والحروب من أجل السيطرة على الخيرات والحفاظ عليها. هنا بالذات تعود وتطلّ علينا من جديد راهنيّة النضال الفلسطيني. فبالرغم من نعت الصراع دوليّاً وكأنه صراع إثنيّ بين العرب واليهود، يلعب النضال الفلسطينيّ دوراً رئيسيّاً يُحتذى به في الدفاع عن الأرض أمام هجمة السياسات النيوليبراليّة لاستخراج الموارد الطبيعيّة (وبالتالي تدميرها)، كما هي الحال في ولاية تشاتيسغار في الهند، وفي جبال مقاطعة كولومبيا البريطانيّة في كندا، وفي جبال بويبلا الشماليّة في المكسيك، وفي مناطق لا تحصى ولا تعدّ من القارة الأفريقيّة.

إنّ تكثيف التضييقات على شتّى أشكال التضامن مع النضال الفلسطيني، بالإضافة إلى تصاعد انتهاكات الاحتلال بينما أعين العالم تبتعد أكثر وأكثر عمّا يحدث في فلسطين، كلّه ربّما يشكّل تعبيراً عمّا يمثّله الصراع في فلسطين بالنسبة إلى العالم: فعلى المستوى الإيديولوجي والجيوسياسي، ما يضعه الصراع في فلسطين على المحكّ هو شكلٌ من أشكال النظام السياسي في أيامنا حيث تقوم السلطة بفرض سيطرتها على منطقة جغرافيّة واحدة، مُقسّمة إلى مناطق بحسبها يختلف فيها المواطنون من ناحية الامتيازات من منطقة إلى أخرى. مع ذلك، هذه المناطق ليست منفصلة فيما بينها، فهي مرتبطة ويعتمد بعضها على بعض وتشترك، بدرجات متباينة، في سير عمليّات تجري على المستوى العالمي، مثل الحقّ في التنقّل وفي الحصول على السلع، الخدمات، البضائع، التعليم والعمل. يعيش الفلسطينيّون تحت نظام حكم يشترك فيه الحاكم الإسرائيلي مع الفلسطيني. وضعهم القانوني يشير إلى كونهم غير مواطنين في بلدهم، وهم محكومون بمنظومة قانونيّة يختلف فيها الفلسطينيّون عن الإسرائيليّين من ناحية القوانين والحقوق. إن هذا الشكل من الأنظمة السياسيّة يهتم بإدارة الموارد بطريقة تضمن وصولها إلى المناطق ذات الكتل السكانيّة الثريّة. على هذا المنوال أيضاً تعمل الأنظمة النيوليبراليّة، فيها تجري إدارة العلاقة بين المواطنين والموارد على أساس التمييز في كيفيّة توزيع الأموال، الخدمات والخيرات. وعلى هذا المنوال، أيضاً، تسير سياسات مصادرة الأراضي، التهجير والإدارة المدنيّة إمّا عند البدو في النقب أو عند السكّان الأصليّين في ولاية غيرّيرو في المكسيك. ففي كلتا الحالتين تجري «إعادة توطين» السكان في مساكن توفّرها الحكومة تحت ذريعة مواكبة «الحداثة» و«التطوير». لكنّ النتيجة دائماً هي هي: تنتهي الحال بهذه الجماعات إلى عيش حالة اغتراب عن أسلوب حياتها وأنماط كسب قوتها، وإلى انهيار استدامتها، وإلى المعاناة من الإفقار الثقافي والمادي على المدى القصير، أي تنتهي الحال إلى دمارها. يعكس الاحتلال الإسرائيلي، في مطلع القرن الواحد والعشرين، نموذجاً متطوراً يحتذى به لممارسة الضبط الاجتماعي، إدارة الصراع، مصادرة الأراضي والموارد الطبيعيّة، الفصل بين السكان والعائلات، وتفكيك النسيج الاجتماعي بواسطة تطبيق آليّات تفسيّة من القمع تهدف لبث البارانويا وسلوكيّات التدمير الذاتي بين الناس. إن الاحتلال الإسرائيلي يعكس نموذجاً ناجحاً لكيفيّة إنشاء حالة من الإفقار الثقافي والاقتصادي بواسطة تطبيق آليّات وتقنيّات من التعذيب الثقافي بهدف بسط الأمن. إنّ اضطهاد الإسرائيليّين للفلسطينيّين يشمل إدارة زمان-مكانهم وتشويه شعب كامل على نحو بطيء وتدريجيّ.

اللقاء الأول مع فلسطين

في أوّل زيارة لي لرام الله وقعت في حب لفظ اسم المدينة باللغة العربيّة: رام-الله. ريم، وهي مضيفتي الفلسطينيّة الأولى، تعبت وهي تفسّر لي كيف أصل موقع محطّة الباصات المتجهة للضفّة الغربيّة: من كنيسة القيامة، في القدس القديمة، عليّ صعود الطريق المؤدي لباب العمود.

كان عليها تكرار اسم المدينة عدّة مرات. لم أعرف من قبل ريم أي فلسطينيّ. حين سمعت اسم المدينة أردت إجادة لفظها بالطبيعيّة والحميميّة نفسها، مثل أهل البلد. بحسب صديقتي ناتالي، لفظ اسم المدينة هو مثل صوت عقد اللؤلؤ وهو يمرّ بين أصابع اليد. على كلٍّ، فإن شكل اللؤلؤة الكروي يذكّرنا بأنّ رام الله هي عبارة عن فقاعة فيها يعيش المرء وهْم الحرية، وكأنّ كلّ شيء عاديّ وطبيعيّ تحت الاحتلال. لهذا السبب في رام الله شيء ما يوحي بكونها المدينة الموعودة. الفلسطينيّون في رام الله جاؤوا إليها من مدن وقرى وطبقات اجتماعيّة واقتصاديّة مختلفة، منهم من عاد من اللجوء بعد اتفاقيّات أوسلو عام ١٩٩٣، ومنهم من جاء من الداخل الفلسطيني (أي الفلسطينيون حاملو المواطنة الإسرائيليّة) يدرّسون في الجامعات أو يعملون عند السلطة الفلسطينيّة. رام الله هي مدينة كوزموبوليتيّة يعيش فيها فلسطينيّون من فنزويلا، البرازيل، كولومبيا، دبي، تونس، لبنان، سورية، الأردن، فرنسا، بريطانيا، وإيطاليا. رام الله هي مقرّ السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة والقنصليّات، والمراكز الثقافيّة، والمنظّمات غير الحكوميّة. مجتمعها مكوّن من رجال أعمال، وعائلات، وطلاب، وناشطين سياسيّين، وصحافيّين، وكتّاب، وفنّانين، ودبلوماسيّين، ومن طبقة وسطى ناشئة انضمّت مؤخراً لعائلة المستهلكين العالميّة الكبرى، تلك المؤلّفة من أصحاب الرهن العقاري والديون الائتمانيّة، والتي تحلم بامتلاك شقّة تطلّ على البحر الذي

لفظ اسم المدينة هو مثل صوت عقد اللؤلؤ وهو يمر بين أصابع اليد. على كل، فإن شكل اللؤلؤة الكروي يذكرنا بأن رام الله هي عبارة عن فقاعة فيها يعيش المرء وهم الحرية، وكأن كل شيء عادي وطبيعي تحت الاحتلال.

يُحرم منه الفلسطينيّون بينما ينعم به الإسرائيليّون فقط. رام الله هي العاصمة المؤقّتة لدولة بحالة قيد إنشاء دائمة، ومع ذلك فيها يلتقي أعضاء تلك الطبقة العالميّة الرمزيّة المؤلّفة من رجال الأعمال، الصحافيّين، عمّال الثقافة، مثقّفين ونجوم اليسار المعولم. بعبارة أخرى، رام الله هي موطئ قدم كلّ أعضاء الشبكة العالميّة لمحترفي التبادل الاقتصادي، السياسي والثقافي. يفرض الاحتلال نفسه في كلّ مدن فلسطين بطرق ودرجات مختلفة ومتميّزة، مخترقاً النسيج الاجتماعي والحالة النفسيّة الجماعيّة، وهذا من خلال الاجتياحات، وفرض حظر التجوّل، والاعتقالات، والهجمات والتحرّشات اليوميّة. فالاحتلال في نابلس يختلف عنه في مدينة الخليل أو جنين، في قطاع غزة، بيت لحم، الناصرة أو حيفا. كيف، إذًا، يستطيع المرء التعامل مع كلّ وجهات النظر المختلفة هذه، والتي كلها معاً تحيك نسيج تجربة الفلسطينيّين تحت الاحتلال؟ كيف يستطيع المرء تقديم صورة كلايدوسكوبيّة للفلسطينيّين، للاحتلال؟

خلال إقامتي في الأراضي المحتلّة وجدتني أرى وأسمع دون أن أتمكّن من تسجيل ما كنت أعيشه، وبالتالي أخذت أبحث عن سبل أخرى لأعالج ما كانت تدركه حواسي. يقولون إنّ حسّ النظر يتميّز بكونه عنيفاً ومتحرّراً من الجسد، وإنّ النظرة ترسم ملامح الجسد وحدوده. هذا الدم الذي يجري في عينيّ، دم من هو؟ تحوّل حسّ النظر بالنسبة إليّ إلى مثابة إمكانيّة، بل فرصة، للنظر، فيه أعيد بناء وجهة النظر التي منها أعالج التوتّرات، والأصداء، والتحوّلات، والمقاومة، والتواطؤ والألم، والإحباط، والقهر، والكراهية، بالإضافة إلى ذلك الشيء الذي يسمّيه الفلسطينيون «طغيان عدم اليقين» على مجريات الحياة في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ. بشكل أو بآخر، إنّ تجربتي في فلسطين جعلتني أدركُ البُعد الحسّي والجسدي للنظر، إذ بدأت أحسّ بما أرى، وما رأيته كان يُترجم كشعور بالقهر، بالاعتماديّة المرَضيّة، باضطراب التحويل، بالاكتئاب النفسي، وبالوقوع في الحب. قررْت أن أطلق على هذه المجموعة من الأعراض اسم «الهلع الناتج من الغيريّة»، أي حالة من الهلع، التعاطف فيها مع الآخر، مع الغير، هو مثل جدلية الشعر: لا فصل بين ما أراه وما أشعر به. ما أراه هو أنا، واستحالة تجاوز ما أراه يسبّب لي القلق. ففي فلسطين رأيت نسيجاً اجتماعيّاً ممزقاً، حياة حزينة، ورجالًا ونساءً يعانون من الاكتئاب والإحباط. رأيت الكراهية تتجلّى أمامي على شكل بنت في عمر الثمانية، ابنة أحد المستوطنين في البلد القديمة في الخليل، حيث يعيش الفلسطينيّون أبشع صور الحياة وأكثرها إيلاماً وتعقيداً. شعرت بانفجار قنبلة في قلبي. إنّ هذا القلق الناتج من كوني أسيرة جدليّة ما أراه سبّب لي القهر. اكتشفت أنّ حسّ النظر هو شيء منفصل عن المقدرة على الكلام، عن إسماع صوتي، وأنّ نظري محاصر بالاضطراب وبالعمى. فأنا لا أرى، بل أحاول أن أرى.

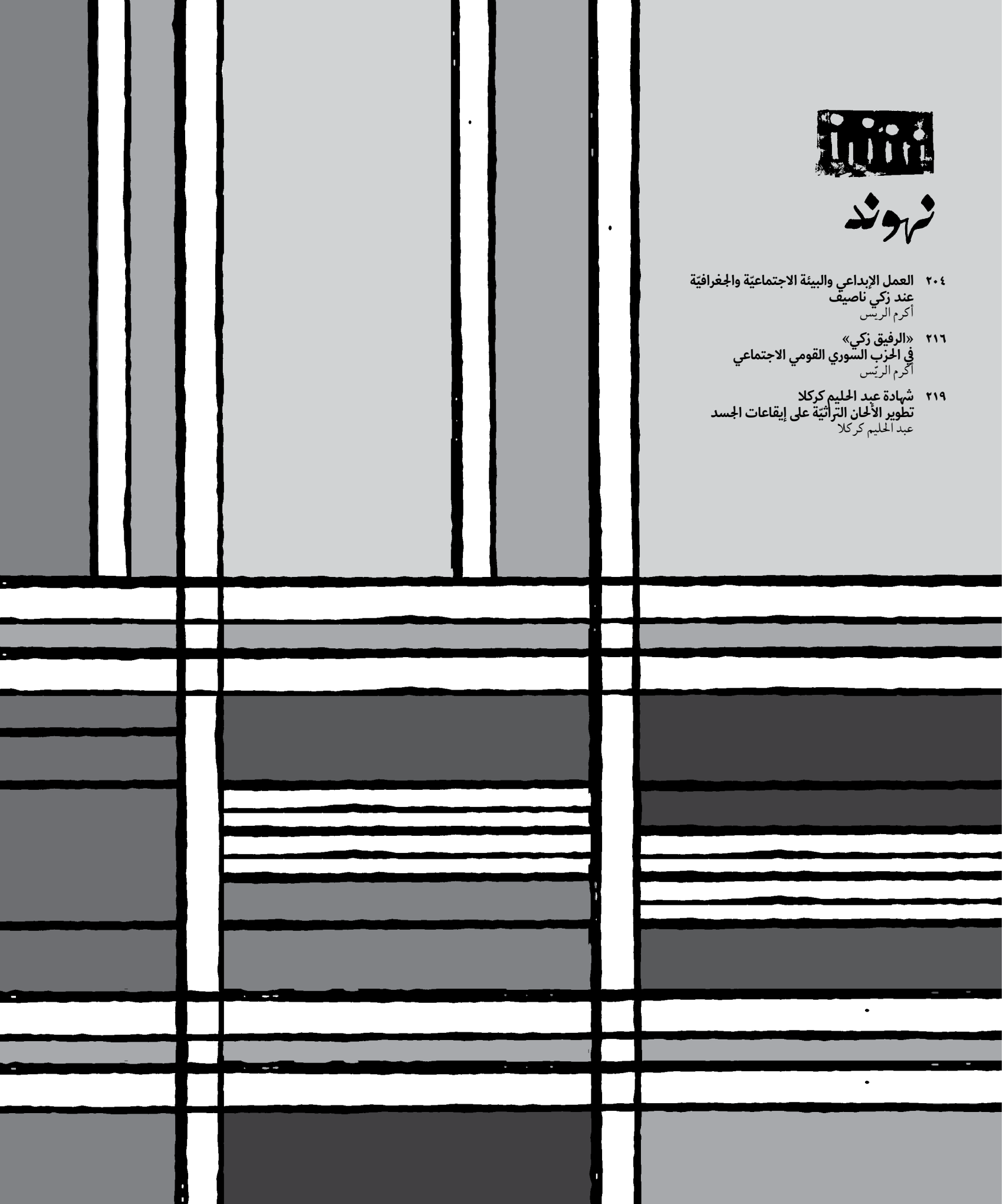

نهوند

٢٠٤ **العمل الإبداعي والبيئة الاجتماعيّة والجغرافيّة عند زكي ناصيف**
أكرم الريس

٢١٦ **«الرفيق زكي» في الحزب السوري القومي الاجتماعي**
أكرم الريّس

٢١٩ **شهادة عبد الحليم كركلا تطوير الألحان التراثيّة على إيقاعات الجسد**
عبد الحليم كركلا

العمل الإبداعي والبيئة الاجتماعيّة والجغرافيّة عند زكي ناصيف

أكرم الريس

باحث في انتروبولوجيا الفنون، لبنان.

«يا دار اللي غنّيناها
بتغني أمانيها

إلنا عمر منبنيها
بغنانينا وأشعارنا»[1]

«بغنّي بغنّي لكلّ بسمة تهلّ
بضيعتي ع شفايف الطفل الزغير

بغنّي بغّني لكلّ شتلة فِل
بضيعتي تا تزيدها نسمة عبير

بغنّي بغنّي لكلّ جبهة تطلّ
عالغيم بالإيمان والحبّ الكبير

بغنّي بغنّي لكلّ زرع يغِلّ
عاضيعتي خيرات ومواسم حرير

وما زال عرفتوا لمين عم بغنّي يا هالحلوين
قوموا التمّوا حواليّي تانكمّل هالغنيّة
ونبقى نغنّي نغنّي وما حدا يسأل لمين»[2]

«واللي قادر يبقى قادر
ويكّمل ها هالغنيّة»[3]

يلاحظ* جورج قرم أنّ العلاقة بين الريف والمدينة مرّت في عدّة مراحل من تاريخ لبنان المعاصر ولم تكن مستقرّة، بل أخذت مساراً جدليّاً تضاربت فيه الأدوار ونُظم القيم مرّات، وتقاطعت مرّات أخرى في ديناميكيّة صراع الاتّجاهات والقوى الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة إلى أن اجتمعا نهاية الحرب العالميّة الأولى عبر موجات من النزوح حدثت في فترة زمنيّة قصيرة بدأت في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر[4]. يعالج هذا البحث العلاقة الحركيّة بين البيئة الاجتماعيّة والجغرافيّة والإبداع الفنّي عند زكي ناصيف في إطار تحوّلات الريف والمدينة، وبالتحديد في مشغرة البقاعيّة وبيروت في الفترة الزمنيّة الممتدّة من منذ زمن الانتداب حين كانت المدن والعواصم بالأخص لها الأولويّة في سياساته التنمويّة حتى مرحلة بداية الحرب الأهليّة اللبنانيّة. وسنسعى إلى مقاربة هذه العلاقة انطلاقاً من تقصّي وتحليل الخطاب النابع من أعماله وكلمات أغانيه التي نظمها بالإضافة إلى مقابلاته حول رؤيته الفنيّة الموسيقيّة العامّة مع ما توفّر من مستندات داعمة ودراسات مرتبطة بنطاق البحث.

ارتبط اسم مشغرة بوفرة ينابيع الماء، واكتسب موقعها الجغرافيّ أهميّة إستراتيجيّة لكونه نقطة تقاطع بين البقاع وجبل لبنان والجنوب بالإضافة إلى قربه من دمشق. انضمّت هذه البلدة المناهضة للانتداب متأخّرة إلى لبنان الكبير بعد مواجهات بين الفرنسيّين وأبنائها من مؤيّدي ثورة الشريف الحسين الذين ناضلوا في سبيل الانتماء إلى الدولة العربيّة[5]، وقد عزّز قُرب مشغرة ومحافظة البقاع عموماً من دمشق والداخل السوري الروابط الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة فيما بينهما، وفي التأثيرات الفلكلوريّة المتبادلة[6]. وتميّزت مشغرة

* الملف المنشور في العدد ١٤ من بدايات والملف الحالي عن الفنان زكي ناصيف من إعداد أكرم الريس.

في صناعة دبغ الجلود ومستلزماتها وتزعّمتها بين كافة المناطق الاخرى[٧] منذ الحرب العالميّة الأولى بعد انهيار اقتصاد الحرير وانحسار الزراعات المحليّة. وقد كان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعيّة في البلدة، فقد انخرط في صناعة الجلود العديد من أبنائها ومنهم شاكر ناصيف وأخوه سمعان، وساهمت في إعادة تشكيل التراتب الاجتماعيّ والتوازنات الطائفيّة في البلدة مع دخول الأحزاب العقائديّة ونشأة النقابات المهنيّة[٨].

نغمات البيئة وألوانها

في البيئة الأولى وعمادها منزل العائلة ومشارفه في مشغرة، سُحر زكي بصوت والدته وهي تغنّي الفراقيّات وانحفر عميقاً في وجدانه. وانجذب نحو سماع تسجيلات الفونوغراف الذي استقدمه والده من دمشق، وقد حفظ قصيدة «سلام على حسن» لرائد المسرح الغنائي في مصر الشيخ سلامة حجازي (١٨٥٢-١٩١٧) وهو لا يزال في السادسة من العمر[٩]. نزحت عائلة شاكر ناصيف العام ١٩٢٠ إلى بيروت، وباشر زكي دراسته الابتدائيّة في مدرسة كنيسة مار عبدا المحاذية لمنزلهم في محلّة الطيّونة، وفيها كان اتصاله الأوّل بالموروث السرياني. ثمّ انتقل إلى «مدرسة المخلّص» بالقرب من حيّ الناصرة في بيروت، التابعة لكنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك في لبنان، ليتابع تعليمه فيها وليغرف من روحانيّة وجماليّات القدّاس البيزنطي الذي كان يشارك فيه ترتيلاً متأثّراً برائد نهضة الموسيقى الكنسيّة الأنطاكيّة والمرّتل الأوّل متري المرّ (١٨٨٠ – ١٩٦٩)[١٠]. وقد وضع لها نشيداً وكان قد بلغ السنة الرابعة عشرة من عمره[١١]. يكتب أنطون سعادة أنّ «الطبيعة والجغرافية هما الطبقة الداخليّة في تاريخ الإنسان»[١٢].

كانت مشغرة بالنسبة إلى موسيقاه «المنهل الفلكلوري»، فهي القمر يطل فوق الجبل، وسواقي المياه، والنسيم العليل، وعمال المدابغ، والفلاحون، والمكارية، وأعياد العمال والسيدة والفطر، وتلقائية القوالين، وحكايات السهرات.

وتنطبق هذه المقولة الأنثروبولوجيّة تماماً على سيرة زكي ناصيف كما على فنّه، فكانت مشغرة بالنسبة إلى موسيقاه «المنهل الفلكلوري»، فهي القمر يطلّ فوق الجبل، وسواقي المياه، والنسيم العليل، وعمّال المدابغ، والفلاحون، والمكاريّة، وأعياد العمّال والسيّدة والفطر، وتلقائيّة القوّالين، وحكايات السهرات، وتقاليد التعزية، ومزار النبيّ نون، ومقام النبي مرّة. ويروي ناصيف أنّ بيت العائلة في مشغرة قرب عين الشحلة كان «يشرف على البيادر، ففي أثناء الصيف كنت أنام في خيمة على سطح المنزل والشبّان يعملون على البيادر المقابلة في أثناء الليل، ذلك لأنّهم يعملون في المدابغ في أوقات النهار، ويتناوبون على النورج[١٣] في البيادر في أوقات الليل. فريق يعمل، وآخرون يدبكون على ألحان المنجيرة[١٤] وعلى دلعونا فتصل هذه الالحان إلى أذني – وأنا على السطح – وهي تتماوج، فتعلو وتخفت بحسب هبّات النسائم»[١٥].

في المقابل، كانت بيروت خلال الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن الماضي تُعزّز مكانتها كقطب ثقافيّ إقليميّ تعدّدت مكوّناته من الأرياف المحليّة والمدن العربيّة، فساهموا في خلق أبجديّتها الجديدة في الأدب، والموسيقى، والمسرح، والإعلام. ووفّرت هذه الحاضرة المتوقّدة لهم المجالات الرحبة للتفاعل مع ثمرات الازدهار الاقتصادي المرتكز على الخدمات والسياحة، وتطوّر المؤسّسات التربويّة، وتعدّد المنابر الفنيّة والثقافيّة، وحرّية التعبير. وغلب التوجّه الرسميّ خلال الخمسينيّات والستينيّات في ربط الفنون والثقافة بالسياحة وبالأهداف الاجتماعيّة وبخصوصيّة «الرسالة اللبنانيّة»[١٦]. وكان المثقّفون والفنّانون في تعدّد اتّجاهاتهم يشقّون طرقاً أخرى عبر سبر أغوار «إشكاليات الانتماء، والفنّ الملتزم، وأشكال التعبير»[١٧]. كذلك الأمر بالنسبة إلى زكي ناصيف، فكانت بيروت غربال العلوم الموسيقيّة الحديثة في الجامعة الأميركيّة في بيروت ومن ثمّ مع برتراند روبيار[١٨]، والمنصّة الملائمة لبلورة وترسيخ الانتماء والالتزام القومي، وللانطلاق المهنيّ حيث كانت البداية مع إذاعة الشرق الأدنى والشركة اللبنانيّة للتسجيلات، ومن ثمّ مهرجانات بعلبك الدوليّة وفرقة الأنوار، وفي مرحلة لاحقة مع الإذاعة اللبنانيّة، وفرقة كركلّا في امتداداتها نحو البادية السوريّة والأردنيّة، وأنطوان غندور في أعماله للمسرح والتلفزيون.

كان لهذا الجسر الإبداعيّ الذي بناه ناصيف بين مشغرة وبيروت أثر في ما سمّاه «المزيج المتجانس من

نهوند

الألوان»[١٩] في ألحانه هو: «العربي (كلاسيكي وبدوي)، ثمّ البيزنطي ثمّ السرياني بالنسبة إلى الجملة الموسيقيّة قصيرة المدى، والإيقاع النابض، وكل هذا مقدّم بالأسلوب الأوروبي البنائي»[٢٠].

حدد ناصيف ميزان التثاقف الذي يعادل بين عناصر الموروث المحلي والتقنيات والالآت الوافدة من الإرث الأوروبي ويكتشف إمكانيات انصهارها في تشكيل سمعي متماسك ومتآلف.

وحدّد ناصيف ميزان التثاقف الذي يعادل بين عناصر الموروث المحلّي والتقنيّات والالآت الوافدة من الإرث الأوروبّي ويكتشف إمكانيّات انصهارها في تشكيل سمعيّ متماسك ومتآلف، فهو «الإنتاج الفلكلوري المبتكر المبنيّ على أسس الموسيقى العالميّة»، ومن خلاله «ينطلق المؤلّفون والملحّنون في هذا البلد إلى المواضيع الكبرى المبنيّة على أسس الإنتاج الفولكلوري الجديد بحيث يصبح لإنتاجنا شخصيّة قوميّة بارزة بين شخصيّات الأمم الراقية الممثّلة بإنتاجها القومي»[٢١]. ولم يكن السبيل إلى التجانس الحيوي بين هذه العناصر سهلاً أو سريعاً، نظراً إلى الاختلاف التاريخي الجذري بين أنظمة القيَم المتباعدة في حياة الأرياف المرتبطة اجتماعيّاً واقتصاديّاً بالسلطات الإقطاعيّة والدينيّة وطبيعة بيئتها الوعرة، وتلك التابعة للسلطات الوافدة والمتعاقبة على المدن البحريّة واقتصادها المرتكز على التجارة.

منهل ومنهج

يتّسع المنهل الذي غرف منه زكي ناصيف لمخزون شعبيّ وكلاسيكيّ «عميق التغلغل في خلايا السهل والجبل»[٢٢] والمدينة، ولتراكم الطبقات الداخليّة في ذاكرتنا الجماعيّة لتاريخ من نغمات وإيقاعات منذ زمن المعابد القديمة وأهازيج العمّال في المدن البحريّة. وبالتالي يوصي بالعمل على «نبش وتعميم» كلّ ما ينبع من بيئتنا فهي «مكتملة الشخصيّة، مؤهّلة لأن ينطلق منها موسيقى تُعبّر عن طابعها، (وتحتوي على) أهمّ المقوّمات للبناء الموسيقي»[٢٣]. وتتميّز ألحاننا الشعبيّة بالجمل الموسيقيّة القصيرة ذات الطابع الفرح والإيقاعين الرباعي والسادسي، وهي ألحان مشتركة بين لبنان وامتداد الريف والبادية في سورية والأردن، وفلسطين، وشمالي العراق، وقد تتنوّع مع تنوّع الجغرافيا والظروف المناخيّة والأصول العرقيّة للشعوب المتعاقبة في تلك المناطق. أمّا موروثنا اللحنيّ الكلاسيكي فكان نتيجة التفاعل بين الفنّ الأندلسي والفنّ التركي البيزنطيّ الأصل وهو غنائيّ وآليّ. ويركّز زكي ناصيف على دور الآلة في تحديد خصائص كلٍّ من الموروث الشعبي والكلاسيكي وذلك «لأنّ الجملة الموسيقيّة نابعة من أبعاد الآلة»[٢٤]. فهي تحكم امتدادهما الصوتي الذي لا يتعدّى الأربع أو الخمس درجات مع آلة المجوز[٢٥] في الغناء الشعبي، وعلى السلّم الموسيقيّ الكامل مع القانون والعود في الشقّ الكلاسيكي. ويجدر الذّكر أنّ مقولة زكي ناصيف مبنيّة على دراسة علميّة وخبرة عمليّة في آن واحد لكونه تعلّم في مرحلة مبكّرة من عمره العزف على العود والمجوز، كما تعلّم العزف على البيانو والتشيلّو لاحقاً خلال دراسته في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

عمل زكي ناصيف عبر الاستناد إلى هذا المخزون في بعث التراث الريفي واستلهامه في الغناء والموسيقى في إحياء الانتماء القومي للأرض والطبيعة. وتميّز في بناء ألحان جديدة ذات طابع فولكلوريّ على إيقاعات متعدّدة نابعة من التراث الشعبي (الدلعونا، والغزيّل، والقرّادي، والأهازيج...)، أو من الإيقاعات المرتبطة بالموشّحات مثل إيقاع المصمودي. إذاً الإيقاع جزء مهمّ في شخصيّته الموسيقيّة، و«البنية الإيقاعية هي نقطة الارتكاز في عمله وليست الدراما»[٢٦].

وتحمل الكلمة نغمةً أو أكثر مع الابتعاد عن الاستعراض النغمي التقليدي، ممّا يعطي سهولة مطلقة في حفظ الكلمة مع اللحن. تمتاز أعماله بسلاسة لحنيّة فطرّية وفيها جمال نادر وقدرة متفرّدة في تلوين اللحن بشكلٍ غير متوقّع، ممّا يمنح المتلقّي تشويقاً سمعياً ممتعاً مكلّلاً بغنائه الذي ينساب من هذه البنية اللحنيّة مثل انسياب ووداعة سواقي المياه في مشغرة.

وتخبّئ ميلوديّاته في طيّاتها منظومة بوليفونيّة[٢٧] تلقائيّة سببها النمط الحواريّ في بناء ألحانه. وتتكوّن هذه الألحان من موتيفات[٢٨] متنوّعة قليلاً ما تتكرّر بعكس العرف السائد لبناء الألحان. وقد تعدّدت المقامات الغربيّة والشرقيّة التي تناولها من المينور والماجور وصولاً إلى البيّات والحجاز، ممارساً علومه الهارمونيّة[٢٩] لإضفاء توزيع رقراق ومؤثّر لأعماله عامّة مع تنوّع تشكيلات

الفرَق الموسيقيّة التي استخدمها أو توفرت له خلال مسيرته الفنيّة. ونلاحظ توافر أكثر من تسجيل لبعض أغاني ناصيف، ممّا يعكس نزعته لتقديمها في صيَغ متعدّدة التوزيع الموسيقيّ أو بأصوات مختلفة[٣٠].

تنوّعت الأنماط والقوالب والمنهجيّات الموسيقيّة في رصيد ناصيف الفني، فكان له باع طويل في الأغاني الشعبيّة (بربر آغا، من هالوادي، عاتلالنا، من يوم تغرّبنا)، والأغاني الرومنسيّة الحديثة التي لا تنهل من مخزون الأرياف (غنّيلي بالليل الهادي، في وردة، دنياك يا أسمر)، والوطنيّة (لالالا عيني يا لالالا، ميلي يا جنّات بلادي، يا بلادنا مهما نسينا) والأناشيد العسكريّة (تسلم يا عسكر لبنان، نسر الجو العالي، رعد مدافعنا)، وأغاني الأطفال (خبار ستّي، قالتلي العصفورة، إنجغا آبّا)، والترانيم الدينيّة (حنانك يا ربّ الأكوان، يا ربّ إليك صلاتي، أيّها المولود من روح الإله) بالإضافة إلى المغناة (يا بني أمّي)، والأغاني ذات الطابع البدوي (ندّي النسايم، نحنا بنات البدو، هلا يا ريم الفلا)، والموشّحات (سحرتنا البسمات، وفوق هاتيك الربى، لي حبيب)، والموسيقى الآليّة (مقدّمة أرضنا إلى الأبد، مقدّمة حكاية لبنان، كونشرتو الغيتار)، وموسيقي الرقص الشعبي (أعمال فرقة كركلا، رقصة الأباريق).

نظم ناصيف العدد الأكبر من كلمات أغانيه رغم أنه تعاون مع العديد من شعراء الأغنية بالأخص إميل رفول ومصطفى محمود في الخمسينيات. وطلال حيدر في مسرحية «فرمان». وحيدر محمود في مسرحية «برجاس». وآخرين.

وقد أرسى ناصيف للأعمال الشعبيّة على وجه الخصوص منهجيّة في ثلاث مراحل ذات طابع مرجعي للعديد من الموسيقيّين الذين ينتمون إلى الأجيال اللاحقة، وهي تحديده «عدّة تقاليد من ألحان نموذجيّة مرجعيّة في مرحلة أولى، ثمّ اقتنع في أنّها ألحانٌ قابلة للتّولّد ثانياً، فولّد ألحاناً جديدة على نسقها وغرارها ثالثاً أطرب بها آذان ومسامع أجيال عديدة تواترت على سماع نتاجه»[٣١].

حروف من نسيم ونار

نظم زكي ناصيف العدد الأكبر من كلمات أغانيه رغم أنّه تعاون مع العديد من شعراء الأغنية بالأخصّ إميل رفول[٣٢] ومصطفى محمود[٣٣] في الخمسينيّات، وطلال حيدر في مسرحيّة «فرمان» (مهرجانات بعلبك الدوليّة، ١٩٧٠)، وحيدر محمود في مسرحيّة «برجاس» (المدرج الروماني في عمّان، ١٩٧٧)، وآخرين[٣٤]. وتميّزت نصوصه بمفرداتها ذات الطابع المحلّي والصور المرتبطة بالبيئة الاجتماعيّة والجغرافيّة التي نشأ وعاش فيها في كلّ من بلدته البقاعيّة مشغرة وفي ضاحية عين الرمانة البيروتيّة[٣٥].

ومن تلك المفردات كلمات مرتبطة بحياة المدينة وأخرى بالريف والبادية مثل «الكماجة»، و«نغمشات الهوا»، و«جهجهة النور»، و«غناني الغدران»[٣٦] التي نكاد ننساها لكونها تغيب عن حياتنا اليوميّة في مدننا المعولمة.

وتتوالى الصور في أغانيه التي تنقل المستمع إلى مشاهد العونة في الزراعة، والأعراس، وحلقات الدّبكة. وكان للأرض والطبيعة محطّات كثيرة في أعماله حيث إنها «منهل فكره وشعوره وإلهامه»[٣٧]، وهي «الشعر والمغنى»[٣٨]، و«بسمة الأجيال»[٣٩]، و«أمانة الأجداد» التي «تفيض بالخيرات»[٤٠] ونفديها بأرواحنا«[٤١] ونحييها في أعيادنا وصلواتنا. وتكتسب الأرض أبعاداً إضافيّة عبر علاقتها بالإنسان، حيث فيها «حفرنا دروبنا»[٤٢] وعاداتنا[٤٣] وحكاياتنا الجميلة التي ترويها «شقشقة النايات»[٤٤] وساحات الدبكة[٤٥].

ويتدرّج تفاعل البيئة مع الجماعة في نصوص زكي ناصيف فتتماهى الأرض مع الإنسان وتكتسب صفاته، فتصبح النسمة روحاً، وحبّة التراب قلباً ولهفة أمّ[٤٦]، وتفرح زهرات الوزّال عندما تسري النسمات[٤٧]، وتموج وترقص المروج حول السواقي[٤٨]، بينما يطلّ الفجر وتنجلي ألوانه[٤٩] لتفصح عن أسرار جمال الحبيبة[٥٠]، ويحن الشجر وينحني لها[٥١]. وترمي الشمس خيوط الضوء لترى ماذا سرقت الغيوم العابرة من هيبة وشيبة جبل صنّين الذي يذوب ثلجه[٥٢] مثلما يبكي البنفسج[٥٣] حزناً على حسرة القلب المجروح[٥٤] وفراق الأحبّة. ومع ذلك، تبقى شخصيّة الجماعة وغايتها هي الأحلى[٥٥] عندما تتشابك السواعد والهمم وتتصافى القلوب[٥٦] لتقوى على المصاعب، فتبني وتصنع وتزرع، ويسير شعبها مجتمعاً نحو فجر ونصر[٥٧] جديدين محقّقاً نهضة ذاتيّة[٥٨]، منطلقة من داخل الأمّة ومن قِيَمها ومواردها وتطلّعاتها الإنسانيّة[٥٩].

طيور مرتحلة، دبكة مهاجرة

استحوذ الرقص الشعبيّ عموماً والدبكة خصوصاً على اهتمام زكي ناصيف حتّى غدت موضوعاً قائماً بحدّ ذاته في أعماله، فهي صورة[٦٠] تظهر ضحكة مشاعرها[٦١]، ومضمون يحكي عن عزّتنا[٦٢]. هي إطلالتنا على الدنيا[٦٣] و«دبكة إنسانيّة»[٦٤] تلاقي تراثات الأمم الأخرى وتُغنيها. ويعتبر تثبيت قالب الدبكة الموسيقي من إنجازات ناصيف الفنيّة الكبرى كما عرفناها مع انطلاقة الليالي اللبنانيّة في مهرجانات بعلبك. فقام بإطالة جملتها اللحنيّة، والتبديل في سرعة إيقاعاتها ومواءمتها مع خطوات الراقصين، ممّا ساهم في تقديمها كفنّ مسرحيّ مشهديّ يتمحور حول مفهوم الجماعة في الكلمة، واللحن، والتوزيع الموسيقي، والغناء، والرقص.

يصبح أثر البيئة الحاضنة الجديدة أكبر مع الوقت. وبالتالي تنقطع «الدبكة الفنية» المهاجرة تدريجيا عن العناصر والوظائف الثقافية الأخرى التي ارتبطت بها في بيئتها الأولى. فهي تحولت إذا إلى نمط فني مدني رغم أن مصدر إلهامها هو ريفي وفلكلوري.

فالدّبكة هي رمز وحدة الجماعة وتضافر جهودها، وتتألّف من صفّ مرصوص (أو صفَّين متقابلين[٦٥] أو في شكل دائري[٦٦]) من الصبايا بقاماتهن الممشوقة وخدودهن خمريّة اللون[٦٧]، والرجال البواسل[٦٨] ذوي الجباه المرفوعة[٦٩] والأيادي المتشابكة[٧٠]. ويقود رئيس الحاشية أو راعي الدبكة[٧١] إيقاعها ملوحاً بالفوطة المبرومة[٧٢] بيده اليمنى، بينما يتولّى نغماتها عازف المجْوز[٧٣] بصوته القويّ المُبهج أو المنجيرة[٧٤] التي يسْكر حنان بحّتها[٧٥] الراقصين ويزيدهم حماسة وخفّة. ويتّحد هدير خطواتهم وغنائهم على قوافي الدلعونا والميجانا[٧٦] مع زغردات المنجيرة وتصبح أغانيَ تغزلها الطيور[٧٧] المرتحلة وتنشرها في الوديان والروابي[٧٨] فتتغلغل في ثناياها، وتصير جزءاً من تاريخها غير المكتوب. تستمرّ الدّبكة وتتكرّر عدّة ساعات متواصلة على «إيقاع الزمن الدائريّ للحياة الزراعيّة»[٧٩] في مناسبات القرى الاجتماعيّة، يتناوب خلالها الراقصون ليستريح بعضهم، ويسري هذا الأمر أيضاً على رئاسة الحاشية.

ارتحلتْ دبكة زكي ناصيف ضمن لوحات «الاحتفال الصوتي اللونيّ الحركيّ الراقص»[٨٠] في المهرجانات المحلّيّة وتجوّلت في المسارح العربيّة والأوروبيّة، حيث «طاب (للفلكلور اللبنانيّ) المناخ على المسرح، لذا نراه يرفض البقاء محصوراً في ساحة القرية الضيّقة، ويرفض بالتالي البقاء في الإطار اللبناني، فقد تعوّد على إعجاب الأجانب بشخصيّته الجذّابة»[٨١].

وبمجرّد أن استقرّ هذا النّمط على المسرح، أصبح له بيئة ووظيفة جديدتان خارج بيئته الأصيلة الريفيّة. ويصبح أثر هذه البيئة الحاضنة الجديدة أكبر مع الوقت، وبالتالي تنقطع «الدبكة الفنيّة» المهاجرة تدريجيّاً عن العناصر والوظائف الثقافيّة الأخرى التي ارتبطت بها في بيئتها الأولى. فهي تحوّلت إذاً إلى نمط فنّيّ مُدنيّ رغم أنّ مصدر إلهامها هو ريفيّ وفلكلوريّ. في هذا الإطار المتحرّك تصبح مقوّمات بقائها وخصائصها الأدائيّة مرتبطة بآليّات الإنتاج والاتصال الموسيقي والفنّي السائدة في المدينة، بينما يتوقّع ناصيف استمرار الدّبكات التي نشأت واستقرّت في الأرياف «ما دام هنالك فلّاحون يتفاعلون مع الأرض ويؤمّنون استمراريّة الأمّة»[٨٢].

لم تتوقّف في الواقع هذه التحوّلات الريفيّة الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والعمرانيّة وما رافقها من موجات النزوح إلى المدن والهجرة منذ نشأة لبنان الكبير رغم تعدّد أسبابها ونتائجها، وعلى غير ما يوحيه وهْم الخطاب الفنّي والثقافي السائد في لبنان خصوصاً قبل الحرب الأهليّة عن نقاوة حياة الأرياف وثبات قيمها.

لعلّ هذه التغيّرات دفعت رائد البحث في التراث الشعبي والفلكلور أنيس فريحة أن يُعنْون كتابه «حضارة في طريق الزّوال: القرية اللبنانيّة» منذ العام **١٩٥٧** أو أن يدعو زكي ناصيف في أغانيه إلى التمسّك بتقاليدنا وعاداتنا التي «عليها ربينا/ الله يعزّزها فينا / لا ينسينا ولا يغيّرنا»[٨٣] (**١٩٥٩**). وفي حين كان الريف يُهَّمش في السياسات الاقتصاديّة والتنمويّة في الحكومات المتعاقبة في لبنان قبل الحرب، تغنّت الفنون والآداب في قيمته وأكسبته رمزيّة وطنيّة وإبداعيّة باعتباره «المرجع، والموئل، والمأوى»[٨٤].

البحث المستمرّ

رغم إنجازاته وإنجازات زملائه، يرى زكي ناصيف أنّنا

«بدون شك لا نزال متخلّفين عن مواكبة الركب الفنّي العالمي، شأننا في أكثر المقوّمات الحضاريّة». وينوّه بأنّه «ما دمنا نرغب بالانضمام للحلقة الموسيقيّة العالميّة بمسايرة خطى شعوبها، علينا نحن أبناء هذا الجيل أن ننظر إلى مستقبل موسيقانا سواءٌ أكانت غنائيّة أو آليّة... إن مجهوداً كبيراً طويل النفَس، وواسع النطاق ينتظرنا»[٨٥]. لذلك وجب علينا «التخطيط للموسيقى الآليّة والعمل لها باجتهاد ووعي صحيح لماهيّة شخصيّتنا الموسيقيّة التي ينبغي أن نطلقها ونطلّ بها على العالم»[٨٦] عبر الاستمرار في البحث في المصادر الأوّليّة وبيئتها الذين يشكّلون عناصر موسيقانا، والعمل حكومة وشعباً على نشر العلوم الموسيقيّة العالميّة، وتعميم الموسيقى الراقية في البيوت والمدارس بصورة شاملة.

تهجر المعاني موائلها، وترحل معها الأمكنة. وتتلاشى تدريجيا وبثبات في الوجدان القومي محورية لقاء الريف والمدينة حسب المنظومة التي انطلقت في الخمسينيات أخرى جامعة إلا في لحظات عابرة تكون في الأغلب موضبة لاستهلاك آني يدور في حلقات مفرغة في اقتصاديات النسيان.

منذ أن كتب زكي ناصيف هذه الكلمات ومع ظهور أجيال موسيقيّة جديدة ووسائل تكنولوجيّة تفتح آفاقاً جديدة في حفظ ونشر الإرث الموسيقي ومنهجيّة تعليمه وتواتره، تستمرّ حركة التغيّرات التي تشهدها بيئتنا الاجتماعيّة والطبيعيّة بخطى متسارعة في المناطق الريفية كما في المدينة، وينتج منها نزاعات وتحدّيات تصيب هويّات المجتمع وعناصر ديمومته. وتهمّش الحرب الأهليّة وما يليها من حروب محلّيّة مستمرّة ومُضمرة المؤسسات الرسميّة الحاضنة، وتُفكّك الروابط القائمة بين الناس وأماكنهم التي لا زالت تردّد أحجارها أصداء العنف والفقر، فتنتج تكتّلات ديمغرافيّة وجماعات تتجاور ولا تتّحد في «جغرافية الخوف» كما سمّاها عالم الاجتماع سمير خلف[٨٧]. تصبح هذه البيئات المستحدثة هي ذاكرة بديلة، أو بالأحرى مجموعة من الذاكرات، لأبناء الحرب الذين أسّسوا قراهم الجديدة ضمن «وحدات ريفيّة – مُدنيّة»[٨٨] متشظيّة، وارتبطوا بفضاءات إقليميّة معولمة لا زالت تحفر امتداداتها.

تهجر المعاني موائلها، وترحل معها الأمكنة، وتتلاشى تدريجيّاً وبثبات في الوجدان القومي محوريّة لقاء الريف والمدينة حسب المنظومة التي انطلقت في الخمسينيّات أخرى جامعة إلّا في لحظات عابرة تكون في الأغلب موضّبة لاستهلاك آنيّ يدور في حلقات مفرغة في اقتصاديّات النسيان.

وتزداد أهمّيّة رؤية زكي ناصيف الفنيّة حول البحث المستمرّ في المصادر والمناهل وأطرها الاجتماعيّة والفكريّة وفي «المزيج المتجانس من الألوان» حين تطغى الفرديّة الضيّقة في تطلّعاتنا ويزداد التفكّك في البنى الاجتماعيّة، وبالتالي تترهّل الشخصيّة الجماعيّة القوميّة، فتغيب القيم المرجعيّة الوازنة والجامعة التي هي قوام النهضة المبدعة المنتمية وغربالها. فلا نستغرب ما وصلنا إليه من إسفاف وفراغ في أحوال العمل الإبداعي وتهميش عناصره، وفي انحسار البحث في الفنون والثقافات البدويّة، والريفيّة، والمُدنيّة رغم جهود قامت بها بعد الحرب جامعات ومؤسّسات أهليّة أو باحثون منفردون، وفي غياب شبه كامل ما عدا استثناءات قليلة لفكر موسيقيّ خلاّق ومتعدّد يكمل ما بدأه الروّاد المعاصرون أمثال زكي ناصيف.

المراجع:

١ المصدر: أغنية «يا دارنا يا دار الهنا»، نظم ولحن زكي ناصيف.
٢ أودّ أن أشكر كلاً من الأساتذة سعاد سليم، أسعد قطّان، وفادي العبدالله، ودلال ناصيف، وهملقارت عطايا، ومروان أبو جودة. موال من نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح، من مسرحيّة «وتضلوا بخير»، مهرجانات بعلبك الدوليّة، ١٩٧٤.
٣ المصدر: نشيد «رصاصتنا بتسوى ميّة»، نظم ولحن زكي ناصيف، إنشاد وعزف موسيقى الجيش.
٤ جورج قرم (نقله إلى العربيّة حسان قبيسي)، **لبنان المعاصر: تاريخ ومجتمع**، بيروت: المكتبة الشرقيّة، ٢٠٠٤.
٥ موقع بلديةّ مشغرة على الإنترنت: لمحة تاريخية، الرابط: http://mashgara.com/history/abouthistory.html (٢٩,٨,٢٠١٦).
٦ محمود نون، «أعلام التراث الشعبي: جوانب من التراث الشعبي في البقاع»، **المؤتمر الثاني للثقافة الشعبيّة اللبنانيّة - العربيّة**، بيروت: حلقة الحوار الثقافي، ١٩٩٩.
٧ أدفيك جريديني شيبوب، **الحِرف الشعبية في لبنان**، بيروت: مطبعة الحَال، ١٩٦٤.
٨ فواز طرابلسي، **يا قمر مشغَرة: المحسوبية، الاقتصاد، التوازن الطائفي**، بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٤.
٩ **محطات في حياة زكي ناصيف ومسيرته، كتاب من أوراق زكي ناصيف**، بيروت: منشورات الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٠١٤.
١٠ هاشم قاسم، «زكي ناصيف: أصالة وتجدد»، **مجلة الرأي الآخر**، العدد العاشر، تموز ٢٠٠٧.
١١ كرّمت مدرسة المُخلّص تلميذها زكي ناصيف وهو في خريف العمر بمناسبة تقليده الصليب البطريركي الأورشليمي المقدّس في ٢٦ آيار ٢٠٠٣.
١٢ أنطون سعادة، نشوء الأمم، بيروت: دار فكر للأبحاث والنشر، ١٩٨٩ (ص ٤٨).

١٣ النورج: آلة زراعية تجرها دابة لدرس القمح والحبوب على البيدر.

١٤ **المنجيرة:** آلة النفخ المنتشرة في البقاع وجنوب لبنان. تتألف من قصبة ذات فسحة واحدة طولية. في رأسها صافرة مثقوبة ينساب إليها الهواء من الفم بمجرى أفقي ويرتطم بفاصل حادّ في القصبة يبعد عن آخر المجرى نحو ٥/١ سنتم. لها ٨ ثقوب متساوية المسافة بينها بدون ثقب خلفي (المصدر بتصرف: ناصر مخول، **صناعة الآلات الموسيقية التراثية اللبنانية**، بيروت: وزارة الثقافة اللبنانية، ٢٠٠٩). ذكرها الإمام كمال الدين الشافعي في كتابه **الإمتاع بأحكام السماع:** «الرعاة يضربون بقصبة تسمى المِنْجارَة، وبقصبتين يسمونهما المقرونه». للمزيد عن عازفي المنجيرة والمجوز في جنوب لبنان والبقاع الغربي وظروفهم: محمد ملحم http://www.al-akhbar.com/node/934، أسعد سعد الحاريصي: http://bintjbeil.org/article/55657 نواف محمد جابر: http://www.almustaqbal.com/v4/Article.aspx?Type=np&Articleid=483656 غازي نبعة: http://www.khiyam.com/news/article.php?articleID=9598. (٢٠١٦/١٠/١).

١٥ فرحان صالح وعصام الحوراني، «حوار مع الموسيقار زكي ناصيف: ليس هناك من فلكلور في المدينة»، **المؤتمر الثاني في الثقافة الشعبية اللبنانية - العربيّة**، بيروت: دار الحداثة، ١٩٩٩.

١٦ لجنة مهرجان بعلبك الدولي، كلمة رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون، منهاج مهرجان بعلبك الدولي الثالث، ١٩٥٧.

١٧ ريتا عازار ووطفاء حمادي، **السياسات الثقافية في لبنان، مدخل إلى السياسات الثقافية في العالم العربي** (تحرير حنان الحاج علي)، القاهرة: دار شرقيات، ٢٠١٠.

١٨ **برتراند روبيار** (١٩٠٥-١٩٦٤): موسيقي فرنسي وأستاذ الرياضيات في جامعة القديس يوسف. عُرف في لبنان على مدى ثلاثين عاما كعازف أورغ في القداس، وملحّن، ومايسترو. يذكر زكي ناصيف أنّه عرفه على عاصي ومنصور الرحباني وتوفيق الباشا الذين أصبحوا من تلاميذه.

١٩ «**زكي ناصيف**»، **كتاب من أوراق زكي ناصيف**، بيروت: منشورات الجامعة الأميركية في بيروت، ٢٠١٤.

٢٠ المصدر نفسه.

٢١ المصدر نفسه.

٢٢ غسان مطر، «زكي ناصيف... قمح روحنا الجائعة»، موقع الجبهة، الجمعة ١٢/٣/٢٠٠٤، الرابط: http://www.aljabha.org/?i=4708 (١٢/٩/٢٠١٦).

٢٣ تأثير التراث الفولكلوري في موسيقانا، كتاب من أوراق زكي ناصيف، بيروت: منشورات الجامعة الأميركيّة في بيروت، ٢٠١٤.

٢٤ فكتور سحّاب، «زكي ناصيف في حديث تاريخي لدليل النهار»، **جريدة النهار**، ٩ تموز ٢٠٠٤.
صدرت المقابلة الكاملة بأجزائها الستة مؤخراً في كتاب عن دار نلسن في بيروت تحت عنوان «زكي ناصيف: الموهوب العالم» مزوّدة بمقدمة ولائحة أعمال زكي ناصيف حسب جداول جمعيّة المؤلّفين والملحّنين والناشرين للموسيقى في بيروت (ساسيم) ومجموعة من الصور من أرشيف عائلة شفيق ناصيف.

٢٥ **المِجْوز** (أو المِزْوِج، والمِطْبَقْ أو المِزْمَار المُثَنّى والدُّوناي كما أشار إليها الفارابي في كتابه الموسيقى الكبير): تتكوّن من أنبوبتين متجاورتين تصنعان من القصب، وهما متساويتان في الطول وملتصقتان ببعضهما بواسطة مادة شمعيّة هي في العادة شمع عسل النحل. تحتوي الجهة العلوية من كل من القصبتين على خمسة ثقوب، ويتمثّل عدد النغمات الصادرة عنها في عدد الثقوب المزدوجة المفتوحة على كلّ من القصبتين مضافةً إليها نغمة صادرة من الفتحتين الرئيستين السفليتين، فيكون مجموعها بحدود ستّ إلى سبع نغمات موسيقية. إنّ عازفي آلة المِجْوز هم من الرجال، والعزف عليها يُصدر صوتاً متصلاً ويتطلّب جهداً في التنفس: يملأ العازف فمه بالهواء في أثناء استعماله هواء رئتيه، وفي لحظة أخذ النفس يستعمل مخزون الهواء في فمه بضغطة بواسطة خدّيه. ينتشر المجوز في الأرياف اللبنانيّة والفلسطينيّة وفي المناطق الداخليّة والساحليّة السوريّة وفي شمال ووسط الأردن (بتصرف من: محمد غوانمه، آلات النفخ الموسيقية الشعبية في الأردن، جامعة اليرموك، سليم والياس سحاب. الموسيقى والغناء في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية. عدنان بن ذريل، الموسيقى في سوريا، دار طلاس دمشق).

٢٦ الأب بديع الحاج، اللغة الموسيقيّة عند زكي ناصيف... جذور وروافد، جريدة الأنوار، ٨/١/٢٠١٤.

٢٧ بوليفوني (Polyphony): علم تعدّد واتحاد الألحان المتفرّعة التي تسمع في آن واحد، وفنّ كتابة أكثر من خط لحني في نسيج صوتي متشابك. تكون الموسيقى البوليفونّية ذات طبقات لحنيّة متزامنة ومتوافقة مع بعضها. اسمع على سبيل المثال: دبكة من هالوادي (غناء صباح) وآه يا جار الرضا (غناء حياة الغصيني)، ميجانا يابا ميجانا (غناء زكي ناصيف).

٢٨ الموتيف اللحني (Motif): خليّة لحنيّة أو فكرة قصيرة واضحة ومميّزة اللحن والإيقاع تسود المقطوعة الموسيقيّة ويُسْهل تذكّرها ويتّخذها المؤلّف الموسيقيّ نواة يستنبط منها مؤلّفه الموسيقي.

٢٩ الهارموني (Harmony): التأليف الصوتي المبني على العلاقة القائمة بين مجموعة أصوات متتالية تكتب بشكل عمودي استناداً إلى قوانين محدّدة وتعزف في آنٍ واحد. اسمع على سبيل المثال: يا بني أمي.

٣٠ نذكر على سبيل المثال: صبّحنا وفجر العيد، في تسجيلاتها الثلاثة، غناء زكي ناصيف بالإضافة إلى تسجيل بصوت وديع الصافي وآخر مع نقولا الاسطا)، سهرنا سهرنا (ثلاثة تسجيلات استديو غناء المجموعة)، درب الغزلان (تسجيلان استديو مع زكي ناصيف بالإضافة إلى تسجيلات حفلات فرقة الأنوار)، دبكة الدورة (نسختان، غناء كلٌ من جوزف عازار وزكي ناصيف)، هلا يا رمّ الفلا (أربعة تسجيلات بأصوات سميرة توفيق، وسلوى القطريب، وزكي ناصيف، وجوزف عازار).

٣١ هيّاف ياسين، من التّقليد الموسيقيّ اللّبنانيّ-الشّاميّ إلى ألحان «ناصيفيّة» جديدة، مجلة بدايات، العدد ١٤، ربيع – صيف ٢٠١٦.

٣٢ **إميل رفّول** (١٩٢٠ -٢٠٠١): شاعر و مُربٍّ. ولد في مشغرة وانتمى إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي في بداية الأربعينيات. سجن لمدة ست سنوات في ظروف صعبة بعد مشاركته في معركة سهل مشغرة سنة ١٩٤٩. تولّى مسؤوليّة سكرتير التحرير في جريدة «الزوابع» الأسبوعيّة التابعة للحزب حيث كان ينشر زاويته الاسبوعيّة تحت عنوان «على الدرب». صدر له كتابان: « أفكار لا تموت» (مجموعة نصوص أدبية) و« الطريق إلى الإعراب» (قواعد اللغة العربيّة). وله قصائد عديدة لم تنشر في كتاب لحّن بعضها زكي ناصيف: ما نسي العرزال، ميلي يا جنّات بلادي، يا ريت ما سمعناك يا أسمر، درب الوادي، قوليلي واحكيلي، دنياك يا أسمر (غناء وداد)، مشتاق ليكِ الحي، طوّل هالحلو (غناء وداد)، أيّامنا حكايات، غرّدي، أعود إليكِ يا قريتي، تسألني الحسناء، حكيت نجوم الليل، الى النصر يا أمّتي.

٣٣ **مصطفى محمود القعقور** (١٩٢٣-١٩٩٦): وُلد في بلدة بعاصير بإقليم الخرّوب. عمل مراقباً للشعر الغنائي في إذاعة لبنان مدة ثلاثين عاماً. له من الدواوين: «كنوز ورموز» و«ربيع الذكريات» و«قصائد مسافرة». تعاون بشكل مكثّف مع زكي ناصيف فكتب له مجموعة من أغاني الصباح (نفحات الورد، في الصباح..). وكان ناصيف يطلب منه أن يؤلّف له شعراً حسب إيقاعات محددة ليبني ألحانه عليها حسب ما ورد في المقابلة التي أجراها فكتور سحاب. من أعماله التي لحّنها زكي ناصيف: يا عاشقة الورد، في وردة (غناء وداد)، حين أقبلت يا منى، وحياتك يا درب العين (غناء نصري شمس الدين)، طلّو حبابنا (غناء وديع الصافي).

٣٤ على سبيل المثال لا الحصر نذكر الاسماء التالية: جبران خليل جبران (مغناة يا بني أمي – إعداد جوزف حرب)، سعيد عقل (نشيد الكفاءات)، فدوى طوقان (مغناة هو وهي)، للأخوين رحباني (دنيا ظنون)، ميخائيل صوايا (ترنيمة إلهي عطفت عليّ)، يونس الابن (الأم)، وليم صعب (ترنيمة أذكر الخالق أيام الشباب)، محمد يوسف حمود (كيف أنسى)، ميشال طعمة (مهما طالت فرقتنا)، ميشال جحا (عالساحة قومي انزلي)، غسان مطر (نشيد الأشبال)، إيليّا أبو شديد (لا ما فيّي)، أسعد سابا (آه من عينك)، معين بسيسو (على الحدود)، قاسم حاميه (بتكنّ بكنّ)، أسعد السبعلي (يا راعي السيف).

٣٥ بالنسبة إلى الأوزان الشعريّة في نصوص زكي ناصيف، يفيد الأب بديع الحاج بأن زكي ناصيف اتّجه «صوب السريانيّ أكثر ممّا اتّجه صوب البيزنطيّ، فالألحان التراثيّة وبخاصّة الإيقاعيّة منها (كالقرّادي والموشّح البلديّ والمعنّى والدلعونا وغيرها) هي سريانيّة بتركيبتها الشعريّة والموسيقيّة. واللحن السريانيّ المبنيّ على عدد اللفظات (Syllables)، لا على البحور الشعريّة العربيّة (أوزان الخليل)، غنيّ بالإيقاعات والحركات الحيّة والنابضة». كما يشير المايسترو سليم سحاب إلى ميزة ثراء «التعدّد العروضي» في شعر زكي ناصيف. للمزيد يرجى مراجعة: سليم سحاب، زكي ناصيف (١٩١٦-٢٠٠٤): عميد ملحّني لبنان، مجلّة شؤون عربية، العدد ١٣٨، صيف ٢٠٠٩، والأب بديع الحاج، اللغة الموسيقيّة عند زكي ناصيف... جذور وروافد، جريدة الأنوار، ٨/١/٢٠١٤.

٣٦ في ما يلي معاني هذه الكلمات حسب «معجم الألفاظ العاميّة في اللهجة اللبنانيّة» لأنيس فريحة، الجامعة الأميركيّة في بيروت، ١٩٤٧:
«**الكماجة**»: هي جمع «كماج» وتعني نوعاً من الخبز أرغفته مستديرة سميكة، عند خبزها تصبح ذات طبقتين وتسمى أحياناً طلمة. أصل الكلمة فارسي.
«**نغمشات الهوا**»: نغمشات هي جمع «نغمشة» وفي صيغة الفعل «نَغمَش» أي استهوى وجذب.

«جهجهة النور»: في صيغة الفعل هي «جَهجَه» أي صفا النّور، انبلج وانشقّ، وأصل الكلمة آراميّ.
«غناني الغدران»: الغدران هي جمع «غدير»، وأصل الكلمة آرامي وتعني: نهر.
«شقشقة النايات»: في صيغة الفعل تعني كلمة «شَقشَق» سقى او غسل، وهي من أصل آراميّ.
٣٧ يا جبال بلادي السمرا: نظم ولحن زكي ناصيف وغناء صباح.
٣٨ يا بلادنا مهما نسينا: انتِ لنا شعر وغنا يا بلادنا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء وديع الصافي وصباح.
٣٩ بلدي حبيبي: نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٤٠ هلّي يا سنابل: خيرات الله بتكفينا / بتموج بأراضينا / بتفيض من روحه علينا / وبتكفينا وبتغمرنا، نظم ولحن زكي ناصيف وغناء المجموعة. أيضاً: **فوق جبالنا:** بلادي من السما الها معينها / من الخيرات ما بينضب معينها، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف، **ويا ليلى:** أرض كنوز وتكفينا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح.
٤١ ليلتنا: يا رب تصون بلادنا / وتبارك أرض ولادنا / هي أمانة أجدادنا / ونحنا بالروح منفديها، نظم ولحن زكي ناصيف وغناء المجموعة.
٤٢ المصدر نفسه.
٤٣ هلّي يا سنابل: نحنا بعيشتنا رضينا / وعاداتنا عليها ربينا / الله يعززها فينا / لا ينسينا ولا يغيّرنا، نظم ولحن زكي ناصيف وغناء المجموعة.
٤٤ فوق جبالنا: نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٤٥ ميجانا يابا ميجانا: دق وجن وجنّنا وخلي اللحن يطيّرنا / والدبكة تخبّر عنا والساحة ما تنسانا، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٤٦ يا بلادنا مهما نسينا: كل حبة من ترابك قلب / ولهفة ام تنادينا ... كل نسمة من ربوعك روح، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء وديع الصافي وصباح.
٤٧ فوق جبالنا: وزهرات الوزّال / من حول العرزال / ضحكوا وفرحوا بهبوب النسمات، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٤٨ سهرنا سهرنا: شفنا مروج الخير تموج / وترقص حول سواقينا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء المجموعة.
٤٩ طاير طاير: نقلني عاجناحك / غنية أفراحك / لوّنها بزهوة صباحك / وسكون العشيّه، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء مجدلي.
٥٠ حلوة ويا نيالها: وكلمة سر بقلب الفجر طل الفجر وقالها، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٥١ هلا يا هلا: لو رحتي مشوار بتروق الدني / وبتحن الأشجار عليكي وتنحني، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٥٢ عاتلالنا: وحبال الشمس الشارقة / تضوي غالغيمة المارقة / تشوفها شو سارقة / من هيبة تلج جبالنا... الموال: شيبة حنين عا جبل صنين / تاكية قبل السما بشوي / بتدوب عا فراق الولف تخمين / تا دموعها بتكرج سواقي مي، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٥٣ عا بالي يا قمر: رح تنكي عباب الحبايب مطرح ما البنفسج بكي، نظم ولحن زكي ناصيف وغناء فيروز.
٥٤ فوق هاتيك الربى: أناجيك في سرّي وفي القلب حسرةٌ وفي العين دمع دافق وغزير، نظم ولحن زكي ناصيف وغناء فيروز. **من هالوادي:** يا طير البتروح صوب حباب الروح / خبرهم شو في عنا بالقلب جروح، نظم ولحن زكي ناصيف وغناء صباح.
٥٥ سهرنا سهرنا: حلوة حلوة حكايتنا / واحلى منها غايتنا. نظم ولحن زكي ناصيف وغناء المجموعة.
٥٦ سهرنا سهرنا: خلي قلوب تصافي قلوب / وتتغنى بمحبتنا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء المجموعة.
٥٧ صبحنا وفجر العيد: وبهلّة فجر جديد / ونصر جديد جايي يبشّرنا / والله معنا يا رجالنا / نمشي والنصر بينصرنا، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٥٨ مهما يتجرّح بلدنا: أهل مروّة هيك ربينا وبالعدّة قلايل / مش عجيبة لولا كبينا الكبوة للأصايل / لا سهوتنا ولاصبوتنا بتصحّينا من كبوتنا /ما إلنا إلّا مروّتنا المروة بتخلق أبطال، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٥٩ على فجر جديد: على فجر جديد صحينا / صحبنا وعالجرح قوينا / وشبكنا سواعد بسواعد / ونهضنا وعدنا مشينا/ آلام على دروب بعيدة / رح نمشي ونتحمّلها / وجروح مفتوحة جديدة / بمحبتنا منغزلها / بمحبّة إنسانيّة / كلّها دموع وحنيّة / من هالارض اللبنانيّة / مطرح ما خلقنا وربينا / ما زالوا الشعب بيزرع / والايد بتقدر تصنع / تفتح مقلع تبني وتشقع/ هاي نهضتنا منّا وفينا، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٦٠ راجع يتعمّر لبنان: دبكتنا عونة إخوة صورة ومضمون، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٦١ ميجانا يابا ميجانا: دبكتها صورة بتحكي عن ضحكة مشاعرها، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف. كما غنتها سلوى القطريب.
٦٢ ليلتنا: دبكتنا عمر جديد وفجر جديد تحكي عزّتنا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء المجموعة.
٦٣ إيدي وإيدك: وهي طلّتنا عالدنيا بغنانيا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح.
٦٤ راجع يتعمّر لبنان، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٦٥ ميجانا يابا ميجانا: إنتو بميل ونحنا بميل ويسواكم ما يسوانا، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٦٦ عالمنجيرة: ويا أهل الدبكة إلتموا عالدبكة / تا ندورّها داير دويرة، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٦٧ نزلت تتنقل: نزلت تتمرجح بالقامة المهضومة / والشَعر مسرَّح جدايل منظومة / وردات جورية ع خدود خمرية، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٦٨ ليلتنا: دبكتنا صف أسود جنود جنود / تحمي رايتنا / دبكتنا بدها زنود تشد زنود/ محلا دبكتنا، لحن ونظم زكي ناصيف، غناء المجموعة.
٦٩ نزلت تتنقل: عاجبين يتحدى وما يعود يتهدى، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٠ إيدي وايدك: محلا كفوف المشبوكه بخناصرها / محلا كتاف المياله عاخواصرها، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح.
٧١ ميجانا يابا ميجانا: تسلم يا راعي الدبكة يا معمّرها، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٢ نزلت تتنقل: والإيد تلَوّلح بالفوطه المبرومه، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٣ دقّاق المجوز: دقّاق (أي عازف) المجوز ترغل/ والدبكة عالغناني/ عا راس الصف تنقّل/ وتحنجّل (أي تمايل) يا اسمراني، غناء نجاح سلام، نظم ولحن زكي ناصيف. أيضاً: **إيدي وإيدك:** إيدي وإيدك عالدبكة تا نعمرّها / عالزقفة ودق المجوز منغنيها، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح. **نزلت تتنقل:** والمجوز ترغل عالدبكة يحديلنا، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف. **أهلا بهالطلة أهلا:** وعالدبكه صفوف/ رفقتنا / مجوز وكفوف / دقّتنا / ندبك ونطوف / ساحتنا/ على زقفتنا / وعلى دقتنا، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح.
٧٤ عالمنجيرة: عالمنجيرة نقّر يا بو المنجيرة / حتى تعمر دبكتنا .**عالمنجيرة،** نظم ولحن وغناء زكي ناصيف. أيضاً: **ميجانا يابا ميجانا:** يا بو المنجيرة تأنى يا ساحرنا / دق وجن وحنّنا تا تسكرنا / والمنجيرة تسمعنا نغمات منسكر فيها. نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٥ عالمنجيرة: نترجّى من الفيّ نسمة غنيّة / ومن وشوشة الميّ بحّة منجيرة، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٦ ميجانا يابا ميجانا: ميجانا ردّوا معنا تانغنّيها / محلى الدبكة والمغنى عا قوافيها، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف. أيضاً: **نزلت تتنقّل:** يللي تحبّونا يالله معنا ندبك دلعونا عا بو الميجانا، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٧ إيدي وإيدك: إيدي وإيدك عالدبكة نفرح تا نصير/ غنيّة عا شفاف الطير نودّيها، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء صباح.
٧٨ فوق جبالنا: فوق جبالنا سمعنا ألحان / بعيدة كتير من قلب الوديان، نظم ولحن وغناء زكي ناصيف.
٧٩ فواز طرابلسي، «رقصة الدبكة: طقوس – تحوّلات»، **المؤتمر الثاني للثقافة الشعبيّة اللبنانيّة - العربيّة**، بيروت: حلقة الحوار الثقافي، **١٩٩٩**. صدرت الدراسة في نسخة منقّحة ومزيدة: فواز طرابلسي، **ان كان بدك تعشق: كتابات في الثّقافة الشعبيّة**، بيروت: دار الكنوز الأدبيّة، **٢٠٠٥**
٨٠ خالدة سعيد، **الحركة المسرحيّة في لبنان ١٩٦٠-١٩٧٥: تجارب وأبعاد**، بيروت: لجنة المسرح العربي في مهرجانات بعلبك الدولية، **١٩٩٨** (ص. ٥٤).
٨١ الفولكلور اللبناني، كتاب «من أوراق زكي ناصيف»، بيروت: منشورات الجامعة الأميركية في بيروت، **٢٠١٤**.
٨٢ المصدر نفسه.
٨٣ هلّي يا سنابل، نظم ولحن زكي ناصيف، غناء المجموعة، **١٩٥٧**.
٨٤ فرحان صالح وحبيب معلوف، «حديث مع شوقي أبو شقرا»، **المؤتمر الأوّل في الثقافة الشعبيّة اللبنانيّة – العربيّة**، بيروت: دار الحداثة، **١٩٩٤**.
٨٥ «زكي ناصيف»، كتاب من أوراق زكي ناصيف، بيروت: منشورات الجامعة الأميركية في بيروت، **٢٠١٤**.
٨٦ المصدر نفسه.
٨٧ ماهر جرار، «الرواية اللبنانية والحرب وعلم الاجتماع»، مجلة **الابحاث**، عدد ٥٢-٥٣، الجامعة الاميركية في بيروت (**٢٠٠٤-٢٠٠٥**).
٨٨ نبيل بيهم، **الاعمار والمصلحة العامة: في الاجتماع والثقافة**، بيروت: دار الجديد، **١٩٩٥** (ص.٢٢٣)

نهوند

❖
من أرشيف عائلة
شفيق ناصيف.
زكي ناصيف وفريد
ابو الخير وعرزال
أنطون سعادة في
ضهور الشوير

«الرفيق زكي»
في الحزب السوري القومي الاجتماعي

أكرم الريّس

باحث في انتروبولوجيا الفنون، لبنان.

انتسب زكي ناصيف إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي في ١٩٤٣. وشارك في العديد من الأنشطة التي قام بها الحزب، ومنها الحلقات الاجتماعيّة التي نظّمتها منفّذيّة السيّدات غالباً في منازل الأعضاء. وتألّف برنامج هذه الحفلات من فقرة افتتاحيّة تبدأ بنشيد الحزب التي أضيف إليها لاحقاً «نشيد الشباب» من تلحين زكي ناصيف ونظم إميل رفّول وخطبة يلقيها أحد الأعضاء يليها أغانٍ قوميّة اجتماعيّة ومشاهد تمثيليّة ذات طابع كوميديّ. ويخصّص بعد ذلك وقت للنّقاش والمناظرات لتختتم السهرة مع حلقات الرقص وقد أدخلت الدّبكة لاحقاً على البرنامج[١]. ومن المشاركين في هذه اللقاءات: يوسف تاج رائد العتابا والغناء البلدي، وخليل مكنيّة، وتوفيق الباشا، وشعراء أمثال يوسف حاتم، وعجاج المهتار، وإميل رفّول، ومن أهل المسرح محمد شامل ومحمد مرعي.

نصيحة من أنطون سعادة

يسرد إبراهيم يموت في كتابه «الحصاد المرّ»[٢] وقائع إحدى الحلقات في بيت أنطون سعادة في رأس بيروت. بدأت هذه السهرة مع زكي ناصيف الذي أنشد «سورية لك السلام»، وهو النشيد الحزبي الرسمي «نظمه الزعيم في سجنه وغنّاه القوميّون الاجتماعيّون كما لقّنهم إيّاه سعادة باللحن الروسيّ لنهر الفولغا، ثمّ وضع له زكي لحنه المعروف اليوم القريب من اللحن القديم. أحسست بأنّني أستمع إلى صوت يخرج من حنجرة نادرة وإلى نمط جديد في الأداء». ويضيف يموت أن زكي أتبَع النشيد بأغنية إسبانيّة بناءً على طلب جبران جريج[٣] «تجلّت في أدائها روعةُ صوته بذبذباته المميّزة وحنجرته المشدودة المدوْزنة تلعلع بنغم النهوند المضمّخ بعبيرنا الذي حملناه معنا إلى إسبانيا... والذي لوّنتْ بعض نفحاته لاحقاً رائعته يا عاشقة الورد». وكان زكي ناصيف يرافق المغنى عزفاً على البيانو وفي بعض الأحيان تشاركه جوقة شبه كاملة يرأسها توفيق الباشا[٤] ومعه خليل مكنيّة[٥]. وتذكر السيّدة هيام نصر الله محسن[٦] «أنّ الزعيم كان يطلب دائماً من زكي أن يغنّي أغنية أنطونيو فرغاس المحبّبة إلى قلبه، فأنشدها زكي باللغة الإسبانيّة، وأتبعها بأغانٍ أخرى روسيّة وإيطالية خلال هذه الحلقات أو بعدها». وتنوّه محسن إلى نصيحة قدّمها سعادة لزكي ناصيف على هامش إحدى السهرات التي أقيمت في منزلها في الحدث، فقد «انتحى سعادة بزكي جانباً على الشرفة الغربيّة للبيت، المطلّة على بحر من أشجار الزيتون وخلفها المطار فالمدى الأزرق، وتحدّث إليه ونصحه بأن تكون أغانيه فرحة وتحكي الحبّ والقرية والطبيعة، بحسب ما أخبرنا الرفيق زكي. وأمّا النصيحة فأسّست للنهج الجديد الذي ابتدعه زكي فنيّاً»[٧].

ولم تقتصر هذه المناسبات على الحقلة الضيّقة من الأعضاء، فقُدِّم بعضها في أمكنه عامّة مثل مسرح الوست هول في الجامعة الأميركيّة (١٩٤٧)[٨]. يشير توفيق الباشا إلى حفلة الوست هول في الجامعة الأميركيّة في بيروت التي حضرها سعادة وزوجته بعد عودته من مغترَبه القسريّ. وقد اشترك في إحيائها مع زكي ناصيف وخليل مكنيّة مع فرقة موسيقيّة كبيرة وجوقة من المنشدين الهواة. كما يذكر الباشا حفلة عامّة أخرى أقيمت بعد اغتيال سعادة عام ١٩٥٥ في مسرح سينما الكابيتول في وسط بيروت تألّفت من فقرتين: «الأولى موسيقيّة، شاركتُ فيها مع خالي الرفيق خليل والرفيق زكي ناصيف الذي قدّم نشيد

«تحيّة الزعيم»، وكنّا قد أحضرنا فرقة سمفونيّة كبيرة، وقدّمنا الأغاني على ألحان كلاسيكيّة. أمّا الثانية فكانت مسرحيّة «المنبوذ» للرفيق سعيد تقيّ الدين وقام بدور البطولة فيها الرفيق أنيس أبو رافع».

تلحين نشيد الحزب

في الإطار الإبداعي، لحّن زكي ناصيف للحزب السوري القومي الاجتماعي نشيده الرسمي، ونشيد «موطني يا توأم التاريخ» للشاعر محمد يوسف حمّود[٩]، و«نشيد الأشبال» للشاعر غسان مطر[١٠]. كما أهدى ذكرى زعيم الحزب أولى أغنياته الّتي قدّمتها إذاعة الشرق الأدنى في ١٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٢، «كيف أنسى» وهي من نظم محمد يوسف حمّود. يقول مقطعها الأوّل: «كيف أنساك وفي عيني وبالي / صورةٌ أنت على رحب الخيالِ / كيف أنساك وقلبي ما تمنّى أبدا / إلّاك في مرمى النوالِ / كيف أنساك وفي روحي نسيمُ / من هوى روحك من عطَر الجمالِ».

وأتبعها بعمَل آخر من نظم ابن ضيعته مشغرة ورفيقه الحزبي إميل رفّول بعنوان «ما نسي العرزال» تيمّناً بالعرزال الذي كان يلجأ إليه الزعيم بين تلال ضهور الشوير لصفاء التأمّل وبساطة العناصر الأولى: «ما نسي العرزال بسماتك / باقي على وراقو / أثر منها وصورة / بعدها الأزهار تِهمس / للندى وللطيب / يا طول غيبات الحبيب / روحك دني آمال تحيينا / وهالرّوح ما نسينا / وما نسي العرزال».

ويلاحظ المتابع للنصوص التي نظمها زكي ناصيف تأثير فكر سعادة المباشر في مضمون وتوجّهات العديد منها في الأخذ «بنظرة جديدة إلى الحياة والكون والفنّ، وبفهم جديد للوجود وقضاياه، نجد فيهما حقيقة نفسيّتنا ومطامحنا ومثُلنا العليا... ونُشيد لأمّتنا قصوراً من الحبّ والحكمة والجمال بموادّ تاريخ أمّتنا السوريّة ومواهبها وفلسفات أساطيرها وتعاليمها المتناولة قضايا الحياة الإنسانيّة الكبرى». ويربط سعادة بين الفنّ الذي يعزّز المحبّة والتعاون وبالتالي الجهاد السياسيّ: «إنّ الفورة السياسيّة أمر تافه إذا لم تكن مرتكزة على نفسيّة متينة يُثبتها في قلب كلّ فرد، سواء كان رجلاً أو امرأة، شابّاً أو شابّة، أدب حي وفنّ موسيقيّ يوحّد العواطف ويجمعها حول مطلب أعلى حتى تُصبح إيماناً اجتماعيّاً واحداً قائماً على المحبّة، المحبّة الّتي إذا وجدت في نفوس شعب بكامله أوجدت في وسطه تعاوناً خالصاً وتعاطفاً جميلاً يملأ الحياة آمالاً ونشاطاً. حينئذ يصبح الجهاد السياسيّ شيئاً قابلاً للإنتاج، وأمّا الوطنيّة القائمة على تقاليد رجعيّة رثّة، فهي شيء عقيم ولو أدّت إلى الحريّة السياسيّة»[١١]. ولا يتوانى ناصيف عن أن يستعير بعضاً من كلمات الزعيم في أغانيه ومنها «صبّحنا وفجر العيد» (١٩٥٩):

«صبّحنا وفجر العيد / يلوح بعيد ونورو يغمرنا / وبهلّة فجر جديد / ونصر جديد جايي يبشّرنا / بالعزّ اللي مخبّالنا / وقفات كبيرة قبالنا / والله معنا يا رجالنا / نمشي والنصر بينطرنا».

نقابل نص ناصيف مع ما يقوله سعادة في خطابه في بشامون في٠٣ / ١٩٤٨ / ١٠: «في هذه الوقفة حقّقت النهضة القوميّة في بشامون مبدأ يجب أن يبقى واضحاً في ذهن كلّ حيّ: إنّ الحياة كلّها وقفة عزّ فقط»[١٢]. ويتكرّر هذا المعنى في عدّة نصوص لسعادة ومنها الخطاب الذي ارتجله في احتفال الحزب بذكرى أول آذار / مارس في منزله في رأس بيروت في العام ١٩٤٩: «قلت إن الحياة تعني لنا وقفة عزّ فقط. وقلت أيضاً إنّنا نقتل العيش لنقيم الحياة. إننا أردنا حياة لا عيشاً، بين الحياة والعيش بون شاسع وفرق عظيم. الحياة لا تكون إلّا في العزّ، أمّا العيش فلا يفرّق بين العزّ والذّلّ، وما أكثر العيش في الذّلّ حولنا!»[١٣].

على مستوى آخر، كان لارتباط زكي ناصيف بالحزب السوري القومي الاجتماعي في مرحلة لاحقة من مسيرته الفنية أثر سلبيّ على عمله المهنيّ، كما العديد من أعضاء الحزب، بعد محاولة الانقلاب الفاشلة عام ١٩٦١ ضدّ حكم الرئيس فؤاد شهاب. فقد أُوقف ناصيف في نظارة المحكمة العسكريّة، ثمّ نُقل في اليوم الثاني مع عدد كبير من الموقوفين إلى ثكنة الفيّاضيّة، ومنهم الصحافي ميشال أبو جودة ومحمد البعلبكي (نقيب الصحافة لاحقاً)، وفي اليوم الثالث إلى ثكنة المير بشير في بيروت التي تواجد فيها كبار قادة الانقلاب. ويروي حسين قطيش ظروف التحقيق والإفراج: «عند وصولنا إلى ثكنة المير بشير في بيروت، وكنّا حوالى عشرة موقوفين، صادف أنّ كنت أنا في آخر الصفّ، وقد سمعت ضرباً ولكماً وصراخاً يحصل للأشخاص الذين هم في أوّل ومنتصف الصفّ... وانتهى الأمر بي وبالفنان زكي ناصيف (قبل الإفراج عنّا) إلى مكتب سامي الخطيب الذي لم يقف لنا ولم يسلّم علينا». ويضيف قطيش:

«إنّ سامي الخطيب وزكي ناصيف ينتميان إلى منطقة واحدة في البقاع الغربي، فقال الخطيب لناصيف: مش عيب عليك يا زكي أن تنتمي إلى هكذا حزب مجرم وأنت زكي واسمك زكي؟ فأجابه ناصيف بأنّه انتمى إلى الحزب القومي مع مجموعة كبيرة في الثلاثينيات وكان هدفها تحرير لبنان من الاستعمار الفرنسي، وذكر عدّة أسماء كانت معه في ذلك التاريخ ومنها معروف سعد وسعيد عقل»[١٤].

أدّت هذه الحادثة (وظروف المنافسة الفنيّة) خصوصاً في المرحلة التي امتدّت حتى بداية الحرب الأهليّة إلى محاولات متعدّدة لتهميش أعمال زكي ناصيف كما يخبرنا الموسيقي والشاعر نديم محسن في سياق آخر عن ذكريات طفولته: «كنّا ننتظر الأغاني على إذاعة لبنان لنتحزّر الأغنية من بداية موسيقاها، وأذكر كم كنّا نفرح وننادي الوالدين (عبدالله وهيام) عند بثّ أغنية لزكي ناصيف، فهو صديق للعائلة، وأغانيه جذّابة ومفعمة بالعنفوان والفرح والغزل والوجدان، إضافة إلى أنّ الإذاعة كانت تقطّر أغانيه عقاباً له على انتمائه الفكريّ القوميّ الاجتماعيّ»[١٥].

في سنواته الأخيرة يروي زكي ناصيف ظروف تلحينه لنشيد الحزب في تسجيل فيديو لجزء من جلسة خاصّة توفّر عبر الصفحة الرسميّة للحزب على مواقع التواصل الاجتماعي فايسبوك ويوتيوب بعد سبعة أعوام من رحيله[١٦]. كما تحدّث عن انتمائه القومي في مقابلة مع الكاتب محمد أبي سمرا: «انتميت إلى العقيدة القوميّة حينما كانت هذه العقيدة قبلة أنظار المتعلّمين من أبناء الريف، وما زلت ثابت الإيمان بها. فالانتماء القوميّ ليس انتماءً عابراً، بل يستمرّ العمر كلّه. فالإنسان لا يصير عضواً بنّاءً وفاعلاً في أمّته وبلده ومجتمعه إلا إذا أحسّ بأهميّة الأرض وقيمتها المادّيّة والروحيّة. وبدون هذا الإحساس يظلّ الإنسان هامشيّاً وضائعاً»[١٧].

المراجع:

١ لبيب ناصيف، «الحفلات الاجتماعية أواخر أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي» (١-٢)، **موقع في الحزب القومي السوري الاجتماعي**، ٢٩ حزيران و٦ تموز ٢٠١٥، http://www.al-binaa.com/?article=53613 و http://www.al-binaa.com/?article=55146 (5.8.2016)

٢ **إبراهيم يموت** (١٩١٩-٢٠١٠): رأس الإدارة الماليّة في شركة طيران الشرق الأوسط بين عامي ١٩٤٧ و١٩٨٤. انتمى إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي عام ١٩٣٨، وتحمّل مسؤوليّات عديدة، ومنح رتبة الأمانة في العام ١٩٥٤، ومن ثمّ عيّن رئيساً لمجلس الأمناء. له عدد من المؤلّفات، منها **الحصاد المرّ: قصة تفتّت قيادة حزب وتماسك عقيدة** (دار الركن، ١٩٩٣)، **وكيف يحلو الحصاد: العودة إلى مبادئ النهضة السوريّة القوميّة الاجتماعيّة** (بيسان للنشر، ١٩٩٧)، **وأضواء على العقيدة القوميّة** (الفرات للنشر، ٢٠٠٤).

٣ **جبران جريج** (١٩١١-١٩٩٣): تولّى مسؤوليّات إداريّة مختلفة خلال عدّة مراحل من مسيرة الحزب، وله دور هامّ في توثيق تاريخه. **من مؤلّفاته: من الجعبة: مرويّات، مستندات وأدبيّات عن الحزب السوري القومي الاجتماعي** (٤ أجزاء).

٤ **توفيق الباشا** (١٩٢٤ -٢٠٠٥): مؤلّف موسيقي وملحّن وقائد أوركسترا. درس الموسيقى في الجامعة الاميركيّة في بيروت ومن ثمّ مع برتراند روبيار أحد أعضاء عصبة الخمسة وزميل زكي ناصيف في إذاعة الشرق الأدنى والعديد من الأعمال في مهرجانات بعلبك الدولية وفرقة الأنوار. تولّى رئاسة الدائرة الموسيقيّة في الإذاعة اللبنانيّة منذ ١٩٦١ ولغاية ١٩٨٤. من أعماله الإنشاديّة النبويّة وسمفونيّة السلام. انضمّ هو وأخوه الرسام أمين الباشا إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

٥ **خليل مكنيّة** (١٩٠٠-١٩٥٦): عازف كمان وتشيللو وملحّن ورسّام. أخذ الموسيقى عن سامي الشوّا من خلال الاستماع إلى تسجيلاته. هو من الفريق الموسيقيّ المؤسّس في راديو الشرق عام ١٩٣٨ ومن أساتذة القسم الشرقي في المعهد الموسيقي الوطني. وتركّز عمله في الموسيقى الآليّة فأنشأ رباعيّاً، وترياً وله عدّة مقطوعات من تأليفه، كما تولّى إعداد الموسيقى التصويريّة لأكثر من فيلم.

٦ **هيام نصر الله محسن:** رئيسة المجلس الأعلى في الحزب، وعضو في المجلس القومي بوصفها حائزة على رتبة الأمانة. زوجها الأمين عبد الله محسن، رئيس سابق للحزب.

٧ لبيب ناصيف، «الامينة هيام نصر الله محسن في حديث شائق عن سعادة والأمينة الأولى»، **موقع في الحزب القومي السوري الاجتماعي**، ٢٢ تموز ٢٠١٥. من الامثلة التي تقدم بوضوح التأثير الإسباني في أعمال زكي ناصيف: غرّدي غرّدي، غنّيلي بهالليل الهادي، نُغني، هتفت بي، وغيرها. وقد غنّى المقطع الأوّل ذا الطابع الإسباني من مغناة «ابن زيدون» من ألحان توفيق الباشا. أمّا من الأمثلة على التأثير الروسي أغنية «وحياتك يا درب العين» التي غنّاها نصري شمس الدين.

٨ لبيب ناصيف، «الموسيقيّ والرسّام القوميّ... المغمور حزبيّاً خليل مكنيّة»، **جريدة البناء**، ٢١ نيسان ٢٠١٥. يشير لبيب ناصيف إلى مصدر هذه المعلومات وهو لقاء أجراه د. ميشال خير الله مع توفيق الباشا في بحمدون الضيعة حيث كان يصطاف.

٩ **محمد يوسف حمود** (١٩١٩- ١٩٩٣): شاعر ومُربٍ وصحافي. عين أميناً لدار الكتب الوطنية. نظم الغزليّات، والمرثيّات، والوطنيّات. صدر له عدّة كتب في الشعر والنثر. انتسب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

١٠ **غسان مطر** (١٩٤١-): شاعر وصحافي. له مجموعة كبيرة من الإصدارات الشعريّة، منها: «هليسار» (١٩٦٨)، «أحبّك يا حزيران» (١٩٧١)، «حزن على قبر لارا» (١٩٩٠). لحن أشعاره بالإضافة إلى زكي ناصيف كلّ من فيلمون وهبي (يا حبيبي خدني بإيدك، غناء مروان محفوظ)، وزياد الرحباني (سرقني الزمان، غناء مروان محفوظ). كتب نصّين عن زكي ناصيف: «لا تسرق النهر» (قصيدة)، و«قمح روحنا الجائعة» (مقالة). انتسب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

١١ أنطون سعادة، **الصراع الفكري في الأدب السوري**، بيروت: منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ١٩٧٨ (ص ٣٥-٣٦).

١٢ أنطون سعادة، **الأعمال الكاملة ١٩٤٨-٩**، الجزء الثامن، ملحق رقم ٢، بيروت، مؤسسة سعادة للثقافة، ٢٠٠١ (ص.١ ٠ ٤)

١٣ المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

١٤ حسين قطيش، «من مخزون الذاكرة: تجربتي في الحزب القومي دامت سنتين ولكن مضاعفاتها دامت خمس سنوات»، **جريدة اللواء**، ٨ كانون الثاني ٢٠١٦.

١٥ رشا حلوة، نديم مُحسن: «كلّ ما يهدّد الجمال يحرّضني»، موقع قادينا، ١٠ أيلول ٢٠١٠.

١٦ زكي ناصيف ونشيد الحزب السوري القومي الاجتماعي، نشر في ١٨ تشرين الثاني ٢٠١١ https://www.youtube.com/watch?v=azGqRhc8Td (12.8.2016)

١٧ محمد ابي سمرا: «زكي ناصيف... فوق جبالنا»، **ملحق جريدة النهار**.

شهادة عبد الحليم كركلا
تطوير الألحان التراثيّة على إيقاعات الجسد

عبد الحليم كركلا

راقص وكوريوغراف ومؤسّس فرقة كركلّا للرقص. درس في لندن. وارتبط اسمه واسم فرقته بمهرجانات بعلبك الدوليّة. من أعماله «طلقة نور» ١٩٨٠، «حلم ليلة شرق» ١٩٩٠، «الأندلس» ١٩٩٧، «ألف ليلة وليلة» ٢٠٠٢، «كان يا ما كان» ٢٠١٢.

زكي ناصيف نبع بحدّ ذاته[1] تأثّر الجميع بجملته الموسيقيّة بشكل أو بآخر. هو انعكاس شعبيّ لكلّ الحالة التراثيّة بكلّ معنى الكلمة. هو ابن الأرض والعرس والموّال والعزاء وما يمثّل ذلك الزمن من قيَم، وبالتّالي لن تستطيع الأجيال القادمة أن تأتي بزكي ناصيف آخر.

كان أوّل لقائي بزكي ناصيف عبر أخي سعيد التي تولّى مهامّ إدارة موقع قلعة بعلبك وكان مثله منتمياً إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. وأذكر الليالي اللبنانيّة الأولى في بعلبك العام ١٩٥٧ عندما تطوّعت مع حوالى ١٢ شاباً من أبناء المنطقة وأعضاء الحزب بشكل غير رسمي، لتوزيع أوراق تذكر أسماء الأغنيات التي لحّنها زكي كي يتعرّف الناس إلى أعماله، وقد كوّنت جزءاً كبيراً من البرنامج. أسعدت زكي هذه المبادرة وقرّبتني إليه.

تفرغتُ للعمل الفنّي بعد الحصول على بطولة لبنان والدول العربيّة في رياضة القفز العالي، واشتركت مع الفرقة الشعبيّة اللبنانيّة (الأخوين رحباني) إلى أن قمت بتأسيس فرقة كركلا. رحّب زكي بدعوتي للتعاون الفنّي خصوصاً بعدما أُستُبعد عن المهرجانات رغم أنّه رائد العمل الفلكلوريّ في لبنان، وكانت فرصة مناسبة له ليعود مجدّداً بزخم إلى العمل الفلكلوري الذي أحبّه وشغف به.

تخلّلت السنوات الأولى من عملنا المشترك بعض التباينات في وجهة النظر حول منهجيّة العمل التي كنت أسعى إليها ومحورها الرقص بالدرجة الأولى ومن ثمّ الموسيقى والغناء، إلى أن أخذت الأمور مداها الرّحب في العمل الثالث وهو «طلقة النوْر». فكنت أرغب أن أتخطّى ذاتي في كلّ عمل وأبحث عن آفاق جديدة في المواضيع والألحان والتوزيع الموسيقي. أصبح زكي أكثر حماسةً وانفتاحاً للتجديد في تعامله مع الفلكلور، وعاش حالة فنيّة متجدّدة لأنّ الفنّ تجربة. كان هو بحاجة إلى مَن يستطيع احتضان هذه التجربة ولوضعها على نار حامية بحيث يصبح بمقدوره أن يشهد على تنفيذ أعماله وتطوّرها.

تبنّى زكي مشروع كركلا وكان همّه أن ينجح هذا المشروع ويكمل مسيرته، وخلال ١٨ سنة من العمل المشترك لم يطلب منّي أيّ بدل مادّيّ رغم صعوبة وضعه المادّي. قال لي أنا سأعمل والمطلوب منك فقط النجاح. ولا بد من الإشارة إلى أنّ زكي كان هو مسؤولاً عن حالة كركلا، وكان أحد دعائم نجاحها. وتلك المراحل هي من أسعد المحطّات في حياتي، وقد تكلّلت بوجود زكي الداعم لأعمالي. في العام ٢٠٠٠، تغيّر أسلوب فرقة كركلا ولغتها الفنّيّة، وانتقلنا إلى مرحلة جديدة من العمل الفنّي.

زرتُ زكي في المستشفى قبل أسبوع من رحيله. شعرت بأنّ هذا اللقاء قد يكون الأخير، فرقصت له «عالعميّم عالعمام» أمام سريره، وقبّلت يديه. لم تفارق الضحكة وجهه ولم يتكلم إلّا دعاءً بالتوفيق. لا أنسى هذه اللحظات. لولا هذا الإنسان قد لا يكون كركلا مثلما كان وأصبح الآن.

كنا نعمل معاً بشكل مكثّف خلال كافّة مراحل إعداد العمل، يتخلّلها «خناقات» نحو إيجاد المُنشَد في الجمال الفنّي. يفتّش زكي عموماً على الفرح بواسطة الفنّ، وكان يُحبّ حضور عروض الافتتاح فيغمره شعور عارم بالسعادة لنجاح العمل. كما كانت له مكانة خاصّة عند أعضاء الفرقة كلّهم.

يرى الخطوات قبل الموسيقى

نبدأ التحضيرات بشرح القصّة وتطوّر خطوط الفكرة الرئيسة للعرض. كنت أدرس السيناريو وأخصّص

١ هذه مقتطفات من مقابلة أجراها أكرم الريّس مع عبد الحليم كركلا في مسرح كركلا، سنتر إيفوار، ٩ نيسان ٢٠١٦. شارك زكي ناصيف في الاعمال التالية لفرقة كركلا: اليوم، بكرا، مبارح (١٩٧٢)، غرائب العجائب وعجائب الغرائب (١٩٧٤)، الخيام السود (١٩٧٨)، طلقة النور (١٩٨٠)، حكاية كل زمان (١٩٨٢)، أصداء (١٩٨٥)، حلم ليلة شرق (١٩٩٠).

الحالات الشعبيّة والتراثيّة فيه لزكي وأعطي بقيّة الفقرات لملحّنين آخرين، كلٌّ حسب مجاله، ممّا أوجد منافسة فنيّة إيجابيّة لصالح العمل. وكنت أزوّد زكي بمجموعة من الألحان التراثيّة التي حصلت عليها عبر رحلات ميدانيّة، وقد أسّست إلى جانب الفرقة مركز أبحاث تراثيّاً يهدف إلى جمع العادات والتقاليد، والأزياء والألحان من كافّة أنحاء الدّول العربيّة. تشعر بأنّ زكي عرف ماهيّة هذه الألحان فور سماعها، فهو كالإسفنج في تفاعله مع الموسيقى.

يقيم زكي في استديو التدريب في المرحلة التالية، فيرى خطوات الرقص قبل أن يبدأ بالعمل على الموسيقى، ويدوّن ملاحظته حول كلّ حركة، فهو يكتب خصيصاً للرقص. هنا تتفتّح أفكاره، ويترجم ثيمات الألحان التراثيّة بناءً على جمل ايقاعيّة توائم إيقاع حركة الجسد وسرعتها. كنت أنطلق دائماً في نقاشاتي معه في تفاصيل كلّ كلمة أو فكرة من منظور الرقص، ويستلهم منّي الطاقة والإيقاع ويستكمله، فتأتي الموسيقى متزاوجة حركيّاً، وبصريّاً، وسمعيّاً. وعندما «يفقّش» في أصابيعه أعرف أنّه أنجز فقرة موسيقيّة جميلة.

كان يعدّل في الألحان التراثيّة أحياناً ويقوم بتوزيعها وينظم كلام جديد لها أحياناً أخرى بالتوازي مع السيناريو وتصميم خطوات الرقص، كما كان يشارك بمقطوعات من تلحينه. وقد دخلت في نقاش صاخب مع زكي بخصوص الآلات الموسيقيّة كان حصيلته أن استبعدنا آلة الأكورديون التي أحبّها، وآلة الدربكّة، وهي ذات أصل تركي، واستبدلنا بها الطبل الذي يستعمله البدو والدفوف الإيرانيّة.

زكي كان مغرماً بصوته، وفي كلّ عمل كنت أتشوّق لاختيار أغنية أو أكثر يؤدّيها بصوته. أرى الفرح يغمر قلبه وأشعر بإحساسه بالشموخ عندما أراقبه خلال غنائه. وقد ألحّ زكي منذ العمل الأوّل على أن يشارك أعضاء الفرقة بالغناء. وقبل المباشرة في تسجيل الموسيقى مع مهندس الصوت فريد أبو الخير، تتصاعد النقاشات من جديد لأنّني أُصرّ على حذف المقاطع التي لا تخدم الرقص. كذلك كان الأمر مع توفيق الباشا ومارسيل خليفة. لا أعرف تماماً لماذا تعشق الأذن الترداد، بينما ترفضه العين. فالأغنية تزداد حلاوة كلّما نستعيدها، في الوقت الذي يؤدّي التكرار في حركات الرقص إلى الرتابة والملل. أسعى دائماً إلى أن تدخل العين إلى الأذن، وأن تمشي أمامها وليس العكس.

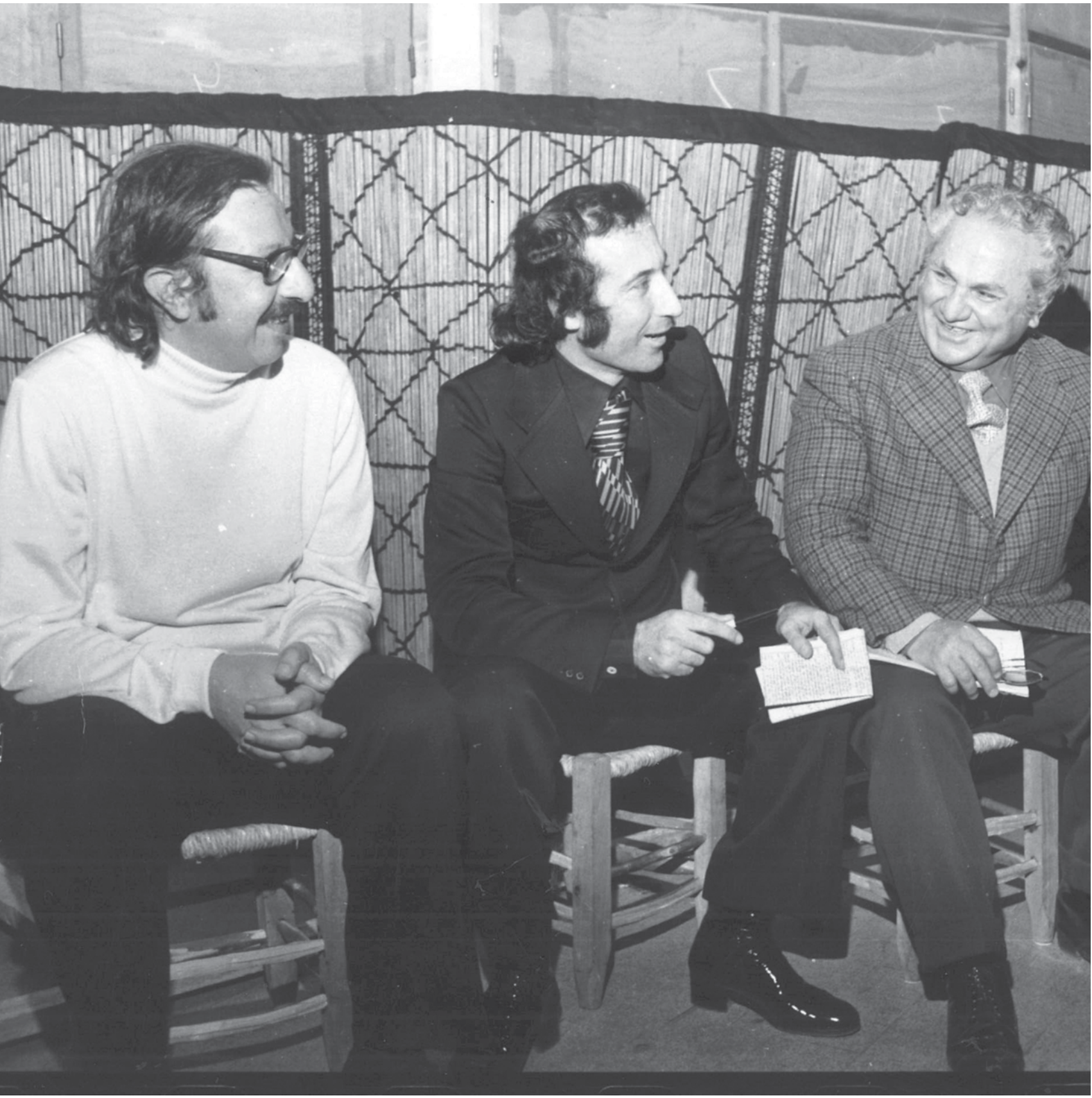

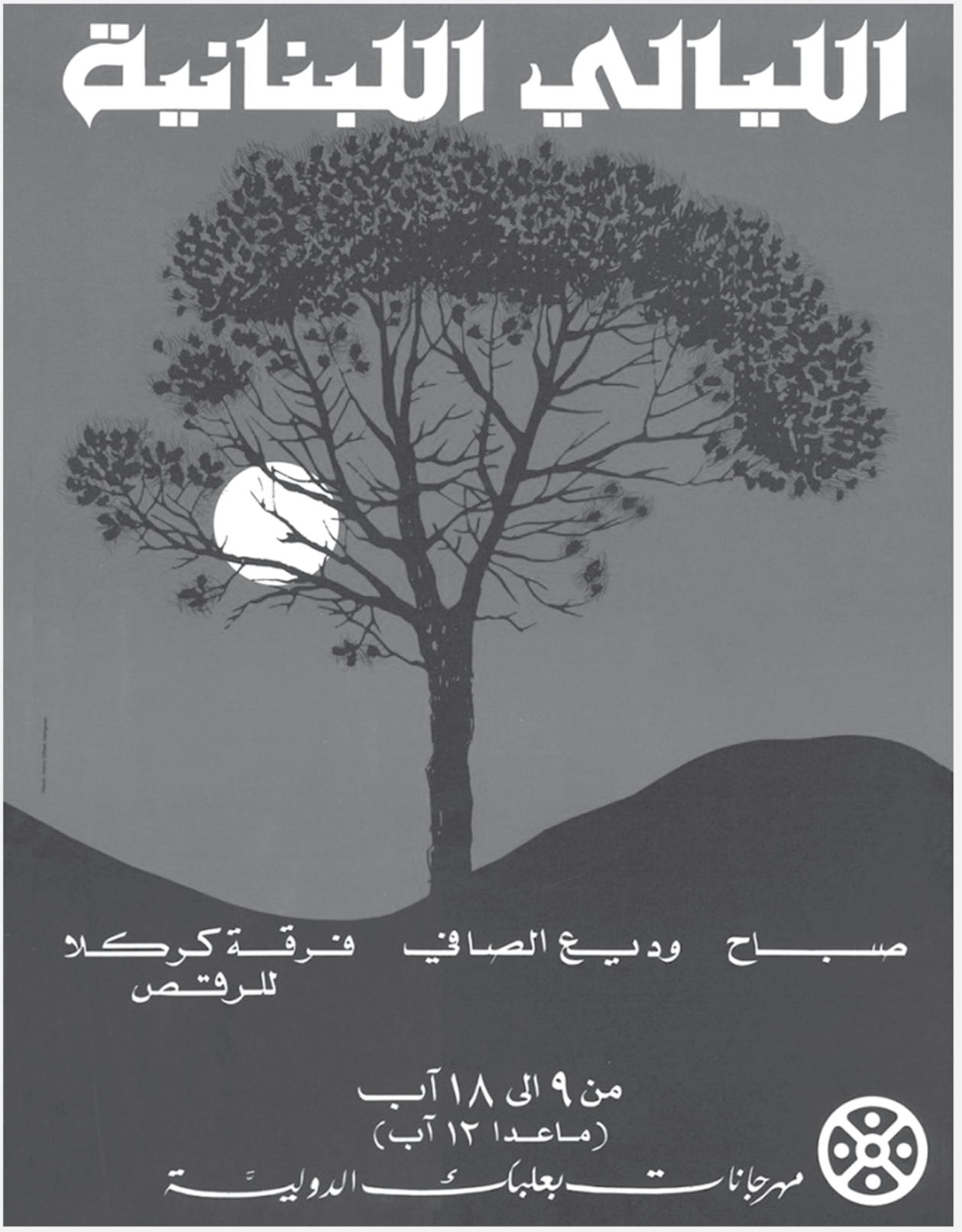

❖
ملصق حفلة «الليالي اللبنانية»، مهرجان بعلبك (١٩٧٤)

❖
أسطوانة «اليوم، بكرا مبارح»، التعاون الاول بين كركلا وزكي ناصيف (١٩٧٢)

فرقة كركلا للرقص ـ لبنان
CARACALLA DANCE COMPANY OF LEBANON
in في
TO-DAY امبارح TOMORROW بكرا YESTERDAY اليوم

توزيع المجلة

الاردن وكالة التوزيع الاردنية، عمان
تونس الشركة التونسية للتوزيع، تونس
فلسطين دار الايام للطباعة والتوزيع والنشر
العراق مكتبة منشورات المتوسط، بغداد
الكويت الشركة المتحدة للتوزيع، الكويت
المغرب الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء
اليمن مكتبة ابو ذر الغفاري، صنعاء
مصر مؤسسة اخبار اليوم، القاهرة
فرنسا مكتبة معهد العالم العربي، باريس
إنكلترا مكتبة السّاقي، لندن
لبنان شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات

بيروت:
— مكتبات: مكتبات انطوان (الاشرفية، الحمرا، فردان، الاسواق، سن الفيل، ABC)، ABC Virgin (الاشرفية، الدورة)، مكتبة الشرقية، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة انترناشيونال (جفينور)، مكتبة البرج (وسط البلد)، دواوين (الجمّيزة)، النديم (الظريف)
— اكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)
المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين) ، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة انطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية) فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)، مكتبة جبل عامل (عيثرون)

الاشتراكات

لبنان	افراد ٥٠$	مؤسسات ١٠٠$
البلدان العربية	افراد ٨٠$	مؤسسات ١٥٠$
الإتحاد الاوروبي	افراد ٧٥$	مؤسسات ٢٠٠$
باقي البلدان	افراد ١٠٠$	مؤسسات ٣٠٠$

Bidayat SARL
Banque Libano-Française
Agence Gefinor - Beirut - Lebanon
IBAN: LB860010000000017101842001840
SWIFT: BLFSLBBX
Account: 017101842001840

صندوق بريد ١٣/٥٧٤٨
شوران - بيروت - لبنان

info@bidayatmag.com
www.bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

الحقوق

- رالف نادر يتحدث إلى صحافي بعد محاضرة له في جامعة كاليفورنيا، أيلول \ سبتمبر ٢٠٠٨، ص. ١٧
- متظاهر في واشنطن في خلال حفل تنصيب جورج بوش الإبن رئيساً للولايات المتحدة الأميركية في ولايته الثانية، ص. ٢٠ - ٢١
- مهرجان انتخابي لبيرني ساندرز قرب مدينة دالاس، شباط \فبراير ٢٠١٦، ص. ٢٥
- الرئيس المصري جمال عبدالناصر اثناء زيارته لليمن في ٢٤ نيسان \ ابريل ١٩٦٤، ص. ٦٧
- الرئيس عبد الله السلال والدكتور البيضاني مع امين نعمان وسنان أبو لحوم وعبدالله الضبي ومحمد الفسيل واحمد المروني امام القصر الجمهوري، ص. ٧٠ - ٧١
- فندق هلال عدن، ١٩٩٤، ص. ٧٧
- مدينة سيئون في حضرموت، ١٩٥٥، ص. ٧٨ - ٧٩
- السلطان غالب في اللباس الرسمي، ص. ٨٣
- منزل لبناني تقليدي في رشميا من موقع، ص. ٨٩
http://lilibeyrouthine.blogspot.com
- ساحة رياض الصلح، ستينات القرن الماضي، ص. ٩٢ - ٩٣
- صورة نشرتها «السفير» في كتاب عن يوميات الاجتياح الإسرائيلي وحصار بيروت في العام ١٩٨٢: تمثال حبيب أبي شهلا وقد طار عن قاعدته في «الأونيسكو» وانغرز في رأسه عامود حديدي، ص. ٩٤ - ٩٥
- قصف على المناطق الفلسطينية، بيروت ١٩٨٢، المصور رولان نوفو، ص. ٩٨ - ٩٩
- تدمير مبنى فتال، معقل الميليشيات المسيحية في بيروت في خلال الحرب الأهلية، ١٩٩٤ (رويترز)، ص. ١٠٠ - ١٠١
- سوق الذهب في بيروت، ص. ١٠٤ - ١٠٥
- منطقة الصيفي فيلادج، بيروت. مشروع للمعماري والمصمم بابكين بويادجيان. من موقعه على الإنترنت http://papkenb.com، ص. ١٠٦ - ١٠٧
- من كتاب «إعادة إعمار وسط المدينة: أعمال الهدم. أطلاس لبنان»، إيريك فرداي، غالب فاعور، سيباستيان فيلو، ص. ١٠٩
- عين المريسة، بيروت، لبنان، ١٨٩٠، ص. ١١٢ - ١١٣
- الزيتونة، بيروت، لبنان، ص. ١١٤ - ١١٥
- بطاقة بريدية عن شاطئ الرملة البيضاء في بيروت، ص. ١١٨ - ١١٩
- بائع كعك في البحر في العام ١٩٩٨ (أرشيف «السفير» علي علوش)، ص. ١٢٠ - ١٢١
- «مسار محمود درويش»، رام الله، ٢٠٠٩، سلسلة مطبوعة على شاشة حرير، ارنست بينيون، ص. ١٢٨ - ١٢٩
- رسم «الصحرا» قصدية لأمل دنقل، دوما، آذار \ مارس ٢٠١٤، ص. ١٣٠ - ١٣١
- Missing، ص. ١٣٢
- Missing، ص. ١٣٣
- الجمعة الأسود في ٨ أيلول \ سبتمبر ١٩٧٨، طهران خلال الثورة الإسلامية، ص. ١٣٨ - ١٣٩
- آية الله محمود طالقاني، ص. ١٤٣
- أول صلاة جمعة في طهران بعد الثورة يؤمها آية الله طالقاني، ص. ١٤٦
- لقطة جانبية للبوابة الأساسية لمسجد الأزهر، ص.١٩٣
- من أرشيف كركلا، من الشمال: جان بيار دوليفر، عبد الحليم كركلا، زكي ناصيف، بيرت ستيمل (الخيام السود، ١٩٧٨) ص. ٢٢٠ - ٢٢١

إن الخط المستخدم في الشبابيك من تصميم جويل حداد، Jeem.

حاولنا جهدنا العثور على اصحاب حقوق النشر والتصوير المنشورة. الرجاء ممن أغفل إسمه الاتصال بنا.